بسم الله الرحمن الرحيم

شـــؤون صغـيرة

فيصل العلي

شؤون صغيرة

نصوصٌ صغيرةٌ من حياةِ غريب

دارُ الفِكْرِ
دارُ الفِكْرِ المعَاصِر

وفاء واستمرار عطاء

1444هـ دار الفكر 2023م

شـؤون صغـيرة

تأليف : فيصـل العـلي

الرقم الاصطلاحي: 2644.011

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-36-406-9

الرقم الموضوعي : 814 (المقالة والخاطرة)

512 ص، 17x24 سم

الطبعة الأولى : 1444هـ =2023 م

©جميع الحقوق محفوظة

آفاق معرفة متجددة

دارُ الفِكرِ دارُ الفِكرِ المعاصر

info@darfikr.net www.darfikr.com

إليك أيها القارئ

الكتابة هي عالمنا الداخلي، الذي نعيد ترتيبَهُ على الورق، فيا مَن ستقرأ حروفي؛ تمهّلْ، أمامكَ جزء مني، والجزء الآخر أعجز عن صياغته.

ولا شيء يطوق عنقي كمن يناجي حرفي في محراب قلبه، فسبحان من يمزج أمشاج القلوب عبر هذا الفضاء بلا لقاء، كل من يقرؤني فأنا على رحمٍ معه، لأن الحرف رحم بين أهله.

فيصل العلي

إلى برعمي الصغير [لين] في عيد ميلادها الثاني

أهديكِ حرفي كي تكوني، معنىً لعمْري بعد حينِ

يا (لينتي) البيضاءَ في زمنِ التّشتّتِ والسجونِ

يا شهقةَ الضوءِ البريءِ أنارَ من ظُلَمٍ، عيوني

ألنا غدٌ في قادمٍ؟ أم قالتِ الأقدارُ: بيني؟

فإذا تعزّزَ جرحُنا، عودي لحرفي؛ تعرفيني

إلى أساتذتي؛ عدنان في الابتدائية، وخولة في الإعدادية، وشهيد – رحمه الله – في الثانوية.

إلى غرباء القرى، طلابِها، وفيهم أصدقائي؛ غرباء السنين الأولى، رفقاء القلب والدّرب، والألم والقلمَ، وقد تهمّشوا الآن – كسوريّتهم – على هوامش الخرائط المُتناحرة، فلا وطن يضمهم إلا ذاكرة مجهدة بالشوق والحنين.

المحتوى

المقدمة 9
الفصل الأول: روحٌ من أمر الطين 15
الفصل الثاني: رسائلُ إلى ماويّة عبر المضيق 111
الفصل الثالث: معانٍ في الأنوثة 129
الفصل الرابع: شواطئ في الأدب والكتابة والكتب 195
الفصل الخامس: أدب الليل وثقافته 287
الفصل السادس: حياةٌ في الأفلام والأغاني 301
الفصل السابع: معانٍ في رحاب التجربة الإنسانية 349
النهاية.. 491
فهرس مفصل 493

المقدمة

يخشع قلبي كلما قرأت حروفاً مكتوبة بألم الحياة الحقيقي، بالتعب المضني، بالحزن السحيق، والدموع الخفية، ولا أخطئ صدقها، لأنها ليست افتعالاً لفظياً براقاً يتقنه كل بهلوان، بل هي حقيقة القلب يوم يطفح مرارة فلا يقوى على كبته.

هذه الكتابة خطرة عندما تصدق، لأنها تكشف ظهرك للعيون البصيرة، لتتسلل إلى مسام حقيقتك، فتتعرى جروحك، وتصبح في مرمى الضوء. ما أحوجك حينها إلى عين خبيرة، تقرأ حقيقتك بعين الرحمة لا الظُّلمة، فتصل إلى عمقك البريء الذي غام خلف أخطاء كثيرة، وصرخاتٍ صلدة شغبتْ عليه، فلم يعد في سعة القلب أن يحتمل النفوس الغاشمة أو النزقة، إنه يتماسك على بقية من أنفاسه ليرسو بهدوء إلى شاطئٍ بعيدٍ ويلقي نظراته الأخيرة على الوجود.

وأطمع أن يكون هذا الكتاب الغريب من ذلك المقام العالي، الذي يعلو بك، فلا تندم على التحليق به ومعه، فتجد لنفسك معنًى فيه، وأجيز لنفسي أن أستهدي بقاعدتنا المعرفية الأصيلة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»؛ إذ لم يكن هدفي هنا أن أسرد لك أحداثاً من حياتي، أو أعرفك بأسماء فيها، وكأنني بلغت منها ما بلغه العظماء! الذين أثاروا الحياة والأحياء، فكانوا سراجاً منيراً، فحقّ لهم أن يكتبوا سيرهم الذاتية بكل تفاصيلها.

لا، أنا أعقل من أن أحرج نفسي بادِّعاءٍ فجٍّ كهذا أو أتورط فيه، ولكن لكل تجربة شخصية مهما بدت ذاتيةً بسيطة، أبعاد إنسانية وظلال، قد تلمس خلقاً كثيراً فيجدون فيها معنىً لذواتهم، أو فسحة من جمال أو خيال، وهاهنا أنا، وهذه كلماتي، تحسبها شتى، وقلوبها جميعاً، هي نفسي، نَبَضَتْها في كبَد هذه الحياة، ألقيها في مرمى الضوء بما استطعته من قوة العربية، وقوة روحي، وقد حاولت أن أستبعد كل نص هو للفكر المحض أقرب، وفاءً للروح الأدبية التي أتوخّاها في هذا الكتاب.

كتبتُ معظمها في هذا العقد الأخير (2011-2020)، لكنها نطقتْ بكثير عن عقود حياتي الأربعة، وقد اجتهدت أن أثبت تاريخ كل نص، لكن قد ضاع مني تواريخ بعضها.

ولا أنكر أن كتابي قد يتشابه مع فنِّ السيرة الذاتية في بعض فصوله، لكنه ليس كذلك بالمعنى الحرفي أو الاحترافي، ولا أدري ما هو التصنيف الدقيق الذي يمكن أن يسِمَه، ولا يضيرني أنه كذلك، فلسنا ملزمين أن نتقيد حرفياً بقواعد الصنعة وتصنيفاتها التي أرساها من قبلنا فلا نخرج على ما قعّدوه، فليس للفنون الأدبية حدّ ما دامت هي الناطقة باسم النفس الإنسانية بكل تجلياتها.

ما يهمني أن أبيِّنه أنه ليس كتاباً مبعثراً غير مترابط، كما يخيل إليك من ظاهر فصوله، إنه سبيكة واحدة، مسبوكة بتجربة الغربة المبكرة، حملها كتف طفل غضّ جاء من أقصى الخارطة السورية يسعى إلى عمقها، ففي فصله الأول فوضى البدايات والذكريات، والحنين إليها بكل سذاجتها أو براءتها، فلكل روح نشأة ومحيط يجب أن يحفل بها قلمها، ويستجلي عبرَها.

والفقد المبكر جداً لحضن الأم والأسرة جعل للأنثى معنى أكبر في نفس الغريب، معنًى فيه أملٌ برحمة الحياة وعوضها، وقد تجلى ذلك في فصل ماويّة والأنوثة، أما فصل الكتب والكتابة والأدب فهو ضرورة حياةٍ لغريب لا يملك إلا قلمه وكتبه، بهنّ يجد المعنى ويكتبه، وليله أطول وأعمق من أي ليل يجنُّ إنساناً آخر، مما يجعل الليل موضوعاً حاضراً بقوة وله فصل خاص. أما فصل الأفلام والأغاني فهو العنوان الذي يصدح بمجد الفن ودوره في حياة الأنفس والمجتمعات، فكيف إن كانت نفساً غريبة، عارية من التأييد الذي يثبت أقدامها كما ينبغي، فالفن شكل للحياة، يرقأ نزيف الروح في هذه الطريق الموحشة، يعللها وينصب لها خيام العزاء على جنباته، ثم يأتي فصل؛ في رحاب التجربة الإنسانية، ليبسط مواقف كثيرة يمر بها ذلك الغريب في رحلته، ثم يقبضها في مقولات رشيقة مركزة (الفيصليات) تشبه حقيبة سفره الصغيرة التي اعتاد رفقتها.

وفيما يلي تفصيل أكثر عن تلك الفصول:

عُدة الكتاب ثمانية فصول؛ أولها فصل روح من أمر الطين؛ ونصوصه أكثر النصوص قرباً إلى نفسي، وإلى الحقيقة؛ حقيقة تلك الحياة الشاقة التي خطوتها بدءاً من تلك القرية النائية، حتى وصلت إلى هنا.

كتبت عن قريتي، وأهلي، وأصدقائي، عن رحلة دراستي وهواياتي البائدة، عن كثير من مشاعري المتشظية بين النفوس والأمكنة والأزمنة. ستمرُّ بك أسماء مدن، وأشخاص، وأحداث، بتفاصيل كثيرة من البساطة والسذاجة والطفولة، والتعب والجهد، والحنين والشوق، والفرح والحزن، ولعلك ستبصر الحقائق البعيدة التي تغيب خلف السطور، عن كثير من الظلم والفساد الذي أرهق حياتنا واستحيى تعبنا وجهلنا وحزننا.

وثانيها: فصل رسائل إلى ماويّة عبر المضيق[1]؛ فلن يخلوَ قلبُ رجلٍ مهما كان، من أنثى، فإن كان أديباً، كانت قدراً غلاباً لقلمه أيضاً، يتعرّفها، ويتعرف بها إلى نفسه، فتمدُّ بصيرته في هذه الحياة، فيستلهم منها ألواناً لا تحصى من المعاني. فماويّة هي الأنثى الفذة في حياتي في فضائها الخاص، وقد اخترت لها هذا الاسم، الذي فيه معنى الصفاء في المرآة والماء، فكأنني إذ وقفت أمامها، رأيت فيها صفحات ثرية من الحياة ومن نفسي، وشيئاً من العزاء، فانعكست على قلبي بهذه الرسائل، أخاطبها بها عبر هذا المضيق الغريب الذي اختنقتُ به، فما كان أحوجني إلى رشفة ضوء من معين ذلك الصفاء.

أما في فضاء الأنوثة العام، فقد كتبت الفصل الثالث: معانٍ في الأنوثة، وهو فصل من جزأين: أسماء في الأنثى، ورسائل عابرة.

ورابع الفصول وأطولها، هو فصل شواطئ في الأدب والكتابة والكتب، وهو من ثلاثة أجزاء متعالقة: على شاطئ الأدب، وعلى شاطئ الكتابة، وعلى شاطئ الكتب؛ ففي الجزء الأول، نصوص أدبية أو نقدية ذات مواضيع متنوعة، أبرز فيها أهمية الأدب في الحياة والأحياء، وعلاقة الأديب ونصه بالقرّاء، أو أتحدث عن أعمال أدبية بعينها أو أسماء.. إلخ. أما الجزء الثاني، فهو عن دور الكتابة وأهميتها في النفس والمجتمع. وفي الجزء الثالث، وقفاتٌ، وأمثلةٌ عن كتب محددة، أبسط ظلالها مبيناً ما فيها من أهمية.

أما الفصل الخامس فهو أدب الليل وثقافته، وهو لا يخرج عن روح

(1) الماوِيَّة كما في لسان العرب: المِرْآةُ، كأنها نُسِبت إلى الماءِ لصَفائها، وأن الصُّورَ تُرى فيها كما تُرى في الماء الصافي، وقيل: الماوِيَّة حَجر البِلَّوْر. وهو اسم لزوجة حاتم الطائي وله قصيدة مشهورة يخاطبها فيها.

الفصل الرابع، لكنني أفردته لما لليل من حضور كبير في حياة الغريب الوحيد، فالليل هو نهاره، تنشط فيه أوجاعه وأشواقه، فيقف لها قلمه، وفيه تشفّ نفسه، ويقترب من معانيها، ومشاعرها، وهمومها، وآلامها. إنه اللباس الإلهي الحبيب القريب(1)، الذي يزوي معاني اللباس الكثيرة من؛ زينة وجمال، ودفء، وقرب وستر ووقاية، وإحاطة وهدوء. كأنه حبيب صديق، لا تخجل منه، تبثه شكواك، وتترك دموعك تعيش طفولتها كما يحلو لها، فيصدق فيك قول أبي فراس الحمداني:

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى   وأذرفت دمعاً من خلائقه الكبر

فكم هي عميقة فلسفة الليل وثقافته!.

سادس الفصول هو حياة في الأفلام والأغاني، من جزأين؛ الأول على شاطئ الأفلام، والثاني على شاطئ الأغاني. في الأول، إبحار لما وراء قصة الفيلم، فليس الهدف سردها فهذه مهمة الفيلم نفسه، وإنما الهدف هو اقتناص المعنى العميق أو فكرته، ثم ربطها بفضاءات أخرى من الثقافة والأفكار، لتثريها وتكوثر معناها في النفس فتزيد الوعي بها. أما جزء الأغاني، فهو رحلة جمالية ذوقية أبين فيها أهمية الموسيقى في الحياة، وقوة الكلمة المغناة ومعناها في النفس إن عضدها لحن بليغ، فما هي إلا قطعة صغيرة من الحياة الكبيرة، صنعها فنان مبدع فسما بإنسانيتنا.

أما الفصل السابع، فهو معانٍ في رحاب التجربة الإنسانية؛ فهي شواطئ كثيرة متنوعة، في جوانب من النفس البشرية من؛ حب، وصداقة، ومعاملة، ووطن، وحرية... إلخ. رسوت إليها، في أزمنة وأمكنة كثيرة،

---

(1) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: 78/ 10].

أو لعلني أبحرت فلم أرسُ! سجلت فيها ما اجترحته من لؤلؤ المعاني والأفكار والمشاعر، أو لعلها مجرد أصداف خاوية، لا أدري، فالحكم إليك، ففي كل نصٍّ معنًى قد ترسو إليه، أو مثابةٌ إلى رحيل ما.

ثامن الفصول وآخرها، هو فيصليات قصيرة، والفيصليات جمل قصيرة أو فقرات صغيرة جداً، حاولت أن أجعلها مركزة، يجتمع فيها جمال الصياغة بجمال الفكرة أو المعنى، وهي على تعالق كبير بفصول الكتاب الأخرى؛ أي قد تجد فيها تكراراً لبعض الأفكار والمعاني لكن بطريقة مختصرة.

التحدي الأكبر الذي واجهته في هذا الكتاب، أو الثغرة التي أخشاها هي التكرار، لأنني لم أكتبه في زمن واحد، أو مرحلة متماسكة، ليسهل عليّ تجنب تلك الثغرة، لكنني اجتهدت أن أتجنبها وأتجنب غيرها، مستعيناً بعيون من أثق بعلمهم، وآرائهم، وذائقتهم، فشكراً لكل من أمدَّني بدعمه، ونصحه، ودعاء قلبه، ليكون كتابي.

فيصل العلي

الفصل الأول
روحٌ[1] من أمر الطين

الطين هاجرَ مذ تقاتل أهلُهُ[2]
فلمن تمدُّ القلبَ والمرجوُّ غادِرْ
فاكفرْ عناقَ الوهم إيماناً بهِ
ضاعت صلاة الروح والإيمان كافرْ
واغضضْ من الأشواق لا تمعنْ بها
فرحابُ أرض الله ضاقت بالمخافرْ
رحَلَ النهارُ ولم يزل سيابُهُ
مُغْرورقاً بعراقهِ، يشكو الخليجَ
ولا يسافر..

---

(1) كل ما أبدعه الإنسان في العلم والأدب مدين لنفخة الروح الإلهية، وهي من عالم الأمر ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 17/ 85]، فهي سرُّ الأنسنة الذي أسجد له الملائكة وجعله خلقاً آخر، وقد استوحيت عنواني لهذا الفصل من هذا التركيب القرآني، الذي أكثرُ منه في أسلوبي، أي؛ كل شيءٍ تبدعه فهو من (أمر) باعثه أو مسببه، والمثال هنا: هو هذا الفصل، فكله ظلال من ذكريات (الطين) أي من أمره، والطين يرمز عندي إلى قريتي المشيدة منه، وكل ما يتصل بها من حياة وبدايات وذكريات.

(2) كتبتُ هذا النص على هدى من قصيدة الشاعر العراقي عماد جبار يختمها بـ: وأتيت كي أحضن الطين الأخير ولا أهاجرْ.

هامش على هامش الزمان والمكان

عندما شقَّ الفجر ضوء عيوني في تلك القرية الصغيرة، النائية، تغفو على اتساعٍ من السهول الخضراء ونقاء السماء، تمتد شرايينها الفساح بين شآم وعراق، يطرزها الغروب بالحنين والصمت البعيد، كنت أنا أطير بقلبٍ كالضحى، وهمةٍ بِكْرٍ كجلد الوليد لم يمسَّه رهق الأيام بعد. كبرت بالشعر مثلما يكبر الأمل في قلبِ مشتاقٍ يعصرُهُ الفراق الطويل. كبرت بخجل ذلك الريفيّ، ونقاء سريرته، كان الحب شيئاً مقدّساً، أحلم به على انتظار، بحبيبة أطوّق عينيها بقلائد الشعر الشفيف، لذلك فقد عجلت إليه مبكراً، وأشعل قلبي وعيوني وأصابعي فاخضوضرت.

الزمان: 1994 ميلادي. المكان: بلدة وقرية نائيتان كأمل الغريب في أقصى الشمال الشرقي السوري، الذي يوشك أن يكون عراقياً لولا سايكس - بيكو، قرى طينية تمضغها الرياح والأمطار، ويثقل كاهلها الطين إذا عصف الشتاء. كانت المدرسة الإعدادية في بلدة تبعد عن القرية عشرة كيلومترات، أيُّ غربة هذه في بلدة تبعد عن قريتك عشرة كيلومترات؟ عشرة كيلومترات، لكنها أمست في دين العجز والجهل والإهمال آلافاً من الكيلومترات.

كانت الكيلومترات العشرة مرصوفة ببقايا من التراب والحصى، ويوم المطر تصبح مفاصلها بحيرات من طين وماء، وآتِني حينها بسيارة تخوض تلك البحيرات الطينية، ويا له من حلم جميل أن ترى سيارة! فقد كانت وسائل النقل قليلة، ولا أذكر كم مرةً قطعت تلك الطريق أيام العطل

على قدميّ من أَلِفه إلى يائه، أحمل كتبي صيفاً أو شتاء، وفي الشتاء كنت أحشوها ما بين جاكيتي وجسدي كي لا يبللها المطر.

كنا نخوض بحيرات الطين من عمق عمقها ولا نتجنبها، لقد خرجنا تحت المطر، واستوى كل شيء فلماذا نتقي الطين؟ فما أجملها من مغامرة تلتهم من عمرنا ثلاث ساعات كاملة حتى نصل المنزل، نعمرها بالمرح والشوق حتى الوصول.

مضت سنتان في تلك البلدة، ثم مضت أربع سنوات في مدينة تبعد مئة كليو متر عن قريتي[1]، ثم مضت عشر سنوات في دمشق التي تبعد ألف كيلو متر عن قريتي، وفي كل مدينة جديدة كنت أتحسر على الغربة التي كانت قبلها، وأشعر بحنانها وأمانها، وتضاعفت الحسرات يوم تركت سورية كلها منذ خمس سنوات، وانهار الوطن، ولم يبقَ معنى للزمن. كنا في غربتنا الصغيرة في تلك البلدة نرى قريتنا تعانق الأفق، والآن ننظر نظرة ونظرات في الآفاق فلا نرى سورية على أي أفق، فقد غيّبتها الدماء والدموع خلف الغيوب. 2015

أيلول في يوم رحيله

لم نكن أصدقاء قط، ولم يكن يعني لي شيئاً في طفولتي، لكنني بدأت أكره مجيئه لما أصبحت في سنّ المدرسة؛ لأن مجيئه كان يعني أن المدرسة قد أتت، لماذا لم نكن نحب المدرسة في طفولتنا، لا أدري؟.

هذا هو الخوف الجمعي من المدرسة أو الكره الجمعي لها، لكن لا شك

(1) البلدة هي اليعربية على الحدود السورية الشرقية مع العراق، والمدينة هي القامشلي على الحدود السورية الشمالية مع تركيا.

أن مجتمعات الجهل كانت خلواً من الأفكار والأدبيات التي تجعل الطفل في سلام نفسي مع المدرسة والتعلم عامةً، فهي ثقافة رديئة تتأسّن فيها النفوس، وتفقد خصائصها البكر، وليت الأمر وقف هنا، فما أخفَّ ضرره لو عمرت المدراس بمدرسين يهدّئون من روعك، ويزيلون أوهامك، ويشحذون طموحك، فالمدرس إما أن يكون من المنطقة نفسها، فهو لن يخرج على مألوفاتها، أو من منطقة أخرى بعيدة، لا يهمه أمرك، وقد يسرق من أيام العمل فيغيب، ليطيل أنسه بأهله، لكننا كنا محظوظين؛ نحن طلاب الصف الخامس الابتدائي من العام الدراسي (1992-1993م)، والذي يتلوه؛ إذ أكرمتنا الأقدار بأستاذٍ فذٍّ اسمه عدنان الليوا من اللاذقية، الذي أرسى قواعدنا في اللغة العربية خاصة، وفي الرياضيات، وقد كان يعطينا دروساً إضافية بعد الدوام الرسمي في الفترة المسائية بلا طلب من أهالينا! ولم يرتجِ جزاءً ولا شكوراً، إنما هو كرم النفس المبادِرة إلى الخيرات، ونبلها الشاهق الذي يعيد الثقة بهذا الإنسان، ولولا الأستاذ عدنان، لما كنت شيئاً مذكوراً في تينك المادتين الهامتين، وقد قطفت ثمار ذلك في كل مراحل تعلّمي التالية، وحتى هذه اللحظة، فسلامٌ على أستاذي عدنان في كل مكان وزمان.

لم نكن أصدقاء وأيلول، وازداد كرهي له، وإحساسي بقسوته لما أنهيت المرحلة الابتدائية؛ لأن نهايتها كانت بداية غربتي الحقيقية، كان على ابن الاثنتي عشرة سنة، أن يترك أهله، ليكمل مراحل دارسته الأخرى، فقرى الطين لم يكن فيها إلا مدارس متواضعة، وشبكة حزينة من الطرق الطينية، التي تتحول إلى بحيرات في الشتاء، على قلة من وسائل النقل، وأفكار العقل، جعلت كل طالب مجبراً أن يغترب فيستقر في بلدة تبعد عشرة كيلومترات عن قريته! في محافظة تموج سنابل القمح على سطحها، وأمواج النفط في بطنها.

كان على ذلك الطالب أن يعيد تأهيل قلبه وعزيمته في بداية كل مرحلة دراسية جديدة، ويُعِدُّه لانتزاع جديد؛ لأن كل مرحلة ستعني رحلة جديدة إلى مدينة أبعد وأكبر، ستعني ألماً وحزناً من نوع مختلف، يجعله يندم على حزنه الأول في البلدة الأولى، بل يحن إليه، ويرى كم كانت تلك البلدة سهلة، صغيرة، وقريبة بما يكفي ليرى منها قريتَه الصغيرة تعانق الأفق الأخضر البعيد، ما أفرحَ ذلك الحزن أمام الحزن الجديد!.

اتسعت عداوتنا عند كل رحلة، وكان رفاق القرى يبكون ويتساقطون الواحد تلو الآخر في ذلك الدرب الطويل العسِر، ومنَّ الله عليَّ بفضله أن وصلت.

محافظتي لم يكن فيها جامعة، كقريتي التي لم يكن فيها مدرسة إعدادية، كبلدتي التي لم يكن فيها مدرسة ثانوية بفرع علمي، وقد حرمتنا قطيعة النظامين البعثيين، في سورية والعراق آنذاك، من جامعة عريقة تبعد عن قريتي ساعة تقريباً، هي جامعة الموصل، فليس بيننا وبين العراق إلا حاجز ترابي، اخترعه جبروت البشر.

وساقتني الأقدار إلى دمشق، التي تبعد 800 كم عن قريتي، وتقترب من قلبي مجراتٍ ضوئية من الحب، وهناك قصة أخرى ورحلة أخرى. ولا أزال أذكر اليوم الذي سافرت فيه إلى دمشق، إنه يوم الإثنين عصراً، الموافق لـ: 24/ أيلول/ 2000.

أيلول مفرِّق الجماعات والأحبة، أمير الفقد والاعتصارات القلبية، لقد نسيت إيلامه الماضي بعد أن غادرت سورية كلها؛ لأن كل الشهور قد استوت عندي بعد ذلك على نطع الغيب والغياب، لكنه لم يكتفِ بمآتمه القديمة، وها هو ذا في يومه الأخير 30 أيلول/ 2013، يعيدها أقسى من ذي قبل في فزع قريتي ليلاً تحت القصف وتشرد أهلها.

إنني لم أقرأ ماذا دار في قلب (ت. إس. إليوت) لما كتب قصيدته الشهيرة (الأرض اليباب)، حين بدأها قائلاً: نيسان أقسى الشهور، لكنني أشعر به الآن، ولطالما فهمت وأفهم قول بدر شاكر السياب: أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطر؟. ولا أحتاج أن أسأل نزاراً لماذا قال:

أتى أيلول أماه،

وجاء الحزن يحمل لي هداياهُ،

و يترك عند نافذتي مدامعهُ وشكواهُ

فماذا سأقوال أنا الآن: أيلول أقسى الشهور، أو أتعلمين أي حزن يبعث أيلول؟

طفل ووحل

ينبت الأطفال في أرياف الجزيرة السورية، كزروع القمح، يبذرها ربّها، ثم يتركها في عهدة المطر النازل من السماء، فإن نزل، حصد خيراً وافراً، وإن كان غير ذلك، أطبق الجدب عليه وعلى مواشيه، واصفرت الأرض والنفوس.

وهكذا الأطفال، يستقبلون أقدارهم في أُسر تستدير بها آفاق الأُمية الأبجدية والثقافية والدينية، استدارة الحزن في قلبٍ كفَّن خليلَه في ليلة ظلماء، تبرق فيها بعض مآثر الفطرة والأخلاق الطيبة في أولئك العابرين في ذاكرة الحياة الهادرة.

ماذا سيجد الطفل من متع الحياة إلا نعمة التغبر بالتراب، أو الفروسية على صهوات الحمير، أو جلسة بريئة أمام تلفاز أحمر بلونين، صغيرٍ كقلب مشاهديه، تفيض شاشته بأحزان جورجي، وسالي، وأوسكار، وريمي أو الفتى النبيل، حتى أفلام الكرتون في ذلك الزمان كانت تصنع حزنه على قَدَر، لكنه كان سعيداً، وأكبر فجائعه أن تفاجئه أوبة الأغنام مع العصر،

فتحرمه من مشاهدة أفلام الكرتون. ولأفلام الكرتون قصة طويلة، لا أريد أن أعيشها الآن، فغايتي اليوم أن أتحدث عن صديقي: الوحل أو الطين، وله علاقة لا تفتر بأفلام كرتون.

كان الوحل منجم سعادة سحيقة لي، فما إن تلتهب شمس الظهيرة، وتظلم العيون في كنف القيلولة، حتى نهرع إلى الطين المتاخم للصنبور في ساحة المنزل الشاسعة، وإن لم نجده، سكبنا الماء وأعددنا عجينة يومنا منه، ونقلناها إلى رصيف المنزل العامر بالظلال، وكانت منتجاتنا من التصنيع الطيني، تتبع سوق الكرتون حذو القذة بالقذة؛ إذ تصنع أيدينا ما تمتلئ به نفوسنا، فإن كانت ممتلئة بمغامرات الفضاء — في غاوجرنديزر، صنعنا الوحوش، وإن كان عصر فتاة المراعي، صنعنا الأغنام أو الأبقار، وإن كان نيلز، صنعنا الطيور، وقد كنت ماهراً في صنعها، ويوم درست طب الأسنان، بُعثت موهبتي هذه من جديد في مادة رسم ونحت الأسنان؛ إذ كنا ننحت الأسنان بالصابون، ومرة صنعت ناباً ضخماً من صابونة بيضاء، راعَ منظره جارتنا البسيطة، فظنّته ناب حيوان مفترس ضخم، لأنها أول مرة ترى ناباً عملاقاً كهذا، فقالت بتلقائية: (عوذة هذا سن شنو!).

ولنستدر مرة أخرى إلى طفولتي المغبرة، إذ هيهات أن تطيب الحياة، لقد بلتنا الأقدر يومها بأحد أقاربنا، الذي يضربنا على الوحل، وكنا نختبئ في الكهوف البعيدة (بيوت الغنم) لننعم بالأمان مع وحلنا! كان إن ظفر بأحدنا ضربه كأنه صانع أصنامٍ، ووراثةً عن آزر! كان كالكابوس الثقيل، نترقب سيارته على تخوف، وكم نسعد عندما نراه يخرج من القرية. لربما لو كنت ابن مدينة مضيئة لاشترى لي أهلي الطين الملوّن، وتعهدوا تلك الموهبة الجميلة بالتربية والنماء، التي أصبحت أثراً بعد عين، ولم يبقَ لي إلا ذكرياتي مع الطين.

14 مايو 2015

في كل خميس

في قرى الحسكة الصغيرة الكثيرة، المبعثرة كأحلام مراهقٍ على هامش الزمان والمكان السوريّين، تتراخى الحياة ويهدأ نبضها، وتتمرّخ[1] كالفاتنة المِكسال في ضوء الضحى، تعمرها أواصر رحمٍ أصيلة تشد كيان الناس إلى حضن الطبيعة؛ ضوئها وقمرها ونجومها، مائها وهوائها، نباتاتها وحيواناتها وغذائها. وتشمخ بيوتهم، لبناتٍ من طين الأرض، لكأنها تعزز - مثل أهلها - انتماءها إلى الطبيعة ومكوّناتها.

هذا الاندماج الفطري مع الكون سرّ سعادة سحيق لا يعي عمق فجه إلا من كوّمت قلبه وجسده وخياله سجون البيوت الإسمنتية الحديثة في المدن العملاقة العامرة بالصحراء والجفاء، لا تعرف ضوءاً باسماً، أو نسمة حنونة، أو مشهداً حياً تستجم به الروح، لا شيء إلا ما أنتجته قوة الإنسان وسطوته.

في ذلك الريف الجميل الوادع، الغني بكل ملامح البدايات، الفقير بالخدمات، تنتزع رحلة الدراسة كل شابٍّ يسّر له القدر طريقاً إلى نهايتها البعيدة، فما إن يتم الطفل دراسته الابتدائية حتى يهصر قلبه فراقٌ متجدد لن ينغِّصَ سيره إلا بضعُ إجازات قصيرة على خط الزمن الطويـــــل، المتدفق إلى ذيّاك المستقبل المجلل بالغيوب، إجازات كقطرات ماءٍ تنزل، كإكسير حياة على قلب ظامئ، متشقق من رمضاء الشوق إلى كل زاوية اختبأ بها، أو

(1) يتمرّخ في لهجة أهل الجزيرة السورية، بمعنى يمط ذراعيه وعضلات جسمه (Stretching)، كما يحدث عند الاستيقاظ، وفي معجم مقاييس اللغة معنى قريب من هذا؛ مرخ: كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على تليينٍ في شيء. وأمْرَخْتُ العجينَ: أكثرتُ ماءَه حتى يسترخيَ. فكأن التمرخ يليّن العضلات ويجعلها تسترخي.

درب تعثر فيه، أو طين لعب به، أو زرع ذرعَ خضراءَه في الربيع، أو صفراءه في الصيف، في مشاهد من مرح الطيور وانهماك الأغنام في الرعي، إجازات يحملها إلينا كل خميس، ليصير الخميس بريد اللقاء الجميل، وحادي العودة إلى الأهل، وحضن القلوب المتصدعة.

رحل الزمان، وشطّت بنا الأمكنة البعيدة وراء الحدود العالية، ولم يعد يقوى الخميس على جبر الجسد المهشم، تتقاسمه الخرائط المتباغضة. إلا أنني في كل خميس - على تباعد الأمكنة وتعسر العود - تغشاني فرحة صامتة، وأمان غامض، لعله بعض عزاء باقٍ من مآثر تلك الحياة الطيبة التي لن نستعيدها إلا في محافل التأبين، وزادنا قلب مشتاق وحرف أمين، وسيبقى في كل خميس، أنيس في هذا الزمن التعس. 11 أكتوبر 2017

في شهور الخريف

في شهور الخريف تشعر أن كل شيء مصفر في القرية، ينجرد وجه الأرض في حقول الحنطة المحصودة عن ترابه البني، كوجه حسناء شاخت فجأة، فلا تبقى إلا أعواد أنهكها مرّ الأيام والأقدام ورعي المواشي، تنبئك بماضٍ كان أغنية تشدو بها الحياة المرحة الفتية.

يبدأ برد تشارين بشاراتٍ بين يدي الشتاء، فينكفئ الناس إلى معاطفهم القديمة، وتشحب وجوههم شحوب السماء التي تظلّهم، إنها شهور التفرق والرحيل، يرحل الطلاب إلى المدن البعيدة ليستأنفوا دراستهم، ويرحل بعض الناس بمواشيهم بعد أن تلاشت مراتع الرعي، ويرحل آخرون إلى رزق مُؤمَّل في مكان ما.

ضوء النهار كئيب على هدوء بعد أن خلا المكان، وعسعس الفراغ فيه،

يمرُّ كسلان على بقية من عجوز تفترش بقعةً أمام دارها، يمرُّ بها الناس بسلام عابر كما مرها الزمان، فانكمشت ملامحها كانكماش البقعة التي وسعتها، فليس لها إلا أمتار من المكان والزمان والأحداث.

ترى الجرارات على الآفاق البعيدة تثير الأرض، إنه وقت البذار والأمل، أن تثق وتأمل أن لغرسك مستقبلاً واعداً ستناله بعد حين فتعمل له منذ الآن. لا عمل دون أمل، هكذا تعلمنا الأرض.

وفي رحلة الطلاب بذار آخر وأمل آخر. في الليل وحشة باردة، يكسرها بعض الباحثين عن قطرات من الإنس في ذلك المدى الخالي، وليس في القرية أجمل من تلك المجالس التي تلملم شعث المتفرقين في مسارب النهار وأشغاله، فيتجمعون على الحديث عنها، أو عن قصص من زمان غابر شيدتها الحقائق أو الأساطير.

لا أزال أذكر بعض الرواة الذين لو أتيح لهم سبيل إلى مسك القلم لكان لهم في عالم القصة والرواية شأن كبير. كنت أعجب من قدرة بعضهم على إدراة الكلام وتصوير المعاني والأحداث وخلق الإثارة، وكم من موهبة في تلك الأرياف البعيدة طوتها الظروف القاسية أو الفقيرة، فبقيت ملامحها شاخصة تنبئ بمجد عظيم لم ينل حظه.

الظروف والمجتمعات للمواهب كشروط الحياة للأحياء، تخلق اهتماماتها وتوجهها وتنميها لتبلغ أشدها، فإن انعدمت أو شحّت جاء نباتها بلا ثمر، ولو صدعت الأقدار بما في جوفها لأذهلتنا عن أناس كان يمكن أن يكونوا من العظام لكنهم ناموا عن ممكناتهم، أو جهلوا بها، أو عجزوا، وأظن أن لكل واحد منا وقفة هناك، يصحبه الله في رحلة افتراضية في جوف الغيب يقول له: قد كان في احتمالات أقدارك أن تكون كذا أو كذا، لكنك

جهلت ثروتك أو لم تعمل لها، ولكل واحد حسبة دقيقة منصفة تراعي ظرفه وتحصي ما قدم وأخّر.. سلامي إلى قريتي البعيدة الجاثمة على هامش الزمان والأحداث. 21 نوفمبر 2017.

حياة من الألوان

الحياة الطيبة، السوية، الحقّة، هي الوصال مع الطبيعة، هذا هو الناموس البدهي، فنحن جزء منها نحمل في أجسادنا مكوناتها، ونتشارك نحن وأحياؤها من نبات وحيوان، ماءها وهواءها، خرجنا منها أول مرة، لكننا - بما وُهبنا من خيار وإرادة وتركيب وصراع - صنعنا حياة معاصرة صناعية، عزلتْنا عن كل شيء حي، فاستمتعنا ببؤسنا الجديد، وصرنا نحتال على سجننا الجديد، ببضع ممارسات صحية لعلنا نعود إلى شيء يشبه الحياة الطبيعيَّة! كان اللون الأخضر عنوان قريتي في الربيع، يفترش فيحاءها فلا يطاوله نظر، تتولى كبره حقول القمح، فإن استحصدتْ في الصيف وحُصدت، انكشف وجه الأرض عن لون أبيض هادئ أقرب إلى الصفرة، هو لون سوق السنابل، التي صارت قشّاً، تنعم به الحيوانات المجترة. وأنت على موعد يومي لا يتخلف مع شروق أو غروب، تلسعك صلافة الضحى، وتهدأ نفسك على وقار الغروب، تتناثر حمرته البرتقالية جهة الغرب بكل معاني الجمال والإلهامات. أما اللون الأزرق الفاتح جداً، فأمّهُ سماء شاسعة ذات غيوم بيضاء ثلجية، بليغة في النفس، لا يحجبها تطاول في البنيان، أو مكثٌ طويل خلف الجدران، فالبيت الريفي، كبير النوافذ، مفتوح إلى الفضاء كحضن يمدُّ ذراعيه، منتظراً مَن يأوي إليه، والبيوت قليلة، وضئيلة، تخشع تحت جبروت تلك السماء لتنعم برحب الفضاء، وحرية الهواء، فالمسافات أمامك ممتدة،

يتنادى الناس من بعيد، وقد تسمع صوت قهقهة ليلاً من طرف القرية الثاني، ولعل عطسة من بعيد تطير بك! لأن الهواء نمّها إليك! لذا فالريفي منا، ذو طبقة صوت عالية، وقد يصل صوته وهو يتكلم في الهاتف إلى جاره البعيد، ولتعلمْ أن الجوار هنا ليس كالمدن، فالبيوت متباعدة لا تتلاصق، قد يظن الجاهل بنا أننا غضاب إذا تحدثنا! وقد جاهدت نفسي مراراً، ولا أزال، لأهذب ذلك العلو الصوتي غير المطلوب بعد أن سكنت المدينة. ننام في الصيف على سرير حديدي عالٍ في الهواء الطلق، مرصوف بألواح خشبية ضخمة، وله سلم صغير لترتقي إليه، لا تظلك إلا السماء المرصعة بالنجوم، تراها تتلألأ في شاهق الكون المظلم، وَلَكَمْ تحدثك نفسك بأحاديثها الحالمة وأنت تسامر تلك النجوم، وقمرها المنير. أما الهواء العذب فيهب ليلاً ودوماً من جهة الغرب، وفيه أشعار وأغانٍ: هوى الغربي، يتهادى بلطف بالغ، فينعش الصدر، كسحر فتاة حيية، يحار الضوء بين جفنيها.

وإحدى خساراتي المفجعة في هذه الغربة الطويلة، خسارة تلك النومة الصيفية التي تجعلني على رحم بالطبيعة، فلا أصحو إلا على لسع شمس الضحى. ولا يزال مشهد ملون يعمر خيالي، مشهد بيوتات القرية قبيل الغروب أراها من هضاب مجاورة، أرعى فيها أغنامي، مشهد تلك الأَسِرّة الملونة، عندما تنقل إليها الفرش، وتُبنى عليها (الناموسيات)، الزرقاء والبيضاء والوردية، ويُرش فناء البيت كله بالماء، لتثبيت التراب فلا يعلو غباره إن هبت ريح، وتمدّ فوقه البسط أو السجاد أو الحصران لجلسة العائلة في الليل، ويوضع التلفاز في الخارج. فرائحة التراب المبلل أصيلة في الأنف هناك؛ لأنك تشهدها كل يوم في الصيف، يذكرك بها المطر في كل مكان، فكأنها بريد من أهلك إلى قلبك مهما ارتحلت وغبت. فماذا الآن؟ ما حياة الجسد والروح في هذه البيوت

المكعبة المعلبة، شاهقة الجدران، التي لا تحيطك إلا بكل ما صنع الإنسان، ولا إنسان! ولا جيران. لقد سرت فينا الكآبة وشاخت الوجوه والعيون، وترهلت الأرواح، يوم استبدلنا ضوء الشاشة بضوء الشمس[1]!.

مثل طيرٍ هدّهُ السفرُ

لا يزال في الحياة سعةُ جمالٍ، وسعادة، وارتياح، كلما رأيت الطيور، أجمل ما خلق الإله، الذي جمّلنا بتذوق مخلوقاته، ولعلها من نعم الحياة الكبرى في القرى، أن تكون على رحم قوية مع الطبيعة وكل ما فيها، فلا جدارن شاهقة، ولا بيوت كبريتية، فالسماء تدنو منك، واللقاء بينها وبين الأرض فسيح فسيح، يملأ صدرك الهواء البكر، وتعمُر عينيك وقلبك مشاهد كثيرة ذات بهجة من الألوان والأزهار والأطيار، وليس في قريتنا إلى الآن نظام الحوش العالي المغلق الذي يُسَوِّر البيت فيعزلك عما وراءه لتتصل بالأرض بلا تحفظ، فالأمان عنوان هناك.

تشْهَقُ في خيالي تلك القبة الشاسعة من سماء القرية تجاه الغروب، تسبح فيها طيورٌ معدودات من القطا، نحو ذلك الاحمرار الخجل كوجنتي طفل غضّ، تتردى صيحاتها من ذلك الشاهق: قاا، قاا، قاا.. كأنها نداءات مودعٍ يكظُّ جفنيه على دمعه ولا يريد أن يلتفت. طائر القطا لوحةٌ بديعةٌ من الألوان الهادئة، متناغمةٌ فيما بينها ومع محيطها حين الحصاد وبعده، يعظم فيها ذلك اللون الترابي المشوب بصفرة وقورة، وخطوط سوداء بليغة تتصل بعينه وصدره ونواح أخرى من جناحيه. ألوانه تماهي لون أعواد القمح المحصودة أو أرضها

(1) الباء في اللغة تدخل على المتروك، أي إن البديل هو ضوء الشاشة، وهذا خطأ شائع يقع فيه حتى أكبر الكتّاب، ولكي تنجو منه، تذكر هذه الآية: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

حين تنجرد، وقد تعزّ رؤيته إن ربض عليها. عشّهُ آية من البساطة والتواضع، فما هو إلا حفرة ضحلة من الأرض، يضع فيها ثلاث بيضات مزركشة، فما أوفاه لسنة الحياة في تلك البيئة البسيطة وقراها، حيث الاكتفاء بالقليل، والخفة الدائمة إلى السفر، فسبحان من عظّم فعل الخير مهما كان صغيراً ولو بحجم مفحص (عش) قطاة أو ببساطته!. فإن رأيت عشه علمت أن فعل الخير يجب أن يكون بلا ضجة، أو زينة، أو أضواء، أو تعقيد، ولن تخجل من صغره، فهو عظيم بنيتك واستطاعتك.

والقطاة طائر بري لا يقترب من المنازل، وما أعظم فرحتنا - نحن الرعاة الصغار - عندما نعثر على عش قطاة، لكأنه كنز عزيز! والقطاة طائر عزيز، يستخدم طُعماً لقنص الطيور الجارحة الثمينة.

وثمة طائر بري آخر أصغر حجماً وشأناً، لا ذيل له، رمادي اللون أيضاً، لا نراه إلا مع دورة آلات الحصاد، يفزّ كالمفجوع ما إن يستشعر خطا قريبة، ولا يطير إلا منخفضاً، نسميه (المريعي)، ووجدت في غوغل أسماءً له: السمان، الفري، السلوى. وله ذكريات كثيرة مع الرعاة.

ليس في القرية أنواعُ طيورٍ كثيرة، فالعصفور المعروف هو العضو الدائم فيها، يجترح أعشاشه في المنازل الطينية في ثغرات بين سقوفها المركومة من طين وقشّ وجدرانها، ولكم كان فريسة للبشر الذين شاركهم منازلهم، عندما يغزونه في عقر داره ليلاً، لكنها تكون حوادث نادرة وليست خليقة دائمة في أولئك الناس. وكنا نميز جيداً بين العصفور الأب والعصفور الأم، فالأول تطوق عنقه هالة سوداء داكنة. بيوضه صغيرة كالحصى الأملس، رمادية اللون، ولا يندر أن تراها مهشمة هنا وهناك، أما صغاره، فكثيرة الوصيع ترأف بها إن صادفتها في بداية عمرها، كمضغة لحم، قليلة الريش أو

معدومته، أما بعد ذلك، فهي المتعة الفذة للصغار حين تطير من أعشاشها، لأنها لا تستطيع الطيران طويلاً أو عالياً.

وحين الربيع، عندما تصبح أرض الجزيرة بحراً من اللون الأخضر الممتد بلا نهاية، يأتي ضيوف جدد إلى القرية، أهمها طيور الزرزور، ذو اللون الأسود المرصع بالنقاط البيضاء، مشوباً بخضرة لماعة ساحرة، يكون على هيئة أسراب كثيفة، إن طار وإن حطّ، وهذا الذي ألهم الشاعر مظفر النواب ليصف عيون حبيبته بزرازير البراري بكل مرحها، بكل نشاط جناحها بعالي السحر، فمرآى أسرابها آية من جمال وقوة وتناغم وحياة، فانعمْ بعيونٍ تأوي إليها كل هذه المعاني! وقد صدع بتلك القصيدة صوت الكبير إلياس خضر، فما أقسى الأماني والأغاني!.

والقدر مع الجماعة إلا مع جماعة الزرزور؛ لأن أسرابه تغري الإنسان بالبطش به، فما أسهل أن يرشقه بطلقة بندقية تسمها (الجفتة)، طلقتها كبسولة على شكل برميل صغير من ذرات البارود التي تتناثر لتصيب أكبر عدد ممكن منها، ويبدو من هنا، نشأت فكرة البراميل لقتل أكبر عدد ممكن من البشر!

لم أر للزرزور عشاً البتة، يبدو لي أن موسم تزاوجه وتعشيشه يكون في بيئة أخرى، ويأتينا هو وصغاره بحثاً عن الربيع والدفء. أما الزائر الثاني فهو طائر السنونو النحيل، الذي كنا نسميه (الخشاف) ذو اللون الأسود ظَهراً وجناحين، أما بطنه فبيضاء كمصيره، إذ كنا نعتقد أنه طائر مقدس؛ لأنه يأتينا من تِلقاء مكة، ولا أدري مصدر هذه الفكرة الغريبة، وكان يدخل البيوت ويصنع أعشاشه فيها دون أن يمسسه سوء. فالله في القلب، ضمانة كبرى لتنجو حتى الطيور من بطش هذا الإنسان لمن آمن، وستبقى الطيور أجمل ما خلق الإله. 2021

الشاشات التي تشبه الحياة

تتشظى أفكاري كثيراً بالمقارنات بين ما كان وما صار، فكم غيّر انتقال الحضارة من الزراعة إلى الصناعة في نفس الإنسان، من النبات والحيوان إلى الآلة والرقم، من الشيء الحي إلى الشيء غير الحي، من شيءٍ له علاقة بدورة الأرض وبتحاور الضوء والظلام والفصول إلى شيء مبتوت العلاقة بهن.

ولطالما تفكرت في علاقة الأطفال بالأجهزة الإلكترونية، وأقارن بين علاقة مع الحي وعلاقة مع ميت جامد، وقلت: ماذا لو كان الموبايل شجيرة خضراء ذات ألوان؟

أَنْ تُكلّف طفلاً أن يرعى شجيرة صغيرة، يسقيها، ينقيها، يصلها بدورة الضوء والظلام، فيقيم لها كل أسباب الحياة، لهو خلقٌ آخرُ للحياة في نفسه، وإنماء لمعانيها، وانتماء لأزمانها وألوانها، وتوقير لقوانينها، يتعلم كيف يخلق الزمنُ الصبرَ في النفس، وكيف يكبر الصغير بالمسؤولية، وكم تحتاج حياة كائن من حب وحرص والتزام، وكيف تعاند السنن رغبته فلا تلبيها إلا بمقدار، لا كما تفعل له الأزرار، فكل لمسة تحضر له ما يريد، فلا تتأدب نفسه بمعنى الانتظار، ولا تعرف عيناه اتساع الفضاء، وهيبة المسافات الشاسعة، وهي تكفكف غرور البصر وتجمّله بالتواضع والألوان وبكل إلهامات المكان، فقد زوت له الشاشة كل شيء في بُعدين اثنين، فانكمشت روحه ويبست، فأيُّ مسوخٍ نعد لهذه الحياة المنكوبة؟ وماذا سيبقى من حقيقة الإنسان غير هيئته الخارجية؟

إن هذه الشاشات الأنيقة، الحديثة الكثيرة لم تترك للإنسان شؤوناً كثيرة خارجها، فكل شيء يمكن تمثيله افتراضياً، حتى شؤون القلوب.

وقد كان لقلبي - يوم كنت صغيراً - شأن كبير مع شاشة واحدة، يوم كانت واحدة، لا أحد يشاكسها مجدها، وقد حُق لها لأن محتوياتها كانت أكثر قرباً من حقيقة الإنسان.

فكم كانت أفلام الكرتون القديمة، صادقة، حقيقية، ملأى بكل ما يكابده الإنسان من فرح وحزن، وشرّ وخير، أتذكر حزن سالي وجورجي، ويتمهما، وحزن الفتى النبيل ووحدته، وجهد فتاة المراعي، وأزمة عائلة الليدي لين، وذلك الدرس التعليمي العميق الذي تعلمه نيلز في رحلته مع سرب القائد آكسا، وصراع الخير والشر في مغامرات الفضاء/ جرينديزر. حتى فيلم الكرتون كان مختلفاً لا يكذب على الأطفال ويزين لهم الحياة وينسيهم حقيقتها القاسية؛ لذا كانت لذتنا عظيمة ونحن نرى كيف يتجلى خير البشر وهو يجادل شرهم. ولا أرى نكبة لشخصية الطفل كنكبته اليوم في عالم الألعاب الإلكترونية، والبرامج السخيفة مع أن الذين يقومون بها أطفال حقيقيون، لكنها تخلو من أي جدلية حقيقية من جدليات الحياة.

كان نيلز قريباً جداً إلى نفسي، لأنني رأيت فيه شيئاً كبيراً من حقيقة طفولتي المشاكسة، فقد آذيت الحيوانات مثله، خربت أعشاشاً وسطوت على بيض، وضربت قططاً وكلاباً بعدل وظلم، ولا أستطيع أن أدعي أن الخير كامن في طفولتي، فقد كان فينا ميل واضح لهذه الأفعال، وقد أندم على كثير منها إلا ضرب الماعز البغيض الذي كان يزلزل استقرار قطيع الأغنام لكثرة حركته فتتعبني مجاراته، لكن قصة نيلز لم تكن مباركةً لهذه الأفعال المؤذية، بل كانت تعرضها لتربي في الطفل الخير وتعلمه كيف يتغير، وأن تعذيب حيوانات المزرعة الذي كان يلهو به ولا يدرك عواقبه، كان ينزل مصيبةً عليها فيشقي حياتها؛ لذا فقد عاقبه القدر يوم صار قزماً ضعيفاً،

فأصبح للحيوانات اليد العليا، فها هي ذي ترد له الصاع صاعين، ليبوء بعاقبة ما زرع في قلوبها من حقد وانتقام، فيهرب منها مع سرب الإوز.

في تلك الرحلة الساحرة إلى أرض لايلند، التي لم تكن رحلة في الزمان والمكان فقط، بل رحلة في نفسه أيضاً، تربيها فتصبح خيرة تكره الشرّ وأهله، ليصبح هو حامي الحيوانات الفذّ، تفرحك بطولاته، وخيبات الثعلب ركس، وبطولات مورتن على ما يثقل عنقه من حبل غليظ، وكيف أنقذ حبيبته ديدي وصنع معها أسرته، وما أحن صوت الراوي في كرتون نيلز وذلك اللحن الذي يتمشى مع صوته، اللذين يحملانك إلى عالم ساحر من السعادة والخيال.

لا يمكن أن يكون كرتون نيلز وأشباهه حالة طفولية انتهت، لا شيء ينتهي في تلك السنوات الأولى من حياة الطفل التي تصنع ذاكرته ومعانيه، فيوم هاجرت إلى السعودية، واكتشفت اليوتيوب الذي لم نكن نعرفه في سورية، أعدت مشاهدة نيلز مرة أخرى وأنا ابن الثامنة والعشرين عاماً، أعدته بالشغف نفسه، ودمعت عيوني في حلقته الأخيرة يوم ودع سرب القائد آكسا عند البحيرة المجاورة لبيته، وقال لهم: عودوا في الربيع، يوم عاد إلى حجمه الطبيعيّ فافترق عن السرب، ولم يعد يتحدث بلغته وعاد إلى أهله.

لا أدري هل هي دموع قريبة على تلك النهاية التي فارق فيها نيلز سربَ الإوز، أم دموع بعيدة على تلك المرحلة الساحرة من حياتي، في قريتي الهادئة، قبل أن أعلم كم هي متعبة هذه الحياة وصاخبة، وأن رحلة نيلز التي استغرقت ستة أشهر بعيداً عن أهله، رحلة مترفة جداً بجوار غربة السنين التي لم تنتهِ، وأن إيذاء الحيوانات لا شيء بجوار إيذاء البشر، وأن فيهم من يرحم حيواناً ويقتل إنساناً!

سلام على بيوت الطين حين يهطل المطر

في هندسة البيوت شيء كبير من طبائع البشر وعاداتهم وثقافتهم، فإن كانت الثقافة هي الروح، فإن العمران هو الجسد المادي الشهودي الذي ينطق عنها ملء الحواس.

لم يعرف أهلنا الاستقرار إلا منذ سبعين سنة تقريباً، كانوا قبائل رحّلاً اعتمادهم الأساسي على مواشيهم، يتنقلون بها بين بادية الشام والعراق تبعاً لماء السماء الذي يحيي الأرض بعد موتها فيحيوون بها ما كان لمواشيهم رعي، ولم يمكثوا فيها حتى عرفوا قيمتها بمفهوم آخر، هو مفهوم الزراعة، وهنا بدأت مرحلة القرى، التي شيدوها من طين الأرض نفسه، وسقفوا منازلهم بالقش الذي يبقى بعد الحصاد، وسيّعوه[1] بالطين مرة أخرى، وللسّياع قصة أخرى لعلي أخصه بما يليق به لأنه ملحمة الصيف الفذة.

فما هي جغرافية البيت القروي؟ وهنا أعود إلى سطري المقدمة التي اجترحت بها نصي فهما عصبه الأساسي.

ليس في البيت القروي معنى الاختصار أو الراحة التي تشيع في بيوت المدن، إنه فضاء مفتوح بلا سور يلمه، تلتهمه السماء بكل اتساع، مبعثرٌ من دور عدة، كتبعثر أهله الذين لم ينسوا نمط حياتهم الأول، وكأنهم بنوه على عجل بلا تفكير، وليس لديهم أصلاً عقلية البناء المرشدة، واقتصاديتها التي تراعي شروط الراحة والاستخدام الأمثل للمساحة. إنه أشبه بقطار مقسم من عدة مقطورات لكنها تتكور على نفسها مربعةً أو فوضويةً بلا تتالٍ، فالبيت الأساسي في جهة، والمطبخ منفصلاً في جهة أخرى، والحمام

(1) السِّياعُ: الطينُ. وقيل: الطين بالتِّبْن الذي يُطَيَّنُ به، سَيَّعْتُ الحائطَ إذا طَيَّنْتَه بالطين. (لسان العرب، مادة: سيع).

في جهـة أخـرى، ثـم دورة الميـاه في مـكان آخـر، نـاءٍ، فالقـروي يأنـف جـداً أن تكـون دورة المياه قريبـة أو ضمـن سـكن داخـلي، وإلى هـذه اللحظـة؛ مـن يبنـي بيتـاً عـلى نمـط المـدن، ينفـي المرحـاض خـارج البيـت. وهـذا يجعـل الاسـتحمام أو قضـاء الحاجـة - خاصـة في الشـتاء - أشـبه مـا يكـون بعمليـة فدائيـة، تتمنـى مـن ضيمهـا أنـك لـو خُلقـتَ بجهـاز تنظيـف غريـزي، وبـلا جهـاز هضمـي، أو أن تكـون طائـراً، وتذكّـرْ أن كل ذلـك يحـدث في أرض طينيـة موحلـة، فـإن أتـى الشـتاء وهطـل المطـر، حقـدْتَ عـلى السـياب ودرويـش ونـزار وكل الحـزب الرومانـسي المطـري، فليـس لدينـا نعيـم الإسـفلت، فبينـك وبـين الحـمام أو أقسـام البيـت الأخـرى مخاضـة مـن طـينٍ ومـاء، تحتـاج معهـا إلى قـوة جـرار أحيانـاً، ولا أنكـر احتيـال كثيريـن عـلى هـذه المصيبـة، ببضـع بلـوكات متراصفـة أو رصيـف نحيـل مـن الأسـمنت يتعفـر وجهـه بالطـين عـن يمـين وشـمال.

وإن كان السيّاع غـير محكـم (وهـو سـقف البيـت الطينـي الـذي يكسـو قشّـه) فأنعـمْ بالخـارور! ومـا هـو الخـارور؟ إنـه نقطـة ضعـف في السـقف، والممـر السري الـذي يغـدر بالسـقف فينسرب منـه مـاء المطـر لينقـط عـلى وجهـك وأنـت نائـم أو جالـس، وقـد تكثـر الخواريـر مـن جهـات عـدة، لتنعـم بسـيمفونية طبعيّـة مـن لقـاء المـاء النـازل عـلى القـدور والصحـون التـي وضعتهـا لكـي تجمـع مـاء الخواريـر (أرجـو أن تكـسر الـراء جيـداً كقافيـة الشـعر).

ويكتمـل قطـار الـدُّور الحلـزوني، بـدور الخبـز والطحـين، والأغنـام أو البقـر، والدجـاج، والعلـف، فلـكل شيء بنـاء منفصـل، ومـن الأشـياء الجميلـة التـي انقرضـت، وجـود بسـتان كبـير في كل بيـت. وتتصـدع الأسـرة بـين أنـاس يجلسـون في المطبـخ (فليـس المطبـخ مـكان طبـخ بالمعنـى الصـارم، إنـه أشـبه مـا يكـون بالمطبـخ الأمريكـي اليـوم!)، وأنـاس يجلسـون في البيـت الكبـير، وفي البيـت الكبـير نفسـه، صالـون كبـير تنفتـح عليـه - غالبـاً - أربـع غـرف.

الخلاصة إنه بيت مرهق جداً، وهو عنوان كبير لحياة مرهقة، غلبتْ مشقتها على كل شيء، ولأنهم لم يألفوا غيرها، فهم راضون بها، ونجوا تقريباً من بؤس المقارنات التي بدأت تتلاشى في عالم اليوم، فسلام على بيوت الطين حين يهطل المطر. 10/ 11/ 2020

مطرٌ هو؟
أم موقدٌ..
للذكرياتِ، لقبلة الحضن الكبير على فراش العائلةْ
لبساطة العيش القديم والدروب الموحلة
لمنازل الطين البعيدة، تجرح المعنى بقلب الراحلة
لأرى الفتاة تسارع الريحَ المطيرَ إلى الغسيل لتنقلهْ
ويلفنا ذاك الظلام، والغيوم مجلجلة
في ضوءِ فانوسٍ ضئيلٍ في زمانٍ ليس لهْ!
فأحنّ مكسوراً كغصنٍ كي أضمَّ المدفأة
وأكوّر الماضي إليها في رياض الأخيلةْ
بحنين طفلٍ بين إخوته الصغار
ما كان يدري - ذاتَ يومٍ - أن سيفقد منزلهْ
ويدوخ في دنيا الغياب، ولا يقينَ ليحملهْ

في زاوية مهملة من قرية نائية

آواه الرحيل مبكراً جداً، كان يشعر بموج الألم يلوك عضلات قلبه كلما سافر إلى ذياك الأفق البعيد، يحدّق عميقاً، قبل السفر، في التفاصيل المهملة من

المكان، يشعر بحنين غريب إليها، كان يشعر أنها سعيدة، لا يدري بها أحد، كم يتمنى أن ينزوي مثلها، وينعم بالإهمال، لا يهم، ما دام أنه سيبقى في تراب عانق ركبتيه ويديه، لا يهم ما دام صوت أمه يمرُّ به من هنا أو هناك.

هناك تعنكبت أمنياته، في زاوية صموت من سقف قديم، تحتضن ملامحُه ذكرياتِ الدخان المحمل بتاريخ البساطة، يشعر بها، يفهمها، ولن يتجاهلها إلا إن نَهَرَ يتيم يتيماً، ربما لأنه يشبهها، يحتاج من يأوّل صمته بحزن، من يفقه غور الجرح الذي يفعله الرحيل. كان يستدبر تاريخاً جميلاً ويمضي، يترك نفسه خلفه، ويحمل أمامه دمعه، وألم الفتى النبيل وأنشودة جورجي، وحزن سالي، وجرح أوسكار، وحلماً بعودة ما، لا بد أن يعود يوماً ما، هكذا كان يرتل حزنه بلحنٍ سيابي عتيق، قادمٍ من تِلقاء قرية بعيدة عن الزمن، ولكن هل ستنتظره التفاصيل القديمة، والوجوه؟.

كل شيء راحل إلا حزنه وأمنياته المترنحة كاللحن المتوجع، لا يدري حجم خسارته، ولن يستطيع أن يعرف، فأمر القلوب كالغيب، لا سبيل إليه إلا بالإيمان، فآمن بخسارتك ولا تتعب غيبكَ بالظنون، لا يهم ما دمتَ تنزفُ رحيلاً. 23 أكتوبر 2017

الشعلة الحمراء في الجنوب

كثير من ذكرياتنا في رمضان تبدأ من المسجد، أو التلفاز، فكيف إذا لم يكن ثمة مسجد؟ بُني المسجد عام 1992، كنتُ ذا عشر سنوات حينها؛ أي إنني شهدت رمضانات عدة بلا مسجد من عقد الثمانينيّات، لا أذان عالياً فيها، ولا مظاهر تعبُّدية جماعية، وكان الحدث الأجمل وقتها: كيف نعلم وقت الإفطار؟ كانت مهمة الصدع بذلك وإشهاره لنا نحن الأطفال،

فقد كنا كالقردة نتسلق البيوت أو أكوام الحطب، لنبلغ أعلى قمة تمكّننا من رؤية تلك الشعلة الحمراء التي تلمع جنوباً في السماء وقت الإفطار في بلدة اليعربية (تل كوجر) التي تبعد عن قريتنا عشرة كيلومترات، يطلقها مدفع صغير نسميه: الطَّوب، فما إن نراها، حتى نتحدر من علٍ كالسيل الجارف تسبقنا أصواتنا: افطروووووووووووووا... طق الطوب!. (القاف بالكاف الفارسية)، ولم يخلُ الأمر من مشاكسين يصرخون تلك الصرخة قبل الأوان ليوهموا الناس.

كنا نرى شعلة الطوب ولا نسمع صوته بسبب المسافة، فنحن مضطرون إلى المشاهدة لا السماع، الذي ذقت بهجته لما انتقلت لاحقاً إلى اليعربية لأبدأ دراستي الإعدادية، فسمعت صوته بأم أذني وأنا جالس في غرفتي، ولم أحتج أن آوي إلى قمة ما، ولما مررت مرة بقربه خامرتني دهشة طفولية سارة: أهذا هو، الذي كنت أرى شعلته سنوات عدة من تلة في قريتي؟ فقد كان شكله الكامد لا يشي بأي عظمة، أسطوانة صغيرة محمولة على عجلتين من حديد كعجلات العربات في أفلام الكرتون. وكانت دهشتي الثانية في رمضان الأول الذي شهده مسجد قريتنا، أننا لم نعد نحتاج إلى الطوب! لم أكن أعي أن أذان المغرب هو الإيذان بالإفطار، وانطوى حينها زمن جميل من عصر الطوب ذي الشعلة الحمراء اللامعة في الجنوب، الذي كنا نصلي تجاهه أيضاً، حيث القبلة (نلفظها الجِبْلة)، التي أصبحت عندي رديفة للجنوب، وكنت أظن أن القبلة في الجنوب أينما ذهبت! فكلُّ جنوبٍ قبلةٌ، حتى استدارت بي الأرض ووعيت أنها أكبر من جغرافية قريتي وعقلي الذي تكوّن فيها وعليها، والطريف أن بيوتنا كانت على هيئة مستطيلات تفتح أبوابها ونوافذها من جهة ضلعها الأطول (طول المستطيل لا عرضه) باتجاه الجنوب/ القبلة. أي إننا لا نستقبلها في صلاتها فقط بل في بيوتنا، التي

يتقوّس فوقها ضوء الشمس من الشرق إلى الغرب، ويجعل لظلالها حياةً في جلسة الصبح أو العصر، فتتقي حدة الشمس المباشرة إذا طلعت وإذا غربت، فكأنها من أمر ذلك الكهف الذي آوى أولئك الفتية في فجوة منه!.

فسبحان من حملني في الجو والبر فهاجرت في أرضه جنوباً، وبدّل مهوى القلب إلى جهة الشمال، وجعل القبلة شرقاً! أما البيوت فلم أعد أحتفي بجهاتها في حياة الاغتراب، فلا اهتمام حين يغيب المعنى، معنى المكث في الديار، لكن الجنوب بقي راسخاً في قلبي، هو وشعلة الطوب الحمراء، في ذلك الفضاء، الممتد فوق بنيان قريتي الطيني المتواضع وحوله، حيث الاتساع بلا نهاية.

الشاشة ذات القبة الحمراء في القلوب

المجد للتلفاز! إذا كان المسرح أبا الفنون كلها، عرفه الإنسان منذ فترة مبكرة من تاريخ وجوده الهائل، ووجد فيه ماعوناً يسكب فيه حياة أخرى، يختار أقدارها كما يريد، ليقول ما في نفسه، ويرسم صور الخير والشَّر، والفرح والألم، فيؤثر ويمتع ويفيد ويداوي، فإن التلفاز هو وريثه الذي نال حظاً أكثر من سَلَفه، لأنه يأتيك في بيتك ولا تأتيه في بيته كالمسرح، فعظم أثره، والتهم من عقول البشر وقلوبهم شيئاً كثيراً. ولا أدري ما السِّر الذي ضاعف أثره في رمضان، يبدو لي ابتداءً أن أيَّ حدثٍ اجتماعي جماعي - كرمضان - سيضاعف ذلك الأثر. فللفعل الجماعي أثره في النفس البشرية؛ لأنها تستوحش من الوحدة، فكم من طريق أغرى سالكيه لكثرة سالكيه حتى وإن كان ذا نهاية مسدودة. وأبصر في نفسك ستجد تلك المتعة الغريبة يوم يشاركك أحد توده، مشاهدةَ شيء تحبه! وتعظم هذه السمة البشرية، كلما سرتَ وراءً في خط الزمن، وابتعدت عن حياة اليوم التي كثرت فيها

أنـواع الشاشـات وأجهزتهـا، وصغُـرَ حجمهـا ووزنهـا، فسهُل حملهـا والانفـراد بهـا، فعـززت الفرديـة، وشاكسـت التلفـاز مجـدَه وتفـردَه، يـوم كان يحـزم قلـوب العائلـة أمامـه في رمضـان كطاقـة ورد، ومـن هنـا كان للتلفـاز ذكريـات رمضانيـة عزيـزة، تنهـض مـن قـاع روحـك كالمـارد كلـما فـاح عطـر رمضـان الليـلي، الليـل! إنـه موعـد الطعـام والشـراب، وهـو حـدث جمـاعي أيضـاً، يعظـم أثـره في رمضـان فيأخـذ حظـه الأوفى مـن الذكريـات أيضـاً.

تفكـرْ؛ إن هـذه الكائنـات الماديّـة مـن أكل وشرب وتلفـاز، ليسـت أشـياء مـادة عاريـة، يعنيهـا الكـم فقـط، إن لهـا شرايين تتصـل بالـروح، فتعـزز فيـك حقيقتـك المركبـة أنـك مـن شـيئين لا تقـوم إلا بهـما، فتنجـو مـن قـدر الحيوانيـة الـصِّرف، ولذلـك فالجنـة مـلأى بالمتـع الحسـية، ولعلـك في رمضـان تفقـه شـيئاً مـن معنـى وجودهـا هنـاك. لقـد شـهدت فـترة مـن عـصر التلفـاز ذي اللونـين، فقـد كان صغـيراً، ذا قبـةٍ خلفيـةٍ حمـراء، ولونـين؛ أبيـض وأسـود، وقناتـين؛ قنـاة التلفزيـون السـوري الأولى، وقنـاة العـراق. وقـد كان نظامـه يشـبه حيـاة البـشر الطبيعيّـة، فهـو يُغلـق آخـر الليـل ويفتـح في الصبـاح، ثـم يغلـق مـرة أخـرى ليبـدأ مـع العـصر، فيحلـو الجلـوس إليـه وقتئـذ، حيـث يعـرض برنامـج طبـق رمضـان، الـذي كنـا لا نتخلـف عنـه، ونحـن صغـار، ونشـاهد أطباقـاً غريبـة عـن حياتنـا، نلتـذ بمرآهـا فقـط، كـما نلتـذ برؤيـة فيلـم جميـل. أذكـر مـن فقراتـه بعـد طبـق رمضـان، المسلسـل المـصري عـصراً أو ليـلاً.. ابتهـالات مـروان شـيخو عنـد الإفطـار.. وإنشـاد توفيـق المنجـد، والجوقـة، ثـم فوازيـر شريهـان بُعيـد الإفطـار، التـي نهضـت اليـومَ مـن تحـت الرمـاد كالفجيعـة الناعمـة! وكأن الزمـان لم يمـر بهـا، لتحيـي في شـيخوخة قلبـي، ذكـرى ذلـك الطفـل القـروي، وفرحتَـهُ التـي غاصـت في قـاع محيـط الغربـة البـارد كتيتانـك، ولـكأن ظهورهـا انتصـار عـلى الزمـن في نفـس كل مـن ارتبطـت برمضاناتـه طفـلاً صغـيراً! فلعلـه عـزاء جميـل لأن هـذه الأيـام الحزينـة شـهدت

وفاة كثير من عمالقة الدراما المصرية الكبار، الذين أسعدونا وأحببناهم، وأمست وجوههم ركناً ركيناً من قسمات حياتنا، فإن مات الكبير كبيراً، علمت أنك لم تعد صغيراً، وها هو ذا الزمن ينتصر عليك!. لقد كانت المسلسلات المصرية قمة الجمال بين تلك الفقرات، أيام عزّ الدراما المصرية، التي كانت تعتني جداً بالحياة الاجتماعية وقيمها، وترصد جدلية النفس البشرية بفجورها وتقواها بكل ذكاء ومتعة، وكانت ثقيلة المعنى في النفوس رغم بساطة الأدوات والتقنيات. فمن ينسى عناوين عزيزة: كعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، والمال والبنون، وبوابة الحلواني .. إلخ.

ضعفت علاقتي بالتلفزيون جداً بعدها، وفَقَدَ مكانته تقريباً، بعد رحلة الغربة المبكرة جداً من حياتي من أجل الدراسة؛ لأنني لم أعد أملكه، فإنه ترفٌ كبيرٌ جداً، أن يملك طالب تلفازاً في غربته، فحياته تقوم على الضروريات فقط. وحتى رمضان قد أصبح موعد غصة بعدها، لأنه فقد حضنه الأمين بين الأهل والجيران، وكذلك كان.

مونامور المطبخ القروي: البريمز[1]

رمضان يوشك أن يتنهد كحدائق الورود في عيون الغروب أو جبين الصبح، ولذكريات رمضان وجع مختلف، إنه وجع الأمان والحنين إلى حضن الأسرة في رحم رمضان. تجوع كل الأيام إلى ذلك الدفء، فإذا أتى رمضان، أصبح جوعك جوع الدهر كله.

يشدني قلبي منذ أيام إلى مشهد من مشاهد الذكريات الرمضانية، يوم كنت طفلاً لا يفارق غبار الأرض قدميّ الحافيتين، كان صيامه سباقاً جميلاً بين الأطفال، وكانت فرحة الإفطار فرحةً حقاً، إنها نصر حقيقي.

(1) بابور الكاز.

فإلى ماذا أحنُّ الآن، وما هو ذلك المشهد الذي أصرُّ على أن أخرجه إلى عالم الورق، وهو القادم المغبر من قرية في الثمانينيات، تسير ببطء على هامش الحياة العامرة في المدن الكبيرة؟

كان المطبخ القروي متواضعاً جداً، ولا يزال إلا قليلاً، إلا أنني أحن إلى صوت شجي، اعتدت أن أنام على لحنه متعباً أنتظر موعد الإفطار، إنه البريمز. كانت تلك الغفوة في الساعة الأخيرة من يوم الصيام على هدير (البريمز) شيئاً ساحراً، والشيء المدهش الآن أن صوته موجود في فيديوهات كاملة على اليوتيوب لتساعد على النوم كأي موسيقى هادئة كأنه موسيقى مونامور! فيبدو أن لكل نفس بريمزها الموناموري، وقد كانت له إكسسوارات ضرورية تتبع له، أهمها إبرة البريمز، التي يُفتح بها أيّ انسداد يحدث في فتحته الدقيقة التي تدق عن سَمِّ الخياط، ويخرج منها الكاز، وقد كانت محمولة على رأس حامل رقيق من الألمنيوم، ذي حلقة في نهايته المعاكسة، يُعلق منها على مسمار في الحائط الطيني، وقد كانت ماعوناً مهماً يستعيره بعض الجيران من بعضهم.

تذكرته منذ أيام فقلت: هل يعقل أن أجده في النِّت؟ فهرعت إلى غوغل فوجدته تحت اسم: (البريمز العراقي)، نعم لم أتفاجأ، فنحن في الشرق السوري والعراق من مشكاة واحدة، قول حقيقة لا زعم قومي، وقد كان أهلنا قبل مولدنا وقبل قطيعة البعثَين بين البلدين، كانوا يتسوقون في الموصل التي لا تبعد عنا إلا ساعة تقريباً، ولا يكاد يخلو بيت من ماعون من الموصل. البريمز ومسلسل المال والبنون، هي أقسى ما تخرُّ له الذاكرة الرمضانية هداً، في قلب طفل قروي بعد رحيل العمر وشتات القلوب والأجساد. 7 مايو 2015

بين الكاسات والطاسات

تفكرت كثيراً في حال قريتنا، وحاولت مراراً أن أسير في تاريخ هذا التجمع البشري الصغير لأجد أجوبة عن تساؤلاتي فيه: من أين جاء؟ وكيف مكث هنا؟ ولـمّا وصلت دمشق ووعيت كثيراً من حقائق الإسلام، ورأيت كيف أن ناسها ينشؤون عليه، وكيف يُنظِّم حياتهم كبديهة، بدأت أشعر أننا انحدرنا مباشرة من صحراء ما، من جذعِ رجل سمع بالإسلام، وأخذه على عجل من أقصى مدينة دون أن يسعى إليها، بل تعثر بأطرافها مصادفة، ثم أكمل مسيرته في الصحارى، يدور فيها ولم يأنس بمدينة أو تأنس به لتستقر الحقائق والطبائع في نفسه على مكث.

إذ يكثر في حديثنا العامي اليومي قَسَمٌ يشي بميراث جاهلي؛ إذ نقول: بالعون كذا وكذا، وعلمت لاحقاً أن عوناً صنم جاهلي يُقوِّم البلاد هو واللّات والعزى. وشهدت في صغري، عادة وثنية تقوم بها النساء ويحتفي بها الأطفال جداً، لما ينحبس المطر! كنّ يصنعن امرأة من أخشابٍ وقماش اسمها أم الغيث! ويدُرن بها على المنازل لأخذ الحبوب من قمح وأرز وبرغل .. إلخ، ثم يطبخنه في قدورٍ ضخمة طبخاً جماعياً، ويوزع على الناس، وكانت الأنشودة المرافقة لأم الغيث: يا أم الغيث غيثينا، بلّي بشيت[1] راعينا، راعينا حسن أقرع، له ستتين ما يزرع..

ومن عوائدنا الثقافية في الطعام إن ولدت امرأة أن يصنع لها جيرانها، (عيش فاطمة)؛ وهو قمح مهشم سابح في بركة من سمن عربي، ولا أدري سرّ هذا الاسم، لعل أجدادنا التقطوه من العراق إبان تنقلهم بين باديته وبادية الشام لغلبة الميراث الشيعي عليه، ربما..

(1) تصغير (بشت): وهو العباءة التي يرتديها الرجل.

الخلاصة أننا نسيجٌ مزيجٌ غريب، لكنه محكوم بعادات العرب الأصيلة التي لم يزدها الإسلام إلا رسوخاً، وكل مقدمتي هذه لأخطَّ إطارَ صورةِ المجتمع الأُميّ الذي نشأتُ فيه، وكانت أعلى شهاداته الدراسية، لا شهادة، إلا أثارات شاحبة من شخص أو اثنين وصلوا الإعدادية أو الثانوية.

لكن الله ربَّ العالمين، الرزاق فوق كل شيء وفي كل شيء، فدورة الحياة هي دورة الرزق، وفي القرية هي دورة الأمطار والأرض والأغنام، وهنّ مترابطات، فإن مُنع المطر، حلَّ القفر، وبارت المواشي وارتفع ثمن علفها، واكفهر وجه الحياة. والمطر والأرض والمواشي، أشياء يسخرها الإنسان ولا يصنعها، وهذا يعلقه بربِّه، ويجعل لغته أكثر ثراءً بكل ما يجعل للقوة الغيبية الكبرى حضوراً، فما يخرج من جوفه من كلام، رهين بما يدخل فيه من طعام.

ويبدو لي أن الإسلام الشامل دخل علينا مع دخول الفضائيات عام 2000 كما يرى صديقي أبو يسار، وكان يتساءل دائماً: كم نحتاج من الملائكة يوم القيامة لكي يضبطوا صفوفنا.

كنا نصوم على كل حال، أطفالاً صغاراً، نرى الأمر احتفالية جذابة جداً، لما يغيّر فيه هذا الشهر من تقاليد الطعام فيزيد فيه شيئاً لا نألفه ولا نعرفه إلا في رمضان، وما هو؟

خذ مثالاً: التمر، كنا لا نأكله إلا في رمضان، ونراه شيئاً جللاً، وبعد حين لما كبرنا ورأينا خيارات أخرى، وعينا أن ذلك النوع من التمر، رديء جداً، ويقول لنا العراقيون الذين كانوا يأتوننا بحكم الجوار، أنهم يعلفونه للغنم هناك. وكان التمر كتلة كبيرة، متماسكة على هيئة صفيحة مستطيلة، مغلفة بنايلون أبيض شفاف سميك، كأنه قطعة جليدية عائمة لكنها لم تَعُم إلا في عيوننا وبطوننا، ولما رأيت أصناف التمر في السعودية، وعيت أننا كنا نأكل حجارة خُيّل إلينا أنها تمر!.

أما الشراب وما أدراك ما الشراب، فكان تلك البودرة البرتقالية التي يحلّونها في قِدْرٍ من الماء، بمعدل ذرة بودرة إلى جالون من الماء، ويا سعد من يزيد نصيبه على أكثر من طاسة! طاسة وليست كاسة، فلم نعرف الكؤوس حينها معرفةً صديقةً عميقة، وإلى الآن لا تزال لذة الشرب من الطاسة لدي، أعظم من الكاسة، ولَكَم تشعرني بالارتواء، وأرى الطاسة أقرب للأصالة وبساطة الحياة ورفيقةً قديمةً لبداياتها الأولى، فلا عجب أن تختفي في مشاهد الحياة المعاصرة، وتهيمن الكاسات بأنواعها الكثيرة.

ولكنني أعي الآن كم كنا سعداء جداً، وأن السعادة والرضا، لا تصنعها الأشياء مهما كانت وافرة أثيرة، وإنما هي قوة الطفولة في روحك التي تعاشر بها هذا العالم، ناسه وأشياءه؛ لأن الروح إن شاخت فلن تبتسم بسهولة أبداً، وتهرم فيها حاسة التذوق فلا تلتذ بشيء. 2021

مُسيلمة صغير

عندما كنا صغاراً، كان رمضان حدثاً هائلاً، مفرحاً، تتغير به نفوسنا وحياتنا، ونرى الصيام تحدياً لذيذاً نتنافس فيه، ويصبح للصلاة طعم جديد، فمن لم يكن يصلي، سيصلي، والذي يصلي، ينضبط أكثر في صلاته.

ولم يكن للقرية تدين شعائري ذو بال في ذلك الحين الذي وعيت حظّاً منه في طفولتي، فالمسجد صدع فيها في أوائل التسعينيات (1992)، وكانت الناس قبل مجيئه، تمارس دينها بما تعرف، وهو قليل وهم قلة، لا تدري ما التحزب ولا التعصب ولا التأدلج، فنحن في نأي عن كل شيء، فليس موقعنا من خارطة التدين بأفضل منه من خارطة الجغرافيا، ولعلنا أشبه الناس بالأعراب الذين يفدون إلى المدينة وفي بعضهم من الفطرة البيضاء والإباء كما في بعضهم الآخر من نزعة الاستخفاف والاستهزاء، فإن خوّفته بالنار

لا يخاف، وإن رأى أحداً يبكي بعاطفة دينية، نظر إليه لمزاً مشككاً بصدق دموعه؛ أنْ ليس في الأمر ما يبكي فالدموع عزيزة في تلك البلاد، وهي أعزّ من أن يبعثها شيء ديني.

لكن كان لرمضان جوُّهُ الساحر عندما كنا أطفالاً؛ نسأل كيف نصلي، فلا نجد اتفاقاً واضحاً على ما يقال في الصلاة! ولا يؤبه لنا، أو لنقل لا أحد يعرف كيف يعلمنا.

كنا عصابة من أربعة أطفال، وكان عمري تسع سنوات أو عشراً، وكنت أحار وأتساءل؛ ما الذي يجب أن يقال في كل ركعة؟ فلم أكن أعلم أن الفاتحة يجب أن تعاد في كل ركعة وتتلوها سورة، رغم أنني سألت! فاخترعت لي ولهم صلاة خاصة، كتبتها على ورقة دفترٍ مدرسي ذات خطوط، لا أزال أذكرها وقد نالها كثير من التطوي،كتبت فيها كيفية الصلاة: ففي ركعة الفجر الأولى، نقرأ الفاتحة وحدها، وفي الثانية نقرأ سورة الإخلاص وحدها بلا فاتحة، أما في الصلوات الرباعية، فنقول في الركعة الثالثة سورة الفلق، وفي الرابعة سورة الناس، انتبه: الفاتحة في هذه الصلاة سورة من بين سور، تقال في ركعة واحدة فقط ولا تتكرر. ولا أذكر ماذا وضعت لصلاة المغرب، لكن تخمين ذلك ليس صعباً على ضوء هذه الاستراتيجية.

ولكي أطمئنّ إلى شِرعتي وقتها أو بدعتي لاحقاً، ذهبت إلى رجل أربعيني من القرية أعرض عليه صلاتي، فقرأتها له كلها من الورقة، ولا يزال وجهه المنبهر إعجاباً يتماسك في خيالي، وهو ينظر إلى زوجته؛ أن انظري إلى عبقرية هذا الصغير، لروعة صلاته وتفوقها على ما يعرف من صلاته! فازددت يقيناً بما أملك، وكأن جبريلَ أوحاها إلي من فوق سبع سماوات، والحمد لله على حسن النية حينها وسن عدم التكليف، وإلا كنت مسيلمة

جديداً يخرج من قرن الجزيزة السورية، وشكل خارطتها كذلك فعلاً!.

وأعرف قصة أكثر طرافة في قرية أدهى وأمرّ، أتاها نبي على هيئة معلّم صف، علّم أهلها الصلاة، وفيهم رجلان خليلان؛ عناد ونحيطر، يروي المعلم أنه لما وصل نحيطر إلى التشهد الأخير فالتسليم، التفت يميناً ليسلم، فرأى صديقه عناداً، فبدلاً من أن يقول السلام عليكم ورحمة الله (تسليم الصلاة)، قال: مرحباً عناد، فأجابه: هلا بنحيطر، ولا أذكر إن كان عناد هو أيضاً في صلاة أم لا، لكنه حتماً كان يجلس عن يمين نحيطر، الذي يبدو أنه وعى أن الصلاة يجب أن تثمر السلام؛ لذا يجب أن تختم صلاتك بأن تسلم على من حولك بأي تحية تألفها، فما أجدره بأن يعلم أهل الصلاة المحترفين في مدن كثيرة معنى الصلاة، ليقل حجم الكره والدم في هذا العالم.

ولما قدمت إلى دمشق وذكر خطيب المسجد سياحته الدينية في السويد الإسكندنافية! داعياً إلى الله، تذكرت عناداً ونحيطراً وصلاتي ومسيلمة الكذاب أو هكذا أزعم!. 8/ 3/ 2021

صلاة الفجر بكنزة مقلوبة

إن أكثر ذكرياتنا الرمضانية تبدأ من المسجد أو التلفاز، وأحاول أن أكتب عنهما بالتناوب درءاً للملل، وسأكتب عن المسجد الذي دُشن في 1 رمضان عام 1992، وكان توقيتاً موفقاً، لأن العبادات تنتعش في رمضان وكأننا نعرفها أول مرة، فكيف إن كان بيتها جديداً علينا أيضاً، ولم نعرف قبله طعم العبادات جماعةً، وقد لا أبالغ إن قلت إنه شعور يشبه الدخول للإسلام أول مرة، لأننا لم نكن نعرف عنه إلا أضغاث أفكار وتصورات، وينقصنا كثير لنعرف تاريخه ورجالاته وعباداته، وقبل ذلك قرآنه.

يعيش الإنسان بذكرياته وتعيش فيه، ويشعر أنها من أمر روحه ووجوده، ولكل حاسة أرشيف معتق من الذكرى، فثمة ذكريات تنتظم روحك على هيئة صور ومشاهد، وأخرى تتسلق على أوتار الصوت أو اللحن، وثالثة يتشربها الشم، فتدخل إليك من أنفك. لا تزال رائحة المسجد الجديد تعبق في أنف روحي، ما إن أستحضرها حتى ينهض فيّ، مشهد السجاد الجديد، وترتصف ألوانه أمامي كأنه أمامي، لكن رائحة المصاحف الخضراء هي الأشد رسوخاً، ولا أذكر أنني لمست مصحفاً قبل مصاحف المسجد، وأنا ابن الحادية عشرة سنة وقتئذ، وكانت هي المرة الأولى التي أختم فيها القرآن.

لقد كان قدوم المسجد حدثاً جليلاً، وقد أكرمتنا الأقدار بإمام ندي الصوت والروح، وضيء الوجه، هادئ العلم والجسم، يحفظ كتاب الله تعالى ويدرس الشريعة في دمشق، إنه أبو خليل حفظه الله وجزاه عنا خير الجزاء. علّمنا ما لم نكن نعلم ونحن صغار، حفظنا بين يديه جزء عمّ وتبارك، وأتقنّا كل أحكام التجويد، وشيئاً من الأناشيد الدينية في حبِّ النبي عليه الصلاة والسلام، ولزمنا الأذكار والصلوات في المسجد حتى بعد رمضان. وكانت خطبه زاداً ثقافياً معتدّاً به في بيئة أُميّة لا تعرف الكتب والقراءة، ولا أزال أحفظ مقدمة خطبته الثابتة كاسمي: «الحمد لله على نعمائه، والشكر له على امتنانه، الحمد لله نستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير نبي أرسله، وهدى ورحمة للعالمين بعثه، أرسله على فترة من الرسل وانقطاع من الزمن.. إلخ».

وأصبحنا نتنافس على صلاة الجماعة في المسجد، ومرة بعد أن أنهينا صلاة العشاء معه في غير رمضان، قال لنا: هيا اذهبوا وناموا لتصلوا الفجر معي في

المسجد، وخشيت أن يسبقني أحد، فصحوت من فوق ذلك السرير الصيفي العالي، الذي اعتاد أهل القرى النوم عليه خارج المنازل، وكان الظلام دامساً، صحوت ما إن صدع أذان أبي خليل، لبست كنزتي وذهبت، والمشي في القرية ليلاً ليس سهلاً على طفل صغير، وليست فيها طرق نظامية معبدة أو منارة، ويزداد الخوف إن تربص بطريقك كلب شرس، ولا تدري من أين يباغتك.

وصلت المسجد وتوضأت فلما دخلت، وجدت أبا خليل وحده متوركاً تجاه القبلة فنظرت إلى نفسي بعد صلاة السنة، وإذا بي كنت أرتدي كنزتي بالمقلوب لسرعتي ولم أنتبه إليها في الظلام، فخرجت وأصلحتها.

ولم نصلِّ يومها إلا أنا وأبو خليل الذي أبدى إعجابه بي يومها، وبارك، وقال كلمته الدائمة: ما شاء الله! وفرحت جداً بإنجازي، ثم صرنا بعد ذلك نتواصى بالإيقاظ، ونحيل القرية إلى حلبة صراع مع الكلاب عند الفجر، وتطور الأمر إلى لعب بكرة القدم حتى شروق الشمس، وإفطار جماعي، إفطار الصباح وليس إفطار رمضان، فهذه الفقرة من ذكريات مراحل أخرى، والحديث ذو شجون.

الصور للمسجد، إنه بسيط جداً كبساطتنا وبساطة حياتنا هناك، ليس فيه أبهة أو زخارف، أو علو شاهق، أو ألوان كثيرة، يظهر فيها وميض مجهول، وقد التقطها صديقي بعد رجوع أهل القرية إليها بعد أن نزوحوا عنها ثلاثة أشهر بسبب القصف، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

اعتذار إلى الموز الأصفر ذي اللون الأخضر

ليس للفواكه حضورٌ مؤثر في ثقافة الطعام القروية، فلا تزورنا إلا في المناسبات، وأعلاها مناسبة المرض! فالمريض يشترون له فواكه، وأغلبها

البرتقال والتفاح، والعنب، وربما الرمان، ولا يمكن تفسير ذلك تفسيراً اقتصادياً فالأمر أعقد من ذلك في بيئة أهلها خفيفو الحركة فوق الأرض، جديدو عهدٍ بالمكوث فيها، قليلو الأمتعة والأطعمة، فكل شيء لدينا بسيط منبسط، قليل لكنه كبير، فمحاصيلنا معدودات، القمح تاجها ثم الشعير، يكسو أخضرُهُما الأرضَ في الربيع باتساع هائل لا يطاوله نظر ولا يحده جبل أو بحر، فأرضنا منبسطة مترامية الأطراف، هادئة التضاريس، ومطبخنا متواضع جداً، ينظر غير بعيد، باستغراب إلى المطبخ الحلبي والدمشقي المتنافسين وكأنهما من مجرة مجاورة، ويتوسطه صحن الثريد الكبير ولا صحون أخرى معه ذات بال، قوامه أرغفة الصاج الكبيرة المنضودة فوق بعضها طبقاً عن طبق، التي أتت من قمح الأرض، ولحم الغنم التي ترعاه وكلاهما قوام عيش تلك المنطقة النائية. مقدمتي هذه تشبه مقدمة الشاعر الجاهلي الذي يقف على الأطلال ليؤبِّن حبيبته المفارقة ثم ينحدر إلى هجاء أو مدح! الذي أريد أن أتحدث عنه هو الموز، الذي أكلته أول مرة في حياتي في الصف الأول الثانوي، مع أنني سكنت المدن للدراسة بعمر 12 سنة، وكنت أراه في المحلات لكن لا أذكر أن نفسي حدثتني به، ولم يؤثر في سير حياتي البتة، ومرة كنت عائداً إلى القرية فوجدته مبذولاً، لا أدري ما الذي أودى بسعره حينها فاشتراه الناس بكميات كبيرة، فأكلته ولم يعجبني!.

ثم أكملت حياتي مرة أخرى بلا موز، حتى أتيت السعودية، حيث حياة الوفرة من كل شيء، فرأيته مرة في المول بلون يميل إلى الخضرة، فظننت أنه نوع آخر ينافس الموز ذا اللون الأصفر، فاشتريت عنقوداً كاملاً منه، وفي البيت حاولت تقشيره فلم يستجب! كانت قشرته شديدة الالتصاق فمزقتها تمزيقاً جزئياً وقضمت منه قضمة فكان سيئ الطعم! فغضبت وأدركت أنني قد غُبنت فيه، وحدثتني نفسي بأن أعيده إلى المول وأعري غشهم، لكن

كسلي منعني، فهممتُ أن ألقيه في حاوية القمامة فلم يطاوعني ضميري، لقد كان أنيق الشكل كأيقونة زينة، فركتُهُ جانباً فوق الرّف ونسيته، وفي إحدى زياراتي إلى المطبخ في اليوم التالي أو الذي يليه نظرت إليه وإذا بلونه الأخضر قد اصفرَّ! فسولت لي نفسي أن أعالج موزة أخرى، فأسلخ جلدها، وقد فعلتُ فانسلخ بكل سهولة! فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: 49/ 12]، مثلما أثمت بسوء ظني في الموز الأصفر ذي اللون الأخضر.

عايش بكل عيد

العيد فرحة، وفي معناه معنى تكرارها، ويبقى لروتين هذه الفرحة زخمها الجذاب؛ لأنه لا يأتي إلا كل عام، فينجو من سطوة الملل، تعود فيه النفس إلى فطرتها المريحة بعد شهر من مغالبة الطبع والاعتياد. وما أحوجنا إلى الفرح في هذا المدى المحزن جداً، رغم صعوبته عند كثير من الناس ولا لوم عليهم بما فاضت دموعهم، وجزعت قلوبهم، فالعيد طاقة الأحباب يجمعهم، لكن للفراق أقداره، وفي دنيا فرعون تزداد ناره، ولكن يكفي أن تفرح لفرح غيرك، وألا تشعره بذنب لفرحه، فالأفراح أرزاق أيضاً.

لقد كبرنا وتعبنا بما يكفي، وسُرق منا أمل كبير، جعلنا أكثر شعوراً بألم الحياة، وخوفاً منها، إن الوعي حمل ثقيل ها هنا، يضيق به الفرح! لذا فالأطفال هم أكثر الناس فرحاً، وأكثر الناس فهماً لحقيقة العيد وعيشاً لها، فلنفرح معهم وبهم. هذا هو العيد الثاني عشر خارج الأمان في السرب، أسافر منه إلى ذلك الطفل، ينام وملابسه الجديدة وحذاؤه يضعهن عند رأسه ليطير مع الفجر هو ورفاقه، ليجمع السكاكر من كل بيوت القرية،

لا يفلت منهم بيت واحد، وكان تعدادها يومئذ يقرب من الخمسة والثلاثين بيتاً، وكانت تلك هي عيديتنا، نجمعها بسواعدنا، فليس في ثقافتنا عيدية مالية تُعطى للأطفال، وقد كان بعضهم يطير إلى القرى المجاورة ليستزيد.

ومع تواتر الأعياد، صرنا نميز كرم سيدات البيوت جيداً، ونبني على ذلك أملنا أو خيبتنا، نعرف مَن تعطي أكثر، ومَن يكون لديها تشكيلة غنية، ومَن تعطينا بيدها قطعاً معدودات، ومَن تعرض علينا صينية السكاكر لتضيّفنا كما الكبار! وقد كان ذلك سلوكاً راقياً جداً نقدره قدراً؛ لأنه يضعك أمام حريتك فتختار كما تشاء، ويختبر طمعك الطفولي أيضاً. وقد كنا نحرص أن نعايد الجدات الكبيرات، وقد تلحظ الدموع في العيون على غائب لم يأتِ في هذا اليوم السعيد، أو غائبٍ توفاه الله، وتهنئتنا المعتادة لهن: عيدكم مبارك، ونقدم خدودنا لكي تُقبّل، ويكون الرَّد: عايش بكل عيد. وقد كان من العادات أن يزور ذوو الموتى حديثاً المقابرَ عند الفجر وينثروا السكاكر على قبورهم، والدموع على خدودهم، أما نحن الأطفال فلم نكن نرى إلا حجم غنيمتنا المتوقعة. لا أدري، سيبقى شعور الفقد سيّدَ كل موقف، مهما كانت أيام الفرح، كأنك لا تكتمل أبداً، لأن في أم نفسك شعوراً مهيباً لا ينطفئ إلى كل من نقصَتْ نفسُك منهم، أو من تخاف فَقدَهم؛ لذا ستظل الدعوة الدائمة: عايش بكل عيد. فاللهم اربطْ على كل قلبٍ فارقه أحبابه، خاصة إن كانوا أطفالاً، وكل عيد وهم بأمل كبير باللقاء والصبر على الفراق..

بين الأقلام والأغنام

تسرح بي الذكريات إلى هناك، إلى قرية صغيرةٍ من طينٍ وماء، وادعة، قصية، يوشك أن تنتهي إليها جغرافية المشرق السوري، سماؤها صافية، لا تشغب عليها أبنية شاهقة، وأرضها بكر هي رأس مالها وأغنامها..

إلى طفل صغير، مشكلته الكبرى رعي الأغنام! لأنها تنغص عليه متعته في رؤية أفلام الكرتون وقت العصر، كانت دورة الرعي كدورة الأفلاك، منتظمة لا تضطرب، صبحاً من الفجر حتى الضحى، وظهراً من ذروة الظهيرة حتى العصر، ومساءً من بعد العصر حتى العشاء. ويغلب أن يكون نصيب الصغار في الفترة المسائية، عندما يلين النسيم، وينكسر حر الشمس، ويحلو الخروج واللعب أو التنزه والتسامر، وهذا حرمان آخر لا يقل ألماً من حرمان الكرتون.

تؤوب الأغنام عصراً، إبان عرض الكرتون، كأوبة همٍّ ثقيلٍ يجثم على قلبي كصخرة غاشمة، ويجب أن أنتصب لها، وأملأ لها جابية الماء لتشرب، ثم أعزل أولات الحليب وأعين على ربطهن ليُحلبن، فقد جُبلت منذ صغري على الالتزام بأي مسؤولية توسد إلي، لا أتخلف ولا أهرب، حتى إذا أخذت الأغنام قيلولتها القصيرة، امتطيت صهوة الحمار قائداً إياها إلى المرعى، لأعود بعد العشاء مغبراً مكفهراً.

رعي الأغنام يكوي القلب بالصبر كوياً، ويضيّق عليك الحياة أكثر مما هي ضيقة، تشعر أنها فارغة، ليس فيها إلا أرض منبسطة بلا تضاريس وأغنام وحمار وكلاب وماعز، وبعض رعاة يشبهونك ويجاورونك، ما أفقر حياتهم، وما أشقها!. الماعز مشاكس متعب، لا يمكن أن تمسكه أرض، لذا فهو يظل يمشي ويمشي فيزعزع استقرار القطيع، فيتعب راعيه، لذلك كنت أجلده جلداً وأفرغ حقدي كله عليه، ليصبح كالمجند الذي يرتعد خوفاً ما إن يصيح به قائده، تبّاً له.

هذا هو قدر طفل القرية منذ أن يعي تقريباً، إلى أن ينهي دراسته الابتدائية، مدرسته في الصباح، وبردعة الحمار في المساء، فإن أتت المرحلة الإعدادية، هاجر إلى المدينة ونجا بنفسه من ذلك العذاب القروي، ليلقى عذاباً وحرماناً من نوع

آخر يصيّر رعيَ الأغنام نعيماً، هو فراق الأهل والعائلة، لكن الأغنام بانتظاره في إجازة الصيف، فلا مفرّ! ولا أنسى ذلك الظرف الطارئ الذي استدعيت فيه لرعيها في الظهيرة قبل سفري بيوم إلى دمشق لأدرس طب الأسنان، يوم الإثنين عصراً، الموفق لـ 24 أيلول/ 2000.

ورغم كل هذه الحياة الشاقة، فقد نجوت ببضع ذكرياتٍ حلوة مع نيلز ومورتن ورات، وجورجي وسالي ولبنى، وماجد ورامي، وجريندايزر وجنكر وخماسي، وفتاة المراعي وسنجوب ودعبل، وسينان والحمار حصحص، وزيا واستبان، وغيرهم كثير. فإن كنت قد تعرفت إلى تلك الحيوانات من وراء شاشة أو دمى ألعاب، أو طين ملون، أو رأيتها رؤيةَ زيارةٍ أنيقة دون أن تُبتلى بها وتقتطع جزءاً عزيزاً من عمرك وبهجتك، فاحمد الله وافرحْ، ولكن تذكر أن غيرك كانت تنغص حياته في أبسط متعها، وكان ينقي الشوك من قدميه وهو يرعاها. اللَّهمَّ إنني أحبها ولكنني أكره رعيها فأدمها على عبادك نعمةً لا بلوةً.. يسقط الماعز. 12 كانون الثاني/ 2021.

قصة العَشرة المؤثرة، منذ الثالثة، حتى الثامنة عشرة

انتشرت مرة، حملة فيسبوكية عن الكتب العشرة المؤثرة منذ الثالثة من العمر حتى الثامنة عشرة، فكان كل واحد يعالن بكتبه التي أثرت فيه ثم ينتخب غيره ليحذو حذوه، ولما آل الأمر إليّ، ورأيت إخوة الفيس يتثاقفون فيكتبون عن عَشرتهم في بكورتهم، عصفت بي خواطر بعيدة، وسرحت في تلك الفترة من حياتي، ما الذي يمكن أن يكون فيها من كتب مؤثرة؟

فعدت بذكريات ضخمة من القراءة! لا أزال أحتفظ بمهاراتها إلى الآن، فلا أزال أحسن قراءة أسماء الأغنام، فالتي وجهها أسود، يقال لها (عَبْسة)،

والتي وجهها ورقبتها سوداوان، يقال لها (دَرعة)، أما التي وجهها أبيض فيقال لها (قَرحة)، والأحمر الهادئ يقال لها (شعلة)، فإذا توسّطه خط أبيض عريض قيل لها (غرة)، والتي لها قرون (قرنة، بلهجتنا جَرنة)، والتي أذناها قصيرتان (كِرّة)، وهكذا.. وأظن أن الفصحى منها عبساء ودرعاء وغراء وشعلاء وقرناء، والقرناء مهيبة الجانب، فلا قِبل لبنات جنسها بنطحتها فهنّ بلا قرون، وهي استثناء شذ عن القاعدة، واستُفيد من ذلك مَثَلٌ إنساني، توصف به كل امرأة شرسة يخاف زوجها من نطحتها، فيقال لها: جَرنة!. أما الكبش (الجبش) فيسمى حسب عمره أو الفصل الذي ولد فيه، وهو هكذا تصاعدياً: خروف رِبعيّ (ولد في الربيع)، ثم شتوي (ولد في الشتاء)، ثم قرقور (بالكاف الفارسية)، ثم رُباع (أظن عمره أربع سنوات)، ثم قَحَم، ثم فحل لا ينازع. أما الحمير، فالأبيض العالي فيسمى شِهريّ، وهو النوع الملكي وماعداه الأسود والرمادي.

ولما انتقلت إلى الإعدادية كانت آنستنا تحدثنا كثيراً عن غادة السمان ومي زيادة وغسان كنفاني وجبران ونزار قباني، والحق أنني لم أهتم بهم أبداً إلا نزاراً، لأنّ كاظماً غنى له، إذ يبدو أن الكلمة التي تتقوى بالصوت واللحن، هي بريد القلب الذي يستنهضه إلى كاتبها وكتبه، وبدأت من حينها أقرأ لنزار قراءة مستمرة غاشمة لم تتوقف.

ولما كنت مدمناً على الأفلام المصرية ذات اللونين التي لم يتوفر غيرها، أفلام عبد الحليم خاصة، اشتريتُ كتاباً رخيصاً عن حياته وأغانيه، أوراقه مُطفأة وصوره من لونين كلون أفلامه، وقرأته كله بشغف.

وثمة كتيّب آخر أو قصة قصيرة قرأتها مضطراً ولخصتها في الصف الثاني الإعدادي؛ لأن الآنسة كلفتني بذلك، وكانت عن عبد الرحمن الداخل

يوم هرب من دمشق إلى الأندلس، واجتاز النهر ومعه أخوه الصغير، لكن العباسيين استطاعوا أن يخادعوا أخاه فعاد إليهم فقتلوه. أما صقر قريش فأكمل سباحته في ماء النهر وماء دموعه، ثم شيّد منها عالماً أعظم من عالم مطارديه. يبدو أنني تجاوزت الثامنة عشرة بلا رصيد حقيقي من قراءة الكتب، وذاك الذي كان فعلاً، وهو الذي كان ممكناً في ذلك المدى البائس الشحيح، لكن حبي الفطري للأدب والشعر المشفوع باللحن، الذي جذبني نحو نزار، هو الذي شدني إلى أدب محمد الغزالي السقا، الذي انتشلني من فجاجتي ونقلني إلى مستويات أخرى ما فكرت بها قطُّ، ولا أعد نفسي قارئاً حقيقياً إلا يوم دخلت الماجستير. هذه هي قصة الكتب العشرة المؤثرة منذ الثالثة حتى الثامنة عشرة في ريف العُسرة. 14/ 09/ 2014.

قد تحمرُّ العيون في البرد عندما يغيب أستاذ العلوم

من ذكريات الشتاء القارس في الصف الثاني الإعدادي، يوم لم أنسه، كان يوم الأحد، والبرد يجلد أذنيك وأرنبة أنفك، وتودُّ أن لا يكون لك يدان، وأنت تجلس على مقاعد المدرسة الخشبية، المصمتة الباردة، التي تقمع لحم جسمك فلا تعطيه فرصة امتداد، فتتكوم على نفسك كطير متدثر بريشه المتواضع فوق غصن جاف. كان لدينا امتحان في اللغة الإنجليزية، وكنت طالباً هادئاً، كثير الصمت، قليل النشاط والمبادرات، سجلي في المشاغبات نظيف جداً. غاب أستاذ العلوم، فصرخ الطلاب صرخة جامعة مدوية فرحاً بذلك، صرخة جعلت مدير المدرسة رحمه الله، يتحدر إلينا غضبانَ كأسد جريح، وقال: (شو ولاك: ما فيه غيركم بالمدرسة، يالله انزلوا ع الساحة). ساحة المدرسة التي نردِّد فيها النشيد الصباحي ونخرج إليها في الفسحة ما بين كل حصتين وكنا في الطابق الثاني.

كنـا نـرى المديـر رحمـه الله - ونحـن بأجسـامنا الضئيلـة - طويـلاً كناطحـة سـحاب بشريـة، بانحنـاءة بسـيطة في أعلاهـا، أو نخلـة فارعـة مهيبـة، وعينـاه محمرتـان، حادتـان كعينـي ذئـب، ولـه شـارب يطغـى عـلى شـفته العليـا، كشـلال جـارف، وكفـه مـن ذوي العماليـق، أمـا قدمـه في ذلـك الحـذاء الـذي أتخيلـه الآن، فطويلـةٌ كسـفينة. ولجسـامة سـذاجتي، وقفـت في الطابـور ثـاني اثنـين، أولهـما عريـف الصـف، صديـق الطفولـة طـارق، وأتانـا المديـر يرمـل عـلى غضبـه، حمـم بـركان سـائلة، بعَصـاً مسـتطيلة الشـكل طويلـة، قـد تربـو عـن مـتر، وضربَ كل واحـد منـا سـت ضربـات (عصايـات) سريعـة، ثـلاث عـلى كل يـد، بكـل قوتـه!. انهـار كل واحـد منـا عـلى الأرض متكومـاً عـلى نفسـه كقنفـذ، يسـحق يديـه عـلى بعضهـما سـحقاً في حضنـه، ويتلـوى كالمبطـون أو المطعـون - لا أدري - مـن شـدة الألم الصاعـق في ذلـك الـبرد الصاعـق لعلـه يغيـب عـن وعيـه لحظةً ويشرّد شـعوره فيـه. وتناثرنـا كقتـلى المعـارك يتطايـرون عـن يمـين وشـمال في ذلـك الطابـور الـذي يخترقـه المديـر كنهـر جـارٍ. رأت مدرسـة اللغـة العربيـة، المشـهدَ مـن الأعـلى، ونزلـت شـفيعة لكـي تسـتنقذ مـن بقـي، الـذي نـال ضربتـين فقـط فنقـص نصابـه عـن السـت الموجعـات.

تورمـت يـداي كقطعـة رغيـف سـميكة، تُخبـز مشـوهةً ممـا بقـي مـن العجـين، ويـوم أتـى موعـد امتحـان اللغـة الإنجليزيـة في الحصـة التاليـة، أدينـاه بكـل سـكينة كشريعـة جنائزيـة صامتـة، وتسـاءلتْ أسـتاذة اللغـة الإنجليزيـة عـن السـبب الـذي جعـل عيوننـا محمـرة هكـذا، لم تـدرِ أن العيـون قـد تحمرُّ أيضـاً في الـبرد - كالأنـف والأذنين - عندمـا يغيـب أسـتاذ العلـوم!

رصيفنا

لريـف الجزيـرة السـورية زمـن مختلـف، يسـترخي بـه عـلى بـطء وهـدوء،

ونصيبه من ألوان الحضارة الحديثة قليل. فما له ولها؟ وأخضر الحياة يلبس جسده بساطاً فسيحاً ينسجه النماء مع الشتاء حتى يبلغ عنفوانه في الربيع، فيصبح حدائق ذات بهجة تسرُّ الناظرين، ثم يهيج مصفراً مع بواكير الصيف، ينوء بأجنة القمح تتلوى على أوتار الرياح كشعر فاتنة يهدر كشلال من ظلام من شدة نعومته وغزارته.

أمر بتلك السنابل عن يمين وشمال، يحملني كتابي في طريق متناءٍ يشدُّ أزر تلك القرى الصغيرة المتناثرة في ذلك الريف البعيد، هكذا كان يدرس طلاب التاسع/ الكفاءة (الثالث الإعدادي)، والبكالوريا (الثالث الثانوي)، يحتقبون كتبهم عائدين من المدينة إلى قراهم، ليعكفوا عليها شهرين متتالين من شباب الربيع، استعداداً للامتحان الشديد، ثم تدور أقلامهم مع دوران آلات الحصاد، وكلاهما - الطالب والأرض - مبعث آمل لأهليهم أن يكونوا مثمرين.

وصلت إلى القرية عصراً، لأعد العدة لامتحان الصف التاسع 1997، وما إن تململتِ الشمس صباحاً، حتى وقفت الساعة السادسة على الطريق أحمل كتاب التاريخ، ثم انطلقت في رحلتي الأسطورية التي استغرقت 7 ساعات، وخمس عشر كيلو متراً تقريباً.

وصلت الساعة الثانية عشرة ظهراً والأرض تدور في عقلي كالسراب من شدة العطش والتعب، ثم تبت عن ذلك الجنون توبة نصوحاً، وأذكر أنني أنهيت فيها عشرة دروس، وهي تعدل ثلث كتاب التاريخ المكون من ثلاثين درساً، كنا نحفظ النصوص عن ظهر قلب بدقة حرفية جداً.

ولبيتنا رصيف يطوقه من جهاته الأربع كالسوار، لو تكلم لأصغت إليه سنون وسنون، وخطوات وخطوات، وذكريات وذكريات، لكثرة ما مشطته

أقدام الدارسين من إخوتي، أتعاور على شرقه أو غربه بين صباح ومساء، كلما أضاءت الشمس إحداهما انفرد الظل بالآخر وبي.

ومرة كنت أذرع ضفته الشرقية عصراً، والجوّ تهدهده ريح خفيفة، أنتقل بين زاويتيه جيئة وذهاباً، ولما وصلت إحداهما حدث لقاء خرَّ له قلبي صعقاً؛ إذ كانت أفعى تمشي الهوينى على الضفة الجنوبية من الرصيف وحدث لقاؤنا على قدرٍ عند الزاوية، ولا أدري كيف فرّت بي رجلاي بُعْدَ المشرقين عنها، ثم استجمعت فلولي ورميتها بحجر صخم دقّ ظهرها، وكنت أرأف بها من جساس على كليب، إذ أجهزت عليها، لكنها أورثتني خوفاً مستديماً جعلني أتجنب القراءة بين الحقول لـمّا طالت، خوفاً من أي زاحف مستخف من قومها.

وإذا كان ذاك المشهد المخيف من أمر اللقاء، فإنني لن أنسى مشهداً آخر من أمر الفراق، وهي اللحظة الأخيرة التي ودعت فيها القرية عندما سافرت إلى السعودية يوم تجمع أهلي على نفس الجهة الشرقية من الرصيف، ولا أقوى على رسم تفاصيل المشهد، ولكنني لن أنسى تلك الصورة، صورة باسل - أخي الأصغر، والأعز إلى قلبي - واقفاً على الرصيف ينظر إليّ، وهو يبكي، بيده كتابه، حين كان منقطعاً لامتحان البكالوريا، على الرصيف ذاته، وسينهي الآن سنته الجامعية الأخيرة، ولم أره من يومها.

أحببت أن أعرفكم برصيفنا، وأؤمن أن الأماكن مخلوقات حية، تشعر بنا ونشعر بها، يتنفس بها زمان قلوبنا وذكرياتنا وأحبابنا، هل هذا سرُّ وقوف كل شاعر على الأطلال؟ هل تراه يحاول أن يستعيد نفسه أو يعانق أحبابه حين يقف على ذكرياتهم التي وفّى لها المكان؟ هل لذلك قال ذو الخلق العظيم ﷺ: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»؟.

وهذا أحد الجروح البليغة التي تنزف من قلب كل مغترب اعتاد أن يغير

بيته أو مدينته أو مكان عمله كل حين، لا انتماء للمكان أو الناس، لا يربطه حب بالبيت وتفاصيله الباهتة، إنه ليس له، وكأنه نبتة هشة بلا جذور، بلا هوية كوجه ينوء بالأصباغ والمساحيق والعدسات فلا تعرف حقيقته، ولا أدري كم هو حجم خسارتنا؟ 30 سبتمبر 2015

شؤون كبيرة

عرفت نزاراً من مدرّستي في اللغة العربية في ثانوية ذي قار: الأستاذة خولة العنبر، جزاها الله عني كل خير وبلّغها سلامي أينما كانت، محفوظة من كل شر، مكلوءة بكل عناية، فقد كانت كثيرة الحديث عن نزار وغسان وغادة ومي زيادة وجبران. ولعلها نادرةٌ قليلة أن توجد مدرّسة في بلدة نائية - كاليعربية - على هامش النسيان، تهتم بالمطالعة في ذلك الزمن وتغذي طلابها بشيء مفيد ممتع من خارج المناهج، وتشحذ ذائقتهم الأدبية.

وقد جعل قربنا من العراق وشبهنا به، قد جعل للغناء العراقي في أنفسنا فعلاً خاصاً، إنه شيء يشبه غذاء التكوين، يصكّ في أرواحنا معنى الحنين، فهو أداة تربية ذوقية روحية تصنع معنى الإنسان في داخلنا، في ريف بسيط ناء لا خدمات فيه، لا تعي حجم مشقته إلا عندما تشذّ خارجه وتطويك المسافات والأزمان والمدن الكبيرة.

وقربنا من العراق جعل شاشة تلفازه قريبة أيضاً؛ لذا قد كان كاظم - وغيره - حاضراً هناك بفنه أولاً، وموصله لا تبعد كثيراً، وقد اكتملت هذه الدائرة في نفسي يوم اتحد نزار وكاظم في رحلة الجمال والمعنى، وأستدرك بشيء آخر يكمل هذه الدائرة ويضع أسسها، إنه أثر أخي الكبير عليّ وهو أول دارس في العائلة يصل المدينة ويكمل تعليمه. فقد كان يحفظ الشعر

ويكتبه بخطه الجميل، ويدمن سماع الأغاني العراقية، وأذكر أن لديه ما لا يقل عن 400 شريط كاسيت، جمعها أخيراً في شنطة سوداء كبيرة ولعلها لا تزال تشهد على أطلال ذلك الزمن الجميل الذي كانت عامرة به في تلك المسجلة اليابانية الحمراء بنوع شارب، التي بقيت لدينا قرابة عشر سنوات (عقد التسعينيات).

تلك هي بداية الشعر وتذوق الغناء في نفسي (نزار وكاظم خاصة)، أيقظتني إليها أغنية كاظم (شؤون صغيرة) التي سمعتها مصادفة، أكتبها الآن بعد انقطاع طويل عن تلك المرحلة هائلة النمو، التي قرأت فيها ثلاثة عشر ديواناً لنزار قباني قراءة كاملة مركزة، بل كتبت الشعر لسنوات على كل البحور بكثير من العاطفة البكر، وكان النثر هامشاً عندي، ولا أترك ألبوماً جديداً لكاظم يفلت مني، فقد كان صدور الجديد منه حدثاً مشهوداً ننتظره، لكن كل هذا توقف.

قصيدة شؤون صغيرة النزارية المغناة بصوت كاظم، كلماتها كحبات النمل تتسلل إلى روحك فتعيث فيها دماراً، حنيناً وذكرى، تحنُّ إلى كل شيء، حتى إلى نفسك التي كانت، شؤون صغيرة أعمر منها قصوراً، وأحيا عليها شهوراً، وأغزل منها حكايات كثيرة، وألف سماء، وألف جزيرة. 1 أغسطس 2018.

البكالوريا؛ دورة عام 2000

نقلني إعلان نتائج البكالوريا السورية (شهادة الصف الثالث الثانوي)، إلى ذكريات محطة عزيزة من محطات العمر، من عام 2000 في مدينة القامشلي الحبيبة، يوم كنا في البكالوريا، محطة مفصلية من حياة الطالب السوري، تتغير بها حياته لتختلف عما قبلها اختلافاً حاسماً، وكأنك تقف

على سور بين عالمين، وإن لم يكن لك نصيب فيها، فليس أمامك - في القرى خاصة - إلا رعي الأغنام، أو سقي الحقول، أو الهجرة للعمل إلى مدن العمق السوري، أو الخليج أو الأردن أو لبنان.

يبدأ الحشد لها منذ الصف الثاني الثانوي، وبعضهم يبدؤه منذ الصف الأول الثانوي، ليبلغ ذروته في الفصل الثاني من البكالوريا، حيث ينقطع الطلاب عن الدراسة في المدرسة ويعتكفون في بيوتهم ثلاثة أشهر متواصلة، إلى أن يسلموا الروح في حزيران، ليجتمع عليهم حران، حرّ حزيران وحرّ الامتحان.

نتبعثر - نحن طلاب القرى - بعد أن جمعتنا المدينة، عائدين إلى قرانا، لنعود مرة أخرى قبيل الامتحان، ووجوهنا كالحة، يابسة من حرِّ شمس الحقول، وكتبنا مشوهة، منكوثة، كأنها مغسولة من كثرة اللمس واللف والطي والخربشات.

ويا لها من أيام عسرة، أيام الامتحان الخمسة عشر، يُزوى فيها كل قلق الدنيا في حجرات قلبك الصغير، لأن أي فشل فيها أو تفريط، سيعني ضياع سنين من السهر والتعب والقهر، وتأخرك عن الركب، فكيف إن كنت طالباً بائساً وحدك، لا أهل معك، ليشدّوا من أزرك، وليس لك إلا عون الله، وثلة صغيرة من صحبك، الذين احتضنك وإياهم قدر مشابه، فالطالب الريفي تجتمع عليه مصيبتان، مصيبة الامتحان، ومصيبة بُعده عن أي دعم أسري في تلك اللحظات العصيبة، كنت أخاف أن أنام فيفوتني الامتحان! إن تخيل ذلك، كفيل أن ينزع قلباً نزعاً من الخوف، أن يفوتك ما أعددت له شهوراً مضنية.

إن سذاجة قرانا لا تضاهيها سذاجة، حقّاً إن الريف قاسٍ لجهله وتجهيله، وإهماله وقلة حيلته، فما الذي يمنع الأم أو أي أحد من العائلة أن يقيم مع ابنه الوحيد في تلك الأيام العصيبة؟ ومن يعرف هيبة البكالوريا السورية بفرعها العلمي خاصة، سيعي ما أقول؛ إذ توشك أن تكون معركة وجود أو لا وجود؛ أربعة كتب في الرياضيات: الجبر والمنطق، والتحليل الرياضي، والهندسة التحليلية والفراغية، والمثلثات والحركة، أما الفيزياء فجرم ضخم من خمس مئة صفحة، وكتاب كيمياء، صغير الحجم لكنه مركز المحتوى كأفعى صفراء، أما علم الأحياء فقد كان من القواصم التي تضيع فيها الدرجات والحسرات! وكتاب في التربية القومية يشبه قلب اللئيم لا تحبه ولا تهضمه إلا بصعوبة بالغة، كأنك تنحت في صخر... إلخ. ولا أدري يومها كيف اهتدينا - نحن الخمسة؛ الفيصلين وحارثاً وسالماً ونادراً - إلى ترك غرفنا لنقيم في المسجد كل أيام الامتحان، مسجد حارة طيء الكبير، ندرس فيه وننام فيه، ولا نخرج إلا جائعين، إلى طعامنا العتيد: الفلافل من مطعم العم جان، الذي كان يبقى إلى ساعات متأخرة من الليل، فنتساقط عليه كحشرات ليلية لا يغريها إلا الضوء.

يغصُّ القلب بذكريات تلك الأيام، وتفاصيلها العزيزة، من دراسة، وسهر، ونوم، وضحكات، وتعب، وخوف، وجوع، وتنافس جميل، ولا أدري كيف أديرها، إذ تفلت من قلمي كلما حاولت إحكامَهُ عليها، لأمسكها بكلمات، فقد أصيبت الذاكرة بالوهن، وتراخى نسيجها، وغاض منها ماء غزير. لقد خرجنا من تلك الأرياف المُبعدة، كالشوك من بين الصخور، وتساقط كثيرٌ منا على الطريق، تساقطوا بلا رحمة.

2020-7-30

قمم وقيعان في الأدب والأسنان!

بعض الطلاب كان يعيد دراسة البكالوريا مثنى وثلاث ورباع إلى أن ينال الدرجة التي تدخله كليات القمة كما يسمونها؛ الطب البشري والأسنان والصيدلة، أما أنا فكنت أقول: لن أعيدها ولو كانت درجتي لا تؤهلني إلا لدراسة معلم صف، فلم تكن تعنيني كليات القمة كثيراً، وقد اخترت حقّاً الفرع الأدبي الذي أحبه، لعلي أهوي في كلية من كليات القاع، كلية الأدب العربي، ولولا أخي لما غيرته إلى الفرع العلمي، الذي أقنعني به لدراسة هندسة البترول، فنحن في محافظة الحسكة أُمّ البترول السوري، ولمهندسي البترول امتيازات ضخمة، فليس للرغبة والميول أي حصة هنا، إنما الصولة والجولة للتخصص الذي يهب المال والوجاهة الاجتماعية، بلا احتفاء بمواهب الإنسان واستعداداته، فكل شيء في وطننا البائس يتواطأ على قتل شيء جميل في روحك، لتعيش حياتك كلها، سلسلةً من الإكراهات التي تقبرك قبل قبرك، فواحسرتاه على سناء الروح والحرية!.

وما أصعب المدة التي تنتظر فيها نتائج الامتحانات، كأنك تقف على الريح من القلق والترقب، فلما ظهرت نتيجتي كانت تؤهلني إلى كليات القمة، ومن كان يريدها من أصدقائي لم تؤهله نتيجته، فواعجبا من أقدار هذه الحياة! إن أردتَ الشيء فلن يأتي إليك، وإن لم تُرده أتاك يسعى، وكأن الحياة فتاة لعوب، كل متعتها أن تتعمد مغالبة رغباتك وخياراتك.

وها أنا ذا قد ارتقيت إلى القمة الثانية في دمشق بعد الطب البشري، وأشرفت على هذا العالم المرهق من أفواه الناس وأسنانهم، أخوض في لعابهم ودمهم، وروائح أفواههم الملهمة أحياناً، وأرى كيف يرهبهم الألم، فحقنة

طبيب الأسنان، كقهر الطغيان، تختار أكثر الأماكن حيوية وتؤلمك منها، وقد سمعت كثيراً من المرضى يقول لي: لا تؤاخذني فأنا أكره أطباء الأسنان، فأعاجلهُ بقولي: لا عليك، وأنا أكرههم أيضاً.

ولم تكن القمة الأولى -كلية الطب البشري - عني ببعيد لو احتطت كما احتاط غيري ببعض الإجراءات الحزبية، التي تمنحني بضع درجات تكمل لي النقص، ولست نادماً على ذلك، فالشيء الوحيد الذي أحسرني يومها أن جلَّ درجاتي ضاعت في المادة التي أفتخر بقوتي فيها، ألا وهي اللغة العربية، لأنني أسأت فهمَ سؤال الموضوع/ الإنشاء، فنقصت شواهدي الشعرية فيه، وصفعني ذلك المثل الحصيف: يُؤتى الحذِر من مأمنه! والحمد لله أنني أُتيت منه، وأنقذت بضع سنوات من عمري كان سيلتهمها الطب البشري الجرار، فلم يكن لي في ذلك الحي القممي - كما أسلفت - أي رغبة ملحة، لذا فقد تساوت كل الأوجه والأصوات، والحمد لله أن قدر الماجستير قد انتشلني من أفواه الناس، إلى أورامهم، وصرت أنظر من عدسة المجهر لا فتحة الفم التي لم أمكث فيها إلا سنوات قليلة، كانت كفيلة بأن ألعن الشمعة والظلام معاً، لأجد في المسار الأكاديمي والتعليم مرسىً حانياً في جفوة الاغتراب. والحق أنني ربحت طب الأسنان وتجربة ثرية فيه، وميزات الدراسة العلمية التي ترتب العقل، ولم أخسر الأدب. 24/ 3/ 2021.

شهادة لشهيد

كلما تقدمت بك السنون، وقلّبتكَ أمواج الحياة، وأنضجتك التجارب، ورأيت منها ما يسرك أو يضرك، وخسفت التجاعيدُ بروحك كما ظهرت على وجهك، علمتَ قيمة الطيبين الذين ربط الله بهم على قلبك في لحظة البداية الغضة، وأدركت أثر صنيعهم فيما أتى من أيامك بعدهم، إن فاتك

إدراكه فيما تقدم منها بوجودهم، وإنك لفي خسر مبين إن سبقك موتٌ إليهم فلم تحفل بهم يوم بلغت أشدك، وأطبقتَ في صمت على حقيقة شعورك نحوهم، فلم تُشهِدهم على أثرهم في نفسك وحياتك كما ينبغي، هي خسارة لك لا لهم، لأنهم عند ربهم يرزقون ولن يضيع عملهم، ولا أدري لماذا لا يستفزنا إلا الموت لكي نقف لهم ونبرّهم! ألا يكفي ما هو أقل منه لكي نعجل إليهم ونسعدهم قبل رحيلهم؟

ما أحفلنا بالنهايات، وأنطقَ ألسنتنا وأقلامنا في المآتم! يبدو أن هذه النفس البشرية مجبولة جداً على إدراك الحقائق حقَّ إدراكها حين الفقد فقط، فكأنك لا تبصر إلا عندما يعم الظلام والختام!.

تسائلني نفسي الآن: لماذا لم أكن أزوره وأنا عائد من دمشق أو ذاهب إليها ماراً بالقامشلي التي يسكن فيها؟ لماذا لم أره مرة واحدة بعد نجاحي الكبير في البكالوريا، بدرجة 59 من 60 في الرياضيات التي علمني إياها، لأدخلَ أفضل جامعة في سورية في طب الأسنان، جامعة دمشق؟ ولا أذكر هذه الحقائق لأكبر في نفسي بل لأبدي أثره الكبير عليها وفضله، وأنا في حضرة وفاته الآن على تباعد المسافات ولا سبيل للوقوف في عزائه أو تشييع جثمانه، ولكن لعل الله يقبل مني دعوة له، ترفع قدره هناك وتذب عنه بما عمل وأحسن.

هي كلمات أشيع بها أستاذي محمد شهيد نانة، أستاذ الرياضيات في البكالوريا، فإذا ذُكرت البكالوريا، في مدينة القامشلي، ذكرت ثانوية العروبة وطودها الراسخ في الرياضيات، الأستاذ محمد شهيد، الذي شهد على ألوف وألوف من الأجيال الذين أصبحوا أطباء وصيادلة ومهندسين، وقل ما شئت من التخصصات الجامعية الكثيرة... إلخ، يسلمون قيادهم له منذ الصف الثاني الثانوي إعداداً لمعركة البكالوريا في الرياضيات.

فلا يمكن أن ينبض قلبٌ من تلك الأجيال المتتالية دون أثر ما، من محمد شهيد نانة، ذي الصوت الحازم، والنظرة القوية، والخط الجميل، واللبس الأنيق، الذي تلمس في أناقته وصرامته وخطه، دقة الرياضيات وصرامتها، فكأنّ كتابته الرياضية على السبورة أو الدفتر، لوحات بديعة تطرب الروح لمرآها، وتدمن تأملها.

تجمعني ذاكرتي الآن به في موقف كريم، يوم زارني في المستشفى بعد إجراء عملية الزائدة الدودية، يهنئني بالسلامة، وقبل أن يخرج وضع مبلغاً من المال تحت وسادتي وخرج بسرعة، ليتقي أي محاولة رفض!.

رحمك الله من شهيد كنت شهيداً علينا، نحن طلابك القادمون من وراء سحب الغبار في القرى النائية، بأوراحنا الشعثة كهيئاتنا، ليس فينا إلا صفحات بيضاء - بلا عناوين - متعطشة للملء، وأشهد أنك قد أحسنت مِلأها، فسلّحتنا بما يعيننا على مكابدة هذه الحياة بجدارة، ثم انطلقنا نسعى فيها ولم نعد بعد، ولنا أمل أن يكون لنا لقاء في دار اللقاء، فارقد بسلام ورحمة من الله.

ولـمّا كانت هذه اللحظة لحظة امتنان، أريد أن أقف عند تلك العملية لأذكر فضلاً آخر لا يزال صاحبه حيّاً؛ إذ لم أنم ليلتها من شدة الألم، وكنت وحدي، ثم ذهبت عصراً إلى دورتي الدراسية المسائية، أمشي ببطء، لأسكت الألم الذي كان يستيقظ بسرعة ما إن يتحرك الجزء الأيمن من جسمي.

لقد تعودنا على مطاولة الألم ومصابرته، فلا نذهب إلى الطبيب إلا بعد أن نشعر أن الحدث جلل، وظننت أنها وعكة عابرة، لكن ذلك لم يرُق لصديق كريم هو الدكتور حاتم، الذي احتال عليّ لنذهب إلى الطبيب! وبذل من ماله وجهده، وقد كان لطفاً من الله أن فعل ذلك؛ إذ لو تأخرت أكثر،

لانفجرت معي الزائدة ودخلت في مضاعفات كنت غنياً عنها، في مرحلة حرجة هي البكالوريا، أحتاج فيها إلى كل ذرة صحة ووقت، لأقطف ثمرة الإعداد المضني، وقد كنت وحيداً يومها، بقيتُ الصيفَ كله في القامشلي لأتم الدورات الصيفية قبل بدء العام الدراسي، ولم أعد إلى القرية كما هو العرف الشائع. أُجريتِ العملية لي، وكان آخر وجه رأيته قبيل دخول غرفة العمليات هو وجه حاتم، وأول وجه رأيته بعد أن صحوت من التخدير هو وجه أبي وأمي، فسلام عليهما، وعلى صديقي، وعلى معلمي. 16-9-2020.

رحلة بين كوكبين

الليل واسع ثقيل، ما أعرض ظلامه في برد الشتاء! لا تقلِقُ كبرياءَهُ أضواءُ المدينة وأصواتها، موحشٌ طعمُها الليليّ في قلب المسافر الغريب، هي هامش فيه، كما هو هامش فيها، وطريق للعبور، كلاهما يعبر الآخر، يعبرها إلى دمشق، وتعبر من أنفه، من عينيه، من سجل قلبه، وتقيم في ذكرياته؛ لا أنسى تلك الرائحة المؤلمة، رائحة الانتظار ليلاً في موقف الباصات الطويلة (الكراج) في مدينة القامشلي، التي تطبق على القلب كقبضة يابسة، كأنه عصفور طريّ لا يملك من مصيره إلا ألم الاعتصارات، ثم يكوّمُهُ كرسيُّ الباص تسع ساعات حتى دمشق؛ ولا فجيعة صامتة تعدل ألم تلك الليلة، إلا فجيعة الفجر البارد المظلم في كراج حرستا - دمشق، كراج الوصول، يزيد فجيعته وبشاعته صراخ السائقين، كلٌّ ينادي إلى وجهته، فإذا خرجت من زنزانة كرسيك ووطئت الأرض، ابتدروك، متنافسين عليك، تتعرف بعدها إلى جغرافية جسدك وأطرافك، بعد أن كان مطوياً كورقة صفراء تسع ساعات، تصل إلى غرفتك، ولا تريد إلا أن تنام، يمسي النوم - هنا - طريقة حياةٍ هاربة لا جزءاً منها يعين عليها، لغةً تعايشُ بها الوجود لتستقيل منه

بضع ساعات، لتنسى كل شيء، وتهرب من كل شيء، ويهدأ أنفك فتنسى تلك الرائحة التي تزكم قلبك، رائحة تلك الليلة وفجرها وما بينهما من رحلة شاقة، كأنها بين كوكبين أو مجرّتين، فلو فتشتم في قلب كل طالب من أولئك لوجدتم فيه رمادَ مساحةٍ كبيرةٍ اقتطعتْها منه تلك الرحلات، ليطلب العلم الذي لم يكن في الصين، ففي بلادنا، تطول المسافات وتعسر على الطالبين، لتصير كل الأمكنة صيناً، لينالوا شرف الطلب! 25 يناير 2021.

لم يعد يختار في الوحشة نوع الأصدقاء

(صاحبي يرضى بما يأتيه إذ يأتي المساءْ

مثلما يقبل هذا الليل ما يُعطى من الأنجم من دون انتقاءْ

لم يعد يختار في الوحشة نوع الأصدقاءْ).

[لم يعد يختار في الوحشة نوع الأصدقاءْ]؛ هي جملة من مقطع من قصيدة (ثلاثيات المنافي) للشاعر العراقي عماد جبار، كانت كثقب في الزمن، هويت فيه إلى البعيد، كأنها جملة من الحياة:

يُنار وجه الإنسان عند ولادته بضوءٍ من وجه أمه وحضنها، ويمتد جسده بعضدي أبيه، ثم يواجه عالمه الصغير بطوق من محبة إخوته، وألفة أقاربه وجيرانه وأقرانه، يرى الحياة صغيرة جميلة محدودة بحدود قريته أو حارته، لا تعرف الوحدة باباً إلى قلبه المحصن بتلك الأحضان الحانية من أهله ومجتمعه المتعارف المتآلف، حيث يتضاءل بون المتغيرات هناك، فأقرانه في القرية أو الحارة هم زملاء المدرسة، كلهم أو بعضهم، ويبقى له من أهله - ما دام بينهم - ظهيرٌ على أي كسرٍ أو قهرٍ، يشعر أن قوته تتجاوز جسده لأنه في جسد أكبر وأقدر.

وما أحنّها من نعمة! يكفرها من رانَتِ الألفة على قلبه، فلا يصدمه لطف تلك النعمة إلا عندما تنتزعه الأقدار من ذلك الحضن الغامر العامر، وتلقي به في وادي الغربة السحيق، ينقصُ حدودَ روحه وجسده ببرده النافذ، ويكفكف ابتسام بصره بظلامه الطويل، ليرى الحياة أكثر جبروتاً.

ولعل أبناء القرى في المناطق النائية النامية، هم أبكر الناس إلى هذا المسير القاسي، فإذا كان للطموح والتعلم ضريبة جسيمة، فإن ضريبته فيهم أجسم وأعظم، لأنهم لا يجاهدون أسباب طلب العلم وحده، بل أسباب الفقد والحرمان من كل حضن داعم يخفف عليهم وعثاء الطريق وكآبة المنظر.

في ذلك الوادي السحيق، وادي الغربة المظلم، أثاراتٌ من رحمة الله، هي الصداقة، يشدُّ بها المولى عضدَ المسافرين المحزونين، رفقاء الفقد البكر، والحلم البعيد، يلوّنون به وعورة الطريق.

وها قد استدار الزمان، ومزقت جسد الصداقة غربة تلو أخرى، فتناثرت أشلاؤه على الخرائط، كشعب سوريّ تقاسمته المنافي والبحار.

آهٍ أيها العمر، رحلت، وليس في الوسع مزيدُ سنينَ ليمتد القلب بصديق صدّيق يسقي ظمأ الروح في هذه القفار المتراكبة، وهَبْ أنك وهبتني مزيد سنين، هل ستهبني نشوة الحياة الأولى، وبراءة البداية، وقدرةً بكراً على صداقةٍ كتلك التي كبرت معي، في أضلعي، سقيتها بأصابعي ومدامعي؟.

هل ستقوى على كتابة رسالة من ست صفحات كبار بنفَس واحد بلا توقف إلى صديقك حميد كما فعلت يوماً؟.

هل ستكتب إليه كتيبات كثيرة كثيرة من شعر ونثر، تستنسخ عليها حياتك حروفاً؟ أو تذرع معه الدروب بين الحقول، أو الليالي بين الأغاني العراقية العتيقة؟.

هل ستكتب قصيدة شعر - تشبه قصيدة غزل بحبيبة - تخلد بها لحظة وداع مؤقت، على شارع المزة كما فعلت مع صديقك فيصل، والمصابيح ينزف ضوؤها البرتقالي كبيت نزار: إني كمصباح الطريق صديقتي، أبكي ولا أحد يرى دمعاتي.

هل ستقف بعض عمرك لياليَ طويلة في غرفة مرهقة في القامشلي تستمع فيها إلى عبد الحليم أنت وحارث وسالم: موعود معايا بالعذاب يا قلبي، وابتدى المشوار.. حاول تفتكرني.. وخذتني ومشينا والفرح يضمنا، ونسينا يا حبيبي مين أنته ومين أنا، حسيت أنو هواناح يعيش مليون سنة، أو كاظم في أروع لحن؟

هل ستجعل محطة قلبك - في كل سفر إلى دمشق - عند صديقك سليمان في القامشلي؟ وهل ستجد خمس سنوات أخرى تعيش بها معه في غرفة صغيرة في مزة بساتين الرازي، تمشطون كلَّ عشاء الطريقَ إلى سوق القرماني الذي اندثر الآن، في حوشٍ مطوق بالغرف والقلوب والضحكات والمشاكسات التي أرهقنا بها ثائر الذي كان ثائراً يومها، والآن سكنت روحه، ووجهه كقارب لجوء مثقل بالتعب والهموم والحنين.

وهل سترى أبا يسار كما كان، بشعره الطويل وروحه المتدفقة ومسجلته القديمة، يحدثك عن السياب وعن كاظم إسماعيل كاطع وعريان السيد خلف، ويسمعك قحطان العطار: مو غريبة، مو غريبة.

ولن تسعفك الحياة حتماً بوداع آخر لسورية، ترى عبر زجاج الباص أسامة وسليمان ينظران إليك في الظلام، حتى لا تنام، إنه عصر آخر بلا ماء أو هواء، تغيرت فيه الوجوه حتى وجهك، لقد شاخت الرغبة، وذبل الاهتمام، واستوى في القلب المضنى كل شيء، لم يعد يختار في الغربة نوع

الأصدقاء، فلا سبيل الآن إلى ذلك الترف، ترف الاختيار بين خيارات كثيرة! 17 أكتوبر 2017.

رفقاً بالقوارير

إن التنقل بين مجتمعات متباينة الثقافة، يضعك في مواقف طريفة أو سخيفة أو مخيفة، جديرة بأن تُدوّن. وهو رحلة تنضج بها نفسك، وتكبر تجربتك، وتنحسر سذاجتك، ويزداد فهمك للحياة ولأحيائها، ويقل تطرفك أو حديتك، فتزداد نسبيتك ومرونتك، وتهدأ شيئاً فشيئاً. ولعل علماءنا الأوائل أصابوا يوم قللوا من علم العالِم الذي لا يغادر بلده.

كانت السعودية هي البلد الأول الذي عرفته بعد سورية، أتيتها أحمل تصوراتي عن العالم وعاداتي فيه كما ورثتها من هناك.

أولها أننا في سورية، نشرب الماء مباشرة من أي صنبور، ولما أتيت إلى الرياض تشابهت عليّ الصنابير، فوثقت بها، وظللت أنا وزملائي، نشرب منها خمسة عشر يوماً، حتى رأيت العامل الهندي (هاري) يحمل إلى جيراننا تلك العبوات الزرقاء الجميلة فسألته: لم؟ كنت أظنها ترفاً، ظننت أن بعض الناس يفضلون أن يشربوا مياهاً معبأة، لنصبح أنا وزملائي الأطباء، الذين قدموا معي من سورية أضحوكة المركز الطبي، وكان اكتشافي يومها كتفاحة نيوتن، أو كمومية بلانك، فماء الصنابير غير صالح للشرب!.

وكنت كلما اشتريت كولا في قارورة من زجاج، كنت أشربها في المحل مباشرة لأعيد قارورتها الزجاجية إليه، ففي سورية كان لزاماً عليك أن تعيدها أو تتغرم حقها إن كسرتها، كنا نشتري مشروبها بخمس ليرات، أما غرامتها

سبع ليرات ونصف الليرة، على ما أذكر، كانت سينالكو أو كراش!.

لما أعدت القارورة الزجاجية إلى البائع الهندي نظر إلي مستغرباً!؟ فأخذها مني ورماها في القمامة! كان مشهداً غريباً عني، كيف تُرمى قارورة زجاجية ثمينة في القمامة!.

وتلقيت جراحاً كثيرة بعد ذلك جرّاء رمي القوارير وأشباهها من العلب الأنيقة في الزبالة، حتى مات ضميري القاروري شيئاً فشيئاً، وصرت لا أرفق بها البتة، تبّاً للقوارير! وفي سياق آخر، حمصيٌّ نشأ في الإمارات عندما عاد إلى أقاربه في سورية، رمى قارورة الكازوزة في الزبالة كما اعتاد، فكاد صاحب المحل أن يفتك به، وفرَّ هارباً يركض خلفه لفيف من أهل الحي.

وقد بلغني عن صديق يعيش في شمال الكرة الأرضية بين أحفاد الفايكنغ، أن لكل مادة حاوية قمامة خاصة، فلا يمكن لك أن ترمي مادة بلاستيكية أو زجاجية في حاوية المواد العضوية كالأطعمة وغيرها، فإن فعلت ذلك، خالفت الأنظمة ولزمتك الغرامة، وبقوا زمناً لا بأس به ليتعلموا فقه رمي القمامة!.

وذلك نظام حق، لأنه يعلّم البشرَ الترشيدَ، ويقمع شهوتهم إلى الإسراف، ويخفف عن الطبيعة فساد هذا الإنسان، فيرحم مواردها، ويعزز نظافتها، لأن الهدر والإسراف والاستهلاك شيمة هذه الحضارة المعاصرة، وقد كانت ثقافة إعادة التدوير (Recycling)، أصيلة في أدبياتنا الإسلامية لكنها ضاعت كما ضاع غيرها.

وأذكر في دمشق جمعية اسمها، جمعية حفظ النعمة، تتعاون مع المطاعم لمنع رمي الطعام الزائد، فتصلحه وتعطيه لمستحقيه، بينما ترى مصيره في كثير من بلداننا إلى حاوية القمامة بلا وجع قلب!.

أما في ريفنا، فيوشك أن يكون إعادة التدوير، وحسن استثمار المواد، والاكتفاء بأقلها، سمة أساسية كدفء الجلد وعطر البشَرة، بل إن المواد لتتضرع إلى ربها وتجأر، من كثرة استخدامها، فلا تُترك إلا بعد أن تصبح جثة هامدة، وتتحلل وتعود إلى الطبيعة كما بدأنا أول خلق نعيده!.

فعُلَب الحلاوة الطحينية والمربى الفارغة تتحول إلى أوعية ملح وسكر وبهارات، مع التنويه أن تلك الأكلات اللذيذة ليست متوفرة دائماً، ولكن يكفي أن تشتري علبة حلاوة واحدة لتستعبدها العمر كله، وتشهد تعاقب الأجيال في العائلة، بل لعلها تصبح من مثابات حنينك إلى أهلك وقريتك، أما في حياة اليوم فثمة محلات مخصصة لبيع العلب الفوارغ من أجل السكر والبهارت، والرز وإخوته... إلخ.

تشتري معطفاً شتوياً واحداً، تتخذه خليلاً لسنوات عدة، ثم يرثه أخوك من بعدك، فإن فَقَدَ وظيفته، أحيل إلى السيدة الأولى ومُزّق شرَّ ممزق واستخدم في صنع غطاء الخبز مثلاً، فنساء الأمس كنّ مهرة في الخياطة، ولأصابعهن ملاحم طويلة مع الإبر والخيوط. أما اليوم فلا تطول إلا أظافرهن الملونة، ولعل من مؤشرات الحداثة المجرمة أن يقصر شعر الأنثى ويطول ظفرها.

أذكر أن لي نطاقاً عسكرياً استخدمته ست سنوات؛ لأننا في سورية كنا ندرس في الزي العسكري منذ الصف الأول الإعدادي حتى الثانوي، وأظنهم لو بحثوا عنه الآن لوجدوه.

أما الحذاء، فله مسيرة مؤسفة حقّاً، ما إن يُشترى، حتى تهرع به إلى الإسكافي، ليثبت نعله بمسامير كثيرة، فإن ذاب بعد سنة أو يزيد وضعت له نعلاً جديداً، وأعدت تأهيله، فلا يُترك حتى تبلغ القلوب الحناجر حين تبدأ بوادر ظهور أحد الأصابع من طرف ما.

ولعل وجود محلات التصليح، أحد المؤشرات على هذه الثقافة في مجتمع ما، ستراها كثيرة، متوفرة، لا تتعب في الوصول إليها، محل لإصلاح الأحذية والشنط، وآخر لإصلاح الأجهزة الكهربائية، وآخر لإصلاح الملابس... إلخ.

أما في مجتمعات السأم الحديثة، فلا أحد يحب الإصلاح، فما أسهل أن ترمي القديم وتشتري جديداً، بل إن الأمر ليمتد إلى العلاقات الإنسانية، فنحن نستهلك الأشخاص مثلما نستهلك أي شيء، ونهجره ولا نتعب أنفسنا لنصلحه! 8 فبراير 2021.

أماه

أماه ألوذ بالحروف، ورفيقي الليل واللحن وأسراب كثيرة من الذكريات، تتكسر الصور في خيالي وتختلط الوجوه، وأراني ذلك الصغير، يصفّح جسده بكتبه كمضادات دروع، خائضاً بحيرات الطين، والمطر يهطل كغمامات الحنين، يدوخ بها قلبُ مغتربٍ وحيدٍ، يهدهده لحنٌ عراقيٌّ حزين، يمشي على شوقٍ إلى لقاء الأهل والأحبة في قريته الصغيرة، على بُعْد كيلومترات عشرة، كانت سنون ضوئية ينوء بها عزم الأطفال الدارسين، فتحول بينهم وبين دفء عوائلهم، فلا بد من الفراق! عشرة كيلومترات ترى فيها كل سوءات الفساد، وشقاء أهل الريف وقلة حيلتهم.

يأتي الشتاء الماطر، فيحول بيننا وبين أهلينا الموج والطين، فنستعين بالله، يدفعنا الحنين، ونلبس المعاطف والكتب، نحشوها في معاطفنا، خوفاً عليها من المطر، ويهطل المطر لكنني لم أكن أعرف السياب حينها.

نمشي ويرافقنا عن شمال، خط الحدود السوري العراقي، لا تزال صورة بيت عراقي تعبث في خيالي، كان أنيقاً مدججاً بالأشجار الخضراء الكبيرة.

وصارت متعة أن نتنافس في خوض البحيرات الطينية من عمقها، ثم نصل بعد ثلاث ساعات، فما أجمل الوصول، وما أجمل ليالي الشتاء تسمع صوت مطرها وهدير رعدها، آمناً في سرب أهلك حول المدفأة ، على بساط من القصص الجميلة من أيام الأقدمين، فما أقسى الحنين!.

كانت ومضة لمعت في خيالي فهام بها الحرف، وحروفها في داخلي أشد وطأة، وأعمق نزيفاً. 29 مايو 2015.

شاخ الهمُّ

أتأمل في الوجوه الشاحبة الحزينة المتعبة، كتضاريس قفرة مرَّ بها نهرٌ ذات يوم، وتشهد ذكرياتُ أعشابها المصفرة، أنها كانت غنّاء تضحك فيها الحياة، رأيت في تجاعيدها جبروت الزمان الثقيل، وكأنها تحيا بغير زمن، وبغير أرض، وبغير ناموس.

شاخ الهم في سورية، وجرح قلبي أنني لما وقفت أمام صورتك لم أعرفك، وكأنني لم أعرفك! وكأن تلك السنين كانت كذبة أو حلماً في منام، أو خيالاً عابراً مثل السلام، أو وهماً طائراً، لم أعرفك، وغارت عيوني من الدمع أهذه أنت؟ أوّاه ما أقسى الزمان!.

[هيهات أن يقف الزمان، تمر حتى باللحود، خطا الزمان وبالحجار، رحل النهار ولن يعود، رحل النهار].

آه يا تلك العيون، كانت تستوي على سرير من شموخ، يتكور السواد على البياض فيهما، فتبرقان كالرعد من حدة المعنى. كيف صارت، كيف غارت، وابتلعها الهمّ كاليمَّ فجف بريقها، وبدد التعب صفاء سمائها، فهجرتها أطيار الضحى، وترهل الجفنان كالظلام الفسيح بلا أمل، واحسرتاه على تلك العيون!.

[خصلات شعرك لم يصُنْها سندباد من الدمار
شربت أجاجَ الماء حتى شابَ أشقرُها وغار
ورسائل الحبّ الكِثار
مبتلةٌ بالماء، منطمسٌ بها ألق الوعود
وجلستِ تنتظرين هائمة الخواطر في دوار
سيعود؟ لا، غرق السفين من المحيط إلى القرار
سيعود؟ لا،
حجزته صارخة العواصف في إسار
يا سندباد أما تعود؟
كاد الشباب يزول تنطفئ الزنابق في الخدود، فمتى تعود][1].
زال الشباب وانطفأتِ الزنابق في الخدود، رحل النهار
6 أكتوبر 2015

كلمات بين القلم والألم

أحبّ الأقلام منذ صغري حبّاً جمّاً، والدفاتر، ولأقلام الحبر السائل وأقلام الخط العربي عشق خاص في نفسي؛ إذ يكثر أن أستخدم اللون الأسود السائل، واعتدت أن أكتب الخواطر والأشعار مبكراً، وبدأت ملامح الأمر تتخلق أكثر فأكثر في الثاني الثانوي، وصار عرفاً دائماً أن أتبادل النصوص والرسائل مع صديقي حميد، فكنت أعطيه دفاتر كاملة تكتظ بعالم نفسي وأحلامي وأحزاني، إذ كانت الكتابة قدراً لا مفرَّ منه، لقلب صغير

(1) كل الذي بين قوسين لبدر شاكر السياب.

انتزعه الفراق مبكراً من حضن الأُسرة ودفء الأقربين في تلك القرى الطينية الصغيرة المتناثرة، كطيور القطا في قبة السماء الفسيحة، الخاشعة في محراب الغروب، وقذف به في غيابة الغربة، فمنذ عشرين سنة لا أرى أهلي إلا زائراً، ولا تزال صور الكراجات في الليل يوم أغادر إلى منفاي البارد، تعبث بوجداني، أنوء بحمل حقيبتي، وفي قلبي حمل أثقل.

مقدمة لا بد منها لأبيّن سري مع القلم والحرف، وأذكر أن بدلتي العسكرية (كانت اللباس المدرسي)، في المرحلة الإعدادية خاصة، كانت مكتظة بخطوط الأقلام الزرقاء والحمراء، وكأنها صفحة عبثت بها يد طفل افترس القلم أول مرة، وكانت تضحك بعض الزملاء، ولعل سرّاً آخر يبيّن رحمي القلميّ، إنه شيء من أمر الجمال، وأخطر الأشياء تأثيراً في النفس، التي ترتشف روحك على مائدة الجمال، إذ وهبني الله الكريم، جمال الخط، فكنت لما أكتب، كمن يجلس إلى مائدة فاخرة، يأكل منها رغداً حيث يشاء.

مرت فترة انقطع شريان الحرف بيني وبين صديقي العزيز لما سافر إلى لبنان، ولم يسعفني بعنوان، ولما أسعفني، كتبت له رسالة من ست صفحات بلا توقف. ولخصت مرة كتاباً في ست ساعات متواصلة من الكتابة دون أن أشعر بالوقت، فعجبت يومها من نفسي!.

إحدى عاداتي المستفحلة، أن أكتب على المناديل، وكأن سريان الحبر في نسيج المنديل، يحاكي سريان المعنى في نفسي، فتحيله خلْقاً حقاً، بعد أن كان رؤيا من عالم الأمر. ولما سافرت إلى الهند، لاحظت المدرسات في المعهد دائي العضال، فأطلقن علي اسم ستيشنري Stationery أي قرطاسية، لكثرة ما أعدد بالأقلام وأتلذذ باستخدامها، وكان ذلك نافذة رزق وافر، إذ غمرْنني بالهدايا القلمية، يوم حملت أمتعتي عائداً إلى السعودية.

ويخطر على قلبي إن أكرمني الله بالجنة، أن أسأله حدائق من أقلام، مختلفٌ ألوانُها وأشكالها، تجري من تحتها أنهار من الحبر مختلف ألوانها أيضاً، وأشجار، أوراقها أوراق كتابةٍ مصقولة، وأخرى تثمر ممحايات والمبرايات. وصرت أتجنب دخول المكتبات لأنني لا أستطيع أن أخرج بلا صديق جديد من عالم القلم، وأملك الآن خمسة مقلمات فيها ما يقارب مئة قلم، قد تزيد بقليل أو تنقص، وللحديث بقية لن تنتهي.

5 مايو 2015 .

أسطوانتان: مصرية وعراقية

لا يزال مطر السياب المعجز، وأسطوانته الدوارة، يلقفان كل فكرة من حدثين تزاوجا في قلب: حدث ماضٍ، وحدث حاضر يستنهضه؛

بالأمس حين مررت بالمقهى ، سمعتك يا عراق

وكنت دورة أسطوانة

هي دورة الأفلاك في عمري، تكوّر لي زمانه

في لحظتين من الأمان، وإن تكن فقدت مكانه

هي وجه أمي في الظلام، وصوتها

يتزلقان مع الرؤى حتى أنام

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمّ مع الغروب

فاكتظّ بالأشباح تخطف كلّ طفل لا يؤوب

من الدروب

وهي المفليّة العجوز وما توشوش عن حزام

وكيف شقّ القبر عنه أمام عفراء الجميلة

فاحتازها لا جديلة

زهراء أنت، أتذكرين

تنّورنا الوهّاج تزحمه أكف المصطلين؟

وحديث عمتي الخفيض عن الملوك الغابرين؟

كانت تلك الأغنية العراقية التي سمعها السياب في غربته وقد كان ماراً في شارع ما من شوارع الحياة المغتربة، كانت وخزة ألم صاعقة حتى القرار العميق من نفسه، لم تكن أغنية فقط، بل كانت حياة كاملة، حملتها أغنية، ما إن تهادى لحنها في الفضاء الرحب وصافح قلبه، حتى تداعى شريط الذكريات عارضاً دقائق حياته وثوانيها، فتداعت دموعه من شاهق حزنه، وانحدرت نفسه إلى قرار بعيد من التوجّد والحسرات؛ الأسطوانة- أغنية عراقية في الغربة - كل ذكرياته - حياته الماضية - العراق. إنها رابط حي يثير أرض الذكريات ليعيدها حيةً، كما كانت، تصطخب فيها الحياة، تفاصيل الطفولة بين أحضان النخيل والقرية والجدة والأم الحنون. إنها الحياة، تحملها أغنية على تباعد الزمان والمكان، فإذا كان رابط السياب أغنية عراقية قديمة، فما هو رابطك أنت؟.

أما أنا، فتهدّم بنيان نفسي، عندما مرَّ بي لحن (المال والبنون)، فعبقت معه رائحة رمضان، ودفء الأمن بين الأهل، ونهضت في روحي أشواق سحيقة إلى تلك الطفولة، يجمعنا المال والبنون أمام شاشة التلفاز الأحمر الصغير، قبيل الغروب، في حضن رمضان، كَبر البنون، وفرقهم المال في البلدان البعيدة، ولم تبقَ إلا الذكريات يختزنها اللحن الحزين.

لقد كان أقصى ما يكوّر أجسادنا وقلوبنا شاشة صغيرة ذات لونين، تَنْهدُ

من خلفها قبة حمراء، نمد فيها أعيننا لنشهد حياة أخرى ترسمها لنا الدراما المصرية، التي لا أزال أحنُّ إليها وكانت لها أعمال خالدة، تشكلت طفولتنا على ضوء معانيها الكبيرة، فهي تنهض في كل قلب كهرم عريق، تتجلى فيها جدلية النفس الإنسانية وتجربتها الحياتية بكل تناقضاتها، فتغرس فينا معاني الجمال والحق والخير، وتجعلنا على وعي ببشاعة أضدادها، فما أجمل الفن وأهله عندما يسمو بك، ويعيدك إلى إنسانيتك، ولَكم تغشتني مشاعر جميلة متناقضة من فرح حزين، وحنين، وطفولة، عندما أرى وجهاً من وجوه أولئك الكبار، الذين تشرَّبتْ حياتُنا معانيَ وجوههم، فكانوا من معانيها أيضاً، كعبد الله غيث، ويوسف شعبان، وممدوح عبد العليم، وأحمد عبد العزيز، ويحيى الفخراني، وأحمد راتب، ومحمود مرسي، وعبلة كامل، وسميحة أيوب، وكريمة مختار.. إلخ، رحم الله من رحل، وأدام صحة من بقي، وأذكر من تلك الأعمال الخالدة: ليالي الحلمية، المال والبنون، رحلة أبو العلا البشري، أرابيسك، هوانم جاردن سيتي، سوق العصر، الضوء الشارد، الشهد والدموع، بوابة الحلواني، عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد.. إلخ. وكانت تتميز بمقدمتي النهاية والبداية (التترات) كلماتٍ وصوتاً ولحناً، خشعت لها الروح على أصوات علي الحجار وحنان ماضي ومحمد الحلو.

كل مقدمة غنائية منها قطعة من حياة، هي أسطوانتي العزيزة، ما إن يهدر لحنها حتى يتداعى على سلّمه حياة أخرى - هي حياتي - تنتظم عليه أحداث وقصص ووجوه وأصوات ومشاهد ودروب، غصّت بها الأقدام والقلوب ذات يوم.

ثم يعقب السياب على أسطوانته: أفليس ذاك سوى هباء؟ حلم ودورة أسطوانة؟ إن كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء؟ أما أغنية ليالي الحلمية فتقول: ومنين بيجي الشجن، من اختلاف الزمن. ومنين بيجي الهوى،

من ائتلاف الهوى. ومنين بيجي السواد، من الطمع والعناد. ومنين بيجي الرضا، من الإيمان بالقضا. من انكسار الروح في دوح الوطن. يجي احتضار الشوق، في سجن البدن. من اختمار الحلم، يجي النهار. يعود غريب الدار لأهل وسكن. ليه يا زمان ما سبتناش أبرياء؟ واخدنا ليه في طريق ما منوش رجوع؟ أقسى همومنا، يفجرك سخرية. وأصفى ضحكة، تتوه في بحر الدموع. 19 سبتمبر 2017.

سلام على مصر الجمال

كنت – أيام شباب قلبي – كلما سمعت أغنية لحليم، وتداعت أمام ناظري، صورة مريم فخر الدين على الشاطئ، وعيناها تلمعان في الظلام كمجرتين شاسعتين، يغني لها بتلوميني ليه، لو شفتم عينيه. أو صورة زبيدة ثروت بعينيها الشاهقتين كقبتي سماء، ووجهها الضحى، يغني لها: بأمر الحب افتح للهوى وسلم. أو صورة نادية لطفي بأنوثتها اللطيفة المنادية، يغني لها، لولا ضحكتها الحلوة وعدتني بحاجات حلوة. أو يقول: ولوا يقول لعينيه، إيه أخرة دا كلو إيه، يا يصحيلي قلبو.. يا نسيني حبو! أو يقول: ومشينا ياحبيبي مين أنته ومين أنا، حسيت أنو هوانا ح يعيش مليون سنة!. أو يقول: كنت أتمنى يطول العمر وأعيش حواليك، ولا أشوف عمري دمعة حزينة تملا عنيك. أو يقول.. وما أكثر ما يقول..

كنت أتمنى أن تكون لي حبيبة مصرية، من ذلك الطراز الأنثوي الشاهق، الذي يرميك من حالق (ومحدش سمى عليك)، الذي يكفيه أن تنظر في وجهها لتنكفئ على قلبك مشدوهاً من سحر الأنوثة الهادئ، كيف تؤوّلُ قسماتُ وجههِ معنى اللحن والأغنية إن شدا بها حليم.

كان الفن الجميل يصور الفتاة المصرية أجمل تصوير، إنه أنوثة شاهقة، فسلام على مصر الجمال والفن الكبير، سلام على مصر بليغ والسنباطي، وحليم وفريد، سلام على مصر ممدوح عبد العليم ومحمود مرسي وعبد الله غيث وأحمد عبد العزيز وسميحة أيوب وهدى مختار، سلام على ذلك الجيل الكبير الذي تربينا على عين معانيه السامقة. 10 ديسمبر 2020.

شارع الكتب

كان من عاداتي الجميلة أن أمشط رصيفي الشارع الممتد من جسر الرئيس في حي البرامكة إلى شارع الحلبوني الذي تطوّقه المكتبات، وقد عُرف بها. أما ذلك الشارع فقد كان جناحاه مثقلين بالكتب القديمة، تنبئك أغلفتها المصفرة أو الممزقة بسير الزمان، وسلطان الطبيعة، وحقيقة الرحيل، كانوا هنا ثم رحلوا.

وقد وجدت مرة كتاباً، صفحاته كأنها صفائح من نحاس، تتوهج جِدةً، توشك رائحتها أن تقول ها أنذا، ولم تحتضنها عينا قارئ، أما خطها فقد حُفر كأنه نقش شق مجراه في لوح حجري، لا أذكر الآن سنة طباعته، ويغلب على ظني أن يكون من عقد الثمانينيات، وكان شرحاً للمعلقات. وكان لونه النحاسي شهياً جداً بخطه الأسود الحفري، شغفني قراءةً، فحفظت أربعين بيتاً من قصيدة امرئ القيس بلا تكلف، هي الجزء الأول من المعلقة الثمانينية التي يسرد فيها مغامراته العاطفية، ولما وصلت إلى وصفه حصانَه، أصبحت كمن ينحت في صخر فلم أحفظ شيئاً!

في بعض أبياته عبرات هادئة، يوم يقف ناظراً إلى حبيبته الراحلة، متعثراً بدموعه، أو يوم يتعثر بذكرى عطرها فتتفجر عيناه بالدموع، ويا له من بيت ذاك البيت الذي يقول فيه:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي   بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

يُبيِّن فيه عن ضعفه الصارخ إن فاضت عيناها من الدمع، فيوشك أن يقسم أنهما ما بكتا إلا لتنكّلا بقلبه الممزق، وكأنّهما قد اختصتا بتعذيبه فلا حاجة لهما بدموعهما إلا أن يمزقا قلبه. أحب أن أضع هذه الأبيات من قصيدته لصلتها بما كتبت.

كَأَنِّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقُوْفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُوْلُوْنَ لاَ تَهْلِكْ أَسَىً وَتَجَمَّلِ
وإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا ... نَسِيْمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ
فَفَاضَتْ دُمُوْعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي

وعثرت مرةً على كتاب ضخم، من القطع المتوسط، أجردَ بلا غلاف، اسمه: الزواج المثالي، لمؤلف ألماني اسمه: فان دي فيلد، ترجمه إلى العربية طبيب مصري اسمه محمد فتحي. تصفحته أولاً، إذ شراء كتاب - عند الطالب الجامعي المنكوب - أمر محسوب، وهو قرار مصيري، لا ينبغي أن يكون بلا تأنٍّ وحكمة، وإلا اختلت الميزانية المتواضعة.

وقد يدوم التصفح أياماً مقسمة على زيارات متعددة إلى المكتبة أو رصيف الكتب، يحفظك فيها البائع ويتبرم منك، وقد قال لي أحدهم: ما رأيك أن أجلب لك كرسياً وكأس شاي؟ لم يدرِ ذلك الفظّ أن ذلك يحصل فعلاً في المناخات التي تقدر الكتب والقارئ وتحرص على إرضاء الزبون.

قرأت مقدمة الكتاب أثناء وقوفي وشدني كلام المترجم: أن هذا الكتاب

قد تُرجم إلى جميع اللغات العالمية الكبرى ما خلا العربية، وأن مؤلفه راسخ فذّ متعدد التخصصات والخبرات، فهو طبيب وفيزيائي وأديب. فشعرتُ بقيمة الكتاب واشتريته بلا تردد كبير، ثم ذهبت أبحث عنه في الشبكة الحلزونية في عصر المنتديات، فوجدت بحثاً ملحاً عنه ولا وجود لنسخة إلكترونية له! إنه كنز ثمين إذن، وفيه معلومات كثيرة وكبيرة عن العلاقة بين الجنسين، أبهرتني يومها، وهو موضوع خصب، جاذب، وملهم، خاصة في مجتمعاتنا التي لا تحب الجهر بهذه المواضيع.

كثر الطامعون حولي لما عرفوا بأهمية الكتاب، بين مستعير ومستجير، لكنني أحبطت كل محاولاتهم، حتى إن بعضهم عرض علي أن يكتبه كله على برنامج النصوص (Word) ليسعف به الجماهير الغفيرة، والكتاب يبلغ خمس مئة صفحة! لكنني لم أرضَ بتلك الصفقة، وتركته عند صديق لي عندما سافرت إلى السعودية، وبقي عنده سنوات، ثم أوعزت إلى أخي هناك لكي يحتال على الأمر ويستنقذ الكتاب منه، ويعيده إلى مكتبتي في سورية، وقد فعل.

الكتاب متوفر الآن على غوغل، إذ تذكرته مرة بعد رحيل العمر وتساءلت: هل لا يزال القوم يبحثون عنه؟ فوجدته متاحاً متاحاً، لكنني لا أظنه مهماً الآن بعد هذا الانفجار المرئي الهائل، والمسموع والمكتوب وتدفق المعلومات كالجنون!.

إن التوقيت مهم جداً، وأدوات المعرفة لا ترحم لأنها متجددة لا تقف، فلا تظن أن الزمن سيقف عند أحد، مثلما وقفتُ ذات يوم على رصيف الحلبوني أقرأ ذلك الكتاب، ولكن إن عاد بي الزمن مرة أخرى فسأذهب إلى ذلك المكان وأقف مرة أخرى، ولكن؛ هل بقي ذلك المكان وظل واقفاً ينتظرني؟ أم أنه رحل كما رحل كثيرون؟

ذاكرة الياسمين

في دمشق كبُر في نفسي معنى الحياة، واخضوضرت فيها معانٍ جديدةٌ ما عرفتها من قبل، وما مثَلي ومثلُها إلا كمثل فتىً أعزلَ جاء من أقصى الخارطة يسعى، وآثار الطين لا تزال على قدميه، وقلبه أخضرُ كحقول قريتهِ الصغيرة، ممتدٌّ بلا تفاصيل كثيرة، وها هو ذا يزداد امتداداً تِلقاء المدينة الكبيرة؛ دمشق.

في دمشق، يتحرك التاريخ كأنه الآن، يأْرِزُ أمامكَ كالعطر إلى أزقتها العتيقة، وتمسح على روحك في أسواقها عافيةُ الحياة، كيف يثيرها الإنسان، فما ألطف الأنس في الشوراع بُعيد العِشاء، وما أحفى التقاء الأصدقاء، ففي دمشق نضجت صداقاتي مع أبناء منطقتي، عرفتهم فيها، وهم الذين أحملهم الآن معي مؤونةَ سفرٍ لا تفارقني، ولا يغير رسوخهم في روحي تطاول الزمان، فكأن الصداقة لا تكتمل إلا بمباركة المكان، حتى وإن كانت بين أبناء المنطقة الواحدة، فما أصدق السياب يوم قال: لو جئتِ في البلد الغريب إليّ، ما كمُلَ اللقاء، الملتقى بك والعراق على يديّ هو اللقاء!. يأسرني ذلك الضوء الأخضر ليلاً فوق المآذن، وهو ختمٌ أخضر على كل ذكرى هناك، فكتبتُ عنهم يومها:

أذكركم فتبكي أوراقي، يا عمق الهمّ بأعماقي
أنتم يا أعباءَ ظنوني، يا سفر الدمع بأحداقي
ذكراكم كظلام دمشقَ، ينسابُ كدمعٍ رقراقِ
والضوء الأخضر مخذولٌ، في كنف الليل كمشتاقِ
لا شيء سيبقي بعدكمُ، إلا الذكرى في أعماقي

***

وأيـن سـتهرب مـن حنينـك، ولـك في الشـام عمـرٌ مـن الحـب والأمـل والصداقـة، وتاريـخٌ أخـضر مـن الحدائـق، ومـن ضـوء المـآذن، ومـن ذلـك الجبـل الأشـم، والنافـورة الثرثـارة، والليـل المرصـع بالنوافـذ، وشـارع الثريـات، والمصابيـح السـامقات الحزانـى، وذلـك الجـسر القديـم، وذلـك الحـي القديـم، والشرفتـين الشـاهقتين، كعينـين في أنشـودة المطـر، والعطـر الياسـمين، يتسـلق عـلى روحـك عـلى الأرصفـة مـع ثرثـرات الصبـاح، أو تنهـدات الغـروب.

يـا كعبـة القلـب، يليـقُ بـكِ طـول الحنـين، يجمّعـك الليـل كملـك كريـم، يحملـك إليّ كأقـصى مـن خيـال، تغـيرت ملامـح وجهـك، قـد غضّنتْـهُ الدمـوع، وشـعركِ المثـال كالأمـل ، جـارٍ عـلى موسـيقاه الدمـار، وعيناكِ، آهِ يـا عيناكِ، مـا لونهـما؟ ذلَّ الجـمال إن لم يـأوِ إليهـما. مـا طعـم الحيـاة بـالله عليـكِ بـلا حياتـك؟ ومـاذا سـيبقى مـن الأنوثـة إن وارت رفاتـك؟ كيـف سـننبض الحـبَّ بعـدك يـا حبيبـة؟ خابـت حـروف النـون، إن وصفـت مـا لـكِ بـين الضلـوع، يـا أيتهـا الحبيبـة. 11/ 5/ 2013.

رحلة الأرحام

الصداقـة الحقـة كالذهـب، قـد يعلوهـا الغبـار، غبـار البعـد، والتقصـير، والنسـيان، والتبلـد، لكنهـا تبقـى عصيـة عـلى الفنـاء، فـما إن تمسـح عليهـا حتـى تتوهـج حيـةً نديـة. هكـذا تخـضرُّ نفـسي بهـا كلـما كلمـت صديقـاً عزيـزاً انقطعـت عنـه زمنـاً طويـلاً، وأشـعر أن القـدر أكرمنـي بثلَّـة مميـزة منهـم، وهـم رأس مـالي مـن المعنـى الـذي تتعـب مـن دونـه أيُّ نفـس سـوية، وكـم نعـين الحيـاة عـلى أنفسـنا عندمـا نهمـل هـذه النعمـة.

تلـك الصداقـات كالأجنـة الواعـدة عندمـا تجـد رحمـاً صالحـةً يخلّقهـا، كرحـم الغربـة، أو رحـم المراحـل الجميلـة مـن عمـر أو دراسـة، ولا يمكـن أن يـأتي أجـود

منها، إنها أشبه ما تكون بمهارة قوية اكتسبها إنسان في أول عمره وتعزّ عليه لو عالجها آخره، وتظل علاقتك بها علاقة تكوين يتصل بنشأتك ونموك عبر الزمن.

إنك إذ تحتفي بها تحتفي بنفسك في أجمل مراحلها. هي رحلة الأرحام، في كل رحم لي قصة وقصص كثيرة، رحم القرية، رحم القامشلي، رحم دمشق، وفي كل رحم تضاعفت نفسي بتفاصيل غزيرة غزيرة، اقتطعتها من خطة الحياة، واقتطعتْها مني.

فآهٍ أيتها الحياة، والذكريات ويا طعم التوثب والبدايات، عندما تنفض الغبار عن معانيك الماضية على صوت صديقٍ قديم، يأتيك من بعيد.. بعيد، يذكركَ بما نسيتَه ويقدمك إلى نفسك. ويقول لي ببحته المميزة: أتذكر في ليلة من ليالي البكالوريا من ليالي القامشلي الساحرة، كيف تحدثت لنا عن أغنية كاظم (لا ياصديقي):

[هي الدنيا شبيها، حتى ترخص دمعكْ؟. إلمن تشكي وتبجي، ومن هو إلي يسمعكْ؟. انسَ جرحك انساه، لاتعاود بذكراه، بالحسرة والآه، ليش تخلص عمرك؟]. المحزن أنني لا أذكر. 10 مايو/ 2020.

عوز الحنان المكتسب

يضطر كثير من أبناء الريف الجزراوي (الجزيرة السورية الفراتية) أن يتركوا أهلهم مبكراً من أجل إكمال الدراسة، فأغلب القرى ليس فيها مدارس إعدادية أو ثانوية على قلة من وسائل النقل وجودة الطرق، مما يجعلهم لا يرون أهلهم إلا في الإجازات. تبدأ الرحلة منذ الصف الأول الإعدادي حتى الجامعة وقد لا تنتهي.

هذا الشكل من الحياة جعل لنفسية الطالب الريفي الجامعي نمطاً خاصاً،

إنه حرمان مبكر جداً من دفء العائلة وحاضنتها الآمنة، يكبر ويكبر ولديه نقص حاد في فيتامين الحنان، وشعور فائض بالغربة. وعندما يدخل الجامعة يكون من العينة المستهدفة لكورونا الحب العشوائي؛ إنه لا يبحث عن حبيبة مجردة، لا، إنه يبحث عن أنثى عملاقة، كحاملة طائرات، أو مدينة عائمة، يبحث فيها عن قريته، عن أمه، عن حياته التي لم تكتمل هناك. لذلك قد تبدو رومنسيته المتضخمة غير مفهومة، ويُنظر إليه باستغراب، وهي في حقيقتها (فجيعة حنان متأصلة).

أحد الناجين روى لي قصته، أنه لما ذهب إلى الجامعة أول مرة، بحث في قائمة المقبولين في السنة الأولى عن أي اسم من الجزيرة، فوجد فتاة من هناك، وظل ثلاثة أسابيع - كالملهوف - يبحث عنها في كل مكان، ويسأل عنها موج البحر، ويسأل أوراق الجدران، ولما وجدها انهار من فرحته قائلاً: [صار لي عشرين يوم أدوّر (أبحث) عليج!]، فهي (اتخضّت بالمصري). [أنو خير شنو بيه؟!]. خافت من مصيبة ما، وأظنها وعت لاحقاً أنه هو المصيبة ذاتها. أما أنا فقد تنقلت في نفسي بين عدة جنسيات بحب من طرف واحد، وكنت أخلد كل واحدة بدفتر نثري كامل، وقصيدة أو أكثر، ثم أهرع إلى صديقي أبي يسار لنناقش الوضع الأدبي والميداني ونرى الحلول والاحتمالات، حتى قال لي: أنت غالباً ستوحد الوطن العربي. 17/ مايو/ 2020.

رفيق الدرب

كل كاتب قد يعلن ارتباكه وعجزه عن رسم مشاعره التي ترتبط حقّاً بشيء يطمي في قلبه بلا هوادة، هناك من يتصنع ذلك، وهناك من يعانيه حقاً، وهو محق لأن أمر المشاعر من أمر الروح، والروح من أمر الغيب الذي تشعر به ولا تستطيع أن تقبضه، هي حالة تستبد بقلبي وأصابعي، من

فرح وحزن، أقف بها أمام صديق عزيز عزيز، وأخ قريب قريب، لم أجتمع به في رحم امرأة، لكننا انصهرنا في رحم الصحبة الحقة، كنا بصفتنا أعزّ رفيقين معاً، خمس سنوات في غرفة واحدة، بل في منفردة واحدة، خمس سنوات، تشابكت فيها كل أقدار الحياة، من رضاً وغضب، وخصام ووئام، وراحة ونصب، وسفر ومُقام، ودمعة وابتسامة، أكلنا معاً، وشربنا معاً، ونمنا معاً، ومشينا معاً، وسافرنا وتشاكينا. وخرجت بعد خمس سنوات بأثمن صداقة ضوئية، كلما استذكرتها، ضمّدت قلبي هذه الآية: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 43/ 67].

ماذا أذكر لأذكر؟ كل تلك الذكريات بتفاصيلها تكسّرَ موجها على قلبي من وراء جسر هشّ من النسيان، في آخر ليلة تسبق زواجه، وبيننا ألوف من الكيلومترات من مسافات الأرض، التي تعدل العدم في مسافات الحب والقلب مع رفيق الدرب[1]. أنا سعيد له، ووددت لو أكون في هذه اللحظة معه في هذه المناسبة الميمونة، ولكن حال بيننا الطغيان والبلدان، مبارك يا سليمان ورزقك الله الذرية الصالحة يا رفيق الدرب.

دفاتري

أتمنى أن تسجل تعابيرَ وجهي كاميرا خفية عندما أقرأ كتاباتي القديمة. أنقح ملفاً قديماً فيه كتابات منذ عام 2011، وبعضها يعود إلى بدايات الألفية. ولا أدري أهي نعمة أم نقمة، أن تكون لك ذاكرة أخرى غير الذاكرة التي في ذهنك.

الكتابة تأريخ صادق دقيق على كل ما كتبتَه. لست نادماً عليها، بل إنني

(1) هكذا كنت أسميه في جهازي الخليوي.

أحاول أن أجمع كل ما كتبته منذ أن اهتديت إليها في بواكير عمري، وهنا أتذكر مرحلة ضوئية من عمري مع صديقي العزيز حميد.

اعتدنا أن نكتب لبعضنا في دفاتر جيب صغيرة، وعندما نلتقي بعد فراق طويل، نتبادلها، واستمرت هذه العادة الجميلة سنوات وسنوات منذ الثانوية وحتى الدراسات العليا، وأطمع الآن أن أستعيد منه ذلك الأرشيف الضخم الذي خططته بيدي يوم لا أجهزة ولا نت إلا شغف الحياة الصادق والصداقة، وحماسة عجيبة على الكتابة والكتابة. كتبت مرة رسالة إليه من ست صحفات من ذوات القطع الكبيرة بجلسة واحدة، كانت بعد انقطاع ستة أشهر أو يزيد.

رسائل كثيرة أحتفظ بها من أصدقائي، وهم كذلك.

أنا مدين إلى الكتابة جداً، لأنها من أمر الروح حقاً، تبسط لك قلوب الناس بلا منفعة، وعرفتهم بي بلا معرفة، وجعلتني أشعر أن لي في كل بلدٍ موطنَ قلبٍ آنس به في غربتي. 11-5-2020.

بين عصرين

لا أزال أحتفظ بصورة نعيهِ، لطالما جلسنا معاً، وتحدثنا عن أحلامنا، أين سنكمل دراستنا؟ وكيف؟ ومن سنتزوج؟ أحلام الشباب الوردية الآملة، التي لا تنتهي..كان طيباً بسيطاً خلوقاً، ونعم الجار، لا تملك إلا أن تحبه.

جلست إليه في غرفته، قبل وفاته بأسابيع، لا يزال ذلك المشهد محفوراً في خيالي. وآهٍ يا خيالي! لا أدري لماذا حملني هذه الليلة إلى كثير من الأحبة، يبدو أن الفقد حينما يصيبك، لن يكفيه أن يؤلمك إيلاماً واحداً، بل يستنهض كل ذكريات فقدك، كل ما فقدتَه في تاريخك من قلوب.

كان متوسداً وسادته، وكان الصيف يغلي لهيبه مع حلول العصر، قال لي: [شوف هلّا صلاة العصر وما في حدا يروح ع الجامع بهالحر، بس بصلاة المغرب والعشاء كلنا بنروح].

رحل نوحٌ بعدها إلى قريته تاركاً غرفته في سكن الدراسات العليا، وبدأ حياته العملية في العيادة، وأصبحت أراه كل بضعة أسابيع. رأيته مرة وأبوه المريض عند المصعد: فقلت ممازحاً أباه: [زوجو يا عمو... زوجو]. لم أرَ نوحاً بعدها، اختطفته الأقدار بعد حادث أليم، بعد أسبوع من خطبته.

لـمّا ذهبت معزياً، ما إن رآني أبوه، حتى غصّ في دموعه وقال: [حاج تقلي زوجو، هيْ زوّجتو!]. وقفت على قبره، كان على سفح شاهق يطلّ على سهل الغاب الفسيح من محافظة إدلب، كان وقت العصر أيضاً والنسيم يتهادى بكل رفق.

هذه أيامي الأخيرة مع نوح رشيد، رحمه الله رحمة واسعة، [بين عصرين]، جمعني الله وإياه في مستقر رحمته. لقد ارتبطت ذكراه في قلبي بأنشودة (أغيب وذو اللطائف لا يغيب) لمشاري العفاسي، سمعتها عنده مراراً. اللَّهمَّ لا تجعل ذكراي مرتبطة بالمزعجات المؤلمات في قلوب الآخرين، اجعلها كذكرى نوح طيبة، ما أقسى أن تنزف من قلبك وعينك وأصابعك. 20 سبتمبر 2013.

ستبقى في قلب قلبي ما دمت

صديقي العزيز، أبثك كلماتي هذه على عين هذه الشاشة الزرقاء، وفاءً لعلاقتنا الضوئية، أن تنير قلوب الأحبة في كل مكان من هذه الكرة الأرضية، وأمانةً في عهدة هذا الفضاء الشاسع، يدحرجها من زمن إلى زمن، لتشهدها قلوب القادمين من رحم الغيوب، ليعلموا أننا اجتمعنا على الله في الدنيا،

وسرنا فيه، وأرجوه - وهو الكريم الرحيم - أن يجمعنا في دار المقامة.

لا حدود لذكرياتي يا صديقي ومشاعري، إنها تتكسر كأشعة الضوء، ولا أدري كيف أديرها في هذا الليل العريض كعرض غربتنا الطويلة، وشتاتنا المتعزز، لكن شهقة الولادة هي اللحظة التي تلح عليّ، يوم كنا في الصف الأول الثانوي، وكلما أذيعت الأسماء صحنا معاً: حاضر، ما إن يقال فيصل العلي! ثم أتيتني متحيراً: يا أخي أنت ما اسمك!. ومنذ تلك اللحظة من عام 1997 من الصف الأول الثانوي في ثانوية العروبة، إلى هذه اللحظة ونحن كاللحظة الواحدة.

وإذا كان للإخوة رابط واحد من دم، فقد كان رابط الأدب والشعر واللحن هو الدم الأول الذي نسج أمشاج قلوبنا في نسيج واحد، كان قبله الاسم، وبعده الفكر وحتى المهنة.

تلحّ عليّ لحظة أخرى، في يوم السنة الدراسية الأخير، الذي ستتبعثر بعده في قرانا المبعثرة ولا نلتقي إلا في السنة القادمة، يوم أهديتني ديوان نزار، [أحبك والبقية تأتي..]. لا أنسى كيف أخرجته من جيبك لامعاً كقطعة حلوى، مرصعاً بإهدائك: ستبقى في قلب قلبي ما دمت.

ثم مزّقتنا الجامعة بين دمشق واللاذقية، لكن قلوبنا بقيت تنبض بالنبضة نفسها، نسعفها بالتزاور والرسائل والشعر، وبدأت ملامح الفكر تتشابه كاسمينا، كزروع القرى الوادعة الخيرة، وشهقت همسات الغزالي في قلبينا معاً، فبقينا معاً. كثيرة هي الذكريات والمواقف يا صديقي، وأكبر من أن تزمّلها سطور قلائل، ثمانية عشر عاماً تزيد. كانت آخر مواقفك النبيلة معي، وقد حملْتني كثيراً، أن تكون أول من حضن كتابي (القلم) وأعلى مناره، وبالأمس دعوت الأصدقاء والأحبة إلى مأدبة على شرف صدوره، أفرحتني،

لكنها الفرحة التي علمت فيها خبر رحيلك القادم. أشهر ونتنقل إلى شتات آخر، ومرحلة جديدة، غمامة حزن، جعلتني أعلن عن امتناني وفرحتي في كلماتي هذه. وفقك الله أينما ذهبت، ويبقى العزاء أنها رحلة قصيرة، والفراق العظيم، أن لا نكون معاً في الجنة.

كنت أنتقد من يجعل الفيس بوك يوقع على مشاعره وهي موجهة لصديق أو زوجة، لكن يجب على العالم كله أن يعلم أننا أصدقاء السنين، وأنني أحبك. سنلتقي في النصف الثاني من الكرة الأرضية أو في النصف الثاني من الحياة، [سلا م يا صاحبي]. 17 مايو 2015.

أريد مزيداً من العمر كي نلتقي

نكتب كثيراً عن الأبعدين، من المشاهير خاصة، نحتفي بهم، نصدح بأسمائهم، بإنجازاتهم، ونذهل عن الأقربين، الذين - كل ذنبهم - أن الألفة وطول المكث نزعت فتيل دهشتنا منهم، وحيّدتْ في أنفسنا ما يميزهم.

لذا أحببت أن أكتب عن صديق مبدع، رشيق الروح، زكيّها، طويت معه أجمل سني العمر والشعر، جمعتني به الأقدار في جامعة دمشق، ونحن أبناء منطقة واحدة قبل ذلك، وهي الجزيرة السورية، وهي الجزء السوري الذي يحتضن نهرا الفرات ودجلة، يتصل بعمق مع شقيقه العراقي، وأرى أن أبناء تلك المنطقة - الجامعيين منهم خاصة - لديهم تجربة مركبة، تجمع بين الثقافة العراقية والسورية، فهم بحكم تنشئتهم وجوارهم أقرب إلى النمط العراقي، ثم يقذفهم قدر الدراسة إلى محافظات العمق السوري لخلو مناطقهم من الجامعات[1].

(1) قد تغير هذا الوضع جزئياً بعد نشوء جامعة الفرات 2006، في محافظة دير الزور وفروعها في الحسكة.

إلا أننا لم نعرف بعضنا إلا في الشآم في ليلة رمضانية، إذ كنت - وأنا من كلية طب الأسنان - قريباً جداً من جماعة الأدب العربي، فحنيني لم يتوقف لحظة إلى الشعر خاصة، وأوشكت أن أدخل الفرع الأدبي لولا...

كان حبُّ الأدب رحماً بيننا، وكنت أهرع بكل قصيدة أكتبها إلى محمد، الذي لم يعرف مجاملة قط. هناك رأيت السياب بعيون جديدة من خلاله، ودخلت معه عالماً فسيحاً من الشعر العراقي الشعبي المعتق بمعانيه الدقيقة العميقة، التي تتكور فيها مآثر الإنسان الجميلة من خلال شعراء كبار كعريان السيد خلف، ومظفر النواب، وكاظم إسماعيل كاطع، وعزيز الرسام. وكانت لنا سهرات فساح على صوت قحطان العطار، أيام أشرطة الكاسيت، ولا تزال مسجّلته القديمة راسخة في خيالي، وإلى الآن لا تزال كثير من جمله وقصصه ترافقني كمآثر خالدة، أتذكرها في مواقف الحياة الكثيرة، ويعلم كل صديق أجتمع به أنه قلما يخلو مجلس من ذكر محمد المرح.

وقد هاتَفْته مرة بعد فراق السنين، وأثرنا معاً جمال ذكرياتنا، وأشعلتني روحه المرحة سعادةً وحنيناً، فكتبت من فوري: صوت من أمر الصداقة العريقة، مثقل بالضحكات والحبّ مثل دالية العنب، يتحدر على قلبك المخدّد بالغربة والوحدة مثل أرض غادرها ماؤها، هو صوتك يا صديقي، يتقهقر الحزن والهمّ أمامه، يطول العمر، يتسع القلب بالسعادة، وتظمأ الروح إلى خطوات معك على طريق في القامشلي أو دمشق، في كنف الليل والنسيم تحملنا أحاديث كثيرة كثيرة فلا نشعر كيف استدار الزمن، ويوم تنتهي المكالمة يغص قلبي بقول درويش: أريد مزيداً من العمر كي نلتقي.

20 أكتوبر 2016.

مرج أخضر

نمرُّ بالأشخاص ويمرون بنا، فمنهم من يمكث في أنفسنا كبقعة عطر لا تبلى على كثرة الغسل، ومنهم من يتلاشى كالضباب إن هيمنت عليه أشعة الشمس.

والإنسان مخلوق عظيم، خلقه مركّب، فأنّى تحصي أقطاره وفجاجه؟ لكنك تتشرب منه صفة أو صفتين، كوّتين من ضياء، تطلُّ بهما على عالمه وتظلُّ تذكره بخير، وشوق، وابتسامة، وغصّة حزن، إن باعدت بينكما مسافات وأقدار بعد أن طويتم بعضها معاً، وكان لكم أيام وليال، ذكريات ومواقف، معارك وتآلف، إلا أن ما انعقد بينكما من ميثاق الصداقة الصدوق يعلو على كل ضعف بشري أو خطأ، وهذه هي الصداقة عندما تتصل بالغيْب وتقهر طين الأرض مهما أنتن.

شامخ الجسم كطود، عيناه خضراوان واسعتان كمرج أخضر قد فتُرَ لونه، والعيون الواسعة، أمارة على طيبة خفيّة، رغم موقفي المرتاب من اللون الأخضر إن أطلّ من شرفات العيون، فلا أستطيع أن أتجاهل شراسته! ويوشك - من أجل ذلك - أن تخطئ حقيقته الطيبة إن شغبَتْ عليها بعض شراسته، فأنت ما بين اتّساع عينيه ولونهما في حيرة، ولسوف تهتدي إلى يقينه ببعض الصبر والتأمل، فسبحان من زوى حقيقة الإنسان في عينيه!.

يهدر صوته من علٍ كشيء قادم من بعيد، وتتحدر قهقهاته إن ضحك كالصخور، فتضحك منها بكل استطاعتك. لم تتسع عيناه من فراغ، إذ كنت أدهش من قدرته على وصف الأماكن والأشخاص، كأنه ماسح ضوئي يلتهم دقائق الأشياء فلا تفلت منه. إنه روائيّ حي بلا قلم ينقل

روايتـه إلى الـورق، فكـم سـيخسر مـن يبحـث عـن الأدب في الكتـب، إن لم يعـرف هـذا النـوع مـن النـاس؟!.

وإذا أردت أن تعي حقيقـة إنسـان فتدبر في تفاصيله الصغيرة، إنها مآثر الـروح وتجلياتهـا، ومقاتـل القلـب التي يلقي أمامهـا أقفالـه فيلين مـن حرارة الصـدق والجـمال. وقـد قُـدّر لقلبـي أن يعيـش هـذه التجربـة كلـما تذكـرت قصـة صاحـب هـذه الشـخصية وقـد التقـط حجـرة مـن القريـة، وأخذهـا معـه إلى المدينـة، حيـث يسـكن، ثـم تفكـر في أمرهـا، كيـف انتزعهـا مـن بيـن إخوتهـا وجيرانهـا وأصدقائهـا، وجعلهـا غريبـة في عالمـه الـذي لا يعنيهـا، فحزن لها وأعادهـا إلى القريـة في مكانهـا تحديـداً بـلا زيـادة أو نقصـان، ومـن كان لـه هـذا الإحسـاس المرهـف لا بـدَّ أن يكـون أميناً في عملـه، متقنـاً لـه، مخلصـاً فيـه، وكذلـك كان.

هـي كلـمات أحببـت أن أنثرهـا عـلى طريـق العابريـن، الراحلـين، الباحثـين عـن الحـبّ، عـن المعنـى، عـن مسـحة جمـال في هـذا العـالم الملطـخ بالدمـاء، وإذ كنتُ متهماً بانحيازي الأدبي نحو الأنثى، فليعلم متهمي أن لي قلباً أوزِّعـه على أصدقـاء السـنين الذيـن أفخـر أننـي لم أخسـر واحـداً منهـم، وتقاسـموا كلـماتي كـما تقاسـموا قلبـي، فـما أكـرم القلـم تجـاه اثنـين مـن النـاس، الأنثـى التـي أحببتَهـا وكانـت لـك أكثـر مـن أُمّ، والصديـق الـذي صدقَـك وصدّقـك وكان لـك أكثـر مـن أخ، إنهـما مهـاد القلـب وعـدة صـبره التـي تربـط عليـه، كلـما زلزلتـه محـن الحيـاة، وآهٍ أيتهـا الحيـاة!. 3 ينايـر 2016.

كلمة موجزة على هامش العطاء

أبي وأمـي كالريـف الـذي ولدنـا فيـه ونشـأنا، بسـيطان واسـعان، لا قيـود كثـيرة لديهـما، ولا منهجيـات تربويـة مقننـة، همـا كالحيـاة تعلّـم بـلا نطـق أو

تعمّد، وأظن أن ذلك الفضاء الأسري الحرّ، كان إيجابياً إذ يجعل الطفل يحمل مسؤوليته مبكراً، ويكبر بأقل تشويه. لا أدري كيف ألملم شعث مشاعري عندما أكتب عن أعظم إنسانين كان لهما - بعد الله - الفضل الضخم عليّ.

أبي لم يضربني قطّ، ويخجل من أبنائه كصديق لا يملك سلطة عليهم، فلا يواجههم إلا نادراً إن أراد شيئاً. أما أمي فكانت تقول لي عند كل سفر إلى الدراسة: (صير زلمة)، يعني بكل بساطة: كن رجلاً، وأرجو الله الكريم أنني جعلتهما يفخران بي جزاءَ -أو بعض جزاء - ما قدماه لي ولا جزاء لهما، وأرجو أن نكون من المحسنين لآبائهم لنكون عابدين لله حقّاً الذي قضى ألا نعبد إلا إياه وبالوالدين إحساناً، وكأنه يريد أن يعلمنا أنه لن يصح لك إيمان إن لم تحسن إلى أول الخلق إحساناً إليك، أمك وأبيك، فلو طاولت حسناتك آفاق الأرضين، فلن تكون من المحسنين لو انزلقتَ بأفٍّ لهما!.

ميلاد أول

أظن أن كل إنسان يتعبه فضوله ليعرف يومه الذي ولد فيه، وتاريخه، بل ساعته ودقيقته. ولما كانت بيئتنا قروية بسيطة، فقد كانت حظوظها من القراءة والكتابة والدقة يسيرة؛ لذا يندر أن يُسجل المولود في يومه المعلوم، وكنت كغيري أتساءل عن تلك اللحظات التي أصبحت فيها شيئاً مذكوراً.

لقد قصفت قريتي منذ شهور[1]، وأخرج أهلها من ديارهم منذ شهرين متتاليين، لم أعش تجربتهم بجسدي، لكنها أخذت نصيبها كاملاً من قلبي،

(1) خريف 2013.

ويكفيك لتدرك معنى الإخراج من الديار أن تعلم أنه جاء في القرآن مع سفك الدماء، والقرآن توثيق صارم لحقائق مشاعرك، فالإخراج من الديار تضييع لمهمة الإنسان في الأرض، يعدل سفك دمه؛ لأنه يربك كل اتزانه، ولقد قتل منا الألوف لكن لا تنسوا ملايين القتلى الأحياء في المخيمات.

لقد قلب حدث القرية الأوجاع والأوراق ليعثر صديقي على دفتر قديم لأبيه رحمه الله. وأبوه كان الوحيد الذي يعرف القراءة في ذلك الزمان، ليجد فيه توثيق ميلادي باليوم والتاريخ، بل بالجزء من اليوم، قبل 17 يوماً من ميلادي المسجل: الخميس عصراً، 16/ 12/ 1982. رحمه الله رحمة واسعة، لقد أسعدني وهو في قبره.

***

لكنني..

أحبُّ هذا الشهر، الشهر الذي ولدت فيه، شهر النهايات حيث بدأت، في أول يوم من نصفه الثاني (16)، يوم الخميس (يوم نهاية الأسبوع)، في عصره (آخر النهار)، كأنني على موعد محتوم مع النهايات، نهاية العام ونهاية الشهر ونهاية الأسبوع ونهاية اليوم، لتبدأ بداية أخرى. كنا في هذا الشهر، يكومنا البرد في غرف الدراسة البعيدة، ننوء به، وبحمل عزيز من الاحتياج إلى حضن دافئ، فالبرد يلفُّ أجسادنا كما يلفُّ قلوبنا، وصابرنا الحياة حتى وصلنا، وأزلنا الطين عن أحذيتنا، لكننا صادقنا الاغتراب وأدمناه حتى صار القاعدة التي رست إليها حياتنا، وتعزز فيها معنى الرحلة، فنحن دائماً على سفر.

وغداً هو يوم الخميس 16 كانون الأول/ ديسمبر من عام 2021؛ أي في خميسٍ مثلهِ قبل 39 عاماً، في عصره تحديداً، كنت أنا.

لقد ولدت في ثقافة لا تحتفي بدورة العمر كل عام، وقد يمرُّ يومه بلا تذكر أو اكتراث، لا احتفاء إلا بلحظتين، لحظة الولادة ولحظة الموت، حيث البداية والنهاية. فيالوجعِ النهايات! تفكرت فيها كثيراً ووجدتها تجتمع في تاريخ ميلادي، نهاية العام (1982) ونهاية الأسبوع (الخميس) ونهاية اليوم (العصر)، ويوشك أن تبلغ نهاية الشهر (كانون الأول)! ويبدو أن أهلي كانوا متفائلين فاختاروا لي بدايةً وسجلوني في بداية عام 1983، وبداية كانون الثاني/ يناير في يومه الثالث، ولا أشك أنهم سجلوني صباحاً في بداية النهار، كعادة أهل القرية يوم يبكرون إلى المدينة.

لقد أخروني 17 يوماً لأخطَّ بداية وجودي الرسمي. ولم أعش معهم إلا اثنتي عشرة سنة كاملة، هي بداية عمري ما قبل المدرسة والابتدائية، ثم بدأت رحلة الاكتمال والنقص معاً، كملت فيّ أشياء ونقصت مني أخرى، أشدّها هو نقصي من الأنفس بالفراق المتعاقب الطويل، وأشعر أن غلاف قلبي الخارجي صلب جداً، كوحدته وغربته، لكنه يتكور على جرح يابس لا ينزف، تئنُّ في أعماقه أحزان عتيقة، وقد ألِفَ بعضُنا بعضاً، وأمانٍ بعوضٍ ما، صارت لاحقاً بلا أجنحة.

عجيبة هذه الأقدار، عجيب أن نسعى إلى من نكتمل به فيزيدنا نقصاً فوق نقص، لنشعر أن نقصنا الأول كان عين اكتمالنا، وأحيي كل متفائل يريد أن يعيد إلينا جدوى الانطلاق مرة أخرى في هذه الحياة، لكن دورة العمر في الجسد والنفس في كبد هذه الرحلة المتعبة لن تهبك ألَق البدايات، في وجع البدايات! ولن تكون أنت الذي كنت، لن تكون.... لكن لا داعي للتشاؤم فقد بقيت كما كنت في بعض الأمور التي لا وزن لها! فلا أزال أرث ذلك عدم الاكتراث بالميلاد من ثقافتي؛ إذ يبدو أن ثمة سمات وعادات تبقى عصية على

الزمن والتجارب، وكأنها عنصر مشعّ لا يبلى، يخبر عن طبيعة حياتك الأولى وأصولك، لكنني أتفكر بفضول في نفوس الأطفال الذين اعتادوا على الاحتفال بأعياد ميلادهم، وبجغرافية شعورهم، كيف يكون وهم يرون الشموعَ وفرحةَ أهلهم تضيء حياتهم كل عام، وكم يشعرون أن وجودهم زاد الحياةَ حياةً، وكيف يكون (للهدية) دور لذيذ في تشكيل فرحتهم الصغيرة.

لم أنتظر قطّ احتفاء من أحد في يوم ميلادي، ولا هدية، والحمد لله أن أحداً لم يكسر روتين هذه القاعدة الآمن فيتذكرني فيهديني، إلا مرة واحدة، من صديق مجهول بعيد ليس في خارطة توقعاتي أو انتظاري، احتفى بيومي هذا الذي نسيته أنا، وجاءت هديته مثل صدمةٍ غريبة، مثلما يذوق الطفل الطعامَ أول مرة، أو تكتشف شيئاً في أقطار نفسك لم تكن تعرفه، أول مرة يقول لك إنسان لقد كان وجودك حدثاً جميلاً ويستحق أن أشكرك عليه، وكل شيء سيتورد إن أنت ابتسمت، وقد ابتسمت حقّاً لكن بشفاه دمعة.

ميلاد ثانٍ

في هذه الليلة من يوم الجمعة الموافق 10 آب/ 2018، الموافق لـ: 28 ذي القعدة/ 1439، عند الساعة الواحدة فجراً، ولدت ابنتي لين، بعد يومين من معاناة الانتظار في المشفى، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. أسأل الله الرحيم أن أكون أباً صالحاً لها ليحفظ الله لها كنزها حتى تبلغ أشدها، وأن يحييها حياةً طيبةً بعيداً عن الطاغوت، ميلاد سعيد: لين. حفظك الله. أبوك فيصل.

مخلوقٌ جديدُ عهدٍ بربِّه وبكل شيء، تتأمل قصيدتا عينيه، وارتباك يديه ورجليه، وتعجب من عناده وإصراره على رزقه وعلى الحياة، فتحسّ بشيء

عميق، شيء يشابه طعم البريق، طعم البريق، تتحسس دفء الجلد وعطر البشرة[1]، قميصاً يوسفياً يزكي قلبك الذي ران عليه رماد المسافات والضجر، فتغنى من جديد، ويفور فيك اقتدار المعنى، وانتشاء المغنى، وتشعر أنك تنتمي إلى الحياة، ويطوق قلبك حضن العزاء، وتعيد ترتيب جملة السياب؛ إن كان هذا هو الذي يبقى فحتماً هو العزاء، وقد كان عزاؤه دون أن يدري يوم كتب عن ابنه غيلان، فهو الذي بقي، وليست تلك الأسطوانة[2]. 3 سبتمبر 2018.

ميلاد ثالث

جهد أيام قلائل وأنهي - إن شاء الله - كتابي الأدبي الأول[3]، اجتهدت أن أجمع فيه ما أظنه أفضل ما كتبت من نصوص أدبية ومقولات مركزة. أهديه إلى ابنتي لين، التي أكملت عامها الأول اليوم، يوم عرفة!. في مثل هذا اليوم - وها هو ذا اليوم عرفة - عرفتك يا لين ولا أزال أتعرفك كل يوم، وأرفع قلبي إلى السماء في هذا اليوم العظيم؛ أن يحفظك، ويجعلك قرة عين لنا، وأن تكون لك حياة عظيمة مثمرة، ويسعدنا معاً في دار الخلود كما أسعدنا بك هنا.

لين تلك الحديقة المبهجة، يأتلف فيها كل جميلٍ من اللون والعطر والأطيار، ولا أظن رائحة أزكى من رائحتك، إنها قبس من قميص يوسف

(1) هذه الجمل مستوحاة من قصيدة نزار قباني، كوني امرأة خطرة.

(2) هذه المعاني مستوحاة من قصيدة السياب (غريب على الخليج) التي سيتكرر الحديث عنها في غير موضع من هذا الكتاب.

(3) بدأت معي فكرة هذا الكتاب منذ سنوات، وأوشكت أن أنهيه في ذلك التاريخ فكتبت هذا النص، ثم أجلته.

يحيي البصر والبصيرة. لين التي ألهمتني معنى آخر للحياة، وأشعرتني بجدواها أكثر، وبجمالها من خلال هذا الظلام، وكفكفت من جبروت الغربة، ومحت أُمنيتي في الحب! قبلك يا لين كنت أتشدق بمفهومه منطقياً، وأحسن لعبته بالكلمات، لكنه الآن كالإيمان، فيضُ قلبٍ لا تحيط بكنهه مهما امتلأت به. ولا يمكن أن يكون هذا إلا من صنع إله! إنك تجترحين لي كل يوم معانٍ جديدة، أتعلم فيها أسماء الله وتجلياته في خلقه، فأعرف من نفسي ما كنت أجهله، ومن رحمة أمي وأبي وفضلهما ما كنت أبخسه!.

بك أضمُّ مساحات جديدة من الغيب إلى عالم شهادتي؛ لأن الله حاضر في معجزة خلقك، أشهده شهادة أكثر من أي زمن آخر، فيتطامن غروري وأحيط بجهلي، ولا أخفي يا لين أن همّاً كبيراً يثقلني، وخوفاً من المجهول في هذا المدى العاصف، الذي شتت قلوبنا وأجسادنا، ولكن لعل الله يحدث من بعد ذلك أمراً، ويعيد إلينا ميلادنا وبلادنا، إنه رحمن رحيم كريم. أطمع من الله أن يخلد كلماتي هذه فتقرئيها يوماً ما. كل ميلاد وأنت بخير، وكل أضحى وأنت بخير، وكل من يقرأ كلماتي هذه، كل عام وأنتم بخير. 10/ 8/ 2019.

***

رياض المغتربين

في مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات وصلت إلى الرياض (15 حزيران 2010)، الساعة الثامنة ليلاً، كانت المرة الأولى التي أغادر فيها سورية، ولم أرها منذ ذلك الحين. أول المفاجئات ما إن خرجت من قاعات المطار، هي شدة الحر ليلاً، فالليل السوري منعش حتى إن التهبَ نهارهُ، ولعلها أولى العبر أن تعي أن الحياة أوسع مما وقر في قلبك لِمَا ألفتَهُ من بيئتك وناسك، وتلك كانت الفاتحة.

كنت أخرج فجراً ثم ظهراً ثم عصراً ثم عشاء، فلا أجد إلا احتمالاً واحداً لا يعبأ بي هو الحرّ بصلفِ سمومه، كأن جوها مريض مُجهد، تختنق أنفاسه ويشقها بعسر، والشوارع مقفرة من الناس كقلب يائسٍ مطفأ، وكان هذا مشهداً غريباً لسوري أتى من دمشق قبيل حين، ذات الشوارع المثقلة بالناس كأنهم موج منتشر.

ثم إني تساءلت مراراً، ما الذي يقيم هذه المدينة العملاقة في قلب الصحراء؟ لقد علمنا من جغرافية البشر أنهم يقيمون مدنهم على السواحل أو الأنهار أو الأرض الخصبة أو الجو المعتدل، لكن في الرياض، البيئة غضبى، لا تهادن الإنسان ولا تراحمه، فاستوت العلاقة بينهما على جفاء، كلٌّ منهما يقهر الآخر ما استطاع وبما استطاع.

ترى فيها جبروت الصناعة البشرية، وسطوة الإنسان واقتداره على الطبيعة، الجو يحفل بالطائرات الضخام التي لا تهدأ، والأرض مقلّمة، يفترشها الإسفلت على الطرقات العريضة السريعة، تَنْهَدُ على جانبيها الخرسانات المصمتة، والشاحنات المكدسة بالبضائع ترهقها ما إن ينتصف الليل حتى الفجر، كأنها الدماء يتلو بعضُها بعضاً في الشرايين لتغذي الأعضاء البعيدة. والسيارات، حتى السيارات العادية الحديثة، ترى فيها جبروت الإنسان وتفوقه، شكلها وامتدادها، سرعتها، مميزاتها. لتعود فتصوب نظرتك بعد حين وتقول إنها مدينة عامرة بالحياة والأحياء والحركة، مهما تراءى لك من صمتها في النهار، فليلها نهارات كثيرة، بل إنها لتستعين حتى باسمها على قسوة جوها، إنها الرياض! ولن تخلو حياة في أي مكان من مفارقات تعجب لها.

وأعتى تفوقات الإنسان على الطبيعة المتصحرة هو هذا (المكيّف)، الذي تتكور إليه كالجنين، آيةً من حنين، كأنه رحم أمك وأنت طفله الذي لا

يبارحه لحظة، ليصبح هديره الصاخب أجمل السيمفونيات أو الأغنيات التي تهدد بها الأمهات أطفالهن، ويتضرع قلبك إلى السماء أن يتدارك مخترعه برحمة تقيه حرَّ جهنم، كما وقانا ابنتها هنا، بل إنك لتشعر بامتنان عظيم لكل من انتظم في تلك السلسلة الذهبية التي أوصلته إليك، بدءاً من مخترعه إلى صانعه فناقله انتهاءً بمن بوّأه مكانه في بيتك.

إذن مرت عشر سنوات يا نفسي؟ عشر سنوات!؟ ما أكثر الذي تدمر، وما أكثر الذي تغير، وما أكثر الذي ينبغي أن يقال، وما هذه إلا مقدمة.. لكنني من يومها لم أعد، احترقت كل سفن العودة واستسلمنا للغيب والغياب، شراعنا الشوق والأمل الأعزل، وأقسى ما في الحياة أمل أعزل، في سجن كبير ولا رئة لنا إلا هذه الشاشات التي تختزل القلب ومشاعره، وتزيف هيئات الوجوه والابتسامات، وشكل الأصابع، فلا نرى شهقة الضوء بالمعنى من العينين عندما تبتسمان أو تحزنان، فأين الحدائق في هذه الغربة الصحراء لننعم بعطر وردة أو نداها؟ وقفر حدائق الأنفس أنكى وأشدّ من حدائق الأرض، إن إنسانيتنا تتآكل مثل أوراق الشجر، وقلوبنا لا تمتلئ إلا بالدم والهمّ. 15 حزيران 2020.

هروبٌ شبه يومي إلى الغرب

عندما تهمّ الشمسُ بالرحيل، ويهدأ صلفُ الضوء، أضيق بالجدران ومن ضجر المكان، وأهرب من نفسي فتنهض بي إلى الخروج والسفر، إلى طريق يحملني، أسارع الدقائق لأدرك الشمس قبل اندلاع الظلام، فآخذ بيد سيارتي ونمضي، لأنظر إلى الأرض وهي تغادرني وأغادرها تاركاً الطريق الرئيس إلى الرياض من جهة الشمال، وأتجه غرباً، لأطارد ذلك الشفق البعيد، وأعرض عليه ما في نفسي من رحيلات كثيرة، وأغيب معه فلا أعود إلا بعد حين.

ثـم تنحني بي الطريـق نحـو الشـمال كنصـف دائـرة كبـيرة تجانـب الغـربَ لترافقنـي عـن شـمالي، وأسـتقر عـلى طريـق الرحلـة حتـى الوصـول، وهـل أريـد الوصـول؟

كنـت أظـن أن الريـاض هـي الغايـة، وإذا بهـا محـض خدعـة، أخـادع بهـا نفسـي، أو لعلهـا هـي التـي تخادعنـي، فالغايـة هـي الضيـاع في الطريـق بـلا نهايـة، هـي الرحيـل بـلا وصـول، والإدمـان عـلى التفكـير واللحـن المسـافر، فكـم وصلـت وندمـت، وسـاءلت نفسـي لمـاذا أتيـت؟ وكـم بلغـت مـن الطريـق مـا بلغـت، فانتبهـت وعـدت، أنـا لا أبحـث عـن أحـدٍ لأجالسـه، ففي الـروح ثقـبٌ لا يرتقـه جليـس، ولا ينسـيني إيـاه قليـلاً إلا هديـر سـيارتي فـوق الطريـق التـي أريدهـا أن تطـول، ثـم أعـود ليـلاً، تلهمنـي مصابيـح الطريـق، وأسـكن إلى اصفرارهـا المحمـر الحزيـن، إلا أننـي أعشـق الظـلام الـذي يباغتنـي إن انطفـأتْ فجـأة، وأشـعر بـه حضنـاً يحملنـي وسـيارتي، وليـس مـن ضـوء سـوى ضوئهـا يتهـادى أمامـي، مـع لحـن مـن أمـر ريـاض أو بليـغ، أو أي لحـن مكـث في روحـي بـلا قـرار، أشـعر عندئـذ باتحـادي مـع الفضـاء فـكل شيء مظلـم، ولا أحـد سـواي، يطـير بـلا قيـود.. سـيمضي الزمـان، أعلـم أنـه سـيمضي وسـتتكدس السـنوات حطامـاً فحطامـاً بـلا انتظـام، وسـأحنُّ إلى هـذه الرحـلات عنـد الغـروب، ولطعـم قهـوة اللاتيـه ورائحتهـا، وهـي تسـافر معـي، كل يـوم، وأنـتِ أيضـاً.

وجع المنازل

أفهـم جيـداً الآن لمـاذا تسـمى الجنـة (دار المقامـة أو الخلـود)؛ لأن في أعماقـي حـسرة لا تنقطـع أن أمكـث في بيـتٍ واحـدٍ أعلـم أننـي لـن أغـادره إلا إلى

القبر.. بيتٍ أعقد مع كل زاوية فيه صداقة سرمدية، أنقشها نقشاً بكل معنًى من حياتي اليومية، ولا أتردد أن أؤثثه بأجمل وأنفس ما يكون؛ لأنه باقٍ للزمن، للحياة، لي ولامتدادي في أبنائي.

لن أقول سوف أتركك وأغادر فلمَ كل هذا السرف، إن كنت سأرميه للتراب كالتراب، أحفر مكتبتي في الجدار، لأنني لن أحتاج أن أنقلها حين أنتقل إلى منفى آخر، ولن يكون ثقلها على قلبي كما الآن. لن أنظر إلى أثاثه كعابر سيرحل بعد حين.

فما أعظم نعمة المقام في المكان، إنه يجمع كل شمل نفسك، ويقويك على كل هموم الحياة، لأنك واقف على أرض صلبة. لعلها نعمةً أن توطن نفسك على التخلي عن كل شيء، أن لا تعود نفسك على التعلق، أن تتقن مهارة قتل مكانة الأشياء في نفسك، وحتى الأشخاص. فليس للمسافر أبداً إلا ما يبقيه على قيد البقاء، عليه أن يتعلم الخفة في كل شيء، فهذه المعاني هي الوحيدة المقيمة في حياته.

ولا أزال أتعامل مع كل منزل أسكنه معاملة من يملكه، يزعجني أي عمل يخدش حائطاً أو يغير لونه، وعندما أغادره أقف تلك الوقفة، وقفة الوداع والنظرة الأخيرة، وكانت آخرهن ليلاً، خرجت منه وقد خوى من الأشياء والأضواء إلا من بعض الكراكيب، نظرت إلى مدخله، وأبوابه المفتوحة، في الظلام، واعتصرني حزن ودمع، كأنني ودَّعت عزيزاً، العشرة لا تهون بسهولة حتى مع الجمادات! 26 ديسمبر 2020.

أحنُّ إلى نفسي

أحنُّ إلى ذلك الطالب الريفيّ البسيط، الذي كان كل همه أن يحفظ

دروسه وينجز واجباته، إلى تلك النفس الحازمة التي كانت تلومه على همسة تقصير، ويظل يتلوى تحت سياطها، ولا يستطيع أن ينام إن لم يكن جاهزاً للغد، إلى ذلك الذي كان يبكي إن لم يستطع أن يحلَّ مسألة رياضية. أحنُّ إلى تلك الطرق الترابية الصغيرة والحقول الفسيحة، تنداح أمامي، ترافقني وكتابي وأحلامي وعطشي، إلى ذلك الأفق الفضاء، الأخضر المعطر بنقاء النفوس والهواء، أحنُّ إليه على تلة أعانقها في حرم الغروب المهشم بالغيوم.

كان الريف حازماً يخلق حسّاً قاسياً حتى بقيم الأشياء الصغيرة، ثم استدار الزمان استدارة الأفق مع الغروب، في قلب منتظر حزين، واستدارت معه نفسي، وبعُدت عن كل ما كان مني وحولي، لم يبق في قلبي إلا أشباح صور أجمّعها لأستمع إلى نفسي التي كانت. 11-2-2014.

لم تنته الرحلة، فماذا لو عاد بك الزمان؟

بدأت رحلة غربتك منذ 22 سنة ولم تنتهِ، تغيرت فيها المدن والأحياء، والمنازل والوجوه، فهل قلبك تغير؟ يصحو على اللحن وهو بعيد، كالذي تتهودج رئته في حلم تختلط فيه المشاهد الكثيرة من أمكنة وأزمنة شتى، فتغيم رؤاه وراء ضباب الرحيل، وتنتهي إلى ضياع بلا انتهاء. أكثر ما يحزنه أنه اعتاد على اللانتهاء. يهجر المنزل تلو المنزل بلا رجفة قلب أو غصة من حنين. سهُل عليه ترك كل شيء، ذلك الذي كان يحفظ كل شيء، ولديه جماهير من المشاعر والذكريات في أوراق قديمة. ماذا بوسع القلب أيتها السنون، وقد فقد السكن فلا شاطئ يرسو إليه إلا الفراق المستمر، والتنقل بين المدائن والمنازل والوجوه، يكفيه غصةً أن لا يعرف أين منزله

أو سكنه، أين حضنه الذي يجمع له ذكرياته وتفاصيل قلبه في مكان واحد حيث أهله وأصدقاؤه، فلا يتمزق بين المساحات المتباعدات، إنه لشيء مخيف أن تعتاد الفقد!.

فماذا لو عاد بك الزمان؟ آه لو عاد، لعانقت كل تفاصيل حياتي طويلاً بكثير من الدفء والابتسام والحنين الذي سيأتي عندما أفقدها، لأطلت ثواني العمر بين أهلي ملايين من السنواتِ، لو عاد لبقيت شاعراً لا ينطفئ، لو عاد لقطعت الطريق على خطة الزمن، وزمّلت قلبي بقلبٍ لن أفارقه وأبقى وحيداً، لجعلت من نبضه هادياً لخطا قدمي في الطريق العميق، لو عاد لعانقت سورية طويلاً قبل الرحيل، ولأسرفت في دمعي عندما ودعت أحبابي جميعاً، لبقيت أنظر خلفي حتى يغيّبني الأفق، لكنني استدرت سريعاً، كنت أظن أنني سأعود قريباً، لكنني لم أعد ولن يعود الزمان، رحل النهار. لو كنتُ أعلمُ أنّ الغيابَ طويلٌ، لعانقتُ تفاصيلَ المكان بكلِّ ما أُوتيتُ من بصَر ثم أغمضتُ عيوني عليها، لم أكن أعلم، ولفظتُ أنفاس اللقاء الأخيرة بقليلٍ من الدمعِ، وكثيرٍ من الأمل المبتسم بخيال العودة، لم أكن أعلم.

***

الفصل الثاني

رسائلُ إلى ماويّة عبر المضيق

ويدي كوجهِ الأرضِ فطّرها الصدى[1]
تظما لمسّةِ خدكَ الـمُتبغددِ
أملاً إليكَ أسوقهُ في ذا المدى
والخوفُ منهُ أن يعيشَ بلا غدِ
فامددْ فؤادكَ يا نسيم لمن غدا
لو مسَّ وجهكَ في ثوانٍ يهتدي
لكنني أرجو جفاءكَ مخلصا
كي لا تنوءَ بطوق قلبي المعتدي
خوفي على عينيكَ أن تدري البكا
ويسيل دمعكَ في الظلام على يدي

---

(1) كتبت هذا النص على هدى من بيت الشاعرة ميسون سويدان:

مـا زلـتُ أقـرب مـن هـواك ولـم تـزل   مثـل النسـيم الحلـو تفلـت مـن يـدي

لا فضيلة للصمت حين الألم، إنه القسوة التي تعلو على قسوة الحجارة وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وقد يكون لأدالاين مسوغ وجيه قواه الخوف فهربتْ من كل شيء حتى نفسها، أما الصامتون من نوع آخر، الناظرون إليك وأنت تتكسر من الألم، فإنهم ليسوا لك، ولم يكونوا يوماً لك، بئسما الصداقة أو الحب الذي لم يعلُ على كل شيء، ويقهر كل شيء، ويغفر كل شيء. إنه صورة لبقة من صورة الأنانية، إنهم يحبون أنفسهم إذ يحبونك، فإذا خرجتَ على حدودها المرسومة، تركوك ملوماً محسوراً مذهولاً تخوض في حيرتك: ما الذي حصل؟ وقلبك غاصٌّ بنزيفه، وعيناك توشكان أن تتفجرا بالدموع، لولا جمرة الغضب التي تحول دون ذلك.. 22 فبراير 2016.

بين مقدمة السفينة ومقدمة الفيلم، قصة حياة (Titanic)

للزمن جرحٌ بليغٌ في النفس، إن رجعت فيه إلى الماضي أو تقدمت فيه إلى المستقبل، حنيناً إلى أيام القلوب يوم اخضرّتْ بربيع اللقاء، وأملاً بأيامٍ ستأتي تعيد دورة الحياة بلقاء آخر يثيرها، فالإنسان جريحُ فقدِهِ، يخافه، يخاف فراق أحبابه فينقص منهم، وليس في الحياة جبرٌ كجبرك بعيشٍ في أمان أحبابك، تفكّرْ في مسرات حياتك على مشهد الزمن القاهر، ستجدها لن تتجاوز ذكرياتك المضيئة بأهل أو صديق أو حبيب.

يأسرني ذلك الكاتب الذي يجيد العزف على هذه الأوتار، والمخرج الذي يجعل نصه حياةً ملونةً ملء العين والأذن، ومن هنا أريد أن أدنو من فيلم تايتنك، من مشهدٍ لمقدمة السفينة في عمق المحيط المظلم، الجاثم على قلب تيتانك المحطمة، المدثرة بالصمت والظلام والبرودة والصدأ، ينقلنا فيها المخرج المبدع إلى صورة البداية العامرة بالألوان والأضواء والأصوات والناس وكل أشكال الحياة، لنسقط بين تينك الصورتين في

مجمع اللقاءات

هل تعلمين ما معنى أن تتمكن مني أغنية عرفتني أنتِ بها؟ معناه أنك اقتطعت مساحة جديدة لك من قلبي وعقلي وشعوري وذاكرتي وقلمي وحنيني الذي سيأتي، ستكونين جزءاً من لحن القصيدة ومن كلماتها ومشهدها، فكيف إذا لم تكن قصيدة واحدة أو لحناً واحداً، بل قصائد وقصائد وألحاناً وألحاناً، وأشياء وأشياء، وأسماء وأسماء، ولن يضيع كل ذلك هباء لأن أشرس الشعور وأعنده هو الذي يتسلسل صاحبه إلينا على زائر من اللحن والقصيدة، فمن يصاحب في نفسك الأغانيَ التي تحبها، لهو أعتى من سرطان كاسر، لا فكاك منه إلا على جثة هامدة، أو طريق تبلله الدموع والآلام، فلا ينبغي لأحد أن يربط قلبه بإنسان لا يتحد معه بهوية لحن واحد، فكيف إن كانت دولة من الألحان، فهنيئاً لك كثرة الألحان التي دققتِ بها قواعد وجودك في قلبي.

أنت حالة متفردة في رحلة حياتي، شيء طاف إليه خيالي منذ البعيد الماضي، بحث عنه فلم يجده، ناداه بقصائد الشعر (أين أنتِ)، و(بنت الرؤى) و(معراج الروح)[1]، وها هو ذا يجد ما تخيله حقاً، أنثى مكتملة، تستدير صفاتها البديعة بالقلب والعقل كالأفق من كل الجهات.

ماسة، في معناها حجرٌ كريمٌ، أمترين[2]، متعدد الأضلاع والألوان، يتكسَّر الضوء فيه فيضجّ كالمفجوع من كل الجهات، جهات النفس والطبيعة. أنثى فسيفساء، تجمعت قطعات نفسها من بقاع شتى، كأنها معدن ثمين تخلق في

---

(1) عناوين قصائد لي.

(2) حجر الأمترين، هو حجر كريم، مزيج من حجرين؛ الجمشت والسترين، ذو ألوان متمازجة من البنفسجي والبرتقالي أو الأصفر الذهبي، ويستخدم في صناعة الحلي، (انظر في ويكيبيديا).

أرحام الأرض العميقة. فسيفساء جدارية عريقة، على مبنى حضاري عتيق، زخارفها إضافة ساحرة لكل قوم مروا من هنا فبنوا حضارة تشهد على جمالهم ونبوغهم، ففيها من الزخارف عربٌ ورومان.

أنثى تلتقي فيها الحضارات، ويعبق فيها عرق الصعيد البكر البعيد وألق الغرب الجديد، ويتجاور فيها العلم والفن، العقل والجنون، الحكمة والطيش، ما أشبهها بالطبيعة، فيها قطع متجاورات تختلف ألوانها ومكوناتها لكنها تأتلف في صورة كلية بليغة تستفز مكامن الجمال في العين والقلب. أنثى كمجمع البحرين، كلقاء المتوسط بالنيل، ذلك ملح أجاج وهذا عذب فرات، وكل منهما يهب الحياة ما يقيمها ويديمها.

أتحدث عن جمال خلقك الجسمي أم النفسي؟ عن دقة خطوط جسدك وشفتيك وطفولة أصابعك، أم أتحدث عن ضوئية حنانك ولهفتك ورحمتك وكمال عقلك ودفء حكمتك؟.

يحار المرء فيك، ففيك كل ما يدعى، قبس من جنون وجِنان، أسميك العريقة أم المعاصرة؟ فأنت كلاهما، لا أستطيع أن أسميك، إذ تضيع الأسماء أمام هيبة بعض المسميات، فالمسميات أكبر من أسمائها، وتحتاج اللغة إلى لغة أخرى!.

ما أشفَّ ذلك اللحن المصري القديم فيك، يا نيل مصر الثاني وهرمها الرابع. وددت أن أطوّق أصابعك بيدي وأعصرهما عصراً بطوق شفتي، كأنهما أنابيب من ضوء يفخر الأمترين أن طوّق واحداً منها.

أنت كالمطر، كرائحة الخشب البكر، تتآلف في جسدها وروحها العلوم والفنون، تآلفَ الألوان والزخارف والرسومات على صفحة سجادة فارسية، فتذكري نفسك وحروفي هذه، إن رأيت سجادة فارسية، وتذكري نفسك وحروفي إن رأيت قطعة فسيفساء في متحف أو مسجد أو قصر أندلسي.

وتذكري نفسك وحروفي، كلما غاصت قدماك في رمل بحر قوي لأنه يشبهك، عنفاً ولطفاً، عمقاً وسطحاً، برداً ودفئاً، مداً وجرزاً، فتذكري نفسك وحروفي إن وقفت عند مصب النيل في الأبيض المتوسط، لأنه يشبهك، وما فرقه عنك إلا أنه كان لقاء جُعل بين ماءين آيةً من آيات الآفاق، أما أنت فمصبّ من آيات الأنفس التقى في ذاتها أنهر وأبحر كثار، نهر الشعر واللحن والرقص والرشاقة ونهر العلم والمعرفة والتذوق.

وتذكري نفسك وحروفي إن سمعت لحناً مصرياً عريقاً في مقدمات أم كلثوم وحليم وفريد وعبد الوهاب، أو لحناً عراقياً وشعراً سورياً في ثنائية نزار وكاظم؛ حيث تعانق الياسمين الدمشقي والنخل العراقي فانتصر الجمال والعطر.

أذكرك عند كل لقاء بين شيئين، عند كل مصبّ، عند كل تقاطع، ففيك تلتقي الأشياء وتذوب حدودها إذن، فتذكري نفسك وحروفي؛ إن سمعت كاظماً يغني نزاراً لأنهما شكل من أشكال اللقاء، وتذكري نفسك وحروفي إن وقفت على شاطئ فيروزي؛ لأنه اللون الذي يصدح بمجد اللقاء بين البر والبحر، يا عنوان المياه الشاطئية في قلبي.

أظن أن لقاءنا قدر حتمي ما دمتِ أنت مجمع من لقاءات الأشياء البعيدة والمتناقضة، أن نلتقي فهذا هو نداء الطبيعة وناموسها الحتمي.

حاولت مراراً أن أتوسل القلم والورقة أو لوحة الأزرار لأكتب عنك لكنني فشلت، لأرسم خريطة روحك وتضاريس خلقك لكنني فشلت، فعلمت أنك لن ترضي أن تكون الكتابة عنك بطريقة تقليدية فتبت عن محاولاتي، وتركت قلمي في نية الكتابة عنك للغيب والمجهول حتى أتت هذه اللحظة بلا تخطيط مني لأجدني أتحدر إلى مصيري المحتوم وأنا أكتب عنك بلا تخطيط.

تركت قلمي يعربد ويهذي كما يشاء، يحاول أن يلملم أطرافك الشاسعة في نفسي لعله يتماسك على شيء، لأنني فعلاً لا أريد أن أكتبك؛ لأن الكتابة بُعد واحدٌ وأنت متكاثرة الأبعاد، أحتاج أقلاماً كثيرة لأحكم خلقك ورسمك، قلم أصابعي، وقلم لساني، وقلم عيوني، وقلم حضني، وقلم شفاهي، وقلم أنفاسي، هذه هي كلمتي فيك أرفعها على استحياء وتردد، فأرجو أن تحفظيها لديك، لتذكرك بأنني حاولت أن أكتب عنك فلم أكتب، كلماتٌ فيك ومنك وإليك، أيتها العريقة العتيقة. أنا أمتد بالحرف امتداداً بك، كأنه جسد وأنت نفخة روحه، الحرف يتشكل بمعناك مثلما تتشكل آنية الزجاج من قوة النفخ فيها، فكم أحتاج بريق عينيك لأملأ محبرتي، فحبرك الضوئي ينير عتمة نفسي عندما يتوهج بالمعاني، فلا تغمضي عينيكِ، كيلا تضلَّ فراشات الأمل، يا روحاً من أمر أمي يطوق قلبي وهمي، فيا مجد الأطواق وخيرها! وخير طوقٍ للرجل، امرأةٌ عالمةٌ بقلب أم، إن لم يسَعْهُ علمُها، فلن يضيق عليه قلبُها.

رسول أمين

هذا هو الحرف، حرفي، رسول أمين إليك مني وعني، أجمّع به عالم نفسي، كل نفسي، لأفرّقه على صفحات روحك المشمسة بالحنان، لتجمعيه أنتِ من جديد، بحضن بعيد بعيد، بقلب طفل وليد، فتجفَّ غربته، ويهدأ تعبه الطويل الطويل، ويغفو فلا يفيق لأن وسادته الأمان، فقفْ أيها الزمان.

إني كسفينة صدعتها الصخور والأمواج والرياح في لجة محيطٍ ما أطول رحلته، يتقلّب بصري حائراً، تائهاً، في قبة السماء المظلمة، لعلي أجد قبلة تقوي قلبي ورجليَ على المسير لكي أسير، وصاحباً كوجه أمي بلا سخط

أو ظلام، ليس له لغة إلا الحنان والابتسام. أرسو إليه كل مساء كعصفور منهمك يرسو إلى شجرته، لكنني أزيد عليه حظاً بأن كل يومي مساء لي، وكل وقته أشجاري، ولا أنتظر غروب شمسٍ لآوي إلى عشي، لأن عشي استوى فيه الزمان، فلا ليل ولا نهار.

فيا حنان: يا أقصى ما يمكن أن يكونه الحنان في إنسان لإنسان؛ خطورة قدرنا أنه اجترح وصلنا بالقلم، فحكم علينا بجبروت الانصهار، وامتحن عزمنا بأقسى ما يمكن أن يُمتحن به بشر، بحرف يسري في شرايينا كالدم القاني، أن يجد له شرياناً آخر في جسد ثانٍ، فيا لقسوة رمحك في مدخل شرياني، وأتم خطورته بأن عزز قبضته بسطوة اللحن، فما أحلى الانهيار! فكيف بالله عليك أتخلص منك أو تتخلصين مني؟ وكيف نفلت من هذا الحصار؟ أهو حصار، أم مجرة حريةٍ بلا انتهاء، فيها كل العزاء؟ عزاء الوحدة والغربة وضياع الأهل والسنين. فأرجوك ضمي حرفي لأنه عارٍ، ليولد من جديد ويخضر بالربيع، ربيع روحك الموشورية، يا كعبة ضوئي في وحشة هذا المضيق وقد طالت الطريق.

نعمة الأمومة

لا أحد أحق منك بهذه الرسائل لأنك سبب ولادتها، وإن رأيتِ فيها قوةً تعجبك، فلْتعلمي أن قوتها قبس من إلهامك، فلا يخرج القوي إلا قوي، ولا يثير الجمال من أرضه إلا جمال مثله إن لم يفُقه فلن يقل عنه، وأظل أعترف أنني أمام الجمال ما أنا إلا ناسخ عن أصل هو الأعلى، كرسام ينقل الحقيقة إلى لوحته، فكيف نحتفي بها وننسى سببها العتيد، فكم يشعر حرفي بنعمة الأمومة عندما تقرئينه، ولَكم أسعد عندما أجد هذا الأثر البهي لقلمي في نفس أخرى أن يخفف عنها ويرسم على قلبها ابتسامة.

أنا الممتنُّ إليك لا أنت، إن العطاء مهما كان صغيراً هو عين الأخذ، فهل يزهد كاتب بنفس أخرى تشاركه احتراق المعنى الذي أحرقه أول مرة، ويحرقه ثاني مرة إن بقي حبيس أوراقه كما كان حبيس أعماقه؟

للكاتب نرجسية في حرفه لا انفكاك منها، إنه قطعة منه، فإن أردتِ أن تبرّي كاتباً، فبرّي حرفه، وامشي إليه يمشِ إليك. أو لعله يرى حرفه يتيماً، يسعد بكل من يربت على كتفيه ويقف له لحظة.

ما أخشاه أن يكون حرفي غليظاً تضيق به نفسك، فلا مذلة للحرف أكبر من أن يقف في باب أحد فلا يُجاب، ولا أريد أن أشقَّ عليك به، فالإجابة هنا كالحب لا تُطلب، إنها حالة تنطق بنفسها عن نفسها بقوتها الذاتية القاهرة، إنها قدر غلّاب كالولادة، ولن يغفُوَ صاحبها على جنب ما لم يبُحْ، فهذا ما أرجوه من حروفي معك، فلا ترددي فيها كثيراً، ولا توثقي نفسك بمحاذير كثيرة، فالرحلة فيها يسيرة يسيرة.

أتوسل إلى القلم

أنا لا أقوى على تصريف جمالك إن جذب أضلاعي إليه تلك الجذبة التي تحطمها، فلا يُعرف لها إحكام أو انتظام. أنا أتوسل إلى القلم وألوان المعاني لأصور اضطراب أخيلتي وتصوراتي فيك وعنك. هبيني تجرأت إلى رسم عينيك أو وجهك أو شعرك أو خطوطك المعجزة، فهل أقوى على رسم حنانك، أو خريطة المعنى المجرد إذ ينساب من غيب خلقك البديع، أو تلك الانحناءات الرهيبة في سمت صوتك أو ضحكتك أو حزنك أو تلقائيتك؟ هذا تجريد بعيد تتطامن دونه اللغة، إنه يُحسُّ بطريقة غامضة ولا يوصف، وما حسدت أحداً في حالتي هذه، إلا ملحناً عبقرياً؛ لأن الموسيقى هي كل ما تعجز لغتنا عنه.

مدن الأمل

لا مرارة أقسى من شعورك بانعدام الأمان، وأن تبتلى ببلاء مقيم يتغشاك كل لحظة كالنفَس، يجثم على صدرك كصخرة صماء فيطيش منك حاضرك، ويغيم مستقبلك، ولا يبقى لك إلا الحنين إلى ماضيك الجميل، لكنك تشرقين في عالمي كشمعة هادئة، يتشظى على جنباتها بؤس الظلام، أو كنجم بعيد في قبة السماء الشاهقة، أستهدي به في ظلماء صحرائي، أو كحضنٍ يشبه حضن أمي، آوي إليه بكل ضعفي واحتياجي. ترسمين لي مدن الأمل من هنا، فيمتد بها خيالي بلا نهاية، ويهدأ قلقي، وتغشاني قوة وابتسام خفي، أنني سأخرج يوماً من هذا المضيق، ولعلي أمشي معك تحت سماء ممطرة في زقاق عتيق، أو أجلس إليك في مقهى قديم، أو على شفة شاطئ فسيح، يغري بحره بالتأمل العميق، فأشتاق أن أغفو على شاطئ صدرك ولا أفيق، إلا على ضوء ابتسامتك أو صوتك يدحرجني على بساط من حرير.

كلاهما وطن

أنت حدث لحظي يرافقني في كثير من أفكاري وتخيلاتي، ربما تفصل بيننا مسافات ومسافات، نحتال على جورها بالكلمات، إلا أن هذا كافٍ ليشغل امرؤ من قلبك ووقتك ما يشغل، ويؤثر في حياتك حقّاً. ولا أدري أهذا من نعم عالم اليوم أم بؤسه؟ لكنني معك، أجده نعمة لا تُعد، فالمرأة والوطن، كلاهما وطن، عند من يقدر قيمة الإنسان والأوطان، وطنٌ تسكن إليه، ووطنٌ تسكن فيه.

نعمة أن تجد إنساناً بلغ في نفسه ما بلغ من نضج في كل شيء، والتقيت معه على مفاصلَ محكمة تسلك روحك وروحه في صعيد واحد يكون

مثابـة لـكل اتسـاع وامتـداد، لكنـك قـد تخالفـه، تشـاحنه، تغاضبـه، تصادمـه، ليُقام دليلٌ على التفرد عنه مع التشابه معه، وعلى الحرية معه مع التقيد به، والتفرد والحرية جماع كل شخصية رصينة فإن التقت بمثلها على مشترك من النفس والحياة، طابت لهما الصحبة، لأن التابع العبد ليس لصداقته معنى من الإنسانية؛ لأنه ساوى نفسه بغيره من الجمادات أو المخلوقات المقهورة بسلب الحرية والتفرد.

جدول لؤلؤي

أبحث عن تلك فيكِ ، عن تلك التي يتكوثر قلبها بالكلمة، وباللحن، وبكل فاصلة من جمال مهما دقّت، وكأنه تربة طيبة تحيل البذور الشاحبة، بذور أي شيء، إلى خضرة غناء تطرزها الأزهار والأطيار. عن تلك روح الطفلة التي لم يغضّن قلبَها مرُّ السنين بالهموم والمتاعب والاغتراب، فهي تترقرق كجدول لؤلؤي بين فسيحات السهول على الآفاق البعيدة، تندهش كطفلة وتضحك وتبكي مثلها، روحها كجناح الفراشة، أو وريقة الوردة، يؤذيها مسُّ النسمة الفاترة، ولا تُحاور إلا بالنظر الحاني.

تلك التي تتفضّضُ ابتسامتها كشعاع الشمس في مجد الضحى، فتثير كل قلبٍ خرب، وتغريه بجدوى الحياة. عن تلك التي تتحدر ضحكتها من شاهق براءتها، صادقةً كوجه طفل. ويخادعك صوتها فتظن أن الزمن لم يتحرك فيه خطوة، فهي هناك، لا تزال تلعب على تخوم طفولتها في ذلك الصعيد البعيد.

تلك التي تتلوى بكل فطرة الأنوثة الأولى، لم ينقص من أنوثتها البكر منصب أو عمر أو شهادة، نفسها سالمة مسالمة بلا زوايا حادة، كأنها أبت إلا

أن تشابه منحنيات جسدها الآفاقي، الذي أنّى يممتَهُ استدار بك كالأفق، في وجع، الهضاب النائية!.

ويا لوجع خيالي إن طغى فسبح في أفلاك ذلك الأفق، ومدّ أصابعه على أديمه ليجد تعريفاً جديداً للحرير والنعومة وأشياء لم تحفل بها لغة بعد، وأعجوبة أنوثتها أنها دوماً تشعرني أن فارق الزمن في عمري لا في عمرها، كيف تلتهم الزمن فينحسر صاغراً وكأنني أكبر منها بسنوات وسنوات وسنوات، لتشعرني بقوة رجولتي فتحطمني على قوة أنوثتها، وهذا أعتى جبروت يتجلى في أنثى، ما أقواها إذ تتضاءل بجوارك ملكاً، فتخضع لها كملكة.

أبحث عن ذلك اللحن فيك، عن تلك الرقصة، عن حديث غابر في مقهى قديم، أو مشية حالمة في شارع ضيق، وليلة سمرٍ عن ليالي الحلمية، أو الشهد والدموع، أو أي شيءٍ آتٍ من زمن غير هذا الزمن، حيث عشت طفولتي الجميلة هناك، فإن ضاع فيك كل ذلك أو مات فلا لوم عليك، بل اللوم علينا، على هذا البؤس الذي يقتل كل فراشة جميلة.

فراشته الأثيرة

هذا اليوم لا ضحى له دونك، شاحب، ثقيل، كليل المتألم الطويل، أفتقد فيه ضحكتك العامرة بالحياة، وحضورك مترامي الأطراف على نفسي، هذا اليوم ليس فيه طعم الحياة، سامحك الله على هذا الغياب، أيهون عليك أن تتركي قلبي على أعتاب الانتظار يستجدي رشفة (تشقيرة)، حتى ولو كانت فقيرة. فلتكن فقيرة، فما دامت منك فهي كثيرة كبيرة. أنا لا أقوى على هذا الغياب، فلتفعلي أي شيء بي إلاه، لترجميني بكل قاسٍ من عتاب أو لوم أو غضب، لكن ابقَي قريبة مني، عاهديني على أن تبقي قريبة مني

مهما فعلت. فلمن سآوي إن رحلتِ، حتى إن كانت رحلتك قصيرة، فإنها ستكون – على قلبي – كبيرة كثيرة.

آه لو تعلمين جوعي إلى احتضانك، ومسح أي أذى عن جَنانك، لو تعلمين كم يقهرني البعد قهراً، ويعزّ علي أن أريحك أو أكونك، لأدركتِ أن الكلمات نافلة، وأن القولَ ترفٌ فقير، وأنك بانتظارك جملة مني تبخسين الكثير. لو علمتِ ما أخبئ لك في قلبي من جنان، لضحكت من عزلتك الصغيرة، لو علمت كم يتشقق عطشاً لتكوني فراشته الأثيرة، وأميرته التي لا تغفو إلا على سريره، لتراجعتِ عن غيابك أيتها الأميرة.

لمن تفرين قولي لي؟ ومن تعتزلين بالله عليك، أتجعلينني والعالمين سواء؟ وأنا الذي أشتاقك مثل الماء، وأنا الذي أتوسل صوتك كل حين كالهواء؟ وأنا الذي أنهض بضحكتك مثل طود في سماء، سامحك الله، كم قسوتِ علي بهذا الجفاء. عيناي أرهقتا من تتبع بريدك، لعل جملة منك – تخونك على غفلة منك – فتفرُّ إليّ، وتخبرني عنك، هل أنت بخير؟ لعل نبضة صغرى من فؤادك تهزني وأنت نائمة فأستزيد من الحياة، لعل ضحكة منك تشتاقني رغم الحصار فأقض مضجع الألم، لعل ولعل، لكنني عبثاً أراقب بلا خيار، ما أصعب الانتظار!.

غابة نخلي ساعة القهر

أجدني ملزماً أن أشكر المحن والآلام، ملزماً أن أشكرها لأنها تعرفني كل لحظة بك، بقلبك المجرّي، بحنانه المجنون، بقلقه الأمومي، بنصحه الأمين، بحرصه الرقيق، بلهفته الجزعة، بترقبه المحترق، بهمه لما قد يصيبني، وحزنه على ما أصابني، فأعيذه من همي وحزني، ومن همه وحزنه، اللهم استجب.

يلفحني سنا دعواته - على البعد - كصدر أم، أو يهدهدني كأغنية ساجية من أمر وردة أو فريد. يزمّلني كحضنٍ خديجيٍّ شاهق من ذلك الزمن العزيز، حضنٍ تنحسر البصيرة عن إحاطته، ولو جُعل جبلاً لما طاول قمته بصرٌ، لأنه ناهض إلى سماء الفضاء. أحببت بك أملي لأنه يخلّقني بك، ويعزز فيّ معنى الإنسان والأمل بهذه الحياة التي انفرد بها الأنانيون والمستبدون. قُتلتِ ما أجملك، ما أرحمك، ما أعذبك، ما أوسعك، ما أعمقك، ما أشهقك، ما أعظم حظّ الأنوثة بك، وحظ الرجولة إن ظفرت بك، وما أعظم حظي إذ ألقى بي على طريقك أو طرقني بك فثقبني نجمك إلى ما لا نهاية. يا غابة نخلي ساعة القهر، ويا زرازير براريَّ في هذا السفر، يا رقّة السياب، وصرخة نزار، يا لحني الكناني الرقيق، يا وردة دمشقية على شرفة بيت عتيق، أو عشبة خضراءَ، في بستان بسيط من قريتي، يتفجر به الربيع، يا ضحاه وقد أنس بجلسة نسوة كبار وأنسن به، أو بلعبة أطفالٍ صغار، تتناثر ضحكاتهم على القلوب كتناثر الورود على جنبات الدروب، يذكرونني ويذكرونك بسرّاق الدقيق! في ذلك الحي السحيق، في حديقة من القلوب، تعمر تلك الدروب، فيا وجع القلوب.

ابقي هنا لأكون هنا

صرت حين أهمُّ أن أكتب إليك، كمن يكون على موعد مع حدث جميل، لعله لقاء حبيبين، أو لقاء طفل بأمه، أو مجاهد بثمرة جهده، أو لحن بأغنيته، أو كاتب بقلمه، بل هو لقاء كاتب بقلمه، ولكنه ليس قلمه الذي بين يديه بل الذي بين جنبيه، إنه أنتِ.

أنت قلمي الذي أكتب به فتفيض روحي على هذه الصفحات البيضاء بزرقة السماء. قلمي الذي عرفني بك، فضمكِ الآن لتكوني منه

وإليه وله، فتقلّمين كل ما ناء بقلبي من همٍّ وحزن، وتكورينني بحضنك كالجنين، وتشدين من عضدي: أن إياك أن تفشل وتذهب ريحك؛ لأنك أهل لأن تعصف بكل هذا الدمار وبكل هذا الحصار.

أريد أن أعانق هذه اللحظات بحرفي وأرفعها فوق سطوة الزمن؛ لتخلد في نفسي وفي ورقي وتحطمني بك التصاقاً واختراقاً، لحظاتٍ شهيدة على هارونيتك تجاهي، تشدين من أزري وتشاركينني في أمري، وفرحي وترحي، وترسمين لي طريقي إلى مستقبلي في هذه المحنة السوداء التي لا ترحم.

مدين لك بالكثير الكثير، الذي لا ترجين عليه جزاءً ولا وشكوراً، ويكفيك أن تشعري بسعادتي لتسعدي أنت، فلا أدري كيف سيكون نهاري دونك؟ وكيف يكون للضوء معنى إن لم يختلط بضحكة منك أو مزحة أو دعوة أو لهفة؟ يخيفني هذا الشعور لأنه محاط بخوف الفقد المرّ، فأرجوك كوني بخير وابقَي هنا لأكون هنا أيضاً، أو فلْنَرحل معاً، فلا ينفرد غياب بأحدنا فيتفطر قلبه بلا رحمة.

أبرّ رسول للحنان

لا أظن للسكن معنى آخر غير الذي أنا فيه، أن تشعر بأن قلبك يتسلسل نبضه هادئاً كجدول صغير في ضحى مخضر، لا ترهقه قترة أو تطمس عليه غبرة، تَشَقّقُ خيوط الشمس على صفحته ضياءً وبهجة، وتفتنك الأطيار الناعمة في جوه، وتطرز شجيراته الفراشات الملونة.

وأنت معي، يغشاني أنسٌ، أمشاجُ سعادة، ورضاً، وأمان غريب، يمدّني بعزم أستقوي به على ألم الحياة ومشاقها ومللها، أراك غابة فيحاء، فيها كل ما

يستهوي العين والأذن والأنف والجلد، أينما يممت حواسي وجدت ما يشغلني بك متفكّهاً به، هي جنتي الصغيرة ألوذ بها من وراء هذه اللظى المؤلمة.

أستقبل صباح يومي وقلبي طائر على أمل إلى رسالة منكِ، أعجل إليها وليس في خلدي إلا إطلالة ابتسامتك، ومسحات روحك الناعمة على قلبي، وعندما يأتي المساء، أكون كمن لم يرك في الصباح، وأستجدي الزمن ليمنحني فرجة نور إليك، ليهدأ قلبي الذي كان مشتاقاً وبقي مشتاقاً، لأنعم بقبسٍ من صوتك الذي لا وصف له، وهل يوصف شيء يكوّر روحك في طيّاته؟ وقد تكون نبرة الصوت أبرّ رسول للحنان، إن أدمنتَها تدرك ما في الكتابة من قطيعة!.

صوتك إن حاولت وصفه مشفوعاً باعتذار إليه، أن تطاولت عليه إذ وصفته؛ كرائحة الطفل الوليد أو ملمس جلده، لا يزال يحتفظ بطاقة الحياة، وأمل الحياة. يصكّ ضكحتكِ سبيكةَ ذهب، تبرق في ظلام قلبي فتنيره من ظلامه، وتثيره إلى سلامه، ويظل يتهدج على وسائد نعومتها، وكأنها تتفجر من أفق بعيد، وافدة إلى هذا الزمن من زمن آخر لا يعرف بؤسه أو ملله، كأن قوتها قبس من خيوط الشمس في ضحاها، تمرح بالطفولة بلا انتهاء.

ثم يسجو صوتك كالليل إن فجأتُهُ بلمسة حبّ أو أثارة من شوق، يتقطع ويدنو فيدنو مني فأشعر بحرارة أنفاسك على جور المسافات، وأشعر بأنامل التنهدات، تنهداتك، تطبق على نحري، وتشعل الجوع في فكري، فتكبر فيه أمنيةٌ؛ يا ليت أناملك الحقيقية، تمرُّ على شعري، أو ثغري، فتطفئ الجمر في صدري.

يا ليتني أضمك فأشمك، وأدوخ فيك، وأغيب فيك، وأضيع فيك، وأكون فيك، وأزول فيك، وأتشظى معك، وأتجمع فيكِ ، وألغي كل فاصلة

تبعدني عنك أو تبعدك عني، وألغي كل نقطة تحد من طول روايتنا، وألغي كل قيد يمنعني من أن أطير إليك أو تطيري إليَّ، ويحول دون اختباء يديك في يديَّ، وأهدم كل سور يحول بين التحام حديقتنا، وأقتل كل فكر ضدّ اكتمال قصتنا، يا ليتني ويا ليتني.. يا ليتني بعد كل هذا أن أنسى كل هذا: وأضمك، فأشمك، ثم أنام. يا ليت صوتك آخر الليل يزملني كي أنام، ثم أصحو خائفاً، فتعززيه بمسحة كسلى على شعري فأنام، ثم أصحو خائفاً مرة أخرى، فتعززيهما بقبلة عجلى على بطء في قلب جبيني، فأنام، لكنها حتماً ستثير حنيني، فلا بد أن أصحو خائفاً مرة أخرى وأخرى، لتدركي عطشي: أنِ احضنيني، كي أنام فلْتحضنيني، ألا تريدينني أن أنام؟.

أيتها المليكة الندية

ما أشقاني إذ انتهكت حرمة الدمع في عينيكِ، فجعلتُ للقسوة والتجهم حظاً أعلى في هذا الكوكب البائس، يوم انحسرت ضحكتكِ عنه، وغام ابتسامك والسلام ليعمَّ الظلام.

وما أضيقني إذ جازيت اتساع روحك بضيق فرعونيتي، وينهض فيّ هاتفٌ من بقايا الفطرة الكريمة متسائلاً: أهكذا نبرُّ قلباً أحبّنا واقتطع من حياته لنا؟ أهكذا نحتفي بالضوء الذي ينير عتمة نفوسنا؟ ونؤلم الصدر الذي أناخ لنا فيحاءه لنغفو عليها أنّى أردنا، قُتل الإنسان ما أكفره!.

إن نفسي الآن تكافئ ضيق حكمي عليك، بضيقٍ يقبض على صدري فما أجدرني بهذا العقاب!. وأشعر أن الظلم ظلمة في النفس حقّاً،

ولعله من عدل الحياة الأوفى، وستظل آفة الإنسان المتأصلة أن يحمي من يحبه منه، فما أعجل الظلم والطغيان إلينا فيمن هوينا، وأدخلنا حدائق قلبه المبهجة!.

لا تطيعني الحروف الآن وأنا أحاول أن أسوقها إليك لتنطق عن ضيق شعوري وثقله، كأنني أعالج صخرة غاشمة في نفسي لا تتزحزح. كل الذي أرجوه أيتها الفراشة المبسامة، أن يهدأ قلبك، وأن يصفو الأفق مرة أخرى في استدارة عينيكِ، وأن لا تنسي حاجتي الماسّة إلى حنان نهديكِ، وشمّ غابة الظلام التي تلتف من وراء وجنتيكِ، وأن لا تمنعي عني بارد الماء في راحتيكِ، فأنا ظمآن - ما حييت - إليكِ، إلى عراقة المعنى في روحك، وفخامة الأنوثة فيك جسداً وروحاً، وترامي الصفات الشاسعة التي اجتمعت على صعيدك أيتها المليكة الندية، عودي إلى ضحكتكِ وقلبي.

معمار شعرك

إن كان للجمال والأحلام عنوان وصورة، فقد كان شعرك في ذلك اليوم، عنوانهما وصورتهما. في انحناءاتٍ تسريحةٍ بقوة الحياة ضحىً وغنى، تنهض إلى الأعلى من كل جهة، لتلتئم على بعضها كالحضن حناناً، أو كأطباق وردة تئنّ من وجع العطر. وتشعل في قلبي دهشة الإنسان البكر من الجمال، من آية الأنوثة، يوم تحسسَ من كنهها في نفسه، فعلم من سطوتها ما علم، وعرف أنه أسيرها وإليها مرساه.

نبتت أصابعي وربت بالندى، ما إن فاض معمار شعرك بالوجود على

عينـي، فانبعـث جسـد الكتابـة فـي نفسـي، وأحسسـت بالـدم نسـائمَ بـاردةً تتهـادى فيهـا، فتمشـي بهـا علـى السـطور بهـذه الكلمـات السـاخنة.

وأذكـر مـن ذلـك المعمـار، ذلـك البريـق الهـادئ الـذي يتوجـع فـوق تاجـك الفضـي، الـذي يستوي فـوق عـرش شعرك كالملـك المهيـب، وتغيـب أطرافـه في غياباتـه، كجذور شجرة قويـة، يـوم تغـوص بكل عـزة في أعمـاق الأرض لتجـد حياتهـا ونماءهـا.

لعلـه كان حلمـاً؟ صـورةً؟ خرجـت علـيَّ فـي منامـي وظلـت نائمـة هنـاك، هنـاك في عميـق خيالـي، مثلمـا ترقـد سـفينة محطمـة في قـاع المحيـط المظلم، حتـى يأتـي غـواص مكتشـف يضـيء ظلامهـا وظلامـي، فمـا أحوجنـا إلـى ذلـك البريـق فـي هـذا التيـه.

الفصل الثالث

معانٍ في الأنوثة

والحرف يبكي إن هجرتِ أباهُ، فترفّقي بأبيهِ يا ليلاهُ
كم مرة غضَّ الدموعَ ترفّعاً، ويودُّ لو يجثو بكلِّ أساهُ
لكنه أملٌ يعلّلُ نفسَهُ، أوّاهُ ما أقساهُ ما أقساهُ

أسماء في الأنثى

مجمع الجمالين

في الإنسان غريزة أصيلة وهي أنه وفيٌّ لحواسه أكثر من أي شيء آخر، أي يتوق ليرى ويسمع ويلمس ويشم، ويرتبك أمام الغيب، ولعل ميل المجتمعات الأولى إلى تجسيد الإله آتٍ استجابة لهذه السمة العنيدة، التي نراها رأي العين كل يوم في الأطفال، وما رحلة البشر على هذه الأرض إلا طوي لكل ما غاب عنهم حتى يبلغ الأمر ذروته يوم القيامة الذي سماه الله تعالى يوم الأشهاد؛ أي سيشهد الإنسان كل الأنباء التي أتى بها القرآن وليست تحت سلطان العلم البشري، فالعلم البشري يطوي غيوباً طيّاً نسبياً كلما تقدم به الزمن وراكم خبرات البشر، وصوّب مناهج بحثهم، وهذا مشاهد في حضارة اليوم العلمية، لقد شهدنا حقائق ما كانت في مقدور الأولين، وترجمان ذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 41/ 53].

واسم الله (الشهيد) الخاتم لدبر هذه الآية، هو الذي قبس منه الإنسان تلك القدرة على طي الغيوب ونقلها إلى عالم الشهادة، عن طريق العلوم الطبيعية (الآفاق) والعلوم الإنسانية أو الاجتماعية (الأنفس). وقد بلغت تلك القدرة ذروتها يوم اخترع الكاميرا والتلفزيون والراديو والفيديو.. إلخ، وكل جهاز قادر على تحويل الأفكار والحقائق إلى أشياء تُرى وتُسمع وتلمس أو تشم، وهذا هو المعنى العتيد للتأويل؛ أي نقل الشيء من عالم الأمر إلى عالم الخلق، وفي رؤيا يوسف خير مثال لما تحولت رؤياه من

صور ذهنية أمرية إلى حقيقة شهدها بنفسه وقد قال: هذا تأويل رؤياي من قبل، قد جعلها ربي حقاً.

وفي القيامة سيبلغ تأويل القرآن منتهاه؛ أي تأويل كل آياته التي كانت خبراً أمرياً في الدنيا ولم نقدر على تأويلها، تأويل إلى حقائق مشاهدة كالجنة والنار والملائكة والحساب .. إلخ.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 7/ 53]. فالتلفاز أو الفيديو الذي يجمع الصوت والصورة والحركة هو المؤول البديع الذي وصل إليه الإنسان فجعل كثيراً من الأفكار حقاً نراه ونسمعه.

فماذا كان يصنع الإنسان مع تلك الغريزة العنيدة قبل هذه الثورة التكنولوجية؟ ما هي أدواته التي يشبع به تلك الغريزة الحسية التي تحاول الاحتيال على كل ما غاب عنها؟

لقد كانت أدواته الفنون، وهي درجات من أقصى التجريد إلى أقصى التجسيد، فالشعر والأدب عامة وكل ما كانت الكلمة أداته، فهو أقرب للتجريد يرسو على شطآن الخيال ولا يحدّه حدّ، ويشبهه في ذلك الموسيقى إلا أن كلمتها ليست كلمة من حروف، مكتوبة أو منطوقة نراها بالعين أو نسمعها بالأذن، بل كلمة من نغمات مسموعة نسمعها بالأذن ونقرؤها بالروح، فالنغمة والكلمة وحدات يتوسل بهما الأدب والشعر، والموسيقى، ليعبر عما في نفوسنا من أشياء تجريدية، أما الرسم والنحت والرقص فهي أقرب إلى التجسيد، الرسم يحدّه بُعدان ويلتهمه البصر. أما النحت فيحدّه أبعاد ثلاثة ويلتهمه البصر واللمس.

أما الرقص فهو الاستثناء الفريد، الذي تلتقي فيه فنون متراتبة (على مراتب متدرجة) بين التجريد والتجسيد، ولا يمكن لحاسة واحدة أن تنفرد به، فهو جماع البصر والسمع والخيال والجمال، تأتلف فيه الموسيقى بكل غناها المعنوي التجريدي وصورة الجسد وحركته، وهو في الأنثى أشد وطأة وأقوم تعبيراً، لأن الجمال والمعنى اتخذ جسدها آيةً، فكأن الجسد الجميل إذ يتمايل ويتهدج آلةٌ موسيقية يسبك الألحان سبكاً فيؤولها من محض مؤثرات صوتية إلى صور متحركة، ليصبح الصوت جسداً ثلاثية الأبعاد، مشهود المعاني تراها في تقاسيم وجهٍ، أو منحنيات جسدٍ تتقاسمه الحركات المتناغمة.

إنها طباعة حقيقة لا مجازاً، فإذا كانت الآلات الموسيقية تؤول النوتات - وهي لغة خاصة مكتوبة -إلى ألحان تطرب لها الآذان، فإن الجسد آلة موسيقية تؤول الألحان المسموعة إلى صور حية مرئية موحية، إنه أبلغ تأويل وأعنفه تتداعى له الأذن والعين والفؤاد أي كل أدوات الإنسان الإدراكية؛ لذا فالرقص هو الفن المكتمل، إنه مجمع الجمالين (جمال الشكل والمضمون) أو البسطتين: بسطة العلم والجسم، فهو لن يبلغ حق جماله إن لم يكن للجسد قلب عملاق يفقه الألحان فتنعكس على جسده حركة حقيقية معبرة، فليس كل من رقص أجاد، إذ مدار الأمر البعيد منوط كله بالقلب الشاعر، فإن أحاط به - أي بالقلب - جسد أنثوي باسق رشيق سحيق، فقد تمت كلمته بلاغةً وجمالاً.

ولولا الخوف أن يهيمن الجزء الطيني من الرائي، فيقتصر فيما يرى على جمال جسدها المحض، ذاهلاً عما في حركته من المعاني ذات الصدع، لكانت رؤيتها عبادة روحية صافية! إذ قديماً ارتبط الرقص بالتعبد والدين، وكانت الشعائر الدينية راقصة، بل لعل كثيراً من رقصات اليوم هي صلوات انقطعت عن أصلها الحقيقي، فكأن في الرقص حنيناً مجسداً إلى الغيب التجريدي، وهل من حنين يكون بلا جمال!.

فيا لـه مـن عـذاب بعيـد، واختبـار شـديد جـدّاً، ونقـص مـن الأنفـس أن يوجـد مثـل تلـك الأنثـى في هـذه الدنيـا التـي انبسـط لهـا الجسـم والعلـم، فـلا نقـص مـن نفسـك كنقصـك يـوم تفطمهـا عـن تلـك الربـوة النـاضرة، وإنـه فطام لا يقيـم أركانـه إلا صـبر الصِّدِّيقـين!.

فقـد أنبأنـا الإلـه أنـه مبتلينـا بمصائـب مـن نقـص فـي الأنفـس والأمـوال والثمـرات، وعزاؤنـا بـأن الرجعـى إليـه، والـدواء- لحيـن ذلـك - هـو الصبـر؛ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 2/ 156]، فكأنـه يعدنـا - إن صبرنـا علـى هـذا النقـص مـن الأنفـس- أن يجبـر نقصنـا عنـد العـودة إليـه.

وقـد يظـن الظـانُّ أن (نقـص الأنفـس) مقتصـرٌ علـى مـا تحـب مـن أهلـك وصحبك حيـن يخطفهـم المـوت منك، وهـذا لا شـك هـو النقـص العظيـم، لكـن فراقهـم - حتـى وهـم أحيـاء - نقـص لـك منهـم. وفي نصنـا هـذا، فـإن صبـرك عـن رؤيـة ذات العلـم والجسـم - اللذيـن تـأوّلا ورسـخا في لحـن تجريـدي وحركـة مجسِّـدة - أو امتلاكهـا، هـو نقـص مـن نفسـك أيضـاً وإن زادهـا كمـالاً!.

إذ الكـمال هنـا هـو مغالبـة طبـعٍ مُشـتهى تكابدهـا عـلى ألم، لتنـال أجرهـا في عـالم آخـر يكمـل لـك كلَّ مـا نقـص منـك هنـا. ومـا سـعادة الطاعـة النسـبية التـي يترنمـون بهـا إلا لـذة الانتصـار عـلى ماتحب إبـان ارتفاعـك عـن إخـلاد جسـدك، وإلا فـلا طاعـة مطلقـة تأمـن فيهـا عـلى نفسـك وتقـول: أمنـت! فـإن كمّلـت مـا نقـص منـك في هـذه الدنيـا غـير مبـالٍ بالحـدود، فإنـك لـن تكملـه! لأن الـذي شرع لـك ذلـك جعـل سـنن الكـمال بالنـوال هنـاك لا هنـا. فالطائـع متـألم بصـبره عـلى مـا ينقصـه، سـعيد بنـصره عـلى نفسـه، مؤمّـل بـما سـيأتي بعـد أجلـه، والعـاصي متـألم بلـوم نفسـه، متلـذذ بـما يشـبعه بهـا عـلى غصَـصٍ مسـتمر لا تسـتقيم بـه سـعادة إلا كعـود ثقـاب يخبـو مـا إن يتوهـج!

وتمت حكمة الله أن يجعل الجمال محاطاً بالمحاذير، أو يجعل الشَّر مندمجاً بالمنافع واللذائذ، ليبلوك بالتقوى، فلو كان الطريق معبداً لما احتجتَ أن تتقي أو تصبر، ولما تفاضل قلب على قلب ووُعد الفاضل منهما بحسن المآب. ولا شك أن النقص بالموت مرٌّ؛ لأنه يقطع دابر الأمل ببقاء عاجل في هذه الدنيا، لكنك مقهور به لا إرداة لك فيه، يأتي كبيراً ثم تصغره الأيام بالنسيان والاعتياد، أما النقص بمنع النفس عما تشتهي وتحب، فهو نقص، تقهر - أنت - به نفسك بكل إرداتك ما دمت حيّاً، ولا يصغره إلف أو نسيان، وأنت الطبيب وأنت العليل، ولا شيء أقسى من ألمٍ فيك، أنت فاعله لأنه يحتاج صبرين؛ صبر الفاعل على القيام بالفعل، وصبر المفعول على وقوع الفعل عليه، فمن أين لك بعبد صالح يبلّغك مجمعَ الصبرين إن بلتك الأقدار بمجمع الجمالين؟!.

الأنثى الأدب، والجمال، والحنان

أحبُّ كلماتي، عندما يرسمها حبرٌ أسودُ على جبينِ ورقة بيضاء، وكأنها شاماتٌ تطرزُ قسَماتِ الصفحات، فيجتمع لها من الجمال جمالٌ لا يشبهُ إلا جمالَ الفاتنة التي أولدَتْها، وكانت حروفُها سبباً لحروفي. فلا أثمنَ من مشاعرِ القلب يرسمها قلمٌ، كفنانٍ مبدع، ينتقي من ألوانِ الطبيعةِ ألوانَ روحِهِ، فنرى في لوحتِهِ اتحادَ جمالِهِ وجمالِها، وهكذا هي الحروف، إلا أنّ ألوانَها شاهقةٌ، تشرف على احتمالات كثيرةٍ من المشاعر والدهشة، يتشارك فيها رسّامان، كاتبٌ وقارئٌ، يلوّن كلٌّ منهما حرفَهُ كيفما يشاء، فتنجلي الكتابةُ عن لوحتين في لوحة، لوحةٍ روحُها قلبان، وجسدُها حروفٌ كثيرةٌ، إنّها متعةُ الحرف ووجعه الجميل.

وقلتِ مرة: أحبكَ حرفاً، شيمتُهُ الأمل. وقال قلمي: إن كانت كلماتي

تبعث فيكِ الأملَ والسعادةَ، فشعوركِ بها يمنحني أملاً آخرَ وسعادةً أخرى، هي سعادةٌ لا يعرفها إلا من يعاني وجعَ الحرف، فهو يفرح به فرحَ الأب بابنه الصالح، عندما يراه من الحب، كالقلب في قلوب الناس، تتهادى على جانبيه عنايتُهم. وأنتِ الأنوثة الحرير، الناعمة الباسمة، التي تلوّن الحياةَ برقتها وعذوبتها، فتنعكس الأحزانُ أفراحاً في قلب الرجل، ويرى حياةً أخرى غيرَ الحياة؛ لأنّ الأنوثة تململتْ وفاح عطرُها، وخلعتْ على خريفهِ لونَها الأموميّ، فليس أجمل من حرفي، إلا قلبكِ الذي عكس ضوءَه أضواءً غفيرة، فأراني زجاجَ روحكِ نقياً متوهجاً،لأن مصباحَهُ هو نورٌ علويٌّ، أبدعَهُ الخالقُ في مشكاةِ نفسكِ، وما حروفي من حروفِ مصباحكِ الدريّ؟ إنها عظمةُ الشيء الصغير عندما يدلُّ على شيءٍ أعظمَ منه، فحرفي شعاعُ الضوء، وأنتِ شمسُهُ، لأنه انبعثَ من نفسي، يوم امتلأتْ بكِ.

وأنتِ للأنوثةِ أنوثةٌ أخرى، جميلٌ هو خضوعُكِ المقتدِر، يشعرني بعجزي، بقدر ما يشعرني بقوتي، أنوثتكِ كمعجزتي عينيكِ، كعبتا ضوءٍ، يرتدُّ عنهما بسبعة أضواء، كالمُتعبدِ يعود من حجِّهِ إنساناً ضوئياً بعد سبعةِ أشواط. وقلتِ على كبرياء: أشمُّ الوردةَ، ولكني لا أقطفُها، وردتان تشمّ إحداهما الأخرى، إنهُ لقاءُ العظماء.

وشمّكِ حرفي فقال: إن كان للورد في عالم الطبيعة، أوراقٌ لها من جمالِ الشكلِ ما يغلِّفُ العيونَ بالحيرة، ومن زكوِّ الرائحة، ما يثير الروحَ نشوةً وابتهاجاً، ومن نعومة الملمس ورقتهِ، ما يجعل الحريرَ يعضُّ أناملَهُ من الغيظ، فإنّ في عالم النفوس وردةً أخرى، وما أوراقُ الورد في الطبيعة إلا صورةٌ عن حقيقة هذه الوردة في النفس، وما حقيقةُ الكلمة الشاعرة، على الورق أو اللسان من حقيقة الشعور الذي انبعثتْ منه في الجَنان، إلا كحقيقة

الظلّ من صاحبهِ، هـذه أنتِ، وهـذه أوراق الـورد، حقيقـةٌ وصـورة، كشعور في النفـس، وكلمـةٍ في الدفـتر، وإنسـانٍ في الشـمس، وظـلٍّ يختبـئُ خلفَـهُ، فرفقـاً بحرفي، تذوقيـه بعنف! ليكتمـلَ خلقاً آخر، كما يتحول طولُ الموجة الضوئية مـن رقـم عـارٍ في لغة العلـم إلى لـونٍ زاهٍ في لغـة الدمـاغ، ليحيا بكِ حياةً أخرى، فمـن يتـذوق الحـرفَ بإتقـان، فعقلُـهُ وقلبُـهُ في السـماء، حيث النجـوم والنيـازك.

بينـكِ وبـين حـرفي حـبٌّ لا حيلـةَ لي أمامَـه، والحـب عندمـا يهطـل كزخـةِ مطـرٍ شـاعرة هـو حالـة علويـة، قـد تبـين أسـبابُهُ وقـد تختفـي، ففيـهِ مـن الوضـوح مـا فيـه مـن الغمـوض، وهنـا يكمـن سـحره، ومـا هـو؟ وكيـف تـأوي روحٌ إلى أخرى في حالـة كالغيب، تفيضُ نُعماها على طرفين، يجد كلٌّ منهما لـذةً غريبةً في منحِ الآخرَ خصائصَهُ، ما كبريائي وكبرياؤك؟ وكرامتي وكرامتُـكِ؟ أنـا أنـتِ، وأنـتِ أنـا، إنـه العطـاءُ مـن طرفـين ليأخـذ كلٌّ منهـما الطـرفَ الآخـر كلـه.. إلا أنـا، أخـذتِ حـرفي كلَّـهُ، وأخـذكِ كلّـكِ، وخرجـتُ مـن بينكـما بحـزن قلبـي. 2012.

ووقفت مرة على شاطئ الأنوثـة، فأبحر بي خاطرٌ وقال: لـو قُـدِّرَ للجمال أن يستحيلَ إلى كائن حيٍّ تلثمُ خطاه أديمَ هـذه الأرض، لكانـت روحُـهُ الأنوثـة، فللأنوثـةِ طعـمٌ خـاصٌّ عـلى مائـدةِ الجـمال، مثلـما أنَّ للجمال طعـماً خاصّـاً في عيون البشر، وفي الأنوثـة معـانٍ عميقـة يخشع أمـامَ دفئِهـا فـؤادُ الرجـل، ويـتركُ لهـا يديه كطفـل أرهقـتْ قلبَـهُ الصغـير أوزارُ اليُتـمِ والحرمـان، إنهـا مرفـأ السـكينة الـذي تـأوي إليـه أحزانُـهُ كلـما صدَّعـتْ عزمَـهُ الحيـاة وضعضعـتْ إرادتَـهُ الصعـاب. نعـم، قـد يملـكُ الرجـلُ مـن القـوة مـا يَفلـقُ بـهِ جبـاهَ المسـتحيل، وقـد يحـوز مـن الإرادة والحـزم مـا يُبلِّغُـهُ ذرا الطمـوح، إلا أنَّ عزمَـهُ يتقهقـر ويتهـدَّمُ أمـام حنـان الأنوثـة، الحنـان. ولعـلَّ الحنـان هـو أخطـر مـا يمكـن أن تتسـلَّحَ بـه امْـرأة؛ إذ

ليس بينه وبين القلوب حجاب، وأعتى ما يدكُّ حصونَ عواطف الرجل ويذيبُ غربتَهُ، نفحةُ حنانٍ بريئة، يتعثرُ بها لسانٌ أنثويٌّ خجل أو تهمسُ بها عيونٌ ساهمة ترتبكُ أمام نقائِها الحيرة، وللحنانِ الأنثوي سطوةٌ أقسى عندما تستنصرُ الدموع، ولمنطقِ الدموع قصةٌ أخرى ولغةٌ أخرى تتعطلُ أمامها كلُّ اللغات. ألا إنَّ أنفذَ النساءِ عبَراً وتعبيراً مَنْ تتحدثُ بدموعِها عندما يصدقُ قلبُها وأعمقَهنَّ هدوءاً من تختصرُ بين ضفتي جفنيها استدارةَ الأفقِ البعيد، وأكثرَهنَّ شبهاً بالحزن من تذكِّركَ عيناها بمراسيم الوداع عند احتضار الغروب.

وأغزرَهنَّ حناناً - من تشتاقُ إلى حضنِ أمكَ - عندما تراها تبذلُ نفسَها ونفيسَها كي تمسحَ غبارَ الحزنِ عن ضوءِ عينيكَ لتقنعَكَ بأنَّ: (في هذه الأرض ما يستحقُّ الحياة). 2007.

إن الأدب لسان الجمال، والأنوثة روحه مادةً ومعنى، وهل عرفنا جمال الحنان إلا في قلب أنثى؟ وهل شربنا روعة اللحن إلا في صوت أنثى؟ وهل أدركنا سلطة الابتسامة إلا على وجه أنثى؟ وهل لمسنا قسوة الرحيل المبدعة إلا في شَعر أنثى ينثال شلالاً بلا قرار؟ وأي جمال يضارعُ جمال الدموع حين تتحدث بها عينا أنثى؟ هي لوحة يخشع القلب في محرابها، يلتهمه الصمت طويلاً، يا للدموع ما أقساها، ما أروعها، كل الجمال عيناها. والعيون الأنثوية مثابة لكل جميل في الطبيعة، مرة تصبح أفقاً عريضاً، ومرة تصبح فضاءً عميقاً، ومرة تهدأ كالفراشة، ومرة تصخب كالبحر. أواه ما أقسى العيون!. لقد التهمت غابات النخيل ساعة السحر، وما أدراك ما غابة نخيل ساعة السحر.

حتى الطفولة البكر، قد تختزلها أنثى ناضجة. الأنثى الأمومة، والأخيّة والحبيبة، ماذا سيكون للجمال بلا الأنوثة؟ وأي عمل سيبقى للحرف بلا

مداد الأنوثة؟ إنها منجم السحر الذي لا ينتهي، وهي مادة الأدب الأولى؛ لأنها جزء من مادة قلب الرجل، فعندما يكتب عنها، فهو يكتب عن قلبه الذي انعجن بها، ويسترد جزءاً من نفسه؛ لذا إن المرأة التي لا تتذوق الأدب، تسيء إلى حقيقتها؛ لأنها جزءٌ من حقيقته. يُرفع القلم وتجفُّ الصحف حين تأفل شمس الأنوثة عن قلب كاتب، وكل ما كتبتُه هو هبة من كلمات أنثى.

الأنثى الهدوء

إنها ممتدة كحقل أخضر، يسترخي فيه البصر فلا يرفُّ له جفن، وكأن الهدوء وجد له سريراً في مهاد عينيها الممتدتين كأمل الغريب. تقف أمامها مثلما تقف أمام نص شعري مثقل بالرموز، فتحار في تأويل معانيها.

إنها لو تمثّلت في غير هيئتها أو جنسها لكانت قطعة موسيقية تشعر بها ولا تفهمها، تشعر بقربها وبعدها في آن واحد. إنها عمل فني لا يمكن تحليله بالعلم، أظنها شيئاً مربكاً جداً، لأنك تتلقاه بالحيرة والظنون العائمة.

ماذا لو تجسد البشر بما يغلب عليهم من أسماء معنوية؟

أظن أن الصمت أو الهدوء أو الغموض أو التأمل سيتشاجرون أيّهم ينالها فيفوز بنعمة الولادة في عالم الحواس. ولو عرضت على عالم الطبيعة، لتسابق إليها الظلام أو البحر أو الأفق البعيد، فكلٌّ سيجد فيها ما يعبر عن عمقه وغموضه ونأيه، فرحاً بانكماش أبعاده الكبيرة في مخلوق صغير.

تبتسم باقتصاد شديد كشهاب يخبو ما إن يلتهب، يخرج كلامها بتأنٍّ كقطرات ماء يسترخي الزمن كالملل بين تتابعها، وشعرها الأسود المتداعي كخرافة، كشلال ظلامٍ يشبهها جداً، لا صخب فيه ولا تمرد، يريد أن يجري إلى نهايته بلا أضواءٍ أو احتفاء.

عيناها كنصٍّ مقدَّس، يطلُّ عليك من التاريخ القديم، يطوّق ضفتيهما شاطئان أسودان من الرمشين المترفين، كأنهما رسولان ناطقان من شعرها الذي آثر الصمت. هيئة أصابعها تذكرك بالبراءة الأولى، لكأنها أنابيبُ من الضوء، يثير فيك الطفولة، وكأنها أدركت سرهنّ، فرغبت بأظافرها عن الأصباغ، فوكّدت عدم انتمائها إلى هذه الحضارة المكتظة بالصنعيّات، هل هذا هو السر باقتصارها على الكحل الذي تنتجه أحجار الطبيعة؟.

إنها تستمد جمالها من داخلها لا من خارجها؛ لذا فهي تكره الحلي والأساور ففي داخلها بريق أعمق وأعظم وأفخم، تتجاور قسمات وجهها الشاحبة كمشهد الغروب، فكأنها بلاغ من أمر الحزن والرحيل، ولو مرت بعالم الأدب لاستوى أمرها على رواية تصور الريف الوادع البعيد، لم يدر في خلد الحضارة المرهقة. لو تخيلتها لوناً لكانت فيروزاً لا يوجع روحك إلا على الشطآن الفسيحة، أو صفحات البحار الممتدة بلا انتهاء. أظن أن هذا النص هزيمة مشرفة أمام مخلوق من هذا الطراز المحيّر. 21 سبتمبر 2015.

الأنثى الضحى

بليغة كالضحى، يعلن عن نفسه بصلفٍ، ويمسُّ كل تفاصيل المكان، فلا ينجو من حضوره القوي أحد، وكأنها تقول للوجود كل حين: أنا هنا، فلتحتفلْ بي! أيُّ رؤيةٍ لنفسها وقرَتْ في نفسها فجعلتْها ترى الحياة مدينة لها، فكأنها سبب من أسبابها التي تضطر إليها كل نفس.

وإني كلما رأيت المكان يتفجر ببريقها، تجمّعت في نفسي زقزقة العصافير حين تتشاحن على ضفاف جدولٍ ثرثار، أو تصطخب في جوف شجرة باسقة كانت لها وطناً حين أذن الغروب.

ويا ليتها تستدبرك بجفاء لتمدّك بحبل قطيعة تزدريها فيه فيهون أمرها عليك، وإنما تقبل عليك كاليقين، فتحار في أمرها، أهو كبر متواضع أم تواضع متكبر؟!. تتفنن في التدلل كما يتفنن الرسام بألوان لوحته وتضاريسها.

كم تشعر بامتنان عميق إلى هذا النوع من البشر، الذي يوجد كالأمل، يمسح على جراح المتعبين، تنظر في وجهه فتشعر بإلهام الألوهية يفيض على روحك، إذ لا يمكن أن يكون ذلك الوجه البهيج إلا من صنع إله عظيم جميل، فما أجدرك أن تحدّث بتلك النعمة فتأمل وتتوب من حزنك، فتخضرّ أصابعك بالمعاني والأماني، فتثير الأوراق بكل ما أوتيت من حرفٍ، ومن معنى.

ولـمّا اكتملت قسمات صورتها الروحية في نفسي، تدلّى خيالي من شاهق الغيب ليرسمها لي في عالم الشهادة، فقال لي: لا يمكن أن يكون شعرها إلا بنياً يكاد أن يكون ذهبياً، تخيلْ لونه في موج خصلاتها، تنزلق فوقه أشعة الشمس خيوطاً متوازية كأوتار القيثارة، حين تتسلل من نافذة شاهقة، هو ذاك لونه. ولو تخيّلتَه أوتاراً حقاً، فضربتَ بأناملك عليها، ماذا تراه سيعزف لك؟. سيكون لحناً متدفقاً كالحياة مع الصباح القوي، يطلُّ عليك من أفقيّ عينيها العميقتين بالفاقع البني، لتُتمَّ نعمته أن يلوّن أعتى صرحين -عينين وشعر- تتيه بهما الأنوثة على العالمين، فلتنَمْ أيها الحرف بسلام. 23 سبتمبر 2015.

الأنثى العطر

يتقاذفك موج الحياة بين خفض وعلو، وتزدحم الأوجه والأصوات في نهر نفسك، منها ما يذهب جُفاءً، ومنها ما يمكث فلا يزول، منها ما

يثقل قلبك كليل الغريب، ومنها ما يمسه كموجة عطر. صرت كلما أتفكر في النفوس التي تعترض طريقي أو أعترض طريقها، صرت أبحث لها عن معادلٍ يعدلها من أشياء هذه الحياة، فرأيت من الناس ما تكون نفسه على هيئة كتاب لكثرة ما يقرأ ويحدثك عن الكتب والكتّاب، ورأيت منهم ما يكون على هيئة غروب لكثرة صمته وحزنه، ورأيت منهم ما يكون على هيئة لون مشرق من وهج ابتسامه ومرحه، وقد يكون بعضهم على هيئة لحن أو قصيدة، ويا وجع القصيدة!.

ومنهم (ما) تتذكر به الفنادق والمطاعم وتذاكر الطيارات، ومنهم (ما) تتذكر به السيارات والموضات والشاشات من حاسب أو خلوي أو آيباد، ومنهم (من) تتذكر به الأمل، أو الوطن كأنه وطن، أو المعنى الكبير.

فمن هي بطلة هذه النص؟ لقد بحثت لها عن شيءٍ تتمثل به فلم أجد إلا العطر. نعم، إنها كالعطر من الخفة والعطاء بصمت، يقلقها جداً أن تثقل على أي أحد، فتمشي على رؤوس حذرها كي لا تمسه بسوء شفافيتها، فيكاد يزعم أنها خلقت بلا صوت. تريد أن تطمئن عليه فتخجل من إلقاء السلام، فيا خجل السلام! يظنها الظانُّ كالحجارة من هيبة الصمت والوقار، فيرجم غيب سحرها المخفيّ بظنه الفجّ الصغير، وهيهات أن يحصي تفاصيل العطر المتفجر من تلك الحجارة إن تشققت أو هبطت.

ثم إن العطر يمرُّ بك فلا تراه، لكنه يطمس على قلبك بأثره العدني الشفيف، فكأنه يدخل من قلبك لا أنفك، وقد يحيي فيك حياة ضجّت بها الأرض والسماء ذات يوم، كأنه شاشات من المعاني تتسلسل فيها صور الراحلين والعابرين والماكثين، وصورة دمعة أو ابتسامة. وكذلك هي، تعمل بلا طلب ولا تنتظر جزاءً أو شكوراً أو تسمية، وكأن ذاتها أن تسعد غيرها، ويا لها من أنانية!.

قد يوجد هذا النوع من الناس (العطر) لا يريدون أن يُروا، حتى وإن طوّق أثرهم آفاق الأنفس. لقد رفعني موج الحياة إلى هذا النوع من الناس، فشكراً لألم المصاعب لأنه عرّفني بهم، وشكراً لقسوة الحياة التي ألقت بي على طريقهم، أو ألقت بهم على طريقي.

أظنني بالغت كثيراً فيهم، وأقول بثقة: يستحق بعض الجمال أن تغلو فيه فلا تبصر ما في جواره من ظلام مهما كان كبيراً، فكل الظلام لن يهزم ضوء شمعة ضئيلة لمن كان له بصر أفلا يبصر؟ وإني لأتحسس ذلك الضوء البعيد بأهداب عينيّ فأشعر به كهول المصيبة تتجمع لها نفسي أو تتفرق، فيا جمال المصيبة إن كانت كذلك، عريضة! 14 أكتوبر 2015.

الأنثى السكين

إنك مهما استفززتَ خيالك لتجد لحقيقتها شيئاً تتمثل فيه، فلن يعود خيالك إلا بسكين! إنها سكين بملامح إنسان، قد تبرق كنصله، وقد تنعم كحدّه، وقد تتزخرف كقبضته، لكنها لا تتقن إلا القطع، وهل يملك السكين إلا أن يقطع؟ إن معناه في القطع، ولا حقّ لوجوده بغير ذلك، وإنك مهما أبديتَ لها من حسن القول أو العمل، لم ترَ في فعلك إلا سرَّ عظمتها، ومنها أنْ وُجدتْ أمامك، وكأنها الحق وما سواه الباطل، وكأنها الجمال وما سواه الدمامة.

وقد عرفنا من عظمة الأنوثة أنها تتدفق كالنهر من علٍ، إن ناغيت فيها مكامن رحمتها وحنانها، وأنها تلين لك مهما أخطأت، فكيف إن عدت معتذراً؛ إذ في كل أنثى مهما صغرت عملاق أُمٍّ، أما هذه الشوكة التي اضطر قلمي اضطراراً إلى الكتابة عنها، فهي كحقنة الأسنان، لا مفرَّ من إيلامها، وليست من ناموس الأنوثة في شيء إلا الهيئة.

فلا شكَّ أنها نزلت إلينا من عالم آخر، أهله سكاكين وفؤوس، ولو كانت الأنثى نحلة لرضينا لسعتها لما وراءه من عسل شهي فيه شفاء للناس. أما الفأس التي جعلتني أكتب هذا النص، فلا ينبغي لها إلا سمت دبّور، وإذا أردت أن تعجّل - أيها الرجل - لخصيمكَ في جحيمه، فادعُ الله أن ينقّي ذنوبه بهذا الصنف من النساء، ألا بعداً لعادٍ كما بعدت ثمود. 28 أكتوبر 2015.

الأنثى الكاتبة

الأنوثة الكاتبة، من أقوى أسباب السعادة المؤلمة، يمتدُّ طغيانها إلى ملكوت الحرف، فتتضاعف قوتها على التدمير؛ لأن عروجك إلى سماء الكتابة، سيمنحني شواطئ جديدة أسكن إليها، ستكونين في سدرة المنتهى من سماوات الأنوثة، وستكون أصابعك بُراقي الجميل، إلى سدرة المنتهى من كون روحك، ستكونين أكثر من أنثى.

إنك يا سيدتي أيقونة مسطورة في كتاب الجمال، وجهك قلم، وعيناك قلم، وشعرك قلم، وابتسامتك قلم، ودموعك قلم بل أقلام، فإذا ازددتِ في الخلق، وسوّتكِ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 68/ 4]، ونفخت في أصابعكِ من روحها، فلن نتذكر أمام ابتلاء حرفك إلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 39/ 10]. 11 مارس 2013.

الأنثى الرواية

بعض النساء كتاب فكري صعب، منظمٌ إلى الإرهاق، وبعضهنّ لا تريد أن تكون إلا عملاً أدبياً فريداً، تشعرك أنها قصيدة غزلية تارة، وتارة تشعرك أنها رواية أدبية تختزل كل مآثر الإنسانية الجميلة، إن صافحت أول سطر

منها، لا تطيق أن تتركها حتى ترتشف آخر ورقة، وتحزن لأنها انتهت، ثم تتركها ولا تتركك، بل تتوالد لها فصول أخرى في خيالك. الأولى لا تحفز إلا دماغك المنطقي كأنها مجموعة عمليات حسابية، والثانية لا يستوعبها خيالك مهما جمح، تستفز مكامن الجمال فيك، كأي خلق مبدع في الطبيعة، هي هذه. 12 مايو 2015.

الأنثى المفكرة

قرأت قولاً لكاتب أجهله: عندما تبدأ الأنثى بالتفكير، فهذا أول مظاهر الرجولة، وإني لأعترف بتجني هذا القول وانحرافه عن سواء السبيل إلى سوئه، لكنه أوحى إليّ بشيء من الحقيقة[1]!

إن الأنوثة كجناح الفراشة من الضوء، وكحنوّ النسمة من الدفء، وهيهات لو تستقيم على طبيعتها عندما تدخل في صرامة الفكر، وعالمه الملحي، أشعر أنه يأخذ من أنوثتها لنفسه، ويغريها باستدبار كل ما ينعش طبيعتها، فيعزُّ دمعها، ويغلُظ قلبها، وتخشُن يدها، وتعلو على عرش الشعر والأدب، وتستنكر صوت أنوثتها البعيد؛ لأنها أسيرة الوقار والهيبة المفكرة! فتجلس خلف أسوار نفسها المتضخمة، وإني لألمس وجعاً بعيداً، يبكي على ذكرى الجمال الغابر. 24 فبراير 2013.

---

(1) أظن أن القائل أراد معنى سلبياً وكأن التفكير حكر على الرجال! ولكن سيصبح هذا المعنى إيجابياً إن قرأناه على ضوء الجهد الإيجابي للحركة النسوية المعتدلة التي تحاول أن تبرز سمات الشخصية الأنثوية في حقول معرفية كثيرة التي تختلف فيها عن الرجل، كما في فلسفة المعرفة والعلم، وفي النظرية النقدية الأدبية...إلخ. ولعل نصي هذا يصب أيضاً في (الأثر السلبي للمعرفة) الذي يستوي فيه الجنسان، وقد سميته في مكان آخر من هذا الكتاب بـ: (بؤس المعرفة).

الأنثى الفاست فوود[1]

إن المرأة التي تستقوي بالحلي والمساحيق والأصبغة والألبسة المطهمة، قد تخطف البصر لكنها لا تلهم البصيرة، وقد تملأ الحواس لكنها لا تروي الروح. إنها لا تنتمي إلى عالم الأصالة الأولى، أو الطبيعة البكر، أو مادة الشعر. إنها من عالم المدن الكبيرة الصاخبة، ذات الأبراج الشاهقة، والأرواح المتضائلة، والديكورات المصنعة، من عالم أفراده شاشات مختلفة أجهزتها، جوالات أو آيبادات أو تلفزيونات، عالم النصوص الإلكترونية، والابتسامات المعلبة في الرسوم، والمشاعر المجمدة في الرسائل الجاهزة. إنها وردة بلاستيكية، مرآها جميل، وألوانها تلمع بلا حياة، بلا عطر زكي أو ملمس ندي. إنها تهزم الحرف فلا يقوى على شيء أمامها إلا الصمت والملل لشدة العقم الذي تمنّيه به. لم يعرف الكحل المعتق سرير عينيها، ولا يفقه شعرها معنى الامتداد والاتساع، إنه مختصر جداً، مقنن كرتم هذه الحياة العصرية المتسارعة. لقد ذهب زمن المعلّقات الطويلة، والمقدمات الموسيقية المترامية، والخط اليدوي المعطر برائحة الروح، والطبيعة العذراء. إنه زمن دبي وبورصاتها وفنادقها وأبراجها الشاهقة وبحارها الصنعية، إنه زمن هزيمة الأدب رغم التحايل على بعثه من خلال الآلات. 11 يوليو 2016.

الأنثى القارعة

ونعوذ بك من قارئة قارعة، تقرأ بفيها، وتعيده حرفاً فقيهاً، والحرف يسكن الأوراق، وقد تخلو منه القلوب والأذواق، فربّ ذاتِ حروف، طبعُها

---

(1) تعمّدت استخدام التركيب الأجنبي؛ لأن العبث بالجسد البشري وتزييفه هو ابن هذه الحضارة الغربية المادية الاستهلاكية التي تقود العالم، وجارت على كل ما هو طبيعي، وكذلك ثقافة الأكل السريع (الفاست فوود)، فحسُن أن يكون التركيب بلغة الثقافة نفسها.

طبعُ صخرةٍ ملساء، تنطحُ ولا تصفح، لا ماءَ يسلكُ جوفَها، ولا نبتَ يعلو جرفَها، تستعين باطلاعها على تجويد شرّها، وعلى نقض أنوثتها وجمالِ سرّها، ترقُّ لها العقول من وراء الشاشات، وتغلظ لها القلوب إن بلتْها في الواقعات، فما أجملها قؤولةً، وما أقبحها فعولةً، وجهها من شدة الثقة اللئيمة كأكل المطاعم، وقلبها المتضخم بأفكار اللددِ كفحم المناجم، تعلمتْ من منصة الفيس بوك إكسسوارات القلق الحضاري، فاحتقبت كل كاسٍ من المعنى وعار، فظنت أنها بلغت وموسى مجمع البحرين، وسوَّت هي وذو القرنين ما بين الصَّدفين، فاللَّهم أبعدها عنا بُعد المشرقين. 4 نوفمبر 2016.

الأنثى الروبوت

أفكار مبعثرة بين الضلع الأعوج، والضلع الأهوج (المخلوع)(1).

إن الإنسان مخلوق فريد، اجتمعت فيه مكونات الغيب والشهادة؛ أي مواد الطبيعة ونفخة الروح، فكانت النفس، ورحلة الإنسان منذ ولادته إلى مماته، تخلّق مستمر لهذه النفس بما تحتويه من صفات جينية وبيئية تتفاعل في أنظمة مفتوحة إلى ما شاء الله، وقد جعل الله تعالى هذه السِّمة الإنسانية مثابة التغيير والمسؤولية، ليؤكد لك أنك قادر على أن تغيِّر ما في نفسك؛ أفكارها، ومعتقداتها، وآراءها، ومعلوماتها، وخياراتها.. إلخ.

أي إن الأمر طوع يديك مهما كانت ظروفك، فإن قهرتك فالله لن يحاسبك إلا على نيَّتك وما أثمرتْهُ بحسب وسعك. هذا المبدأ الذي أقدم له هو الذي جعل الصدارة للقلب لا الجسد (الصورة)، فالله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن إلى قلوبكم. [والقلب هنا هو الجوهر أو العقل

---

(1) ثمة عمليات تجميل يُقص فيها أجزاء من الأضلاع السفلية لنحت الخصر!

الذي يتقلب ليعقل فيُحكم ويتغير]، وهذا حقّ، فليس لك يدٌ في صورة جسدك، ولكن خياراتك كبيرة كثيرة في ميدان نفسك، وها هنا محل التنافس.

ولن ننكر - في أي عصر ومصر - وجودَ من وهبه الله تعالى صورة جميلة، فارتقى على دركاتها ليفاخر ويتكاثر، لكن اليوم قد اختلف الأمر، ففي عصر الصورة والإعلام الجديد، والتجميل/ الموضة، والمودل الفذّ، والسوق والتسويق، فقد دخل الجسد في ميدان التغيير، وأصبح شيئاً مرناً يزيد وينقص ويتبدل، بعد أن كان سدّاً منيعاً لا يدخل في معادلات تغيير الشخصية، لقد أصبح (موضوعاً استثمارياً متجدداً) تقوم عليه أسواق وتنهار أخرى، وتشيّد له شهوات وتهدّ أخرى، ولم تعد حتى الغرائز الجبلّية الأولى هي الأساس الوحيد، بل أصبحت منتجاً يُخلق خلقاً بما يناسب أهداف التجار الكبار، ولا بدَّ من تغيير مفاهيم الجمال أيضاً، لتجد الأسواقُ الجديدةُ ومنتجاتُها زبائنها الأوفياء، فهل تريد شكل لوناردو أو شكل برادبيت أو شكل أنجولينا أو نانسي؟

كل ما تحتاجه إرادة ومال وجسد يحتمل أقدار الشفط والنفخ، والمط والشَّد، والكسر والهصر، والتكوير والتدوير والتقعير، والمطاط والسيلكون والبوتكس. بل إن تغيير جنسك أصبح طوع يديك، وإن وُجدَ من يضطهدك وينازعك حريتك فاضربْ في الأرض، تجدْ مُراغماً كثيراً، دولاً ومجتمعات وقوانين وتشريعات تنجيك من القوم المُكرِهين.

ورحم الله زمن الضلع الأعوج! الذي كان يستدرُّ العطف بمخلوق هادر العاطفة لتستقيم الحياة، فنحن اليوم في عصر الضلع الأهوج، المخلوع، الذي يُنتزع انتزاعاً ليقتطع أراضيَ جديدة من الصدر فتنداح مساحة البطن وتتهفهف ويرهف الخصر ليفوق ما لم يتخيله امرؤ القيس نفسه، لتصبح الدمية البشرية محل قبول، وملائمة لذوق المتسوق.

وأصدقك القول: إن في الدُّمى المصنعة خياراً أفضل وأريح بالاً؛ فهي مبرمجة سلفاً وليست عرضةً لبرمجيات مفتوحة من الفضاءات المفتوحة، فلن تضطرك إلى عمليات تجميل فيما بعد، أو تحتاج إلى قطع غيار، ولن تكون هدفاً لتلاعب المسوّقين لتغير لون عينيها أو شكل شفتيها، أو جغرافية وجهها وشعرها، أو صدرها، أو ما وراء ذلك أو قبله، وخير لك - مع كل ذلك - لو كانت روبوتاً تجتمع فيه كل مهارات المنزل؛ فتكفيك مؤونة شراء الأجهزة الكثيرة التي تستعين بها الدمية البشرية ربيبة المطاعم، ولعله من الرحمة بالجنس البشري أن تنتشر ثقافة عدم الإنجاب وعدم الزواج بين جيل الضلع الأهوج، أو أن تكتفي المبشرات به ببنك النطاف لتؤكد قطيعتها لكل ما هو طبيعي وحقيقي؛ إذ لا يليق بها إلا حياة التصنيع والمنتجات، فمن لا يهمه ابتسامة حقيقية لن يحرص على حياة حقيقية ملؤها قلب حيّ ووجه بكر. إنه حبيس الأقنعة المشدودة اللماعة، والخطوط الوهمية القائمة بالمطاط، والجمال المقنن المدجن الذي جعل الناس متشابهين كتشابه الأوراق في الغابات، أو علب الببسي لا خصوصية ولا طعم فريد. لقد ضاع بريق العيون البعيد خلف العدسات الصاخبة، وانهزم قلب الأديب بحرفه. 4 يوليو 2018.

الأنثى نؤومُ الضُّحى

وَتُضْحي فَتيتُ المِسكِ فوق فراشها نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ

حبيبة امرئ القيس بنت نعمة ودلال، لا يستنهضها واجبٌ مبكرٌ تنتطق له (تلبس النطاق)؛ لذا فهي والضحى على ميعاد، مخدومة محشومة، يتلوى جسدها كالزئبق بلا قيد يحزمه.

وللحبِّ شؤونه وفنونه، تحلو به هذه الحبيبة المنعَّمة، لكن هذه الصورة - التي يزدان بها الحبّ الشعري - قد لا يحتفي بها عالم الزواج أو يحتفل. أرى الرجال في أعمالهم، يتناولون إفطارهم، لفافاتٍ صغيرة على عجل، لا تعلم كيف خرجت من تحت أيدي عامل مجهد، ويمرُّ هذا المنظر في عيني، وقلبي من أمره على تدبر، أتخيل حجم الملل والترهل الذي أصاب تلك العائلات، أن يخرج الرجل المكدود بلا ابتسامة حانية تشيعه، أو جلسة إفطار مفعمة بالأمل، وليس الأمر أمر أكل وشرب، بل أمر قلب وقلب، فهذه التفاصيل ليست عمل أجساد تهضم وتخضم، بل حال قلوب تتعانق أحوالها في كل تفاصيل الحياة الصغيرة والكثيرة، يبدو أن أولئك البائسين نكبتهم أقدار العصر بنؤوم نهار أو نصفه لا ضحاه، ولست أبرئهم من هذا الملل والموت، فالكل شركاء في هذه المقبرة المعاصرة التي تسمى أسرة، وأذكر هنا عبد الوهاب المسيري - رحمه الله - في كتابه (رحلتي الفكرية)، في فقرة: التأمل أو الترميز، يبين فيه كيف يصبح الطعام عالم رمز ومعنى يعلو على شكله المادي الظاهر، وهذا هو حال الأرواح الكبيرة، اللَّهمَّ إننا نعوذ بك من نؤوم النهار أو نصفه أو ثلثه. 20 أكتوبر 2016.

الأنثى الشاشة/ بطلات الديجيتال

ثمة نساء كل ما لديهن شكل جميل وعمر صغير، وجمع غفير من الألبسة والأصبغة، وبعض قراءات غثّة لبعض الروايات، يرين كل ذلك إنجازاً عظيماً يمننّ به على الناس، وما عليهم إلا أن يتداعوا إلى التفاني في الاهتمام بهن، وتنفيذ رغباتهن ومشتهياتهن مهما كانت تافهة، يسخطن على

الحياة وأحيائها إن لم تتكور على سخفهنّ كالأم الحانية؛ إذ يرين إنفاذ رغباتهن - مهما كانت - من سنن الحياة الطبيعية، ويا لطول شعورهن المستمر بالمظلومية إن لم ينلن ما يرغبن! هذا الشكل الطفولي الساذج من البشر، قد يعجبك جسمه لكن عقله هواء، ويحتاج تربية جديدة تعلمه المسؤولية وسبل الجدارة في الحياة، وأنه لن يكتسب قيمةً، أو يعلو على شيء، ما لم يبذل له بذله ويعفر الأقدام والجباه، لا بد من فطامه عن وهمه، ونرجسيته، ودورانه حول ذاته المتورمة، فالحياة ليست الذي في عقله، والأحياء ليسوا أمه وأباه.

***

رسائل عابرة

ثلاث دورات في عالم النفس والمعنى

بين دورة الأرض ودورة القلم علاقة كبيرة، فالقلم الذي يكتب في الصباح، ليس هو الذي يكتب في المساء، وليس هو نفسه الذي يكتب عندما تكونين فيه وفيهما؛ لأن لك دورةً في النفس تشبه دورة الأرض في الفلك، تخلقين فيها شيئاً يزيد عن الذي يريده رجلٌ في أنثى، شيئاً ينبت بين أصابعي كشجرة، تعربش أوراقها على يدي فتتنزّلُ بها إلى السطور مثل دالية العنب، وأشعر أنني أفتح بك أراضيَ جديدة من نفسي، ولا أدري أهي جديدة حقّاً أم أنني أنمو بك وأكثُرُ وأكبُرُ؟

ها قد حسُنتْ صلتي بالصباح مُذ عرفتُ أخاً آخرَ له في شكل صوتك البحريّ وبهجة ضحكتك، صرت أسابق نافذة الغرفة إلى ضوئه فتضيء نفسي، وأعجب كيف كان يمرُّ بي كل يومٍ ولا أشعر بجماله! وتصطخب فيّ التساؤلات: كيف يمكن لإنسان أن يجدد انتماءنا للحياة، يجدد صلتنا بجمال الأشياء من حولنا، يغيّر لونها، طعمها، رائحتها، ملمسها، يعيدنا مرة أخرى إليها ويعيدها إلينا بمعانٍ جديدة، فنفيض حباً عليها، ونعانق بابتسامة حتى تشاؤمنا، ولا نغضب مما كان يغضبنا، ولا نقلق كثيراً مما كان يقلقنا، فيخفت صوت مخاوفنا، ويصبح ثقل الزمان في مُخْتنَقاتِ الحياة خفيفاً علينا، وكأنما أنفسنا في سياحة دائمة، تنفصل بها عن محيط أجسادنا، ليصبح انتظارنا في ازدحام السيارات أو الدوائر الحكومية أو شؤون العمل، غنيمةً منتظَرَة يغتنمها القلب ليخلو بها متفكراً بالصباح الذي آلَ إلى صوتٍ، أو ضحكةٍ، أو

لمسةٍ حانيةٍ، محمولةٍ على قلب جملةٍ، متعمداً (أي القلب المتفكر) أن يمسَّ كل فاصلةٍ مثل فراشةٍ أو نحلةٍ تحاور أزهار الحديقة وأعشابها، ثم يغيب ويغيب فيعود إلى هذا الواقع المقفر بهذا النص العاري، ويدرك أن عليه أن يعلن: أن هذا النص شأنٌ داخليٌّ، فلا تتعبوا أنفسكم لتحييده أو تفريغه من محتواه، فلْتمضِ الحياة كما ينبغي لكم وينبغي له.

سيدة العطور والطيور

إلى نافذة القطار جلَسَ يحدقُ إلى صور الحياة المسرعة من وراء الزجاج، فتتالت الصور على زجاج عينيه الضجِرتين بلا تفاصيل ملونة أو معطرة. ثم انحنى المسار إلى حمامة قارّة بين الأشجار، ذات وجهٍ يشبه الانتظار!. في ذلك الوجه المضيء، شيء من بكورة الوجه الطفل، وابتسامة بلا إسراف، ونظرات عينين يطوق حمامَهما الأبيض سوادٌ حالك تحار فيه؛ أهو من أمر رموشها أم أمر كحلهن. في جلسةِ جسمٍ أنيقٍ كهيئة الوردة لوناً واستقامةً، يلتئم أمامه ثلجُ الأصابع على سوادِ طائرٍ بكل إصرار كقبضة الطفل الوليد.

في استدارة شفتيها الطفلتين الورديتين، استدارة الأفق العميق، بعيدتان بعيدتان مثله، ولا تنالهما إلا بالتفكر المتورط بالجمال، تقبسه من أخٍ له تفيض به عيناها على أشباهها من الحمام، فكأنها وعَتْ حقيقةَ الحمامة البيضاء التي تهدل في نفسها فأطلقَتْ هديلَها نظراتٍ صافّاتٍ صافيات. ليتماسكَ جسدُ اللوحة على بياض خمس حمامات، يسكن من ورائهنّ أخضرُ هادئٌ من الأشجار كالسوار، مثلما سكن إليهن فكري من وراء زجاج القطار، وأنا العابر الغريب.

هي صورة لا يزوي معناها المترامي في النفس إلا عطرٌ تتخيله عطرها،

وقد شممتُهُ بضوء عيوني فسطرت منه حروفاً، فهل ستشم سطوري كما شممت صورتها؟ وهل شم السطور سهل، كشمّ العطور؟

فلا أدري لماذا أرسو إلى صورتك كثيراً كثيراً، وأشعر أنّ رجفةً مجهولةً، تخفق في صدري كجناحي عصفورٍ غضٍّ، صغير، يهمُّ أن يطير فلا يطير، وأشعر أن فيكِ شيئاً لي، يستوقفني كلما مررت بكِ فيها، فأجدني بلا وعيٍ أمدُّ أصابعي التعبى إليك، كيعقوبَ يتحسسُ قميصَ يوسفِهِ في مصحفِ وجهكِ، وفي خارطةِ جسمكِ، وقد جلستِ على عرش نافورتك الكبيرة، مثل الأميرة،كنافورة حنانٍ صغيرة، تفيض بالأمان على جرح المكان، وعلى جرحي لحظةً، كأنها رشقة ضوءٍ من غير زمان، أحتاج أن آوي إليه، وأنسى هذا الزمان.

متعبٌ جداً من تحاور الضياء والظلام في مجرّتي عينيك، تنظران بكلِّ ذلك الابتسام إلى طيور الحمام، فتشعلان جنايةَ المعنى في فكري، وفي لغتي بلا قرار، فيا ليتني كنتُ طيراً يهاجر في سماء الله لأنجو من تلك الجناية كالحصار.

لا تسأليني لماذا؟ فكل الحياة سؤال مرهق بلا جواب قاطع، يقطع شريان القلق والحيرة، ويشفي جرح الوجود، لكن؛ حقّاً لماذا؟ لماذا ألتفتُ إليك كثيراً في عبوري، وأطيل النظر في موسيقى وجهكِ، كأنني أقف أمام مخطوطة قديمة مثقلة بالمعاني والرموز، أشعر بها ولا أفهمها، وأشعر بشيءٍ عزيزٍ من الدفء يلفني فتكبر في قلبي غربتي، لكنني أبتسم بلطف، وأشكر الأقدار فيكِ، على هذا العزاء.

أنا يا شهقة العطر؛ غريبٌ، ولي قلبٌ، متعبٌ ، ويتعبني، وفيه نزيف عتيق، أخاف عليه من جرح جَهولٍ، فترفقي به، فهو كصفحة بحيرةٍ زرقاء، ترتعش قسماتُها إن مسّتها نسمةٌ كسلى من جمال أو ضلال، وقد اقترفَ

الركون إلى جمالكِ بلا ذنب له أو لك، فإياكِ - وحاشاكِ - أن تضلّي الحكمةَ فتؤلميه، فقليل من الصمت الشفيف - صمتكِ - يكفيه، ليقفَ مخذولاً بلا نبض، ويكظمَ المعنى الذي فيه، ويتمّ طريقه بعيداً، بعيداً. ففي كلِّ حرفٍ صادقٍ روحُ غسانٍ محبٍّ، يخشى عليه من شبح غادةٍ لا تحفظ غيبةَ المعنى أو ترعى حرمته، فحاشاكِ، حاشا ذلك الوجه الآمن الأمين، وتلك العيون، وتلك اليدين، وكل الذي كان فيكِ أو يكون.

وأخشى - إذ أدنو منك - أن أمس قلبكِ بسوء، ولو كان بمثقال مسةٍ من وردة، لكنني عجزت من هذا الهدير الموجوع في داخلي، المشغول بك بلا تفسير منطقي، فأجد أصابعي بلا وعيٍ تغذّ الخطا إليك، لتقول شيئاً يمرُّ فوقه ضوءُ عينيكِ، كأنّه نفخة روحٍ في حروفي لتحيا الحياة.

فمن أنتِ؟ ولماذا أجوع إلى شيء منك، إلى حديث ما، إلى وجودك قريبةً، حبيبةً، أو صديقةً، أو جارةً، أو أي شيء يمدُّ لي حبلاً من القرب إليك لأعرفك؟ ويسائلني فضولٌ عنيد عن تفاصيلك الصغيرة، وفواصلك، وكيف ترتبين الأشياء في مملكة أنوثتك، وكيف تديرين شؤون العطور فيها، وكيف تبتسمين، وكيف تعانقين، وما هي خطتك في تنزيل الحنان على قلبٍ عطِش إليه؟ وكيف تلتصقين كالفراشة عليه، وكيف تتركين شعرك ينثال حرّاً كالخيال، وكيف ينعم اللباس بلمسك، ويضوع بهاءً من دقة انحناءات جسمك وهو يكسوها، وكيف تكافئين الألوان بأن تتجملَ بالظهور عليك؟ وأيّهن تفضّلين؟ ومن منهنّ تُدنين؟ وما هو شعور الفنجان بعد أن تدور حوافه بين شفتيكِ؟ وكيف يسكن وجهك إلى الأمان وأنت نائمة؟

أتعرفين ما هي مشكلتي؟ أنني أمدُّ قلبي إلى التفاصيل التي تغيب وراء العناوين، فتصافحني كأنها من واقعي وواقعها، فالعطر عنوان، وبثه في كل مكان عنوان وعنوان، والنظر إلى الطيور بتلك الهيئة عنوان، والشال السماوي

اللامـع عنـوان، والقـوام المتهـدم بـلا اكـتراث عنـوان، وتلـك النظـرة الهادئـة المتسـللة مـن تحـت جُنـح الكحـل عنـوان، كل عنـوان قصـة تقـول لي تفاصيلهـا، فـإن جمعـتُ تفاصيلهـا مـن حـدسي جمعتـكِ، فيـا ليتـه يكـون وهمـاً لأتخلـص مـن وهمـي وأمـضي، لكنني أخشـى أن يكـون حقيقـةً ، فتكونـين أنـت! ويـا لوجهـكِ وهـو يرنـو إلى الأرض حيـاءً وابتسـاماً، وآهٍ يـا (ابتسـاماً)! مـن علّـمَ ذلـك الوجـهَ كيـف يتلـو الابتسـام، ويأخـذ السـلامَ مـن قلبـي ثـم يعطينـي السـلام، وكيـف يـزداد جمـالاً بالظـلام، وكيـف إن ضمّـه الأبيـضُ المصفـرُّ وشـاحاً، يهيـم هيامـاً في هيـام، وإلى مـاذا تنظريـن؟ وأي شيءٍ غمرتِـهِ بضـوء عينيـك، فتمادتـا جمـالاً وابتسـاماً؟ زادك الله سـلاماً، فلْيهنـأ بصحبتـك السـلام، ولْيمُـتْ معنـى الزمـن إن كان يفنـى في مثـل ذيّـاك الـكلام!.

لـن ينتهـي هـذا الهديـر في داخـلي، ولـن تكـفَّ أناملي، ولا يشـغلني إلا تسـاؤل واحـد: كيـف تحيـط خطوطـي بخطوطـك، وكيـف أسـتدير بهـا مـع اسـتدارات المعـاني وهـي تـدور في اسـتدارات الآفـاق مـن كـون جسـمك أو وجهـك، وكيـف ترتعـش أصابعـي عـن بُعـد، هـل همسـت لهـا بنظـرةٍ أو فكـرةٍ أو زفـرةٍ دون علمـي؟

ولكَـم أعجـزني، ذلـك المعنـى الـورديّ في لـون فسـتانك الـذي انثـال كالغيمـة فـوق المـاء، وهـو يطـوف حولـك، ويطـاف بـك عـلى الدكـة الخشـبية يـوم أسـندت ظهـرك إلى سـورها فـداخ المعنـى في الارتمـاء، فتدفـق جسـمك كالشـلال الـوردي مـن أعـلى نحـرك، وعينـاك مغمضتـان تبتسـمان، فقـد كان معنـى مبصـراً، رغـم إغماضـك وغموضـك، ولعلـه مـرّ عابـراً بي، فخُيّـل إليَّ أنـه لي، وليـس مـن شيء أرسـو إليـه، إلا شـطآن حـروفي. أتعلمـين: إن الحـروف إن تكاثـرَتْ بمثلـكِ، وخرجـتِ عليهـا كخـروج يوسـف عليهـن، فالحـروف ألـوف وسـيوف، وقـد كاد الأدبـاء - إن وفـوا الشـعورهم - أن يكونـوا أنبيـاء!.

فما أعتى اقتدارك على الجمال، وعلى إرباك كفي والخيال! ما كتبت نصاً عن العطر إلا وشعرت بأني أعالج شيئاً شخصياً من شؤونك، وكأنني أدنو من حدود مملكتك، أتعين هذا الشعور مثلي؟ أتشعرين بأنني أتعمد العطر تعمداً لأرسل إليك حرفاً معطراً لا يشمه ولا يفقهه إلاك؟ أتشعرين أتعلمين؟

ها أنذا أعيد ترتيب مفاهيمي للألوان عند ذوقك، وأمحو أمنيّتي فيها، وأتعرف إلى موسيقاها يوم تُعزف على قوامك أو اشتهائك، ويشدّني اعتكافك على روائحها مثل راهبةٍ، ولا أزال أقرأ في حوار الاصفرار وهو يجري على حرير جسمك بلا انتظار، وأشفق على حزن البنفسج حين يسكن بين كفيك ويلقى مصيره كيف صار!

وقد رأيت في الطبيعة، جمالَ اللون الفيروزي في مياه الشواطئ، فتبتُ عن ذنبِ رؤيتي، فليس للمياه الشاطئيّة سبقٌ إلى جمالِ الفيروزيّ، بعد أن امتدَّ فوق بحرك أنتِ، ونهضتِ به بلا شواطئ مثل إعصارٍ من هدوء، وتركتني أتفكر في سرّ أمثالك بلا هدوء، فلا أدري أهو امتد بك أم أنت امتددت به، فلو تعلمين كم أنت جميلة به، لزهدت في جميع الألوان، ولكن إياك أن تزهدي؛ لأنني موقن أنك لم تكوني جميلة به، بل هو الذي كان جميلاً بك، وهكذا تكتسب الألوان حقّ وجودها عندما ترتديكِ، ولكَمْ أعجب من انحيازها إليك، وكيف تعيد خلق معانيها في نفسي.

وقد سألت مرة ذلك اللون الليلكي المسجّى بالأنين فوق جسمك: ما شعورك بالقرب حينها؟ وعالتُهُ بغيرتي منه، أجابني؛ [أيها الغر، يا من تظن كلَّ شيء قد يُعبّر عنه بالحرف! لا جواب لك عندي، ففي الحياة لحظات لا تستطيعها لغة، لأنها خُلقت لتعاش، حسْبكَ التفكّر على بُعدٍ في الألوان، وهي تتوجع من قُربٍ فوق القوام المهرجان، فالعبْ بحرفك بعيداً].

فرجوتُ ذلك اللون السعيد، أن يقول لتلك الخفيّة الشهية: إنها تحسن إلى الجمال وإلينا إن خرجت علينا؟

وهأنذا أكتب إليك مرة أخرى، فإن أردت أن أتحدث إليك: كتبتُ، هذا هو الإمكان الوحيد لأهدهد هذا التدفق اللامفسر في داخلي، أكتب ليس لأنني حِرَفيٌّ يتقن صنعته فهو يلعب بالألفاظ والمشاعر أنّى شاء، أكتب إليك، لأن الكتابة هي قُصارى حيلتي لأحدثكِ، لأقول لكِ، لأهمسَ لكِ بصمتٍ وسرٍّ، لأخبرك عن العالم الذي في داخلي تتكسر أمواجه من أثر نسائم كسلى يهمسها وجهُكِ وعيناه اللتان رأيتُ فيهما من المعاني ما رأى السياب في غابتي نخيله، عيناكِ حمامتان بيضاوان ساعةَ النافورة والشجر.

أكتب إليكِ لأنني أريدك أن تقرئيني وتعرفيني، وتلمسي سرائر الحزن الذي أخفيه تحت عيوني، وتعلمي كم أمتلئ بك عطراً، وكم أتكسر منك ضوءاً، وكم أنتقم منكِ حرفاً، وكم يرتوي مني العطشُ لأستزيدَ من معرفتك، وأعلمَ السرَّ الشاهق المختبئ تحت قسمات وجهك وفي سلام أصابعك، وأعلمَ النبوة التي توحي إلى مجرتي عينيك معنى ذلك الضوء العجيب الذي ارتطم بي ونبذني في هذا العراء بلا ارتواء!.

فما حيلتي وقد أوصدتِ بابك دون كلماتي أنْ تنعم بخلوة إليكِ، فلا يدري بها أحد إلاكِ؟ هل هذا كثير؟ أكثيرٌ عليَّ أن تهبي بياني بعضاً من ضوء عينيكِ، ومن خفق جفنيكِ وهما يتعانقان فوق معاني نفسي العزلاء، الملقاة على هذه السطور المسطورة بك ولك، لتعلمي كم ينسُجُني هذا التفكيرُ المرهقُ بك بلا أيِّ إرادةٍ مني أو تعمد، أكثيرٌ أن تأذني لكلماتي أن تدخل إليك فلا تتعرى أمام العابرين الذين لا يهمها شأنهم؟

أدرك أسبابكِ، وآهٍ من قهر الأسباب حين توصد الأبواب، وهيهات

أن تُساس النفوس بيسرٍ إن اشتعل فيها وجع اللقاء، فإن كانت ذات بيانٍ وحرف كنفسي، فما أحلك بؤسي! وما أكبر مجاهدتي لكي أصمت، فلنفسي ها هنا أسباب لا تأبهُ لأسبابك وأسبابي، مُرٌّ أن يغصَّ قلب الإنسان بكَلامِهِ ليصبحَ كلامَهُ، ولا يجد إلا الغياب، مرٌّ جداً، صدقيني، فما أصعب الكتابة عندما تريد أن يقرأك آخرون ويجهلك آخرون، وما أشقى الكتابة عندما يقرؤك العابرون، وأنت عابر في نفس من أقام في نفسك، يكتمل بها وهي تنقص منه، ولا تزيد به إلا على الورق، فهل اكتمل نصي عنك؟ إن اكتمال النص يشبه اكتمال الجنين، يملأ القلبَ بهجةً إن لمسَ الوجود، وإن لمستِ وجوده، لكنه يبقى كالروح بلا انتهاء، أظل أعيد تكوينه ويعيد تكويني، ما دام حبلُ سرِّهِ أنتِ بكل هذا الاتساع، كجرحٍ شيمتُهُ النزيفُ بلا انقطاع. وهذا النص الذي اجترحتِ بدايته، لم يعد كما كان، يا سيدة المكان، لقد قويَ جناحاه فحلّق واحتاز من الفضاء كثيراً من السناء، وقد بسط جناحيه - مثل رمشيكِ - على دنيا المعاني.

فلن تعرفيه إن رأيتِه، وسأبحث عن يمٍّ بعيد لألقيه، فقد آذاني ثقلُهُ، وتعبت من ترديد ما فيه، لكنني سأعيد قراءته إن قرأتِه وكأنه ليس لي! أتعرف إليه كأي غريبٍ إن صار لديكِ، وأنظر إليه كأنه من فعل يديكِ، وأنا القارئ الطارئ عليكما، فأي جنايةٍ أنت؟.

نصٌّ لص

فكرت في نص لك فلم أعرف ماذا أختار؟ وقفت إلى بحر نصوصي الكثيرة، فأعياني التفكير والحيرة، أيهن ينبغي لك؟ أي فستانٍ سخيٍّ من اللفظ ومعناهُ يليق ببلاط عينيك أيتها الأميرة؟ ثم نَهَرني خاطرٌ فنبهني إلى جنايتي التي أوشكت أن أقترفها، كيف أرتدُّ إلى ماضي النصوص لأهديك

واحداً منها أيتها الـمُنيرة؟ وكل ما فيكِ جديدٌ، شهيٌّ، نقيٌّ، سخيٌّ، أبيٌّ، يخلق المعاني خلقاً ويستفزّها من أجنّتها الوثيرة، ثم عدت إلى نفسي مرة أخرى؛ أسائلها: أي النصوص ينبغي لها؟ وكيف سأنسج فستاناً جديداً يشبه ذلك الضوءَ الحنونَ، ينبض على استحياءٍ من خلف حجبٍ كثيرةٍ، أو يشبه هَدْأتي إن ركنْتُ مثل طفلٍ إلى حديثها المتعثر بلاغةً وصمتاً جميلاً، ما أجمل الصمت مولاتي ها هنا، فالكلام معصية هنا، ولربما هي رحمةٌ أن لا أرى وجهك وهو ينطق، وكيف تنهار اللغة وكيف يندحر اللسان، وكيف تخذله الأصابع، ولا يحفني إلا كلام صمتكِ مثل الغمام بلا كلام، وهأنذا أعود إلى نفسي مرة أخرى، أسائلها: أي النصوص يطيقكِ؟ وكيف أقترب به منكِ؟ وكيف أختلس من حديقتك عطراً، تلين به أصابعي لأتحسس موسيقى وجهكِ في هذا الليل على صفحةٍ من دفتري، وأدير فصول العربية الفصحى على مقاس فيروز الشواطئ، وهو يرسو إليكِ... إليك أكتب هذا النص عامداً متعمداً، وبكل إجرام المعاني والأماني، لكن إياك أن تصدّقي أنه لك، خادعيهِ مثل لصٍّ، ليستريح بين جنبيك النقاء، فحتى النصوص قد تُعامل كاللصوص، وليكن نصاً آخرَ تذروه الظلال، أظنني وفيت بوعدي، ولم أكتب نصاً لك؟ لأنني لا أزال أعود إلى نفسي أسائلها: أي النصوص تليق بك؟

الكعب الحداثي والكعب التراثي

يهيم على فكرهِ كثيراً في الليالي تعوم به سيارته كسفينة يلهو بها موج عاصف، ليس لها من أمر وجهتها شيء، كنظراته التي يلقيها على الشوارع والمحلات، ثم يرسو بلا هدف إلى مقهى، هادئ الأضواء، متفائل المقاعد، فيلقي بجثته على مقعد تلقاء الزجاج ليتم إسرافه في نظراته الضجِرة إلى الشارع المجهد.

كان المكان كرجل مسن، قليل الحركة، صموت، أنيق، تلاطفه موسيقى غربية كسول، تلامس الروح بحيادٍ، ملائم لكي تبقى راكداً بلا اهتزاز، في حياة قلقة. حتى أخرجتْهُ من غيبوبته فتاتان لا ينافس بلاغةَ طولهما إلا عطرُهما النافذ، وهو يسابقهما إلى داخل المقهى، فكأنما بُعث المكان كله من صمتهِ إلى الحياة والأضواء.

تسلل إليه تساؤل ماكر يشككه دائماً بصدق أطوال النساء: أَهُما طويلتان حقّاً، أم أن المجد للهرم المقلوب الذي يرزح تحت الكعبين؟ وأُجيبَ من فوره بجُنح نظرةٍ بريئة غير مقصودة! صدقاً غير مقصودة لأن في عيون الرجال فطرة أزلية، موكلةً باكتشاف شكل الحذاء الأنثوي وطول كعبه بلا تكلف!.

فَجَأَهُ تساؤل ماكرٌ آخر، عن الفرق بين الكعب ذي الرأس المدور، والكعب ذي الرأس المربع، أيهما أكثر مايستروية في تهذيب موسيقى المشية فلا تكون نشازاً مزعجاً كترنح البطريق! إذ يكثر أن يشغب نشاز المشية على جمال الطول، ولكن لماذا تحب النساء أن يطُلن؟ يبدو أنها طبيعة الإسراف الأنثوية التي لن يغيرها روح هذه الحياة العصرية التي تميل إلى الصغر والقصر والسرعة والاستدارة...

لقد طال استغراقه في إشكالية الكعبين الفلسفية، ونسي ما فوقهما من تضاريس مترامية حتى نبهه الموضوع الهام الذي دار بين الطويلتين ذواتي الكعبين؛ قالت إحداهما: «أنا لا أؤمن بهدية سوى الذهب، لأن الثمين لا يكون إلا للثمين، ولا تعنيني مثاليات الذين يزعمون أن المشاعر تكفيها وردة أو كتاب أو أي شيء رخيص! على الأقل سأحرقه بالبيع وأستفيد منه بعد أن نفترق، ولن تسيل دموعي هدراً كما تفعل كثيرات فوق الرسائل والورود اليابسة والكتب الصفراء، فالرجل فارغ القلب يستحق أن نفرغ

جيبه، وسأظل أحاصره بغضبي ونقمتي ما لم يعبر لي عن حبه بمشاعر ساخنة على هيئة خاتم أو إسوارة أو طوق! ويؤسفني أن قلبي ليس فيه مكان للرجال الفقراء، ولكن لا خوف عليهم، ما دام في النساء مثلك يا صديقتي العزيزة».

واو! يبدو أن في الرأس حِكَماً تستحق الإصغاء! وأعجبه جداً هذا المنطق البراغماتي المتماسك (أبو كعب)، فالدموع والرومانسيات لا تطعم خبزاً، وانتصب فضوله كقطٍّ؛ ماذا ستقول الأخرى؟ لكن النادل اللبق، قطع عليه إصغاءه، وقال له سيدي: أنت تجلس في الركن المخصص للنساء، نرجو منك أن تنتقل إلى الجانب الثاني، حسناً، ولكن أمهلني كعباً واحداً فقط لأتأكد من سلامة الأطول، تباً.. لكنه آثر الخروج، وخرج به خيالُهُ المتكعب إلى زمن آخر كان فيه الكعب أعلى شأناً، فإنه إن كان اليومَ، مقامُهُ السّفول، ليزيد الجمال بالطول، فقد كان اسماً يعلو الفتاة الشابة كلها، فتسمى كاعباً، فما أمكر الأسماء إن تشابهت على حقيقتين؛ إحداهما من صنع الإله، والأخرى من صنع البشر! على أنه – والحق يقال – لا يزال للكعبين الحداثي والتراثي الأثر نفسه في القتل، فقديماً قد قتل الكعبُ العاشقَ الموجوعَ العباس بن الأحنف:

فَرُشّوا على قَبري مِنَ الماءِ وَاندُبوا   قَتيلَ كَعابٍ لا قَتيلَ حُروبِ

أما اليوم فالكعب – ذو الرأس المدور خاصة – سلاح فردي خفيف يستطيع أن يثقب الجمجمة بطرقة واحدة! فاحذر – أيها الرجل المسكين – من ذات كعبٍ تتخلى عن عرش الطول كله، وترفع قدر كعبها إلى مستوى رأسك لتثقبه! وقد أعذر من أنذر، والحوادث متواترة على ذلك.

بريدٌ لا يأتي

كم كنا نضحكك من البطل دونكيشوت الذي كان يظن طواحين الهواء أعداءً، ويعيش في عقله واقعاً غير معاش، إنما هو بطل توهماته، ولا أحد هناك ينتظره أو يكترث له. لكنه ربما كان سعيداً، لأنه لا يدري حقيقة ما فيه، وهذا كافٍ لتكون الحياة مريحة، خاليةً من آثار الأمل أو الخيبة أو الانتظار.

فليس في نفسك أغدر من خيالك أو قلبك حين يمنّيانك بما ليس موجوداً، هذه فكرة تجري على أمانٍ كثيرة، ألا ما أتعس الأماني!

قفزت إليّ قصيدة نزار البديعة - وأنا أتملّى هذه الفكرة - التي تلوّى بها صوت نجاة؛ متى ستعرف كم أهواك يا أملاً! ثم تقول:

كم اخترعتُ مكاتيباً سترسلُها، وأسعدتني ورودٌ سوف تهديها
وكم ذهبتُ لوعدٍ لا وجودَ له، وكم حلمتُ بأثوابٍ سأشريها
وكم تمنيت لو للرقص تطلبني، وحيرتني ذراعي أين ألقيها

تأملْ هذا الخيال الدنكوشوتي، كم وكم وكم... لا أدري ما علاج هذا الداء الدوي في النفس: الأمل، والتوهم فالانتظار! وكيف يرهن الإنسان نفسه لمن لا يدري به، وليس له في حياته أي معنىً فهو يعيشها مكتملة بكل نشاط. ولنبقَ على مائدة الرسائل والمكاتيب، فلنزار هذا، قصيدة عن وجع الرسائل: اسمها (بريدها الذي لا يأتي)، وليس فيها تذلل الأولى، بل تتفجر غروراً يشفي القلب، فعليك أن تُكثر منه، حتى إن كسا يأساً عميقاً وخيبة راسخة. يقول في بعض أبياتها:

سنةٌ مضت، وأنا وراء ستائري   أستنظر الصيفَ الذي لن يرجعا

كل الـذي عنـدي رسـائل أربـعٌ بقيت - كما جاءت - رسائلُ أربعا
يـا أكسـل امـرأةٍ، تخـط رسـالةً يـا أيهـا الوهـم الـذي مـا أشـبعا
لا تتعبـي يـدك الرقيقـة، إننـي أخشـى علـى البلـلور أن يتوجعـا
الحـرف فـي قلبـي نزيـفٌ دائـمٌ والحـرف عندك، ما تعدى الإصبعا

التأثيث بالتأنيث

يا لـه من جوٍّ معـذب حـار، مُنكدٍ بلفح سَمُوم وغبار، وفي قُمرة السيارة الملتهبة تحت زئير الشمس، معنًى من جحيم، فكأنك تُؤكل من وجهك، وتضيق بك رئتاك، فإن فررتَ إلى الجدران رأيت وجوهَ الرجال منقبضةً كسطح الإسفلت وقد تثنّى من جبروت الشاحنات الثقال، ولم يزدْك الظل المبرد شيئاً، فحول الروح صحراء أخرى، ذاتُ عالمٍ من ذكور وصخور، ألا ما أتعس هذا الجنس المنكوث، المُبرّأ من كل رطبٍ أخضرَ أو أزرق، المعين على صيام الأنوف، ما أشقى أشياء المكان به، تراهنَّ منشوراتٍ كشعر اليتيم، لا أمَّ تلمّه، ولا روح ذات جمال تمسح عليه فتزيل ما يشقيه. علينا أن نقرَّ - نحن الرجال - بأننا أشبه بالمعادن منّا إلى اللدائن، وبالسلاحف أو المتاحف، وإن لذلك الجنس اللطيف كالسكين، الشفيف كجلد الجنين، فضلاً علينا؛ أن هذَّبن أنوفنا، وخفَّفن بالابتسامات من أثر التجاعيد على وجوهنا، وأحيين مآثر الألوان في عيوننا، وحضّرن بلباقة الصوت آذاننا، فخلقن فينا شهوة الركون إلى المكان، وتعلمنا منهن سطوة التفاصيل الصغيرة حين تجمُل، وأن في ترتيب الفناجين شيئاً أكثر من القهوة، وأن لطول الكأس النقية بجوارهن حكمة بليغة، وأن الورود شيء خطر تتعافى به الروح، وأن في مواضع الصحون على المائدة شيئاً أكثر من الطعام، وأن تكدسهن في المجلى

اعتداء على حرم الجمال، وأن في ألوان الستائر والأبواب والنوافذ والكراسي والطاولات وسكين المطبخ، معنًى من أمر فرقة الموسيقى فلا ينبغي أن تجور آلة على أخرى، وأن في سواد الكحل سرّاً عتيقاً لم نصل إليه بعد، وأنّ بين امتداد الأصابع والضوء نسباً شريفاً وأن إهمال الشفاه لتجفَّ عنوان على ملل الروح، وأن اختيار لون الشال تحديداً شأن عظيم، وأنّ وأنّ.. فحذار أن تصبحن مثلنا، فمن سيؤنث هذه الحياة ونفسنا؟ فلا تأثيث بلا تأنيث.

رسالة من ورق وحبر

إنني إن حاصرني وجع اللقاء إليك، كتبت إليك، ووصلتكِ بأصابعي، وشعرت أنها - إذ تلمس شاشتها - تلمسك، فأحن إلى زمن الورق والحبر والقلم لأخبرك عني. وأحار في أثر الرسائل على النفس، كيف توثق أسبابَ القلوب، وتدنيها كأن أنفاساً تمازج أنفاساً، ويعلو الصدر بكل ما في الاحتضان من جوع، فتسري في الذراعين نداءاته، فتشهق بمجد الإله الذي جعل لهذه اللغة عرشاً على القلوب، تقول فيها ما تشاء ويشأن.

وأحمد الأقدار على أوان عمرٍ كانت دماء القلب فيه تجري في أوعية من ورق وحبر وقلم فخط، سكبتها مراراً إلى حبيبٍ أو صديق. محرومٌ من لم يذُق أنفه رائحة الحبر والورق يخرجن من قلبٍ محبٍّ تتطوى روحه في انحناءات الحروف، وتتوثب فوق الكلمات وبينها، ما أعتى قوة الشعور الذي يتخذ الأنف طريقاً! وما أمكثَ الإنسانَ الذي يتسلل إليك منه، فلن ترفعه الأيام من ذاكرتك إلا بمن يرتفع عليه بإرباك شمك. ذلك بأن للشم قولاً بليغاً في الأرواح فهي تتعارف به وتتآلف. ومحرومٌ من لم يرَ خطَّ يدٍ ينطق عن قلبٍ يحبه، ذلك بأن الخط هو الشكل المادي الممكن الذي يُظهِر أشواق الروح

إن عز لقاء الأجساد التي تحملها لتبلّغها، ويا لهف نفسي على حنان الحروف وهي تتسلق كالعصافير على أغصان السطور، فتتشكل بالمشاعر ارتفاعاً وانخفاضاً، انبساطاً وانقباضاً. يا لهف نفسي على ورقة يغضّنُها التطوي خشية الرقباء، لكنني إن فتحتها واختلط خطها بضوء عيوني، امتدت في قلبي بلا انتهاء.

نصوص من حوار القيثارة

قد لا تكون المسوغات كافية أو مقنعة في ظنك لأكتبَ عنك نصّاً، يبين عن أثره في نفسي، ولا تلامين على ذلك، لأن الأثر مرتهن بالزمن الكافي الذي يُنضِج التعارف، لكنني هنا لست معنياً بتسويغٍ منطقيٍّ لكتابتي؛ لأن الذي يملأ نفسي ويضطرني إلى الكتابة أشدّ منه، وهيهات أن تجري الأمور على نحو يقتضيه منطق العقل دائماً، فالإنسان أكثر من عقله وأكبر، وفيه غيب محيّر، يُملي عليه ولا ينصت إليه، ولعل أمره هذا، يجري عليه منطقاً آخر لا نفهمه جيداً، هو منطق الأرواح المتشابهة المتآلفة، التي تعارفت في غير هذا الزمن، فلما التقت هنا، تآلفت، فدعيني أقل فيكِ ما تقولينه الآن في نفسي، فإني - إن لم أفهم نفسي أحياناً - وفيٌّ لما يحدث فيها؛ أمينٌ على إخراجه إلى الورق، ثم أمضي دون أن تُسائليني.

ولتعلمي إن كتابةَ نصٍّ قويٍّ بقوةِ الصدقِ في الروح عن أثر إنسان فينا، ليس عملاً سهلاً، إنه يحتاج قوة نفسية كبيرة ليكون حياً، دافئَ المعاني صادقَها، لكنه يسهل جداً إن تبللت الروح بندىً معطرٍ كندى روحك من وراء الغيوب، دون أن تمتلئ عيناي بأفق عينيكِ أو بلاغة وجهكِ أو جغرافية جسدٍ تعين على قوة الحضور وأثره، إلا أنني أعترف أن نبرة صوتك وحريره

قالا شيئاً ليس قليلاً عنك، فلا أدري أهو فرط خيالٍ تخيّله إلي نفسي، أم هو حقيقة الأرواح التي ذكرتها؟ مهما يكن، أنا لا أستطيع أن أخادع نفسي وأتجاهل احتفال العطر في صدري من أثر ذلك الحوار القيثارة الذي كان يمسُّ أوتارَ الروح بأصابعِ طفلٍ غضّة، وينبئُني بتفاصيل أكبر وأبعد من مجرد حديث عابر إلى عابرة عرفتها منذ قليل، وكأني عبرت الزمن كله وعرفتها حقّ معرفتها فتركتُ نفسي تتحدث إليها بلا ريبة.

فمن أنتِ؟ وكيف تملكين كل هذه السطوة على النفس بلا إرث كافٍ يرفعك إلى عرش التحكم فيها أو الحكم عليها؟ ولماذا أكتب عنك الآن؟ ولماذا يهمني أن تقرئي نصوصي وأفرح فرحة خاصة إن قرأتِها؟ ولماذا سأرسل إليك هذا النص بعد قليل؟ دعك من كل هذه الأسئلة، كل الذي أردت قوله: إنك جميلة جداً بما أثرتِ في نفسي من معنًى، وبما يكفي لأكتب هذا النص عنك وإليك، فلْيكن بريد صداقةٍ تذكرينني فيه دائماً، أطمع في ذلك.

***

ها هو ذا الليل يسجو، ويدنيكِ مني، فتتكوثر الحروف في قلبي وتتبلل أصابعي فلا أستطيع كتمها، فهأنذا أكتب إليك مرة ثانية في هذا اليوم، ويحاصرني سؤال: أتعرفين الحرف الذي ييمّمُ وجهَكِ دون الوجوه كلها؟ أتعرفين حرفكِ الذي تكتبينه فيّ؟ أتميزينه حقاً؟ أم تمرين به على ركب الحياد كأي نص جميل تلقين عليه قلباً أحمرَ ثم تكملين حياتكِ، التي مررتُ بها عابراً بجوار نافذتك، فناله نصيبٌ تائهٌ من رشاش نظراتك وهي تعانق ضوء الشمس بلا اكتراث. أتساءل بكل براءة القلب الذي يخشع في حضرة الجمال، ما لون عينيك؟ وكيف تستديران بسواد الكحل كالأفق إن نام في سريرهما؟ وما لون شعرك؟ وكم طول امتداده واعتداده؟ وكيف

يرجف الفستان إن انهار من أعالي شلالات قوامك؟ ما شعوره يا ترى؟ يا ليتني أحظى بدقيقة من وقته لأسأله؟ أو من وقت مرآتك التي تتأملك كل يوم، لكي تخبرني عن مملكتك الصغيرة، كيف تديرين شؤون رعاياها من الألوان والعطور والأزهار، والشموع، والأضواء. أعتذر منك أيتها الأميرة إن تسوّرتُ قلعتك الحصينة، وألقيت فيها هذه الرسالة السرية، أرجو أن يجدها الحراس فيحرقوها قبل أن تصل إليك، فتغضبي مني فتحكمي بنفيي، أنا خائف من أصابعي لأنها تطولُ كلما فكرتُ بكِ.

***

يتحدثون كثيراً عن دوافع الكتابة، فما أكثرها، أما أنا فأحتاج موسيقى وجهك الهادئة لكي أكتب، أحتاج ضوءَ تينكِ العينين السوداوين الممتدتين كالضياع، أحتاج إلى تلك الرجفة الطفلة التي تستبد بقلبي وأنا ممتلئ بكِ، أحتاج تهدجاتِ ذلك الصوت النقي الذي يبشرني بكل مواريث الحنان، أحتاج تلك الضحكة التي تتناثر بهجةً كماء النافورة الثرثارة، أحتاج أن تتغشاني هالةُ ذلك الخضوع الأنثوي الكريم، الذي يصيّرني عبداً له، أو طفلاً، لا أملك من أمري إلا الإصغاء إليه والتأمل فيه. أحتاج أن أنظر إليك فقط، لينفجر الشلال في دمي، وينهار من أعالي فمي، وتطولَ أصابعي، فتأوي إليّ مفردات اللغة لهفى لكي تنال شرف التعبير عن معانيكِ فيّ، فأطوي صفحاتٍ لا حدَّ لها، إلا حدّك أنتِ، أحتاجكِ حقّاً لأكون حبيباً أو أديباً، وأخاف منك، أخاف غيابك الذي تمهرين به، فما أعطشني إلى الأمان، وما أقدرني على بذل الأمان، واحتضانك به، فلا تجرحي فيّ أعز قدرة فيّ بأن تخافيني، فأعيش ألماً من أمانين، خوفٌ من فَقْدِ الأول، وجرحٌ من شكٍّ في الآخر. ذلك بأن الحب هو الأمان، وأن القلب المحب أمام حبيبه، عارِي اليدين، لا يقدر على إيذائه، وأعزل الصدر لا يقدر أن يتقي

شيئاً منه، فهو مسلوب القدرتين، فعودي إلى أمان حدسك الأول لأنه بريد الأرواح الصادق يهديها إلى بعضها فتتعارف.

***

قالت: كنت أحب العراق وسورية، ولم أكن أبداً أظن، أن قلبي في يومٍ ما سوف يعانق البلدين في روح شخص واحد.

تحدثينني عن العناق؟ عن قلبك الذي يعانق بلدين في روحي؟ صمتُّ طويلاً، مشدوهاً، وأنا أقرأ هذه الجملة التي لو أُريد لها أن تؤول إلى مخلوق ملءَ المكان والأعين لكانت على هيئة حضن عميق، تبتلعني ذراعاه وهما تطوّقان حقيقتي، حقيقتي التي لم يصعقها أحدٌ بهذا المعنى قبلك، أيتها القنّاصة، لقد تشظيت دهشةً، وفرحاً، وإعجاباً، وامتناناً منه، وصمتُّ طويلاً طويلاً، وطويت أصابعي على ارتجاف وظمأ، تهمُّ أن تقول شيئاً فلا تقول، لأنه مقام يتقاصر عنه الحرف، ولا يطاوله أو يتطاول إليه إلا شهودٌ كامل من روح وجسد، شهودٌ لا يشغله إلا احتضانك بكل أحضان القلوب للقلوب يوم تختلط أجسادها، فلا تمتاز حدود من حدود كلحظة الخلق الأولى. فيا ليتني أكونُكِ أو تكونينني، ويا ليتك تأتلفين في روحي بلداً ثالثاً، يحتاز كل بلداني ليكون كل بلداني، ما جعتُ إلى الحضن كجوعي إليه وأنا أقرأ سطرك، أيؤسرُ الإنسانُ كلَّ هذا الأسر إن وضع أحدٌ حنانَ أصابعه على جرح حقيقته، فينفرد برؤيتها وحده، وكأنه نبي مرسل إليها من دون العالمين؟ فآهٍ أيتها النبية! ما أندى حضورك الغائب! وما أنقى اقترابك الذي يمشي على قلبي برموش من ضوء، وما أكثركِ في نفسي وما أكبرك، وما أعلى موج البحر الهادر من شاطئك، يا قيثارة الشاطئ، وما أخوفني على فراشة أنوثتك - وهي تهوّم حولي - من جور أصابعي، فآهٍ منكِ ومن أصابعي!.

كل أغنية أرسلها إليك، أقترفها بك عامداً متعمداً، وهي شأن شخصي جداً من شؤوني الصغيرة، وبعضٌ من أسفاري ووقفات شعوري التي تضطرينني - أنت - إليها. فأرجوك صليها كما تصلك، وتذكري أنها حديثي إليك، ونجوى، وقصة صغيرة، وشجرة ياسمين تتسلق أغصانها على حائط نافذتك كل صباح، وتتطاول ورودها البيضاء إليك لتشمكِ، وتنقل إليك سلام الضياء. فمذ عرفتك، امتازت الألحان، فلا يدنو مني إلا كل هادئ من اللحن، رقيق، متأنق، كأنه يحاول أن يشبهك؟ فما أقدرك على صناعة اللطف! وعلى تهذيب الرجل الذي في داخلي، وعلى إقلاق أصابعي! أنا - إن أردت أن أمدها إليك لألمس حنان وجهك، أو خشوع يدك - كتبتُ، فتخيلي نصي هذا أصابعَ، هي أصابعي العطشى الخجلى، تقترب منك على تعثّر، وتردُّد، فهلّا قطعتِ بعض الطريق إليها؟

سأنتقم حرفاً

أودُّ أن أصمت فلا أقول شيئاً، وأن أغيب فلا أظهر، لأن صمتي وغيابي هو الأجدر بصمتك وقدرتك الراسخة على الغياب، وقهري بعناد الأسباب، لأن الأسباب من أمر العقل لا القلب، وما دام الإنسان يحسب حساباً منطقياً ويسوس أمره بمقتضى عقله، فإذن ليس لعاطفته أي قوة خطية! العاطفة هي التي تخفف من شأن الحسابات المنطقية، هي وحدها التي لا تخاف، ولا تفكر كثيراً في المستقبل والمآلات، بل تخلق لها حسابات منطقية تجعل الواقع الصعب ممكناً، وتفيض بأملها على كل المنغصات، العاطفة لا تصمد أمام الغياب، وما دمتِ قديرة عليه، فأنا أخافك، ويجب أن أحاكم قلبي على ما يمليه علي، ويتعبني فيه، ويجعلني أفعله فأكتبه.

وكيف أصمت؟ الصمت شيمة المترفين المتدثرين بمن يمسح على

أجسادهم وأرواحهم، فما لهم وما للكلام وفي أجسادهم أفعالُ مسيحِهم تكلمهم؟ أما جوعى الوصل والقرب، فأصابعهم متعبة بثقل القلم، ملطخة بحبره، وليس لأعراف الناس عليهم سطوةٌ إلا بما يحفظ سرّ حبيبهم، أما الإله فلديهم يقين غريب يجعلهم لا يرون إلا غفرانه، وكأنّ عمل القلب إن أحبّ، لا يحكمه أي ناموس إلا ناموس الثورة التي أشعلها وجه كوجهك.

إذن سأنتقم منك حرفاً؟ كمن يتلف نفسه بالعمل لينسى ألماً مزمناً لا منجى منه، إنها محاولة بائسة للنسيان، وكذلك الانتقام بالحرف، إنه محاولة لتدويخ الألم بالكتابة عنه، بذلك الإصرار الشديد على البوح عن كل شيء يمكن أن يمتلئ به قلب نحو قلب حتى قلب الحياة، بوح بكل غزارة ومرارة، وكأنه يريد أن يسلب مشاعر أيَّ فرصة أن تتكدس في القلب فترهقه؛ لذا فهو يفتح عليها فوهة القلم، فيُسيلها على الورق بلا رحمة، تلك المشاعر التي أَوْلَدَتْها في قلبه مَن لا سبيل إليها، فكأنه إذ يكتبها أو يكتب عنها ينتقم منها، ولكنه انتقام بطعم الضوء، يشبه احتضان طفل بكل توقٍّ مع رغبة ملحة بعصره وتحطيمه من شدة جماله، أو يشبه تقطيعَ وجنتيه، هذا هو الانتقام بالحرف، مسّ بثقل الدمعة، خفيف لكنه بليغ المعنى والأثر والحرق.

فتاة الشاطئ البعيد

ثم تقول لي فتاة من ذلك الشاطئ البعيد: كلما هممتُ أن أكتب إليكَ عنكَ وجدتُني أتشظى بلا عزمٍ يلمّني، فلا أتماسك على بيانٍ شافٍ، ماذا عساني أن أقول وآفاقك تتباعد عني مثل دوائر ماء بلا انتهاء، وقد فجرتها صخرة صماء، وأنت ذو حرف مجهد شديد، لكن وجودك روائيٌّ جداً،

وأنا أحب قراءة الروايات، لكنني عقلانية أيضاً. في الروايات - أيتها الفتاة - كما في الحياة، اثنان مُتْعَبان أو مُتْعِبان، رجلٌ وأنثى، ومنهما أنثى مثلك، تأخذ لنفسها من كل شيءٍ أخفه وأرقه، وتحاور الأشياء برؤوس أصابعها، أو أطراف رموشها، وأعيذها من داء الكتابة!

لا تكتبي أيتها الطرية، فلا يُحسد أحد على غزارة الكتابة، فقد تكون عرضاً لهوة وجودية سحيقة، لملل حياة، لتشاؤم، لبحث مضنٍ عن لا شيء، لعطش لا يجد إلا مالحَ المعنى، ليس للفرح مأرب جذاب في هذي الأصابع المتلحفة بالسواد والبياض، فحياته ليست هنا، لكنني أتفكر في حكمةِ وجودك المفرح كثيراً، فهو ليس حيادياً أبداً، إنك تُحْدِثين اضطراباً في نظام النفس إن تكلمتِ أو ضحكتِ أو همهمتِ، فاقتصدي في كمية وجودك وكل شأنٍ من شؤون صوتك، أو لونك.

ولا أدري كيف يمكن أن نجد حلّاً لضحكتك أو قدرة وجهك على تأويل الابتسام، أظن من الرحمة أن لا تبتسمي أو يُضحكك شيءٌ، إذن فلْتحزني، ولكن حتى في حزنك نبوة يجد فيها المتشائمون أمثالي خلاصاً ما، يكتبون عنه من غيابة هذا البئر السحيق، الممتد بالبرد والظلام والغربة، ربما لو كنت في غارٍ لاختلف شكل الرسالة ووجهتها، فليس لصاحب البئر خيارات أيتها المعطرة، العابثة بالألوان.

أنت جميلة بما يكفي، لأفهم دورة الأمل المكتملة في بعض النفوس، وملونة بما يشفي كل جروح الخريف الشاحب في نفسي، لكنني مجبر على ترشيد الأمل حتى لا أتضخم بوهم اقترابك.

لن أكتب

نصٌّ آخر يلاحقني بعناد طفل لا يملّ، ويعلم الصدق الذي في نفسي أنني لا أريد أن أكتب، أريد أن أتعلم الصمت، وأطوي جوعَ أصابعي على نأي هذا الليل، مكتفياً بأغنية ولحن يقولان لنفسي ما يسليها ويلهيها، لتزهد بغواية الحرف فتنجو من جنايته، ولا يجد الضوء سبيلاً إليها، فيرديها، لا أريد أن أكتب في هذا الليل، لأنه قدير مخادع، ولمن أكتب؟ له، لك، لهم، للريح، للهباء، للغيب والغياب، للعبور، لا لشيء؟ لمن؟

ويا له من قدر غريب أن أظل أفرّ ساعات من هذه الصفحة التي أكتبها الآن، كيلا أكتبها فأكتبها! وأشعر أن في نفسي ثقباً أسود لا يملؤه شيء، وأنني أشرب التفاصيل والدقائق كمن يشرب ماء البحر، فلا يجد إلا وهم الارتواء، وأنني كلما دنوت ابتعدت، وكلما وصلت انشطرت، وكلما توهمت الزيادةَ نقصت، وأنني مهما بدت مني قوة في نبرة أو فكرة أو ضحكة أو شغف أو شعور فأطربت من حولي، أُبْتُ فجأةً إلى غربة نفسي فلا أعرفني ولا يعرفني، كبناء شاهق الجدران والأضواء يُظلم فجأة، أو كما ينحسر ضوء فانوس ضئيل بهدوء، فيؤول إلى خيط منطفئ هزيل، لأنني أعيش بجسدي بين هؤلاء الناس، أشاركهم بعض حياتهم فيتوهمون حياتي معهم، ويقترحون علي حلولاً تشبهها، ويظنون أن جروح الأرواح قد تتشابه، هيهات، فلْنكتفِ بهذا اللحن يا صديقتي: الكلمة، ففي قلبي خيال جلسةٍ وادعة في مقهى قديم خافت الأضواء، أتأمل فيها بريق عينيك وأكتب، فلا تصدقيني أبداً إن قلت: لن أكتب، فهذه أكبر كذبة في حياتي.

ولا شيء غير الكتابة!

يهرب مني الحرف في هذا الليل، وأنا أحاول أن أنسلَّ إليك من بين هذه الفوضى التي تنتظم نفسي المتعبة بعد هذا النهار الطويل، فأركن إلى ما بقي من مائدة حوارك، وتصطخب أفكاري مثل طيور الحمام حين تحطّ وتعلو، وقد يصدم بعضها بعضاً. وأتنقل مثل عصفور الصباح بين شجيرات المعاني التي أظلتنا لحظاتٍ عزيزة انتزعناها على خجل من وراء هذا الزمن الصلد.

وأصطحبكِ معي إلى نفسي أو أصطحب نفسي إليك، وألقي كل صارمة المسافات بيننا لأكون أنا بكل بساطة الإنسان يوم يجلس إلى أمه التي تعرفه ويعرفها، أو صديق شهد معه عذرية حياته قبل حواجز الألقاب وخلائق الذئاب، وأفتح لك أبواباً مؤصدة في نفسي، غارت ملامحُها تحت ركام كثيف من غبار هذه الحياة، وأقول لك: ادخلي واتركي فضولك ينفض عنها وقارها وغبارها واصفرارها، فلكَم تخيلتك تفعلين ذلك، وسافرت بخيالي بعيداً فأعادني إلى لؤم واقعي.

لا أخفيك أنني أكتب هذه الكلمات والملل يثقلني، ويأس أو زهد أو شيء لا أدري ما اسمه يتغشاني، أهو واقعية الحياة التي لم تخذلنا قطّ بأننا سنبقى نحلم ونكتب عن أحلامنا، ولا شيء غير الكتابة؟ لا أدري.

رأيتك في منامي

رأيتك في منامي، كنت أحملك طفلةً أضمها إلى صدري، وتجلّيتِ في رؤياي بهذه الصورة. ولا أدري كيف أعبُرُ رؤياي، فأنا عاجر عن تأويلها، مثلما عجزت عن تأويل قسمات وجهك هذا، بما فيه من عيني طفلة متسائلتين

كأنهما وريثتا غابتي السياب، أو وريثتا شرفتيه دون أن ينأى عنهما القمر. هل رآهما في منامه مثلما رأيتك؟ فكتب عينيك شعراً غامضاً، وكأنه تنبّأ بقدومهما من غيب ما؟.

وجهُك نصٌّ محيّرٌ جداً، يعقله القلب ولا يعقله، يشعر أنه يقول ما في نفسه لكنه لا يستطيع أن يحيط به، أيُّ معنًى هذا الذي يتجلى لطيفاً كالروح، فنشعر أنه يسري فينا دون أن نعي كنهه. وجهك يوشك أن ينطقَ، يوشك أن يتكلم صمته، وشفتاك تهُمّانِ بشيء ما، غامضٍ ساحرٍ كهدوئك، وإنني كلما رأيتهما، تحيّر خيالي، أين رأى شبيههما في عالم الآفاق؟! ففكّر وقدّر، ثم نظر، ثم تبسّم وافتكر، فإذا به يرى شفتيك أطباقَ وردةٍ مشرقة، يتردد عطرها تساؤلاً، تدوخ به الآفاق، فتكلمي أرجوك.

وجهك لحن بابلي حزين، يبحث عن شيء بعيد بعيد، لكن حزنه لطيف كالنسمة لا يدركها العابرون، إنه بعيد بعيد، أوشكُ أن أمسه بصفاء قلبي، أقرؤه بأطراف أناملي، فترتعش من حرير براءته. وكأنه - وجهك - استحالَ سؤالاً يطوقني فأحار فيه، وقد خشعتُ في جناب حزنه الطفولي الذي يقطّعني من جماله. آه ما أقسى الجمال حين يجتمع له التساؤل والحزن والبراءة والغموض والهدوء العميق، وكأنه غيب وشهادة[1]، ندركه ولا ندركه.

وضحى عينيك، يطوقه ليل جفنيك الساجي، كهالة من ضياء الكحل، كم يشبه الألم! إنه مؤلم مؤلم يبددني في فضاءات التأمل فأكتبه بما أستطيع من حرفي ونزفي، إنه ينزف معنىً في داخلي، ولا أقوى على جعله شهادة إلا كما يفعل مفرّط مع صومه، يقيم شكله فقط. وأنا المسافر فيه، المريض به،

---

(1) أكثرُ من ذكر هذين الاسمين: الغيب والشهادة، وهما يضارعان بالمصطلحات المعاصرة: العالم الماورائي أو الميتافيزيقا أو المتجاوز، والعالم المادي/ الفيزيائي، لكنني أفضل استخدام المصطلحات القرآنية.

كيف أطيقه؟ ومن أين لي بعدة من أيام آخر، وسفري ومرضي بطول هذا السحر الذي يشعُّ من ضحى عينيك وسجّو جفنيك الليليّين.

أريد أن أراك بكل ما أوتيت من عمقٍ وعزمٍ وشوق، فأعتقي المعنى من سجن صمتك وحزنك وهدوئك وتأملك الطويل، يا طفلة المعنى السجين.

إن شعرك هو النص الأخير من سِفْر صورتك الكبير، يجور سواده على ضحى عينيك، فيزيدها معنى، فيا أيها الجور ما أعدلك! لما كنت أوَّل نصَّ وجهك، كنت أشفع تأويلي بلحنِ أغنيةٍ لفريد الأطرش، فكانت عيناي تتدبران وجهك، وأذناي تصغيان إلى اللحن، فشعرت أن عينيَّ وأذنيَّ مشدوهتان في نصين من طبيعة واحدة، اختلفا في الهيئة فقط، الأول ظهر على هيئة صورة هي وجهك، والثاني ظهر على هيئة موسيقى هي لحن فريد. فكرت كيف أنهي هدير هذا المعنى في داخلي، الذي تستولده تلك الصورة، فما عرفت، كيف أنهي ما لا ينتهي؟ إذن فلتبقَ نهاية مفتوحة على نصوص كثيرة، تستقر أجنّتُها في رحم الغيب، ومن يدري فلربما يستدير الزمن قريباً كأفق عينيك المختلطتين بالضوء والظلام، فيجعل تلك النصوص شهادة، فتتم نعمة وجودك في هذه الحياة، حياة عابرٍ حزينٍ مرَّ في ضوء عينيك، فتوقّف متأملاً، متفكراً، متدبراً، يبحث عن إجابة تروي عطش سؤاله الذي لم يتوقف منذ أزل نفسه، ولا يزال يفكر. 3/ 7/ 2015.

سنة في ليلة

لا أدري لماذا أتولى عابساً في وجه الحرف وكأنه أعمى، كلما شدني قلبي إليك. وكأني لا أريد أن أكتب عنك؟! أهو حرص البخيل على ماله لا يريد أن ينفق منه ذرة؟ أم هو استحكام ساعدي الطفل على شيء يكاد يحطمه من شدة ضمّه على صدره فلا يفلت، ثم يتوارى به عن أعين الناس؟

وكأن الكتابة تحديثٌ بنعمةٍ يضيق بها قلب كل بخيل. الكتابة التي كانت صديقتي، وشريكة أسراري، أصبحت عملاً عسِراً، أضيق به إن أراد أن يشاركني بك، فما الحيلة مع أنانيتي هذه؟

هل أجحد نفس رئتي، وأثر أصابعي، وسواد حبري، وكلها من أمر كتابتي وحياتي ووجودي، أليست جديرة بأن تسيل من بريق عينيك، ونص ابتسامتك، وهدير شعرك القادم من بعيد، لتتحدر من شاهق البيان حجراً يشقق من أمر قلبي، فيتفجر منه المعنى ثرثاراً يستدير صداه مع الزمان والمكان فلا يُعرف أزله من أبده.

كنتُ أمشي إلى الطموح، يحدوني أمل يعانقه ألم، بأن أولد ولادتي التي تطهرني من ميتات كثيرة، فباغتتني الحلم من نافذة افتراضية، كالنسمة الخائرة لا يؤبه لها، كصوت ناي ضئيل تنوء بحلمه نسائم الغروب، كضوءٍ أصفرَ من كوةٍ في بيت طيني صموت، يستفز حنيني، كرشاش مطر من صيف قريتي، يهيج له التراب رائحةً لا تشبه إلا نفسها، فقد كنتِ الحلمَ، النسمةَ، النايَ، الضوءَ الأصفر، المطر ذا العطر الجميل.

سنة استدار بها كياني مع الأفلاك البعيدة، تجاذبته ظلمات ورعد وبرق، كنتِ ناره التي استوقدها، فأضاءت عتمات نفسه، فأشرق بالأمل والعمل، أيا أمي التي تشبه أمي.

هل تعلمين أن معرفة الغريب نزيف لا يهدأ، إنه كالطفل اليتيم يبحث عن وجه يشبه وجه أمه، عن حنينٍ ضائعٍ بين السنين، عن حضنٍ يتكور في دفئه مثل الجنين، آهِ ما أقسى الحنين!.

سنة في ليلة، أحييت آثارها بصورة قد تشبهك، أو كأنها أنت، فكانت ميلادك في حياة خيالي، هو ميلادك الثاني، الذي مسح على قسوة أصابعي،

فخشعتْ فكتبتْ، فتبسمّتُ في وجه حرفي فعاد مبصراً. فكل عام وأنتما بخير. 8 أغسطس 2014.

حوارٌ بين خيالين

– أتعلم؟ كان يتأمل صورتَها فتنشئُ في نفسه ما ينشئه الغروبُ البعيدُ يلملمهُ الرحيلُ على مكثٍ، مثل احتراق هادئ يتعطش إلى الريح العقيم لا تثمر إلا نهايته. هما صورتان من أمر الفقد، صورة فتاةٍ مجهولةٍ وصورة غروبٍ راحلٍ اعتاد أن يعانقه كل مساء على تلةٍ في قريته الصغيرة. إنه الجمال المؤلم.

– جمال مؤلم؟ واهاً لك أيها الرجل! ما أحذقك في تصيد الألم، واستنباط الحزن من كل أمر حتى لو كان ابتسامة مفرِحة! كيف يكون الجمال مؤلماً؟ إن الجمال يا صديقي إن فاض على روح أنثى، أو فاضت به عليك، جمرٌ تضمه بقلبك فلا ينطفئ، أو نصل حديد يريح أنسجتك بذبح ناعم يجعل دماءها كعنفوان دجلة في كنف الربيع. وليس جمال أي أنثى، إنها الأنثى التي تمرُّ بك مرَّ السحاب، تأخذ من صدرك قطعة، ثم تمضي مضيَّ الدموع بلا رجوع. إنه جمال تريده لكنه ليس لك، فهل ينبغي له غير الإيلام؟ إيلام يجعلك ترى القبح نعمة، ترجوه فلا تدركه. كان يظنها صورةً مجهولةً، فاكتفى بنظراتٍ إليها ثم صمت، كان معافىً منها لأن اليأس من وجودها خير أملٍ وزاد للعبور بلا اكتراث، فلمّا تجلّت له انبعثت في نفسه منذ الأزل وكأنها لم تكن لحظةً من أمر الغيب، فتبسم من شهودها وأشرقت نفسه بنور عينيها الشاسعتين بلا انتهاء، وأقبل عليها بكلّهِ، بقلبهِ، بلبّهِ، بحرفهِ، بوقته.

– واهاً لك أيها الرجل لقد أغرقتني بفيض معانيك، ولا جبل يعصمني منها إلا أن تصفه لي، من هذا ؟ ومن هي؟ ولماذا أراك تتحدث إلي بحزن؟

إنـه بسيطٌ كالريـف، واسـعٌ مثلـه، ينفعـل كطفـل ويـرضى مثلـه، ولا يفعـل ذلـك إلا مع أمـه أو امـرأة مـن أمـر أمـه، وكأنـه علِـم أن لـه في قلبهـا أفقـاً مـن الحنـان كأفـق الأرض يستدير مع كل التفاتـة مـن قلبـه، فأمِـنَ أنهـا لـن تجفـوه أو تتركـه أو تغضـب منـه، فتمـدد في جوهـا كالسـحب، وكيـف ستجفو أو تغضـب، ووجـوده يهبهـا أمومتهـا وأنوثتهـا ويعلمهـا فقـه الحنـان، إنهـا تكـبر بـه ويكـبر بهـا.

إنـه لا يثـور إلا إذا شـعر بإهمالهـا، وقـد تفعـل ذلـك دون أن تعـي، لكنـه أبـداً يثـور كطفـل، ومهـما كان مـن ثورانـه، فشـفاؤه ضمـة وافيـة، أو نظـرة حانيـة، فيعـود نهـراً رقراقـاً يتـلألأ صفـاءً، تشـدو عـلى ضفافـه الأطيـار عـن يمـين وشـمال. وكان مـرة يتميـز مـن غيظـه منهـا، فتجاهلـت كل حقـده الصغـير وقالـت: أريـد أن أضمـك، فاغرورقـت نفسـه مـن الحنـين والحيـاء، فنسي حالـه كأنـه لـم يغـنَ بالأمـس.

أصدقـك القـول يـا صديـق، أنـه لم يكـن كذلـك إلا مواقـف معـدودات لهـا صفـات خاصـة، توهمـه أو يظـن أنهـا مـن أمـر الإهمـال، أو الخمـود أو الـبرود، إنـه لا يتسـامح ولا يهـادن في حقـه مـن الحنـان قيـد أنملـة، لكنهـا نحـرتْ مزيّتـه هـذه مـن القـرار يـوم ظنّـت أنـه طـاغٍ يطمـي كالبحـر فـلا يرحـم، ويعصـف كالإعصـار فيهـدم، أتراهـا جهلـت أنّ هوجـاءه ستسـكن بالتـماعـة دمعـة في عينيهـا المطرتـين؟

أتراهـا نسـيت أن المحـبَّ لا يسـتطيع أن يظلـم حبيبـه وإن ظلـم، أو يمعـن في إيذائـه!؟ إنـه سريـع الأوبـة والتوبـة، وإن صابـرَ وتصـبّر فإنـه يصابـر ويتصـبر عـلى ألم وشـوق، وأعتـى أنـواع الألم ألم مشـتاق، أو شـوق متـألم! فـإن صـحّ قولهـم: إن العدميّـة ليسـت إنكارهـا للألوهيـة ولكـن احتجـاج عـلى غيابهـا، فـإن غضبـه الموصـوف اعـتراض عـلى بعدهـا وفقدهـا وبعـض طرائقهـا، وليـس سـجية يُخـاف

العيش معها، وله من حاله شواهد، ولكنّ الخوف لا يجتمع مع الحب إلا إن كان حبيبك بحراً، تحبه وتخاف منه.

- تريد أن تقول أنها لم تفهمه؟ نعم، كان يحزنه أن يفترقا في ظلم لا على عدل. يا صديقي، ليس الأمر في الغضب وإنما في سببه، فلننظر لماذا يغضب الإنسان. فإن أبينا إلا الضيق من ذلك، فلننظر في قدرته على الرضا، فإن كان متعنّتاً مُعنِتاً، فهذا والله قطعة من شقاء، تسوِّدُّ الحياة معه، وتبيضُّ الأعين من الدمع، وإن كان لا يقرُّ بخطأ، وكان دهرُه يجادل كي يثبت أنه على حقٍّ دائماً، فهذا كبره يطمس على قلبه فلا يرى خطأه فيعتذر، أو فساده فيصلح، ويرى الآخر مذنباً دوماً فيبطش.

إنه صلد صلب لا يُرجى ماؤه أو شفاؤه أو نماؤه، فلا تخف إلا من ظالم لأنه لن يقسط فيك، ولن يعدل بينك وبينه، ولا رحم فيه أو معه. أما إن كان غير ذلك، فاتّئد وامنح النفوس مداها، فالحياة لا تستقر على راحة أو أمان، ولكن تجبرها الرحمة، وتزيل مرارتها المودة، ولكن هيهات أن نبصر حقائق النفوس بيسر، إن الإيمان بأنفسنا في هذا الموضع من التعامل مع نفس أخرى، إلحاد كبير بالآخر يزيّف حقيقته بالوهم .

- وكيف هي؟ لا أدري كيف هي! كل ما أعلمه أن لغتها ليست من لغة هذا العالم الذي لا يفقه إلا الشكل الأبجدي من اللغة؛ لذا فشل في تأويل حقيقتها، فعاد بظلم حقيقتيهما معاً. ثم جلس ينشد هذين البيتين(1):

هذي النهاية لم تكن أبداً لنا   هذي النهاية قمة المأساةِ
ما كنت أعلم والرحيل يشدنا   أني أودع مهجتي وحياتي

24 أغسطس 2015.

(1) الأبيات لفاروق جويدة.

غلاف أسود

وجفّ حبري لما رأتني صورتُكِ، تأملتُ ابتسامتها، والأسودُ المزهوُّ يلبسُكِ كالليل الجريح، كلحنٍ عراقيٍّ قادمٍ من ريف بعيد، ينوء بقصص القلوب. نسيتكِ، لكنني تذكرت وهمي لما تأملت عينيك تبتسمان لي، فقبّلت ضوءهما بابتسامة مبللةٍ بشيءٍ من الدمع الوقور.

كنتِ كالأمل، كالنجم الكبير يوشك أن يضيء كون غربتي، يوشك، فضاع في ظُلَمِ الفضاء. وكنتِ في فجري فجراً آخر، أعانقه بصلاة قلبي، وقلبي يرجف بالشوق كيتيم البرد، على انتظار حرفك، فما أجمل أن تنتظر مع الفجر، فجراً آخرَ، يهديك شمساً أخرى، فينجلي ليلك عن شمسين، شمس تضيء أرضك، وأخرى تضيء نفسك، فيصبح لك زمانان، زمن تعيش به مع الناس، وزمن بتوقيت قلبك، ويصبح لك عمران، عمر أرضي، وعمر روحي، أحدهما ينتهي بنهاية جسدك، وآخر يمتد بحياتك إلى سدرة المنتهى.

وكنتِ أمّ حرفي، وكنتُ أكتبكِ أياماً ستأتي فلم تأتِ، وبقيتِ دنيا من حروف وصور، وصرتِ جرحاً من لون الزهر والطفولة، في صورةِ طفلةٍ بلون الزهر تتأمل أصابعها، لم يبقَ منك إلا غلاف أسودُ، ووجه يشبهك، يطرزه السواد كالليل الجريح، وكرسيٌّ في خيالي كان شيئاً من حقيقةٍ يوم جالستكِ في بيت الكتب، لكنه خلا منكِ بعد حين، مثلما خلوتُ منكِ بعد حين، وإنه لانتحار منظم بالألم أن أشربك أو أتنفسك في أغنية عراقية قديمة، إنه يعني كثيراً من التفاصيل الصغيرة التي جعلت بلقيسَ سِكّيناً يذبح نزاراً ذبحاً أعنف من موتها ذاته، فهل تعلمين أيَّ حزنٍ يبعث اللحن العراقي؟

28 فبراير 2014.

سلام عليك أيتها الأميرة

أيتها الأميرة، إني إذ أيمم قلبكِ، أكون كمن كوّمه البرد والظلام، فظمِئ إلى ضحى شمسٍ عالية، تنفرد بها أوصالُهُ وتورق آماله، فتزداد جغرافيتها من كون المعنى، فيجد لحياته حقيقتها التي تاهت، فما أسنى ضحاكِ، وأبهجَ ضحكتكِ، تغيّرين بها مزاج المكان والزمان، فكأنك عطرٌ ينعش كلَّ روحٍ مارةٍ، فكيف إن مكثَتْ بكِ أو مكثتِ بها؟

في روحك اقتدار الحياة على الفعل والاستمرار والأمل، فكأنها سراجٌ ينير طرقات المرهقين، وأنا واحد منهم ألوذ بكِ لأتعلم منك فقه الابتسام في هذا الظلام، وفنَّ ضحكة الطفلة بكل فوضويتها البريئة التي لا تعبأ ببؤس هذا العالم.

أتضاءل أمام شاهقي عينيك خشوعاً لآيتي الخلق البديع فيهما، فأكبر بهما لأنني أستشعر اتساعهما في نفسي، فتمتد بهما إلى عالَمين كثيرة من الشعور والتذوق والتأمل والكلمات، فكأنني أنمو إذ أتفاعل مع حقيقة وجودك، وأعرج بحرفي من طور إلى طور. وأقف على شاطئ شعركِ الجرار متهيباً جلال الإله الذي هداه سبيلَهُ، لكننا ضعنا في غواية سُبُلِهِ، وعزَّ علينا الخروج من بطن حوته، فخرجت تسبيحاتنا حروفاً تسبك معنى جماله وكماله ودلاله، لكنها لم تخرجنا منه، بل أمعنت في سجنه إيانا.

أنا أعزل - أيتها الأميرة - أمام فيوض جمالك، مستضعف لا حول لي ولا قوة إلا بما أستعين به من حرفي لأفي حقيقة جمالك في نفسي التي فاضت بها، فسالت أوديةً غزيرةً، ولا حسرة في عالم الأنفس كهذه: أن تنقص النفس من شوقها إلى نفس أخرى تجبر بها احتياجها، وتقوّم اعوجاجها، ولكن هيهات، ليس لنا مما نحن فيه إلا التغني به، فكوني بخير حتى وإن كنتِ

بعيدة، شمساً نستلهم منها بعضاً من معاني الحياة الكبيرة لنحيا على أملٍ يدوم لننهي المسيرة، فسلام عليك أيتها الأميرة.

أحلام وأوهام

كنت أمامي يوم لم يكن أحدٌ أمامي، مررتِ بي ونبّهتِ زمني المشغول، لكنني ضيعتكِ، انسلَّ الزمن ماكراً من بين أصابعي، فأمِنْت مكره، وآمنت بغرور نفسي، فهرب بك وأوهمني بالانتظار، فأرخيت له عنانَ تهاوني، وها هو ذا الآن يشعلني بفقدك ندماً كلما تعثرت بحرفك، بفكرك، بذكائك الشفيف، بتأملكِ، بشاهق حكمتكِ، بفطنتكِ، بصدق أنوثتكِ وصدقكِ، بشهد معانيك، وشهادة قلبكِ، وشهود أصابعك، وغيوب روحكِ، وغيب وجهكِ، أنتِ انتصار لكمال الجمال، يوم يعلو بفكرة النقص ويسيّره نقصه ليكمُل ويجمُل، فتلك هي فكرة النقص الكاملة.

كم هو قاسٍ هذا الزمن، قاسٍ بجهلنا، بقلة علمنا، بضعف حيلتنا، بغرور أنفسنا، بزيف وجهتنا، بسرابنا، بأوهامنا، بسخافة أحلامنا، هو قاسٍ بكل أولئك عندما نخطئ، ونضيّع وجهتنا، فيطوينا الفشل ويطوي عنا أجمل قلب، وأسنى عقل، ثم يكفن قلوبنا بندمٍ حيٍّ بعمر الحياة الجميلة التي كانت تنتظرنا لو أننا لم ننتظر وسارعنا إلى اقتناص اللحظة الضوئية. وها هو ذا الظلام، ظلام ندم غائر بعيد يطلُّ على خجلٍ على مللٍ، من بين ركام ضجيجي وحيرتي، يسجو مع كل ضحى من حرف لك يعترضني بلا قصد، وكأن معانيك استدارت أراضين من نهار وليل، نشرق بجمالها وتظلم بفقدنا إياكم.

لا تتماسك لك هيئة وجهٍ في خيالي، لا شكل أصابع، لا أسطورة شعر، لا

هوية عينين، كل ما أعرفه أن الأبيض المدبر طوقك، فالتهمك موج البحر، ووجهك نحو عالمٍ آخر. فأنت الآن إنسان على هيئة معنًى من الأفكار والعواطف تشهد به الحروف على غيابك، حروفك هي كل ما بقي منك، هي رحم المحرومين ما دارت أرض، وماج صدر، أو تكسر جفن، هي عزاء العابرين، وإرث المندحرين بعد إعلان النصر.

أن نجعل قلوبنا مقابر خير لنا، أن نميتكم وأنتم أحياء لنحيا بأمل جديد وعزم حديد، إنها محاولة لا بأس بها، لنحتال على تفريطنا بجنبكم، وتضييعنا إياكم، إنها صناعة الموت الجميل، لنربط على قلوبنا بأمل الحياة، الحياة. 20 أغسطس 2016.

وجهك

وجهك كونٌ من المعاني يليق به اقرأ، وددتُ لو أنني تأمّلت فيه لأسطرَ بالنون بعضاً من أسمائه البعيدة: ضحكةً أو ابتسامةً، أو نظرةً مبسامة، أو بريق عينين كأضواء قريةٍ صغيرةٍ تغفو على كبرياءٍ من الأرض، تشبه قريتي في ليلةٍ جفاها القمر، أو ربما نظرة حزينة كنشيج الناي في معزوفة [إشراق]، أو كقطعةٍ دامعةٍ من لحن كاظمِ يوم عانق كلمة نزار في [مدرسة الحب]، لا.. لا بل حزينة كمقدمة موسيقية تطلُّ بها دمعات السياب في [لك الحمد مهما استطال البلاء]، لا ليس وجهك، ليس قطعة من لحم وعظم، بل نافذة ضوئية تشهق منها روحك كبكارة الصبح وقد تنفّس، أو كوقار الليل وقد سجى. كأنه - وجهك - صفحة من الماء الفيروزي، انبعث إلى الوجود يوم تعانقتِ الأرض والبحر، فيا له من لون تفرّد باللقاء، إلا أنني لم أتأمله إلا على سفين خيالي، وللروح من أمره شؤون، كان هذا الحرف شأناً منها، وها قد كتبت. 1 نوفمبر 2014.

وإني كلما تدبرت مصحف وجهك، ارتدت بصيرتي ملومة محسورة، تتفرق عنها لغتها فلا تقوى على إحكام تأويل المعاني، لأن وجهك لا يُكتب، بل يُلحن، ولا زاد موسيقياً لي لأعزف وجهك ذلك اللحن الذي يشبه هدير الحيرة الغامضة في داخلي. ولا يضارعُ حيرتي في وجهك إلا حيرة من يلحد في الله. كيف استقام له أن يكون وجهك محض مصادفة عشواء لم تبرأها يد خالق عظيم فائق الجمال والكمال! الإلحاد - يا سيدتي - ليس معضلة عقلية فكرية، إنه أُمِّية جماليّة بحتة، فوالله لو أبصر بقلبه، لكان وجه مثل وجهك هو الوحي الخالص أن الله هنا. 10 مارس 2017.

أيتها الخفيّة التقيّة

أيتها الخفيّة التقيّة: الحب لا يعترف بالنهايات المنطقية إن ثار، فتقنينه صعب، يريد أن يكون ولا يهمه رأي أبيك أو رأي ابن تيمية، يريد أن يشقَّ طريقه كالجدول الصغير مهما تعملقت على جانبيه الصخور.

هذا الحب يهادن الشاعر والأديب والموسيقي، وينفر من المنطقي والفقيه، متمرد، كل ما يهمه فتاته والقصيدة التي سيقولها فيها، أن يعيش شعوره وفي شعوره، يستهدي بذلك الجانب الحرّ من الإنسان - أي إنسان - الذي يكره القيود، الذي يريد أن يعيش كما يريد.

إنه بريق الحرية الساحر، مجد الإنسان وامتيازه على الخلائق، لكن سنّة الإله جعلت في قوتك ضعفك، وفي فرحك حزنك، وفي اختيارك مرارك، إن هذا التوق إلى الحرية المطلقة، حدّه الله بالشريعة، فكان لا بد من الألم، والجهد والمكابدة، لكنه باختيارك، فيا له من ألمٍ أن تكون المريض والطبيب، الجريح والجراح.

فإياك أن تظني وجود شيءٍ بلا نسبة من ألم، فالحياة لا تعترف بنقائك هذا، حتى طعامك قد يؤلمك، وهو غذاء جسدك فترفقي في توقيكِ قليلاً، وتحسسي أمن قلبك أولاً، لأنه ليس خبيراً ولا قديراً ولا كبيراً، واطمئني ما دام لم يرَ سرير عينيكِ، وضحى وجهكِ، ونيسان ضحكتكِ، وهدير شعرك، وموسيقى صوتك، فهو ومِرْبَعٌ في طول السلامة سواءٌ[1].

14 أبريل 2016.

انقضى زمن الكروم المورقة

أتذكرك بشيء من الحزن واللامبالاة. أنا عاجز عن الحب، عن النبض، عن العنف العاطفي، عن أن أكون كما كنت، خسرت كثيراً مني ولا أزال. الزمن مرعب جداً، إذ يلوك قلوبنا حتى النهاية. نسيت أقلامي وأوراقي، لم أعد أكتب بقلم من حبرٍ أسودَ ككحل عينيكِ أو ليل كتفيك، أفتقد خربشات الحبر على أصابعي وملابسي، أحنُّ إلى ساعات طويلة من العناق، يوم تعانق أصابعي القلم فلا تتركه حتى يجفَّ قلبي من الشوق، فلا يجف.

صرت أترك دفاتري، أنساها، لا أدري كم ذهب مني، كل ما أملكه رصيدٌ من ذكرياتٍ، وبعضُ خيوطٍ من بريق عينين، غائب خلف دورة الأزمان. نسيت كل شيء، أستجدي الألحان كي أكون كما كنت لو لحظة وأكتب، هرم قلبي، ولَّى زمان عينيك، وانقضى زمن الكروم المورقة، والأضواء المتراقصة، وبقي هطول المطر بلا طعم أو أثر.

18 ديسمبر 2014.

---

(1) مِرْبَعُ في بيت شعر جرير الذي توعده الفرزدق بالقتل، فقال جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً   فأبشر بطول سلامة يا مربعُ!

ملحمة بابلية

إنّ شعرها الأسود الطويل، المنهار من علٍ كملحمة بابلية لأشد وطأة من ليل الغريب يضخّم شوقه وحنينه. تتكسّر أمواجه السوداء من على كتفيها كنصٍّ موسيقيٍّ ملحمي كالذي يسبق (أنت عمري) أو (مدرسة الحب)، إنه قدر حتمي ينسكب في عينيك اللتين نابتا عن أذنيك، فيستحيل كلك إلى محض أذن، فتعزف عن كل مثيرات الحواس ما خلا الصوت. ولا ينبغي له - أي شعرها - شبيه إلا الأفق البحري العريض، يستدير بك من كل جهة لتدوخ في الاتساع وتغفو تسرَحُ ببصرك فلا تعود، وقد يصح فيه أن تشبهه بنيل أسود يقيم الحضارات تلو الحضارات على جانبيه، ويطوي الأزمنة والأمكنة، فلا تعرف أزلاً من أبد. ما هذا الشيء الذي يجعلك تتمنى القبح لتستريح، أو تحتسب أجر الصابرين، ولعلك ستسأل الله أن يقتص لك منه يوم الحساب.

مسحة من سكون كي أكون

في وجهك معنى الضوء وخشوعه عندما يتغشى الروح، يوم تجلسين كنخلة، تفيض قمتها عن سواد فصيح لا يتلعثم، ولا يبين جسمك عن رائحته إلا كما النجوى، لا يدركها إلا من خُصَّ بها ووقعت في أذنه اصطفاءً من دون العالمين. فمن هذا السعيد، الذي تنعمين عليه بك ليدوخ في حديقة وردك فلا يدري ما الزمن وما المحن؟ وما الكلام في حضرتك أيتها النخلة؟ وما الحاجة إليه، وفي عينيك بديع خلق الله مما تشتهي الأنفس من المعاني والموسيقى!. عيناك موسيقى، يتراقص البريق على أوتارهما كالفراشات الملونة. يا أيتها اللينة جسداً ومعنى، يا خيالاً في خيالي أشك من جماله أن

يكـون، يـا حضنـاً أمينـاً في هـذا المـدى الموحـش، الكئيـب، وقـد حفتـه المخـاوف والمنـون. هبينـي في هـذه الفـوضى لـو مسـحةً مـن سـكون، كـي أكـون.

اختر عيونك

هنـاك عيـون يسـتدير حنانُهـا اسـتدارةَ الأفـق العريـضِ، حـين يحضنـه المـدى الأزرق، وهنـاك عيـون كالمـدى البحـريّ، عاصفـةٌ، تطـرز صفحتيهـا النـوارسُ، ويغفـو عـلى شـاطئيها الـلازورد، وهنـاك عيـون كقبـة السـماء شـاهقة، وقـد ضمخهـا الرحيـل بالغـروب، وتنـاثـرت أحزانهـا كأسراب القطـا، يتهـدم اللحـن الحزيـن عـلى خفـق أجنحتهـا كقلـب أمٍّ قـد انتفـض مـن كهربـاء الحنـين، وهنـاك عيـون كريـف بلـدي، بسـاطٌ أخـضر أو أشـقر، لا تـدري كيـف يتنفسـها الفـرح، وهنـاك عيـون كالقصيـدة، سـيابية مجروحـة، تـأوي إليهـا الدمـوع عـلى جنـاح الصمـت البعيـد، وهنـاك عيـونٌ مـن أمـر خيـالي، ألمسـها بكـفِّ قلبـي، عـبر شـهود الغيـب، لكنهـا كالوهـم الجميـل، يـكاد يكـون يقينـاً، فاخـتر عيونـك. 19 مايـو 2013.

فبعضُ الأمل جنينُ خيبةٍ مرّة

بعـضُ العيـونِ بريئـةٌ جـداً كالطيـور، لكنهـا ليسـت لـكَ، لـك منهـا صـورةٌ تبقـى معـك، كأي عطـرٍ هـادئٍ يُنبيك بسـحرِ مـن مـروا مـن هنـا، صـورةٌ تضمهـا رسـماً يتيـماً في خيالـك، وإذا خلـوتَ إلى ليـل غربتـكَ، ووحدتـكَ، أخرجتَهـا شـمعةً يكـوّرُ ضوؤهـا دنيـا حنينِـك، كالطفـل عندمـا يعثـر عـلى مـا يُفـرِحُ قلبـه، ينـأى بـه عـن كل مـا يُقلـق عشـقَهُ بـما يجـد.

جميلـةٌ جـداً كالأمـل، فاحـذر أملـك، لأنـه الألم الـذي يرتـدي وجـه السـعادة، فبعضُ الأمـل جنينُ خيبـةٍ مـرّة، فالزمـن بـين الأمـل والألم، كالزمـن بـين لامهـا وميمهـا، والويـل لأملـك إن جـار لامُـهُ عـلى ميمِـهِ، فاحـذر التفاصيـل الصغيـرة

عندما تمرُّ بدنيا الأنوثة، فالتفاصيلُ الصغيرة حقل ألغام لطيف، قد يسرق كل تفاصيلك الكبيرة، خيرٌ لك أن تكون جليداً بليداً، إن أردتَ أن تحيا سليماً سعيداً. 1 أبريل 2013.

ورأيتها تبكي

ورأيتها تبكي، فانحدرت دموعها السخية جداول حزن في قلبي، وإني كلما رأيتها، تجمّعت معاني نفسي حول شرفتي عينيها، كالفراشات الملونة تتراقص على أوتار الضوء، فيرسم رفيف أجنحتها مشهد جمال يصغي إليه الفكر، فيعرج في فضاءات الخيال إلى سدرة المنتهى من كون عينيها، فيا فراشات المعاني ما أبدعك!.

يا لصوتها، حين يفلت من عناق شفتيها، كغمامات عطر تتنهد وتتصاعد حلقاتها في سماء نفسي، كأنه شيء آخر غير ما نألفه من طبيعة الأصوات. ما هذا الصوت الذي يمر في حيرة من الأذن، فلا تدري على أي لحن تديره، هل طبيعته من خلق آخر، تعجز عن تفسيره الآذان؟ وليتها ارتسمت في عيوني كما في عيون الناس، لقد تنزلت وحياً على قلبي وغسلته بأنوار الخشوع فَسَكَن، ثم ارتعد، ولسان حاله: زمّلوني، زمّلوني، ولا خديجة له!. 14 يناير 2013.

الذكرى

عرفته عن كثب، وضمّتنا الحياة في مشوارها الطويل، ذهبت إليه قبل سفره، كان يحب أن يخلو إليّ في الليلة التي يركب صباحها مسافراً، كان يحدّثني بقلبه، جلستُ إليه وكان يرتب أغراضه، وأوراقه، وينفض عنها الغبار، فإذا به يتعثر بكيس صغير، ما إن صافح عينيه، حتى اضطرب فؤاده، وارتعشت يده!.

يعرفه جيداً، فيه تفاصيل صغيرة، لقلب صغير، خرج إليه عطرٌ يعلو صوته على رائحة الرحيل. فتح ورقة صغيرة، فابتسمت في وجههِ رسومٌ لأقلام ملونة، كُتب بجانبها: (شكراً لحبك لأنه أعطى لحياتي ألوانها)، فانهار عالم الذكريات مرةً واحدة، وانهارت معه الدموع.

[يا ذكرياتُ: علامَ جئتِ على النوى وعلى السهاد، لا تمهليهِ، فالعذابُ بأن تمرّي في اتئاد][1].

وكأن تلك التفاصيل صرخة مدبرٍ هادرة، زلزلته، فانهارت الذكريات من الذرى كالثلوج الثقيلة تدكّ سفوح قلبه، وترتطم بأوديته، فتذوب من شدة احتراقه، فتعود دموعاً غزيرة تفيض بها العيون. 30 يونيو 2013.

سوف أمضي

خيرٌ لك يا أيها الغريب المسافر، ألا تحتفي بالوجوه العابرة، قد تمرُّ بحديقة مبتسمة، ستهوم حواليك فراشة جميلة، ستطل كنافذة من ضوءٍ على حزن قلبك، لكنها ليست لك، تذكر أنك عابر، وهي عابرة، إياك أن تسكنَ إلى شيء فيها يشبهك، فالرحيل لا يعترف إلا بتأشيرة الحزن في هذا المدى النفطي، هل نسيت؟ أظن أن أسفار الحنين قد آدت ظهرك حتى التعب، كن صخرة فالحياة لا تعنو إلا للصخور، قل لأي ضيف طارئ: سوف أمضي، ولمَ المكوث مع القادمين من وراء الغيب، كالمطر، هي زخة أو زختان، ثم يحضنك الجفاف، ثم تمضي بحمل من أنين وحنين، وستبقى - كما بقيتَ - وحيداً وملء عينيكِ الدموع.

---

(1) بدر شاكر السياب، المومس العمياء.

لغة المطر

عيناكِ كنهر هادئ من الصفاء، ترسو في قرارهما المعاني كالمحارات الملونة، تتراقص حولها الأسماك والأعشاب، هو شعور لذيذ، لكنه قاسٍ. وما أشدها قسوةً أن تحب النجوم البعيدة جميلةٌ لكنها بعيدة، لا خيار إلا أن تأفل في نفس متعب مثلي، لأن الأسود يليق بي، أحب جداً أن أكتب به، وأن أرسم عيناً دامعة به على منديل أبيض، وكم تشربني السعادة عندما يسافر حبره الدفاق في نسيج المنديل، وكأنها روح تسري في جسد.

عيناك كالمطر، حزينتان مع المساء، يرتعش فيهما دفء الشتاء، فأحنُّ إلى مدفأة تضمني وإخوتي، يضمنا قرب أمي، أحن إلى قصص الظلام، تجمع قلوبَنا في طاقة من الدهشة، وضوء الفانوس النحيل يحار في النافذة الصغيرة، يرجف من خلفها برقٌ عظيم، ثم يغلبني النعاس، آه ما أحلى الأمان!. هذه تفاصيل صغيرة، لن يشعر بها من لم يعرف لغة المطر. 12/11/2012.

من أي ثقب تنظرين؟

قاسٍ، كلون شعرك، كاتساع عينيك، كعجزك عن الحنين. صعبٌ، كجبروتك يوم تصمتين، يومَ تغلقين هذه النافذة دون حرفي، فيظل حائراً كالفراشة، يوم ترحلين كرحيلِ الفرح من بلادي، وإن ناديتُ، عبثاً أنادي. غضوبٌ، أيتها الضريرة؟ يا أسيرة التهم الصغيرة، من أيِّ ثقبٍ تنظرين؟ تعلّمي التأويل أيتها الأميرة، فنَصُّ قلبي عصيٌّ على تفكّركِ العِضِين، وعمق نفسي شاسعٌ، كاستدارة اللحن العراقي في عيونك، لكنه كبير جداً عليكِ، يا ربّة الأنفاس القصيرة، بأيّ علمٍ تجهلين؟! ابقي على وهمك تعمهين، لا

سطرَ يكتبني ولا كثيرَهْ، فدعي شاشتك البليدة، فهي أصغر من صغيرة، وهيهات يا ربّة الأزرار الكثيرة، أن تفقهي غصة المعنى في عيوني أو يراعي أو صريرهْ، إني خسرتك كأي نصٍّ فاقعٍ، لكنّ برديَّهُ العراقيَّ[1] يشعلني حنيناً، فأطل خلسةً - على يأسٍ - كي أزورهْ.

طينك غير طيني

صعبٌ أن تفهميني، فطينك غير طيني، بعيدة أنتِ عن همِّ قلبي وأنيني، جاهلة أنت بحروف اغترابي وحنيني. وجودك الريح أو كالوهم الجميل، وأيُّ وقفة لعابر مثلي في حياتك؟ أملٌ لحرفي أن يمرَّ في ضوء عينيكِ بعض الدقائق، لكنّ دقائقكِ، يدور عقربُها بتوقيت حرفٍ ثانٍ، ومتى يُحتفل بقادم من وراء الغيب. خيرٌ له، أن يلملمَ حزنه الصغير، وحروفه المنتظرات، هذا وقتٌ لا يملكه الحرف، فليرحل بسلام..

يا سيدتي الفاضلة

يا سيدتي الفاضلة، قال لي: لا توجد امرأة عاقلة، تبحث عن قدر مشترك مع غريبٍ من أرض الشام، فجرحه كالسحب، وقلبه كوجه أمه، غضّنه التعب. لا يملك وردة يهديها إليكِ، وليس لديه غد يليق بمقلتيكِ. هو يبحث عن هروبٍ آمنٍ، يسعفه بمقبرةٍ تليق بما بقي من حنينه، فاتركي الغريب لحزنه، فكل ما يستطيعه الآنَ، بعض التنفس والكتابة، والكآبة، وابتسامة يتيمة تذكره بنفسه التي كانت، لكنني سأغفو، لأقترب منكِ في حلم ما، أيتها النجمة البعيدة. 17 يوليو 2015.

---

(1) البردي: نبات، يستخدم ورقه للكتابة، وهو هنا كناية عن أي وسيلة نكتب عليها، ورقة أو شاشة.

يتيم في مراجيح الغناء

يا وجهك..
كمجرة قد لفها نهرا ظلام..
هو شعرك الممدود والوجه ابتسام..
هذي عيون أم سرير من ضياء؟
لولاهما ما عادني دفء العزاء
لَكأنني طفلٌ يتيمٌ في مراجيح الغناء..
يأوي إلى اللحن الحنون، إلى السماء..
وينام منسياً على وهج النداء
هذي عيونك، إي عيونك، لا سماء
لا تغمضيها كي يظل الضوء مشدوه البهاء..
وأظل مأخوذاً إليك مثل معنى
أطوي قفار الحرف طيّاً ثم أفنى

الفصل الرابع

شواطئ في الأدب والكتابة والكتب

على شاطئ الأدب

بريد الجمال

نحيا بالشعر ولحنه خاصة، وبالأدب عامة، لأن فينا فطرة تجد حياتها في معانيه فهو ترجمانها العتيد، وهو بريد الجمال، ومصقلة الروح وسلوانها كلما ران عليها كسب الحياة، كأن فيه يد أمٍّ تمسح على جراحك، وتقيم لك عزاء لكل ما يؤلمك أو تخسره، إنه يذكرك بإنسانيتك، بمجدك الغيبي الأول فيُنهِض حنينك إلى حقيقتك الخالدة.

الشعر الكبير معراج إلى الكمال، إلى نفسك البعيدة، إلى كل بسمة أو دمعة أو عصفور أو شجيرة، إلى كل معنى سحيق تخبئه ريشة طائر أو دوخة حائر، أو بريق عينين شاسعتين بلا انتهاء من أمر النخل أو الياسمين.

تذكر نشوتك وأنت تقرأ قصيدة صادقة، واحتشاد المشاعر الضوئية التي تحار في تصريفها، فكأنك روح طائر بلا جسد، تذكر كم تتشظى نفسك جمالاً واكتمالاً إن مسَّها معنىً أمعن في طغيانه إن صار مغنى. فلعل من جمالية الفن والأدب أن يتجاوز قيود الواقع ويصور أحلام النفس ورغباتها الممنوعة على الورق، إنه ربيب الأماني المتعذرة.

ولا يمكن أن تذكر الشعر والشاعر الحق إلا ونفسك مكتظة بالعطر هائمة بالجمال، والجمال - أيها الإنسان - جوامع كل شيء، فالحق جميل، والعدل جميل، والخير جميل، والصبر جميل، والنصر جميل، وقطع دابر الظالمين جميل، فكيف لشاعر صادق أن يعيش بغير هذه الحقيقة؟ ما أكذبه! إنه الفرق الشاسع بين الوهم والحقيقة، بين موسى وفرعون، فشتان ما بين آلة

تنتج الغذاء المصنع بدقة بأغلفة براقة، وبين أرض رابية أنبتَتْهُ حق نباته بأشهى ثمره وأوراقه. وشتان ما بين مول ضخم كثيف الأضواء واللافتات والألوان الصارخة، لا رائحة له أو طعم، وسوق شعبي صغير يعبق فيه مجد الزمان، وتنهض به الذاكرة والجدران العتيقة، تغشاه رائحة الثمرات الحقيقية، ووجوه الناس الطيبين المتعارفين. 14 يوليو 2019.

لا تمرض!

كانت إحدى القارئات (المثقفات) ممن درسن العلم الشرعي، تقطع حبلَ وريدي جدالاً وسجالاً عاماً أو خاصاً كلما قرأتْ نصاً حزيناً، أو يصور جانباً من بؤس هؤلاء البشر أو شرهم؛ بأن ذلك لا يجوز، أو يشيع السلبية بين الناس، وكأن لسان حالها (لا تحزن)! لعائض القرني، وأخواتها المكدسة على ألسنة الوعاظ، الذين يرشقون الناس بهن رشقاً بلا عقل موضوعي يحلل مصائب هذا المجتمع البشري.

أو ابحث عن (المارد) الذي في داخلك لإبراهيم الفقي، وعييت أن أبيّن لها حقيقة هذه الكتابة وأدبها، بأن صدقه هو تاجه، فهو ليس نهجاً تربوياً مدرسياً منظماً، وليس كورساً في التنمية البشرية، أو خطبة وعظٍ على منبر، وليس حزمة أخلاقية موجهة، وليس دليلاً إحصائياً نستنبط منه قاعدة ما، أو قانوناً علمياً، وقد يضم كل ذلك متفرقاً لكن من غير مباشرةٍ.

الأدب هو الحياة، لكن العقل المصوغ وفق التدين السائد أو التنمية البشرية السطحية، لديه مثالية طفولية فجة، تقعده عن فهم جمال الأدب وحكمته، بكل حزنه وآلامه، وأن الكتابة - الذاتية خاصة - بنت الحزن والألم والاحتياج أكثر منها بنت الفرح والاكتفاء.

وأن فيها، بكل ما فيها، مدارجَ شفيفة لفهم النفس البشرية وتجربتها الشاقة وهي تكابد مصائب هذه الحياة.

فليقرّ بعض الناس بأن ليس لهم في هذه النصوص حظّ يناسب ذائقتهم، وليكتفوا بـ: لا تحزن، ولا تغضب، ولا تيأس، ولا تنعس، ولا تمرض، وما إلى ذلك من أفعال تقريرية مباشرة، تختزل القصة كلها، (واضحك احنا ف رحلة). وسنقول للمريض المصاب بالسرطان: أنت بخير، ما هو إلا زكام عابر وستتعافى، حتى لا يقولوا لنا - إن قلنا له حقيقة مرضه - أحسنوا ظنكم بالله!.

الحرف الفرِح مترف جداً

لا أكتب حزناً أو عن الحزن لأنني مغرم به أو مدمن عليه، ولكن للأمر جذور فلسفية أعمق، فالحزن أكثر إنضاجاً للنفس، وأكثر إشعاراً لها، ويقرب فيه الإنسان من الحقيقة والمعنى، لأنه إذ يحزن يتفكر كثيراً، ويمعن جيداً في حقائق الأشياء، فيعيها. وفي الطب، الألم خير رسول للحفاظ على الصحة، وما تفتك السرطانات إلا لأن أغلبها يعمل صامتاً، ويوم يسفر عن شرِّه يكون قد ضرب ضربته القاصمة.

يسيء الناس وظيفة الأدب هنا، يظنون أن تصوير الحزن والدموع والألم تثبيط للهمم، وما الأمر كذلك. إن تجربة الأحياء تخبرك وتنبئك أن التجربة بالألم خير طريق إلى النجاح، بل إن القرآن يمعن في التأمل والتفكر في كل شيء اكتنفه الفشل والألم والحزن ليعلمك كيف ترى العواقب فتتقي شرها، لا بد للأدب أن يصور كل شيء، الحزن والفرح، الخير والشر، والظلم والعدل. إنه ملتزم بالإنسان، بكل ما فيه، ماذا لو صمت نزار بعد موت بلقيس؟ أو صمت السياب في مرضه وغربته أو وحدته؟ ماذا لو صمت الأديب المسجون في زنزانته؟.

عندما يلوكك الحزن ويعصر قلبك، لا يمكن لنزيفك إلا أن يسيل عبر القلم. ذلك ما يهم الأدب في تلك اللحظة، ولا يعنيه أن يزيف اللحظة القائمة، لكي لا تعكر صفو رخام العابرين. عندما أقرأ قصيدة (بلقيس) لنزار، أو (سفر أيوب) للسّياب، أشعر بمهابة تلك النفس الإنسانية المبدعة التي حولت تلك المشاعر النازفة اللامرئية إلى كلمات يفيض لها القلب خشوعاً وإجلالاً، ولكنّ الرخام العابر في بعض النفوس، التي لا تتذوق جمال الشعر متذرعة بحزنه أو كآبته، يطيب له (للرخام) أن يرجم ذلك الشعر، ويعقد لذلك محاضرة منطقية فكرية عن الأمل والفرح وأهمية الضحك!. هيهات، هذا مكان ليس مكانك يا هذا، يعزُّ على نفسك أن تتذوقه. إن روعة الأدب عندما يعكس حقيقة ما نشعر به، وليس تكلفاً نقوم به حسب الطلب، تفقد الأشياء قيمتها عندما تصبح مهنة لا رسالة.

[لم تأتِ، قلتُ: ولن. إذن سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي وغيابها]. وما أجمل ذلك المساء الحزين، وما أجمل تلك الخيبة، وما أجمل ذلك الغياب، إذا كان سيجعل من قلم درويش يبدع هذه السبيكة المرصعة بالحزن الجميل كالغروب، ليذكرك بأصلك العلوي.

تأمل روايات العظماء وأشعار الشعراء، ستجد أنهم مدينون للحزن، لذلك قلت: يوم تحزن فأنت على مشارف البلوغ! الفرحون دوماً، ساذجون لأنهم لا يرون حجم الدموع والألم الذي طمس على قلب هذه الأرض المنكوبة. إنه الحزن الذي يشعرني بروح الحقائق، يسافر بي إلى أعماق الأشياء، وأولها نفسي، وأظن أن الحزن هو الشكل المنطقي في هذا العالم البائس، فإن فرحت كان السؤال العتيد، لماذا؟!. 28مايو/ 2016.

شراكة مشروعة

الأدب حياة، يصورها في النفس الإنسانية الطافحة بالمشاعر والمعاني بكل تناقضاتها. والشعور الإنساني تجربة داخلية متفردة، تظهر بوسائل شتى أشيعها الكتابة. فما أجمل أن ينجح الكاتب أن يفجرَ خيال القارئ، وينزع فتيل الملل من قلبه، ويقنعه بمتابعة السير في فيحاء صفحاته حتى يصل منتهاها، ويحلّق بعيداً عن هذا العالم، ثم يعود إليه بقلب آخر فتيّ، هذه مهمة ليست سهلة.

فقلب القارئ يحتاج إلى قلم الأديب أو الفنان، وكل أداة تصور فناً هي قلم، فالقلم قلم ويد وريشة وآلة وشاشة وكاميرا، وقد يكون جسداً كاملاً. والأدب الأنيق هو الذي يثير المشاعر رغماً عنها ويجعل المرء من تلقاء نفسه يصيح: الله! وإذا لم أنقلكِ إلى الجو نفسه الذي عشتُهُ عند كتابتي وأخلق فيكِ المشاعر ذاتها، فلا كانت كتابتي. لأن الحرف حين يصدق، جزء من قائله، كنبضه، كبريق عينيه، إننا نشم جمال النفوس في حدائق الأوراق، وإذا قلت أن حرفك جميل جميل، فاعلم أنه صورةٌ عن حقيقة أجمل في داخلك، فما أكذب الأدباء حين يتبرؤون من حروفهم!.

وكل الناس أدباء فطرةً، لأن الأدب من أمر الروح، ولا إنسان بلا روح، لكن، ليس كل الناس بقادرين على أن يجعلوا من أمر أرواحهم خلقاً، حقاً، تمتلئ به الأبصار والسمع والأفئدة على هيئة قصيدة أو رواية أو لحن أو رسم أو نحت أو رقص.. إلخ.

وكل الناس نقّاد فطرةً لأن أصل النقد حكم ذوقي، وهو حقٌّ لكلِّ إنسان ما دام له روح تتذوق الجمال وتحتاج إليه أو تشتاق، وتسعد به أو تسمو، ولا يلغي هذا أن يكون النقد عملاً فكرياً أكاديمياً يقوم على أصول

معينة يحترفها كل دارس، لكنه يؤكد أنه لن يكون باسقاً صادقاً بلا ملكة عميقة تؤهل الدارس أن يوظف ما يدرس جيداً دون أن تتشوه فطرته. فقد رأيت نقاداً الْتَوَت فطرتهم لما درسوا! ولم يعد يطربهم شيء، وهذا هو بؤس المعرفة، فهي خطرة إن شوهت بساطة الملكات فلم تصقلها، لتصبح كبئر معطلة وقصير مشيد، أي علم غزير مهيب يعجبك رسمه لكنه بلا روح أو حياة (بئر معطلة). 15 مارس 2018.

رحم مقطوعة

كنت أرى أن الشعر المعاصر ترفّع على قلوب الناس وهمومهم وأشواقهم، وأصبح ككثير من الأشياء التي احتازها ناس دون ناس، وما هكذا وظيفة الأدب!.

إن كان العلم دقيقاً، فالفن - ومنه الأدب - صادق كما يقول علي بيجوفتش، أي هو انعكاس لما في حياة الناس من كل شيء حزين أو سعيد، حقير أوكبير، دميم أو جميل، لكنه انعكاس يعلو ويسفل بقدر إبداع صاحبه وموهبته. وأظن أن تأثير الحداثة الغربية في الأدب هو السبب الفذ الذي التوت به نفوس الكثير من أهل الأدب.

إن العالم الغربي مارد جبّار، إن نصره الحضاري ونهضته الفلسفية والعلمية والصناعية طوت عوالم كثيرة في تلافيفها، وطبعت الأذواق الذاتية والجمالية للأمم بطابعها، وحددت سلفاً آفاق نظرها وذوقها، وبحثها مذاهبها، وهذا تفسير على عجل لتطابق المذاهب الأدبية والفكرية عندنا وعندهم.

وقد يقول قائل: إن الإنسان واحد، ولا بد من هذه المشتركات، وأقول: نعم، ولكن الذي حصل لم يكن كذلك، بل هو تبعية صارخة، ينكرها كثير

من المهتمين بهذا الشأن، لأن الأمر يتعلق بنظرة حياة، وموقف من الوجود كله والتراث والحداثة والنهضة والتغيير، أي إن الأدب ليس معزولاً عن كل ذلك، والحداثة الأوربية لم تكن حداثة أدبية فقط، بل صيرورة تاريخية التهمت كل آفاق الحياة، وصنعت إنساناً جديداً، وعلوماً ومفاهيم جديدة، وليس الأدب بمنأى عنها، بل لعله مطية ورئة تنفست به كل تلك المذاهب الفلسفية التي أنتجت حياة مختلفة فيما بعد.

فوجودية سارتر كما يقول الأستاذ خالد يوسف في كتابه: من الأدب الفلسفي، ظهرت للناس بواسطة روايته ومسرحه أكثر بكثير من كتابه الفلسفي المحض: الوجود والعدم.

إذن إن أدبنا في تبعيته تلك، تنكّر لمجتمعاته، ولا أحبُّ المبالغة هنا أو وصم المرحلة كلها بهذه السمة، لكننا لن نختلف أن الشعر خاصة، طار وطار في فضاءات غريبة ولم يعد يتبيّنه مبتغوه، أصبح عزيزاً على كثير من القلوب، الظمأى لرشفة سهلة عاجلة، وهذه الأرضية أعلاه هي التي تفسر لماذا يرى بعضهم أن نزار قباني وأحمد مطر، سطحيان مبتذلان!. هذان العملاقان اللذان حوّلا الشعر إلى رغيف خبز ساخن يلتهمه أي إنسان، بمواضيع حية قريبة سهلة تمس حياة الناس وأشواقهم وآلامهم، تتشربها القلوب بكل جمال وبساطة.

ماذا نريد أكثر من تأميم الجمال وتذوقه (أو شعبنته) كما عند نزار، أو تعرية الاستبداد وسكب نقده في قوالب خفيفة ذكية مبدعة مكبسلة كما عند مطر؟.

إن الأوربيين إبان نهضتهم، كانت إحدى وسائلهم هي (تبسيط العلوم)؛ لذلك لجؤوا إلى عمل الموسوعات، وتيسير المعارف لإكسابها إحساس جماهيري واسع للنهوض بالناس كافة؛ لذا ارتفع الوعي وأصبح العلم

ظاهرة ثقافية مجتمعية، رغم أن العلم أكثر تخصصية وتعقيداً. أما قومنا أو بعضهم، فحوّلوا الفن إلى حالة نخبوية ضيقة، تتنكر لكثير من الناس، وتنزوي في بلاط الخاصة، وما أدونيس ومن هم في ركبه عنكم ببعيد.

إن الحالة النزارية المطرية حالة ساحرة عندي، زادها سحراً أن تقتنصها الموسيقى والغناء، ليقدم القيصر العراقي العملاق كاظم الساهر، أروع نموذج ملهم، يمزج فخامة اللغة بفخامة اللحن، ليتحد الإنسان والآلة، ويقدما لنا تلك الأعمال الجمالية المبهرة التي تتكسر لها الروح تأثراً. لكاظم فضل كبير على اللغة الفصيحة والشعر لأنه عضد الظاهرة النزارية وجعلها أكثر قوة وانتشاراً، ولا شك أنه وجد في نزار ضالته للأسباب التي ذكرتها آنفاً.

إذا أردت أن تلتهم فكرتك قلوب الملايين، فما عليك إلا أن تستعين بالأدب بكل فنونه، أن تحوله شكلاً مرئياً أو مسموعاً، أن تزيد مساحة منافذه التي تخاطب حواس الإنسان. أن تنقله من تجريد اللغة إلى سطوة الصوت والصورة، فليس غريباً أن يكون أسلوب التصوير الفني هو الأسلوب القرآني العتيد الذي يخاطب هذا المخلوق الوفي جداً لحواسه. 27 أبريل 2016.

بؤس المعرفة الأدبي[1]

من الآثار الجانبية السلبية للثقافة أن تفسد الفطرة أو التلقائية أو بساطة التذوق، ليصبح الأمر متكلفاً زائفاً. الثقافة الحقة أن تسمو بالذوق، فتكبر الحاسة الفتية بها، وتتخلق المعدومة منها، فيزداد البصر حدةً، والسمع رهفاً،

(1) أميز هذا المفهوم عن مفهوم (بؤس المعرفة الاجتماعي)، عندما يمتد أثرها السلبي على تعاملك مع الناس، أي لها أثر اجتماعي، بينما ينعكس أثرها السلبي هنا على تذوقك لما تقرأ.

ويسنى العقل، ويلطف القلب، إنها اكتمال النفس بما يزيدها لا بما يشوهها، وكم من غذاء كان مرضاً!.

ترى أحدهم يتذوق الشعر فيحسن ذلك فطرةً فإن بلي بمعرفة علم العروض، ذهل عن المعنى وتقهقر جماله في قلبه، وأصبح كله عيناً باحثة عن نوع البحر وأخطاء الوزن. قد يرى لوحة لا تخطئ جمالها فطرةٌ سوية، لكن إن زادت ثقافته المدرسية بمدارس الرسم، أصبح متكلفاً في حكمه على غير حقيقة، وإنما هو إغراء إظهار المعرفة!.

والأمثلة كثيرة، فهل نكفُّ عن التعلم والتثقف؟ لا أعني ذلك، وإنما ينبغي الحذر من هذا المزلق الذي يمرض الفطرة الجمالية ولا يسمو بها، فلا شِقوة للمعرفة كاستخدامها في تقويض الأشياء الجميلة أو السعيدة بتأويل فاسد، تأويلٍ ما كان سيخطر على بالك لو أنك جهلتَ ما تعلمتَه! وقد قيل[1]: [القارئ ينفعل وينغمس فيما يقرأ، والنّاقد يتأمّل، ويعلو على ما يقرأ؛ لذلك أظنّ أنّه يوجد في الجحيم وادٍ لـلنّقّاد وحدهم!]. 6 سبتمبر 2016.

الرجل الشّرير لا يمكن أن يكون شاعراً عظيماً

يشيع رأي أن الشعر ضعُف في صدر الإسلام، إشارة إلى أن الملكة الأدبية تضمر ما إن تلتزم النفس دينياً، ولعله ناتج عن الاحتفاء بالشعراء الذين أسلموا فقط، والمثل الفذّ هو حسان بن ثابت، وأثّر ذلك في نظرتهم إلى كل شيء، لقد ضعف في صدورهم لأن أولويات تلك المرحلة الجوهرية لم تبقَ لهم اهتمامات تخرج على أهدافها الكبيرة، وقد يكون الأدق أنه لم يضعف في صدورهم بل اتخذ شكلاً جديداً يتناسب مع أهداف تلك المرحلة،

(1) القول للناقد الأردني، نارت قاخون، من صفحته الرسمية على الفيس بوك.

ومهما كان ويكن فهم بشر، وليسوا حجة على الناس إلى يوم القيامة.

فالفنون عامة والآداب، ظواهر إنسانية، لا يمكن تجاهلها، وكل ما يريده الإسلام منها أن تكون عوناً على الخير والجمال لا على الطغيان والفساد، والاستشهاد بأواخر سورة الشعراء ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 26/ 224]، ليس دقيقاً بهذا المعنى؛ لأن (الاستثناء) في الآية نسخ القول بالغواية المطلقة للشعر، وليس الشعر ببدع من ذلك، إذ كل نشاط إنساني ينطبق عليه ذلك إن خلا من وجهة كريمة، وهذه قاعدة عامة تضطرد في كل الحياة، فلا يوجد خير محض ولا شرّ محض، فما أجمل علي بيجوفتش عندما نقل عن بوريس باسترناك، في كتابه: الإسلام بين الشرق والغرب: (إن الرجل الشرير لا يمكن أن يكون شاعراً عظيماً).

وليس الأدب العظيم بمنجى من هؤلاء الثعابين ما دام الدين فيه أحباراً ورهبان وشيوخاً تقطر أنيابها دماً باسم الله (وقلت أنيابها لا أنيابهم لأنهم غير عقلاء)، وكم ثار أدب وشعر على صاحبه لـمّا صار - حين البأس - من رهط فرعون وهامان لا موسى وهارون، وإنها لـرِدّة أسفل سافلية للإنسانية القويمة عندما ترى شاعراً تطمي طائفيته، وتعوم حروفه على بركة من الدماء، لا يدخر شعوراً وشعراً كي يشحذ النصول لإهراق مزيد منها.

إن الفن الآن بفروعه الكبيرة الكثيرة، أصبح وسيلة خطرة لنشر الأفكار وتغييرها وصناعة حياة الناس وتغييرها، بل ورسمها لعشرات من السنوات، ولا يزال بعض قومنا يرفعون راية التحريم والتكريه أمام هذه المجالات الخطرة، ويحرجون النفس التي رزقها الله هذه المواهب الثمينة، ولو كنا أكثر استواءً وفطرة، لكنّا أسبق من غيرنا إلى صناعة مؤسسة جبارة كهوليوود، لأنها وسيلة مرعبة تحوّل المجردات إلى مشاهدات تخاطب السمع والبصر فتدخل على الإنسان من أعتى منافذه القوية، أي إنها أعتى الوسائل

لصناعة الوعي، وهل يوم القيامة إلا تأويل لكل الغيبيات وقيام العالم الشهودي الذي ينذرنا الله به في الدنيا، فالفن والأخلاق والدين من مشكاة واحدة، كما يرى بيجوفتش، لأنهن من فيض الروح، نفخة الغيب الهائلة التي جعلت هذا الإنسان مخلوقاً آخر، ولن أكترث لقول قائل يريد أن يلغي الحديقة الغنّاء لأن بعض الأشواك ستنبت فيها.

هذا الفكر يصنع إنسان الهامش كما أسميه، أي من يعيش على هامش حياة يصنعها الآخرون المقدامون، فهذا شأننا الآن مع الغرب، نحن أمة الهامش، لأن هذه الأفكار الصغيرة تتجمع في الأفراد فتخلق مجتمعات لا تقوى على صناعة شيء، وهذا جزء بسيط يفسر عقمنا الإبداعي على المستوى العالمي؛ لأننا مرتبكون بين آراء دينية تشلنا ومواهبنا، لكن فطرة الإنسان منتصرة لا محالة لكن الذين وفوا لها لم ينجوا من سياط التفسيق والذم؛ لأن الذي يقرأ (النص الأدبي) بمنطق الوعظ أو الفتوى ويتخيله إنساناً يطلبها، أو يجوز ولا يجوز، افعل ولا تفعل، إنما يستخدم آلةً لغير وظيفتها، فهذا عسر في الأدب الذي يقوم على الخيال والرمزية، وحتى إن وجد فيه ما يخرج عن مسطرة الفقيه، فيجب أن يلتمس له مسوغاته في سياقه، فللأدب مرونة كبيرة هنا يجب أن تراعى، فلا تحاكم الأدب الذي براقه الخيال، بأسلوب حرفيّ يحبو على الأرض، فسرعة المعنى لا تطيقها قوانين عقلك، لأنها من كون آخر، إنه يريد منك أن تبحر على سفين خيالاتك وتلملم نجوم المعاني من سموات الألفاظ، فلا تسب رواد الفضاء، وأنت لا تحسن قيادة درّاجة!. 17 أبريل 2016.

العلماء أبناء عصرهم، لكن الشعراء هم أبناء كل العصور

يقول علي عزت بيجوفتش: «إن العلماء أبناء عصرهم، لكن الشعراء هم أبناء كل العصور»، لماذا نكتب الشعر أو نقرؤه؟ ما أهميته؟ وما مدى مساهمته

في التطور الحضاري؟ إذا كانت له أهمية فهل هي مجرد أهمية ابتدعها وجدان الإنسان لا علاقة لها بالبعد الحضاري؟.

قل أولاً: ما الإنسان؟ ما ماهيته؟ لأن مفهومك للإنسان سيحدد مفهومك للحضارة كلها ومحتوياتها، فما هي الحضارة؟

إن الإنسان مخلوق مركب: من نفخة (غيبية) من عالم الأمر هي الروح، ومن جسد مادي من عالم الخلق. ولكل جزء تجلياته الظاهرة، يتفاعل الإنسان مع الطبيعة تسخيراً فينتج العلوم، وإلهاماً فينتج الفنون، والفنون عنوان كبير لطائفة من الأنشطة الإنسانية كالأدب والشعر والرسم والغناء والموسيقى والرسم والنحت.

والفنون ذاتية أي تنطلق من عوالم الإنسان الداخلية، وتستلهم أشكال الطبيعة وألوانها لتظهر في شكل مادي ملموس، يعبر عن دواخل الإنسان، ومفاهيمه الغيبية العميقة كالحب والعدل والألم والحزن والجمال والرحمة.

فقد تصوغ حبك أو حزنك على شكل قصيدة أو لوحة أو معزوفة أو منحوتة، وهذا النشاط كله أحد تجليات الحضارة المثيرة الجميلة التي تميز الحضارات عن بعضها؛ لأن العلم متشابه بين الشعوب فموضوعه الطبيعة والطبيعة سننها واحدة، أما الفن فهو شخصي يختلف بين إنسان وآخر، أو حضارة وأخرى، وإن كنا نقر أن الأفكار هي أساس تطور الإنسان، فإن الفنون عامة، ومنها الشعر، من أخطر الوسائل التي تصوغ الأفكار وتغير بها الأنفس، فقد أفشل في إيصال فكرة ونشرها في حين تنجح لوحة أو قصيدة أو رواية، وتعساً لمجتمع فيه العساكر أكثر فاعليةً من المفكرين والأدباء، إن قوة الساعدين تحمي لا تقود، وتُؤمر لا تأمر.

والفنون كما يرى بيجوفتش تخرج مع الأخلاق والدين من مشكاة

واحدة، فهي ظاهرة غيبية لا تأتي من الطبيعة، بل منبعها فطرة الإنسان، وله قول بديع: إن العلماء أبناء عصرهم، لكن الشعراء هم أبناء كل العصور. لقد ذهب علم نيوتن في معظمه وأصبح ظاهرة تاريخية، ونقر له بفضله. أما شعر المتنبي فسيبقى أبد الدهر عملاً إنسانياً خالداً يعكس أشواق الروح ومعجزة هذا الإنسان الذي صوره إله عظيم، من لا يعرف قيمة الشعر وغيره فهو موبوء الذوق والفطرة. 22 يونيو 2016.

أدب الجسد

الأدب ربيب الفلسفة أو الفلسفة ربيبته، إذ قلما تجد فيلسوفاً ليس أديباً، وقد عثرت مرة على كتاب لافت اسمه: من الأدب الفلسفي، فاقتنيته وأمتعني.

ومن الملاحظ أيضاً ظاهرة الطبيب الأديب، إذ يكثر أن يكون الأطباءُ أدباءَ، وإن كان الطب هو حوار الإنسان مع الجسد البشري، فإن الأدب هو حواره مع الروح الإنسانية، ومن يجمعهما سيتعرف أكثر على حقيقة الإنسان الكاملة المركبة.

لكل نوع من الخلايا، أو الأعضاء، أدبه الخاص به، هي فلسفته التي يعيش بها، خلايا البشرة مثلاً Epithelial cells، تتلاصق تلاصقاً تاماً، وأي جفاءٍ أو فصلٍ بينها سيعني المرض، فلا ينبغي لها التراخي، ولا يمكن لها أن تعيش حياتها وتؤدي وظيفتها ما لم تتجاور بهذه الهيئة الصارمة. بين جدرها المتراصة كوى ونوافذ تتبادل بها المعلومات، تشبه البيوت الشعبية في الحارات القديمة التي تتقارب وتتقارب، وها هي ذي تفنى تحت مطرقة العمران الحديث ذي المسافات أو الجدر العالية، الذي باعد بين الأرواح مثلما باعد بين الأجساد، فإنسان اليوم حبيس منتوجاته، فما أشبهه بالخلايا المصورة للعظم، Osteoblasts، التي تفرز العظم حتى إذا كثُر حولها، سجَنها بين صفائحه

فأصبحت رهينته بعد أن كان رهينها! فسميت خلايا عظمية Osteocytes.

أما الخلايا العصبية Neurons، فلها شأن آخر لا تتجاور فيه بشدة كخلايا البشرة، لكنها ذات رحم قوية جداً بينها، إذ تتعالق في شبكات كثيفة رصينة لا تهدأ، تبرق كالبرق في السماء وهي تؤدي وظائفها وتقود هذا الكائن العجيب.

أما الخلايا المصورة لليف Fibroblast، فهي كالسفائن التي تسبح في بحر رقيق من الألياف اللطيفة التي تشبه شبكة العنكبوت، وتصلها بمحيطها، وكل خلية تغزل الألياف بدقة هندسية عجيبة تخطف القلب مثلما تخطفه حسناءُ من ذلك الجيل الذي كان يغزل ويتقن كثيراً من الأعمال اليدوية البديعة، فهي ما بين غَزْلها وغزَلها في شأن!.

إن الخلايا أكوان متوازية لا تنتهي، وكذلك الأعضاء والأجهزة، فالقلب يعمل بلا توقف، دقيق صارم، وليس له من الراحة إلا جزء يسير بين نبضاته، وإنه يرتاح ليستمر بالعمل، وفي الناس كذلك، آلات لا تهدأ، وبعضهم كالمعدة! هدوء وارتخاء، ولا تعمل إلا إن أوكل إليها عمل، لكنها والحق يقال إن عملت فهي تعمل بصمت وليس لها ضجة كالقلب، ولكن يحق للقلب أن يضج تلك الضجة لأنها أمارة حياته وصحته، ولا ينبغي له الصمت، ألن يتعلم بعض الناس أن الصمت ليس فضيلة دائماً، وقد يكون سرّ حياة ونجاة؟

ويحق للقلب أيضاً أن يكون في الصدر، في مكانٍ عليٍّ سنيّ أليس هو من يمنّ على كامل الجسم بالغذاء والرواء من كل شيء؟ لكن قوته ليست غاشمة، فهو يعي أن وجوده ليس له أي معنًى إن لم يقدر الدماغ قدره، فيصعد إليه بطعامه رغم كل المشقة التي تضاد الجاذبية، فبعض الناس تشد الرحال إليهم وتهبهم ما لديك رغم كل المشقة؛ لأن الذي لديهم هو الذي يقيم ما لديك.

بين حب وحب وأدب وأدب

منذ أن رأيت نقاشاً في غزل الأغاني الشعبية، الذي قد يبلغ مبلغاً صريحاً فجاً من ذكر مفاتن المحبوب ومقارفته الحسية، وأنا أتساءل في مستوى موازٍ مشابه: هل استطاع الشاعر العذري أن يكون في وصله كما كان في شعره، متقياً كلَّ ما يمازج مقتضيات الحس والحواس؟

لأن في ذلك نزعة مثالية تضاد طبيعة الإنسان لا يطيقها أي إنسان إلا بموانع داخلية وخارجية قوية، فكيف إن تمكن الحب منه على الحقيقة لا الادعاء، أما إن كان (دنجواناً) فهو خارج هذه الحسبة لأن الحديث ليس عن الغريزة الحيوانية العارية، بل عن الشهوة الإنسانية المعتدّ بها؛ لأن الشهوة أرقى من الغريزة، إذ يدخل فيها البعد المعرفي، فالغريزة أن تأكل لكن الشهوة أن تشتهي شيئاً محدداً بتفاصيل محددة، وشهوتك قد تختلف عن شهوة غيرك، لكنكما تتفقان بالغريزة، ويسوؤني جداً الحديث الوعظي الذي يخلط الحابل بالنابل، ويحض على ازدراء الشهوات، فيصنع إنساناً يكره نفسه، فكل ما يريده الدين هو الضبط وهذا سياق آخر.

فلنعد إلى بني عذرة، فلا أظن أن كل ما وصلنا، قد قال كل شيء لنا! وما نراه في الغزل الشعبي أو الشعري هو ظاهرة طبعيّة تمليها طبيعة الإنسان الذي سيدخل الجنة بجسده وروحه، ويُعذب بهما معاً أيضاً، أي هناك اعتراف كامل بشهواته المادية والمعنوية.

وقرأت مرة لكاتبةٍ ترى أن حب الرجل حب منقوص أو معاق؛ لأنه وفيٌّ جداً لحاجة جسده، ولا يرى الحب إلا من أفق الجسد الذي يعشق صاحبته، وددت أن أسألها: وما هي حقيقتك أنت؟ روح بلا جسد أو نوازع أو رغائب، هل تبحثين عن ملاك ذي أجنحة يقرأ على مسمعيك أشعار الغزل ويدوخ

في مرحك، وجمال خيالك، وقوة شوقك، وأحلامك، ومزاجك الوردي، وشكل ضحكتك التي في المنام؟ لاحظْ أنني أتعمد ذكر أمور معنوية، والحق إن هذا منطقاً ليس مثالياً بل طفولي، إنكِ لو نقص طولُ خط الكحل في رمشيك أو انحرف عن مساره لاعتذرتِ عن الحفلة التي أعددت لها أسابيعَ، ولو اختل توازن الأصباغ بين جهتي وجهكِ لنقمتِ على الحياة كما نقم المعري! وهذه كلها أشياء حسية، حتى إذا انحدر قلمك إلى حب الرجل (الغريزي) تجلّى عليك زهد المعلم الروحاني أوشو، وتألمت لانهزام الحب السامي في قلب الرجل.

إن منطق الرجل في حبه هو الأنضج والأصدق والأكثر عملية، لكن مشكلته الأزلية أن لديه طاقة استيعابية كبيرة تجعله يزيد خطوط الإنتاج العاطفي، وهذه ثلمة يجب أن نعترف بها بما أننا نتحرى الإنصاف ونرفض الاعتكاف.

والشاعر أو الأديب حين يكتب يغالب قوة جامحة لكي يضبط القلم الذي يترجم عن مشاعره الحقة إن كان عذرياً! ولن يكون أكثر قوة لو امتحنه واقعٌ بمن تضرم النيرانَ في نفسه، لولا أن يرى برهاناً يفر به مما يفر إليه! أما إن كان امْرأً قيسياً فما أسهل الحياة وأجملها! وأما إن كان رافعياً، فهذا لا يمكن تصديقه بسهولة، لأنه يتألم من حبك على الورق بكل فخامة وبلاغة، ويغص بدموعه عند كل علامة ترقيم، حتى إذا وضع قلمه، نام كما ينام فتية الكهف.

لغة الغزل جنين بيئتها

صور الغزل ولغته أو تعابيره - بنوعيه الشفيف أو العنيف - من المواضيع اللذيذة في سياق الغزل الشعبي المغنى أو الشعري الفصيح.

ومنذ فجر الفكر والفلسفة كان ثمة تساؤل وجدل عن أصل اللغة الإنسانية؛ كيف نشأت؟ هل هي تعليم إلهي مباشر بشكل ما؟ أي توقيفية ثم تطورت، أم هي صناعة بشرية من أسها؟ وقد شغلني هذا الموضوع فترةً، ويبدو من التجربة البشرية أن أسماء الأشياء المادية أكثر رسوخاً وسبقاً، ولها فضل على الأسماء المعنوية؛ أي إن الأسماء المعنوية تعلمت منها واستعارت، فالأسد ألهم الشجاعة، والبحر ألهم الكرم أو الخوف، والسماء ألهمت الرفعة أو الهيمنة، والغروب ألهم الرحيل أو السكينة، وهكذا، ففي كل اسم مادي أو مشهد، يجد الإنسان أسماءَ معناه الكثيرة، فالتحاور بين العالمين لا يتوقف، في الأدب خاصة.

وقد أطربني نزار جداً لما شبّه شفتيها المشتعلتين وهما شيء مادي بالفضيحة وهي معنوية! وهذا ملاحظ في عالم الطفولة بوضوح، فالطفل ألصق بالحسيات أول أمره، ثم يقترب شيئاً فشيئاً من عالم المعنويات والتجريد.

فإذا سلمنا بهذه الفكرة، يجب أن نسلم بفكرة أخرى تولد منها مباشرة، وهي: أن اللغة المادية (أسماء الذوات) مناطقية جداً، أي تتأثر بموجودات الطبيعة التي تجاور أهلها في بيئة معينة، بل إن نغمة الصوت لتتباين بين سكان السهل والجبل والصحراء والسواحل، تبايناً لافتاً، فكأن تلك التضاريس، مطارق ثقيلة من حديد، تطرق معدن الصوت الخام الملتهب، فتشكله بما يتكيف معها، فقد يتراخى ويطول أو يتقاصر ويتكثف، وقد يعلو أو يهمس، حسب ما يجده من فضاء أو يعترض سبيله من تضاريس، فتأمل كيف يعلو صوت أهل القرى من غير حاجة لأنهم اعتادوا التنادي من بعيد في بيئة فسيحة، كثيرة المسافة، قليلة البنيان والإنسان والأسرار، أما أهل المدن فأقرب إلى الهمس واللين، لضيق المسافات وكثرة الناس وتناكرهم، وكثرة احترازاتهم وانتقائية علاقاتهم، وتلاصق بيوتهم.

فالإنسان رهين بيئته وجيرانه، وما فيها من حيوان وجماد ونبات، فلا غرابة أن يشبّه العربي الأول عيني حبيبته بالغزال أو الطير، أو يرى فيها شموخ الحصان، فقتادة مثلاً، وطلحة وسَمُرة أسماء نبات أو أشجار في الصحراء، فحري بها أن تكون من أسماء البشر الذين يعيشون فيها. ولعل هذا هو الذي ألهم السياب أن يشبه عينيها بغابتي نخيل ساعة السحر، فهو ابن بيئة النخيل في بصرة العراق، وللسمر في الليالي المقمرات تحت النخيل عادات راسخة، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

وفي قصة علي بن الجهم مثال جيد نأخذه لصحته على ما نقول، حتى إن ضعّفها بعضهم، يوم مدح الخليفة بوفاء الكلب وبسالة التيس! فالرجل لم يألف إلاهما في بيئته، ويوم سكن على ضفاف دجلة، قال:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ولكنّ مهاته بقيت معه! وقد أتى بها من صحرائه.

فإذا انحدرنا إلى عالمنا اليوم، وجدنا الفتاة الخَفِرة في أغنية صباح فخري تقول: أول عشرة محبوبي.. هداني خاتم ألماس. وأنا قصدي ومطلوبي، وهذا اللايق بين الناس. ثم ينعطف الغناء إلى أن تشبه صدرها بدكان التاجر فتدعوه إليه، وهذا ليس غريباً على بيئة تجارية كحلب، فالغزل سيكون تجارياً أيضاً، أي يفيد من مصطحات التجارة، والهدايا ثمينة من رتبة خاتم ألماس، ولو كان الحبيب ابن بيئة زراعية رعوية فلن ترى منه أكثر من وردة برية عند الربيع، أو زجاجة عطر رخيصة، أما أحد المطربين الشعبيين الذي نشأ في مجتمع عسكري فيقول في مواله: عيوناً كالمدافع قوّصنّي! فحذار من هذا النوع من الحبيبات من نوع ميركافا أو إف16، وإلا فسوف يطولك فأل قارئة الفنجان: ياولدي قد مات شهيداً من مات من قصف المحبوب!.

العرش المادي للمعنى

لا أجد مثالاً بليغاً على علاقة المادة بالمعنى كالعصب الوجهي (Facial nerve) (العصب السابع)، الذي يعصّب عضلات الوجه فيهبها القدرة على الحركة لتعبر عن كل عواطف الإنسان وانفعالاته، وهو المسؤول عن إغلاق الجفنَين وفتحهما، وله وظيفة ثانية تعضد الأولى هي إنتاج الدمع، وثانية هي الشَّم لأنه مسؤول عن إفراز الغدد المخاطية الأنفية، الضروري لانحلال المادة العطرية وهي أولى مراحل الشَّم، وثالثة هي التَّذوق، لأنه مسؤول عن نقل حس التذوق من جزء كبير في اللسان إلى الدماغ، وعن إفراز اللعاب، واللعاب مهم لعملية التذوق لأنه يكوّن الوسطَ المائي الذي تتحلل فيه الأطعمة فتُتذوق، واللعاب مهم للكلام، فكم شربت ماءً حين يقل لعابك توتراً أمام حشد، وله دور مهم في السمع لأنه يعصب العضلة الركابية فيتحكم بشدة الأصوات واهتزازها .

إذن فعواطِفُك وانفعالاتك التي تنطق عنها بلسانك، وعضلات وجهك وجفنيك، التي قد تعززها بدمع عينيك، والتي قد تنشأ من حوار مع عطر أو رائحة زكية، أو لحن شجي، كل أولئك مدين للعصب الوجهي. تأمَّلْ عضلات الوجوه، كيف تنكمش وتنبسط بما يتوافق مع حزن أو فرح أو غضب ... إلخ، وكيف يتفاعل كل من المعنى والمادة ليخلقا تعابير الإنسان ومشاعره، وكيف يؤثر اللامادي في المادي، هذه هي علاقة الروح بالجسد، يضرب لنا مثَلَها عصبٌ واحدٌ، لولاه لما قيل شعر، ولا خُطَّ رسمٌ ولونٌ، فللعطر واللحن والوجه أدوار هائلة في الفنون كلها، ولولا العصب الوجهي لما كان ثمة أية (دراما للوجه الإنساني)، فهذا هو العرش المادي للمعنى!.

الخوف من النساء الجميلات بين مجنون ليلى وأبقراط أثينا

في كل محاضرة توجيهية تعريفية بالمادة التي أباشرها، أعلّم طلابي قاعدة معرفية أساسية: أن يراعوا المجال الذي يتحرك فيه المصطلح، أو المجال التداولي كما يسميه طه عبد الرحمن.

المجال قد يكون علماً محدداً، أو ثقافة أخرى مختلفة، لأن للألفاظ/ المصطلحات بيئة تنشأ فيها، ولا تنبت في الفراغ، فلا بدَّ من استجلاء ظلالها وجذورها بين الثقافات المتغايرة خاصة.

والأمر في العلم الطبيعي أكثر صرامة وسهولة، أقول لهم: خذوا مثلاً كلمة: process، هي في الفضاء العام عملية أو إجراء عملي ذو خطوات. أما في علم التشريح فهي بروز أو ارتفاع. كلمة Rest ، التي تعني راحة، تعني في علم البيولوجيا والأنسجة، بقايا خلوية مثلاً.

مرَّ بي منشور يطرح صاحبه سؤالاً عن هذا المصطلح (Cali-gyne-phobia) الذي يقول عنه: إنه لاتيني، ويعني بالحرف: الخوف من الجميلات! متسائلاً أن ليس له معادل في العربية، ويطرح سؤالاً (ثقافياً): لماذا تخاف أمة من الجميل، ولا تفكر أمة أخرى به، فلا يوجد له اسم أو سؤال في ثقافتها؟ وهو يقرُّ أنه قد يوجد (موضوعاً) في الثقافة العربية لكنه بلا عنوان؛ أي ليس له مصطلح يحصي معناه؛ لأن المصطلح إفصاح وفضح، وهذا ينافي شيمة الستر والإخفاء الأخلاقية في العقل العربي، أي هو يعالج الأمر من ناحية ثقافية أدبية، بينما المصطلح هو مصطلح طبي نفسي! ولا علاقة له بالمزاج الثقافي الشعري الشاعري الذي يسبق إلى الظن أول مرة!.

المصطلح إغريقي/ يوناني، يتألف من ثلاثة أجزاء: الأول جميل،

والثاني امرأة، والثالث فوبيا أو رهاب بالتعريب العربي؛ أي هو الرهاب من المرأة الجميلة، والرهاب (مصطلح طبي نفسي) يعني الخوف الشديد غير المنطقي من شيء ما، وهو أنواع كثيرة شائعة أو نادرة، كرهاب الأماكن الضيقة أو العالية، أو الطائرات، أو بعض أنواع الحيوانات أو الحشرات، أو الألوان، أو الوقوف أمام الجمهور، أو وجود شيء على الجهة اليمنى!.. إلخ.

وهناك الرهاب من النساء عامة Gynophobia - Fear ofwomen، والنساء الجميلات خاصة Caligynephobia، وهناك الرهاب من القبح Cacophobia - Fear of ugliness.

ويُعاني المُصاب برهاب النساء والنساء الجميلات، من ضيق في التنفس، وتعرق شديد، وغثيان، وتسرع في ضربات القلب، ما إن يرى امرأة جميلة ولو عن بُعد، وقد يُصاب بنوبات هلع panic attack، وقد يكون الكاليجاينو فوبيا مظهراً من مظاهر العصاب المعروف بالاضطراب القلق الاجتماعي/ Social anxiety disorder .

وهذا الخوف المفرط غير المعقول من النساء، والقلق الفوري منهن، يجعل الرجل يتجنبهن ويؤثر على حياته كلها وعمله.

إن معظم المصطلحات الطبية اليوم تعود في أصولها إلى اللاتينية أو الإغريقية، وليس هذا المصطلح بدعاً من غيره، فالقوم هم أرباب هذه الحضارة الشاهدة، وجذور تراثهم اللغوي الإغريقي أو الروماني حاضر بقوة في علومهم، والنسبة العظمى من مصطلحاتنا الطبية وغير الطبية اليوم منهم، بل نحن ندرس بلغتهم.

فلا يعقل أن يقال: إن الفيروس مفكر به في الحضارة الغربية لأن له

مصطلحاً، وليس مفكراً به في العربية؛ لأن ليس له مصطلح، إن الفيروس لا يميز بين أوربي أو عربي، فهو يصيب الاثنين، لكنه سُمي فيروساً، واستخدمناه، لأننا لسنا من اكتشفناه! والذي يقره علم الوبائيات Epideminology هو كم نسبة هذا المرض بين مجتمع ومجتمع، وكم هي الحالات الجديدة كل عام؛ أي ما يسمى الحدوث والانتشار Incidence and Prevalence، فقد تكون مرتفعة ارتفاعاً لافتاً ذا دلالة إحصائية في مجتمع، ولا تكون كذلك في مجتمع آخر، وعلى العلم أن يفسر هذه الاختلافات تبعاً للوراثة والجغرافية وعادات الطعام والثقافة.. إلخ. فالتفسير العام اليوم لكل ذلك هو أننا غائبون عن الحضارة.

أما الخوف مجازاً من الجميلات في المجال التداولي الأدبي والشعري العربي، كحالة ثقافية نفسية سوية، يقتضيها الحب، فويح نفسي ومن أنادي، فنحن أبطالها ولا فخر! إن الأمر لدينا يعظُم ليتجاوز الخوفَ إلى قضية حياةٍ ووجودٍ وشبه عبادة! ولا أظن أمة تسبقنا في ذلك، إن الشاعر الجاهلي وأخلافه قد يبدأ شتيمته أو فخره أو حربه بوقفة على أطلال الحبيبة، يشيعها بدمعة أو دمعتين، وزفرة أو زفرتين، ثم ينقض كالصقر على فريسته مدحاً أو ذمّاً، أو رثاءً أو فخراً.

إن ذلك شيء يشبه البسملة! هل في تراث الآخرين، مصطلحات كجميل بثينة، وكُثيّر عزّة، وقيس ليلى أو مجنونها.. إلخ.

إن التحذير الخطر؛ سيدتي الجميلة: أنه إن رأيت (رجلاً) يسيل عرقاً، ويهيم غرقاً، ويهدر قلبه، ويضيع لسانه، ويفرّ منك فراراً، فلا تفرحي؛ هو لا يحبك، ولكن يفزِعه جمالك - لأنه معاقٌ نفسياً - وهذا كل ما في الأمر.

وهذه فرصة لأردَّ الاعتداد وأنتقم من محمود درويش !.

دراويش ليسوا كدرويش

كان محمود درويش شاعراً، والشاعر ألصق الناس بحقيقة الإنسان؛ لأنه يحسن فهم نفسه والتعبير عنها، وفهم النفس لن ينفصل عن فهم الحياة والأحياء. وكلما مضت السنون، يعمق الشعور بحقيقة الحياة، وتتهذب المعرفة، وتصبح اللغة أكثر اختصاراً وتركيزاً، وأقل مباشرة، كأنها كالحياة لا تسخو بحقائقها لكل ناظر ما لم يتأمل ويهدأ.

أما بعض شعراء اليوم من الشباب فهو لا يحسن إلا تقليد بلاط درويش الصوتي يوم يهدر بشعره من علوٍّ ما، يلتوي شاعرنا الشاب ويلتوي، ويتقعر ويتقعر، ظاناً أن حكمة المعنى وفلسفته العميقة هي هذه الصنعة اللغوية الساذجة، التي لو كانت طعاماً لما كان لها لون أو طعم أو رائحة.

قد يصعب علينا فهم درويش أحياناً، أو أحايين، لكن تجربته الشعرية في منتهاها تشبهه، تشبه خبرته في حياة طويلة كبيرة، إنه لا يتكلف شيئاً يعيشه.

لكنّ مريديه الشعراء، ليس لهم من حياتهم هذا الاتساع والتأمل، يحسبون الشعر أن تُكدَّس التعابير الغريبة، والصور العقيمة، متضخمين ببعض الإعلام التافه، يقدمهم على مائدة الشعر وباسمه، ويرقق لهم الصوت ويشفعه بالصدى لعله يلامس قلباً، وللسخف عالمه العجيب.

21 أغسطس 2016

إن كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء؟

عناقك لكاتب ليس عملية سطحية أو تأتي هكذا، نوعاً من الاستعراض أو الادّعاء. أنت لا تدوخ بالحرف إلا إذا مسَّ عمق العمق

بأعماقك. لم أعرف السياب جيداً إلا في الدراسة الجامعية، ولما عرفته، وجدتُ إنساناً أُشبهه أو يشبهني، ويشبه كل فتى ريفي، اضطر أن يترك قريته ثم بلدته ثم مدينته إلى العاصمة الضخمة البعيدة، فيظل يدوخ ويدوخ بين مقارنات لا تنتهي، بين الريف والمدينة، بين الإنسان الريفي والمدني، بين البساطة والتعقيد، بين النقاء والعناء، بين اللقاء والوداع، بين الطين والإسمنت، بين المراعي والمصانع والأبنية الضخام، بين حبّ قروي بسيط، وحبّ متمدن مطهّم.

تقاطعات كثيرة تتخلق فيها نفس الطالب الريفي وهو ينتزع قلبه وأقدامه بين الكراجات والدروب الترابية أو الإسفلتية، كل هذه التفاصيل الصغيرة والكبيرة، تجدها في شعر السياب، ولا أظنها تمسُّ أحداً كما تمسنا، نحن - أبناءَ الريف المهاجرين -. كنت أفهم السياب جداً، أشعر به، أرحل بالجملة من شعره بعيداً، مع أنها تبدو عادية جداً، لكنها ليست كذلك، لأنه إذ يكتبها، يكتبني. إنها لم تعد جملة يمرُّ بها العابرون بلا اكتراث، إنها - عندي - قطعة من حياة، حياتي التي أعيشها، مسافراً دوماً، مثل طير هدَّه السفرُ..

رَحل النهار، ورحلت أيها السياب، والعابرون إلى القرارة مثل أغنية حزينة، وعراقك لا يزال ينزف مثل سيزيف، والصخر يا سيزيف ما أثقله!. ولا يزال المطر، يأتي محملاً بسحب الحزن الثقال، لكنها لم تعلم بعد، فلا هي ولا العراق. ها قد أتى المساء، والليل أطبقَ، فلتشعا في دجاه فلا آتيـــه.

[لأني غريبْ، لأن العراق الحبيبْ، بعيدٌ، وأني هنا في اشتياقْ. إليهِ، إليها، أنادي: عراقْ]. كانون الأول 2014

***

لم تكن شاعراً فقط، ولم تكن قصائدك قصائد، كانت هي الحياة أراها من حروف وورق. وكان تشابه الحقول والغروب والسماء وطيور القطا والرحلة، كان يجعلني أراك بقلبي وأرى نفسي بحروفك كأنها نفسك.

الريف البسيط، والسوق القديم، وغمغمات العابرين، وحزن الطفل الصغير، وصخب المدينة، واللحن الحزين والأسطوانة، والحنين إلى الحقول والحب البسيط. كنت أكبر وأكثر من شاعرٍ يخط أحزانه ويمشي.

كان تشابه الشوق عجيباً، وحملتك ديوان شعرٍ أحمر، مصفرةٌ أوراقهُ، يختزل قصة غريب قادم من القرى المتهيبات، فابتلعته المدن الغريبة وظل يحلم بالرجوع، وظل دوران الأسطوانة يعزف موسيقى الحزن والحنين على أوتار قلبه، حاملاً له وجه أمه في الظلام، وصوتها يتزلقان مع الرؤى حتى ينام، أفليس ذاك سوى هباء؟ حلم ودورة أسطوانة! إن كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء؟

لكن أتعلم أيها السياب؟ الآن، والآن فقط، بلغ عراقك مني ما بلغ من نفسك، يوم أصبحت سوريتي جريحة مثل عراقك. ضاعت الأوطان أيها السياب، ولم يبقَ إلا الشعر والذكريات والأسطوانة، [لتبكينّ على العراق، فما لديك سوى الدموع، وسوى انتظارك ، دون جدوى، للرياح وللقلوع].

16 مارس 2014.

عينا حبيبة السياب

غابة نخيل شاهقة الأشجار، يكفكف شاهقَ جبروتها الظلامُ، فتصبح منجمَ معانٍ عتيقاً، تنثال في قلب الناظر غموضاً، ورهبةً، وسكوناً، وحزناً، وأسراراً كثيرة كثيرة. هل رأيت غابة تسبح أشجارها في الظلام؟ بماذا ملأت نفسك؟

كل هـذا أو بعـض منـه، كان شـلالَ معـانٍ فاضـت بها عينـا حبيبـة السـياب، فخرّ شـاعراً في محـراب عينيهـا، وفطـر تشـبيهاً مـا سـبقه أحـد إليـه مـن الشـعراء الأولـين أو المتأخريـن: عينـاك غابتـا نخيـل سـاعة السـحر!.

لقد كانـت بدعـاً مـن الشـعر حقـاً، وتشـبيهاً عجيبـاً، يتكاثـف بـه ضـوء المعنـى، كانـوا يشـبهون العيـون بعيـون الغـزال أو مـا يدانيـه، لكنـه كان تشـبيهاً ذا بُعـد واحـد، يتوهـج لحظـة في القلـب ثـم يخبـو، أمـا السـياب، فقـد جعلنـا نـدوخ في عينـي حبيبتـه الفضـاء، كأنهـما مدينتـا أحـلام عامرتـان بالحيـاة، أو سـفينتان مـن أمـر تيتانـك، مخرتـا عبـاب قلـب السـياب وقلوبنـا معـه، وذاب جليـد قلبـه وقلوبنـا تحطّـماً، فغرقنـا في السـفائن ولم تغـرق فينـا. وهنـاك عيـون كالقصيـدة، سـيابية مجروحـة، تـأوي إليهـا الدمـوع عـلى جنـاح الصمـت البعيـد. 10 يوليـو 2016.

أتعلمين أيُّ حزنٍ يبعث المطر؟

أتعلمين أيُّ حزنٍ يبعث المطر؟ وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

يحـار القلـب عندمـا يتفكـر في هـذه الجملـة التـي لا تشـبه إلا المطـر، بعمقهـا، ببسـاطتها، بخفتهـا، بتركيبتهـا، واختـلاف ألوانهـا، وأطيـاف معانيهـا، بقدرتهـا على التقـاط القلـوب المبعثـرة عـلى صفحـات البعـد والاغـتراب والحنـين والوحـدة.

إني أتخيلـك - وأنـا الوحيـد الغريـب الآن في جـو ماطـر - أيهـا السـياب كيـف كتبتهـا، أشـعر بـك، ويلبسـني شـعور مركـب مـن إعجـاب وحـزن ودهشـة، كيـف اسـتطعت أن تصـور علاقـة النفـس بالمطـر بجملتـين؟

تخاطـب فيهـا أعـزَّ إنسـان يظمـأ إليـه رجـل، إنـك لا تخاطـب إلا إياهـا، ويكأنـك شـعرت أنهـا الأقـرب إلـى معانـي قلبـك المغـترب الوحيـد، كيـف.. كيـف يبـددك الضيـاع فـي المطـر الـذي تفـرح بـه القلـوب مـع الأرض؟.

ويوم استدارت بي ذاكرتي الشتائية ورأيت كيف كانت تقترب القلوب والأجساد في الشتاء، تتجمع حول المدفأة، وكيف يطوقها رداء اللقاء والأُنس والحكايا المثقلة بالمعاني، يوم استدارت بي وعرضَتْ لي كل ذلك، علمت كيف يكون المطر المحمل بتلك الحياة الماضية، أكبر ضياع لقلب انتزعته الأقدار من حضن أهله ووطنه.

إن المطر حينها ليس ظاهرة طبعيّة، إنه كائن حي يشاركنا حياتنا، ويحمل في كل قطرة منه تفاصيل صغيرة، قد تكون قصة جدة، أو لقاء جار، أو لمة إخوة، أو حنان أم. لكنك لا تخاطب إلا إياها من دون العالمين، تراك تبحث عن عزاء، لن يسعفك به إلاها؟ تريد أن تسترد بتناجيها بعض الذي ذهب منك، لكنه عاد مطراً موجعاً؟

وكأنك يوم تقول: أتعلميــــن، وأتخيلك تطيل صوت الياء، كأنك تقول لن تعلمي! لن تدركي أيّ حزن يبعث المطر!. لن تسعفنا اللغة أن ننقل الحياة التي عشناها بكل حواسنا وشعورنا، فكيف ستعلمين أي حزن يبعث المطر؟. 25 نوفمبر 2015.

ألا يا بائع الزهر، أعندك زهرة حية؟

قالها السياب والمرض الرجيم يفترسه إلى مثواه المحتوم، وقد طوّقته في مشفاه طاقات الورد البلاستيكية، وردة مصنوعة بلا لون صادق أو رائحة زكية، كأنها جثة هامدة، أو غصن يابس جفَّ فيه رواء الحياة ولونها الأخضر فهي كامدة، أو كأنها وجهُ جميلةٍ حالت بينه وبين ناظريها طبقات راسخة من الأصباغ فلا ترى له بريقاً أو طريقاً، أو كأن عينيها يوم تتقنّع بعدسة ملونة صاخبة تراود الضوء عن نفسه فيكذبها ويعيدها للناظرين بغير لونها ووهجها الصادق.

وردة السياب هي حياتنا التي استدارت بها الآلات والشاشات، نعصر القلب فلا يقطر دماً، نقبض الأصابع فتتكسر كالعيدان الجافة من شخوصها ساعات على الأزرار العيية. وردة السياب هي غريبٌ محزون، مغرورقُ العيون، مُحْدودِبُ الروح والهموم، مترهلُ الجفون، خليجه فضاء شاسع ساطع من الشاشات الكبيرة والصغيرة، يرقبها على قلق، على ألم، على شوق، على آهٍ، على شفا دمعة، لعلها تسعفه بخبر أمين عن صدر أمه المطعون، الغارق بالدماء والدموع والأشلاء والأحجار.

وردة السياب هي هذا السجن الكبير بصحرائه القاهرة المتطاولة كهمّ سوري يمضغه موج المتوسط، يداه - كقلبه - مثقلتان بطفله، وعيناه مثل شفق الغروب محمرتان من الدمع والسهر والأمل، وقصر الأجل، في صدره طفل، وعلى ظهره جثة وطن.

صحراء كقلب اللئيم لا ترى فيها وجهاً تتقاسمه ابتسامة أو ضحكة كالضحى، أو نظرة كالليل إذا سجى، تحيط بك سرادقها الباردة، وكل كنزك أمل يتيم تمدّ به قلبك لعل حضناً ذا روح يمرّ من هنا فيتعثر بعطشك إلى الحنان والأمان، والضياء.

وردة السياب هي أنت، لا أحد سواك، هي أنت، بدمائك ودموعك وأشلائك وبهائك، يا كل دمع العالمين مُذ خرج من جنته إلى أن تصعقه نفخة صور، يا أم قلقي من أتفه شيءٍ في هذا الظلام العقيم، المتكوّر على قلبي كرحمِ أمٍّ لفظت أنفاسها. هي أنت أنتِ، يا كل طعنات القهر والاحتياج والخوف والجوع والضياع، مذ تكسر جسدك الرحيم، لم نعد نقلق فنحن القلق، لم نعد نخاف فنحن الخوف، لم نعد نبكي فنحن الدموع، وإننا ننزف بلا انتهاء فنحن الجروح. يسائلونني عن حزني، ومتى كان الحزن طارئاً بعد أن ترجّل قلبك عن عرش الفرح، وتشظّى ظهرك بكل حقد

العالمين وخذلانهم؟ [ألا يا بائع الزهر أعندك زهرة حية!]، في رائحتها [موت يجيء كأنهُ سِنَةٌ فيمسُّ الآدمي فينهيها][1]. 10-10-2016.

طليق الحياتين

من مميزات القرن الرابع الهجري أنه شهد أعظم شخصيتين في التاريخ العربي الأدبي وأكثرهما جدلاً، المتنبي الذي كان في نصفه الأول، والمعري الذي كان في نصفه الثاني، فلم يفصل بين وجودهما إلا تسع سنوات، مات المتنبي 354 هجرية، وولد المعري 363 هجرية، وقد كان معجباً بالمتنبي يحفظ أشعاره، وقد طرده الشريف الرضي من مجلسه في بغداد لأنه ذبَّ عن المتنبي لما انتقصه الشريف.

والذي يشيع عنهما في بحر الثقافة العامة غير المنضبط أن الأول وصوليّ يتسول أبواب الملوك والأمراء ويبحث عن الولاية، وأنه ادَّعى النبوة، أما الثاني فزنديق متشكك، وقد سمعت داعية مشهوراً غليظ القلب، يقول عنه ذلك النذل!. الطريف أني غيرت نظرتي عن الاثنين -و كثير مثلي - بفضل عالِمَين أديبَين مصريين كبيرين، الأول: محمود شاكر في كتابه (المتنبي) الذي أصبحت مقدمته كتاباً منفصلاً اسمه: مقدمة في الطريق إلى ثقافتنا، والثاني: هي الدكتورة عائشة عبد الرحمن المشهورة ببنت الشاطئ، التي كانت أول من حقق رسالة الغفران، ولها مؤلفات عدة عن المعري قرأت منها: رحلة مع أبي العلاء في حياته، وكتابتها عنه تسمو على الأسلوب البحثي التحقيقي إلى حالة الحبّ والإجلال للمعري، فلم أجد في كلماتها عنه جفاف الأفكار كما هو معهود في الدراسات الأدبية، بل عاطفة تتوقد كأنها عاشت مع المعري وعرفته معاينةً، فما أخطر الكتابة لما فيها من معنى الحياة حتى

---

(1) بيت شعر من قصيدة لبدر شاكر السياب.

بعد الموت، وترى بنت الشاطئ أن المعري ظلم كثيراً من القدماء خاصة، ولعله وجد إنصافاً في العصر الحديث.

وأقف الآن في حرم شخصية المعري، إذ يغصّ قلبك وقد تغالب دمعك وأنت تقرأ تلك الشخصية الفريدة الغريبة، التي خسف الجدري بضياء عينيها في عمر أربع، ويا لها من إعاقة! ثم مات أبوه وهو ابن 33 ثم ماتت أمه بعدها بقليل ولم يدركها وهو عائد من بغداد، وقد كان متعلقاً بها جداً، ومات أخواه في حياته وأحدهما أصغر منه، وبقي بعدهم إلى الثمانينيات من عمره.

وقد اعتزل الناس لما وعى من شرورهم بعد أن عاد من بغداد، وهو ابن 37 حتى مات، وبلغت عزلته 49 سنة، قضاها صياماً ولم يفطر إلا في الأعياد، عاش كفافاً، وامتنع عن أكل اللحوم واللبن والبيض زهداً وشفقةً على الحيوانات وهو الملقب برهين المحبسين: عماه ومنزله.

نشأ المعري في بيت علم وقضاء وأدب ونسب، أعماماً وأخوالاً، وله مراسلات رقيقة شعراً ونثراً بينه وبين أخيه وخاله وكثيرين آخرين، ولا أدري ما عظم جرح النفوس المرهفة عندما تصاب بمصيبة كالعمى، هل هي رقّت بسببها، ففجرت إبداعها، أم كانت محض سببٍ غيّر مسار تلك النفس النادرة، التي لن تخطئ العظمة أيضاً لو قُدر لها السلامة الجسدية.

لا يُلام المعري إن رأى الحياة عقوبة، وأنك ما إن تلد ابنك فقد جنيت عليه! فهو القائل:

هذا جناه أبي عليّ ... وما جنيت على أحدٍ

الذي أوصى أن يُكتب على قبره، ومن عجيب الأقدار أن يطلب الموت فيعيش أطول من سائر أفراد عائلته!.

تحيّرني ندية الأقدار وقصديتها، وكيف تصيبك في الشيء الذي أنت أحق

الناس به! وأجوع الناس إليه، فسبحانك اللَّهمَّ، (كهِّفْنا) أي املأ قلوبنا بيقين قصص سورة الكهف التي تفسر لنا شيئاً من خطة الأقدار وحكمتها!.

ولكن مهما كان ويكن، لن ينتهي أنين هذه النفس إن اعتل جسدها، ونقص من كماله شيء، أو امتحن امتحاناً عصيباً، ومخطئ من يظن - كما ترى بنت الشاطئ - أن المعري قد انتصر وارتاح على شهواته ونزوع نفسه إلى الدنيا، قد انتصر نعم لكنه لم يرتح، وقد قال: أحبّ الدنيا وآلتها ليست فيّ وقد يئست من بلوغها واليأس مريح، فإلامَ التشوف والضَّلال؟.

وقد كان عصره لا يختلف كثيراً عن عصرنا اليوم، احتراب وفوضى وضياع لا ينتهي، ولو كان غير ذلك، لكفى المعري مصيبته في عينيه. وهذه مريم تقول: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: 19/ 23].

ويروى عن عمر: «يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكُ شيئاً، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً». وحتماً وحسماً لن يرضي هذا أولي الغيرة من أبطال المثاليات، والإنسان السوبرمان، فقد أنكروا أن يقول هذا عمر! فلا يصح عن صاحب رسول الله أن يقول هذا، وقد يصح تضعيفهم حسب التنقيات الحديثية في السند، لكن فكرتهم لن تصح أبداً حسب الطبائع النفسية، ولعل من رحمة الله بنا أنه عرض أخطاء الأنبياء وبشريتهم فلم يجرؤ أحد على تغييرها في القرآن.

والحق أن حياة اليوم، أولى الحيوات بنفسٍ كنفس أبي العلاء، إنها جديرة لأن تترك، وتُعتزل إلى مكانٍ ناءٍ، ليس فيه جبروت هذه الحياة الحديثة التي يقودها الظالمون الأقوياء علماً وعملاً، حياةٌ؛ الإنسان فيها أوراق وأرقام وجغرافيا وجنس، كل شيء فيها موجود إلا الإنسان، فسلام على أبي العلاء في العالمين.

مالئ الدنيا وشاغل الناس، لا يزال يملؤها ويشغلهم!

لا خلاف الآن على أن المتنبي سيد الشعراء طراً، أسميه الفيلسوف الشاعر؛ أي فيلسوف صاغ فلسفته شعراً، أو عالم اجتماع وأنفس أفرغ علمه في قوالب الشعر. لذا فالوقوف عنده ليس نافلة، وفي الأمر جمالان، جمال اللغة الفصيحة وجمال المعاني العالية، فهنا يصبح الحفظ فرضاً لازماً؛ لأن جمال المحتوى لا ينفكُّ عن القالب الشكلي الذي انسكب فيه. فقد انفرد المتنبي بصياغات فريدة ومعان أفرد، سرت بين الناس وأصبحت أمثالاً، فحبذا لو نحرص على تلقينه أطفالنا، لصقل ألسنتهم وذائقتهم وعالية نفوسهم.

وأحبّ، وأنا في روضة المتنبي البهيجة؛ أن أقف عند عمل جسيم هو كتاب المتنبي للمحقق الأديب محمود شاكر، رحمه الله. الكتاب كبير جداً، عدته (755) صفحة، والحق أنه كتب لا كتاب؛ لذا سأقترح طريقة لمن يثقل عليه هذا الحجم، لأن الكتاب ينقسم إلى أقسام، يمكن أن نُسقط بعضها من خطة القراءة لمن يريد الاختصار؛ الكتاب أربعة أقسام: الأول: هو المقدمة واسمها؛ مقدمة في الطريق إلى ثقافتنا، تقرب من (200) صفحة، وقد طُبعت منفردة فعلاً، أما القسم الثاني: فهو الخاص بالمتنبي ويبلغ (255) صفحة، وأما القسم الثالث: فهو قضية المتنبي، وهي سجالات محمد شاكر مع طه حسين، وأما القسم الرابع: فهو تراجم قديمة للمتنبي كتبها الأوائل، وبعضها لم يكن منشوراً من قبل. إذن بإمكانك أن تكتفي بالقسم الثاني، ففيه كفاية.

المهم في عمل المرحوم محمود شاكر، أنه قدم دراسة جديدة (أصيلة) محكمة أظهرت المتنبي بصورة بديعة حقّاً بناء على أدلة لا أهواء، وقد نال جائزة الملك فيصل العالمية للثقافة على هذا الجهد الضخم الصعب.

علم اجتماع الشعر

استحضرت وأنا أتفكر في كتاب محمود شاكر واختلاف غيره معه في المنهج والنتائج، استحضرت جدليةً مشابهةً في التعامل مع القرآن بين التفسير الموضعي التقليدي والتفسير الموضوعي المعاصر. فقد غلب ابتداءً التفسير الموضعي الذي يفسّر الآيات وحداتٍ منفصلة، شرح مفرداتها، أسباب نزولها، ومناسبتها، والحكم الذي فيها.. إلخ. وقد يربطها بمن قبلها أو بعدها ولكن ليس على سبيل مضطرد. وهذا شيء آخر يختلف عن التفسير الموضوعي الذي يهمه (وحدة الموضوع)؛ أي يدرس السورة أولاً بوصفها وحدةً واحِدة، ويتبين هدفها المركزي ومراميها، ثم ينظر إلى الآيات ضمن هذه الدائرة الأشمل، وهو الذي غلب على أسلوب المعاصرين.

يذكر محمود شاكر أنه يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب، وأنه قرأه قراءات متعددة بتذوق وتفكر، أثارت لديه تساؤلات محددة حول شخصية المتنبي؟

لقد رأي أن في حياة الرجل سرّاً نسَج حياتَه كلها، نطق به شعره ولم يتبينها أحدٌ تبيناً شافياً يقف على حقيقتها.

لما قرأ محمود شاكر هذين البيتن لفتًى عمره أربع عشرة سنة:

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتّى تُرَى　　مَنْشُورَةَ الضَّفْرَينِ يَوْمَ القِتالْ
عَلى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً　　يَعُلّهَا مِنْ كُلّ وَافي السِّبَالْ

الوفرة: هي الشعر الطويل. معتقل صعدة: أي يحمل رمحاً. يعلها: أي يرويها من الدماء مرة تلو مرة. وافي السبال: الرجل الكبير ذو اللحية (وهو يقصد أناساً بأعيانهم!).

ومعنى البيتين: أن المتنبي قال لأقرانه في الكتاتيب الذين مدحوا حسن شعره الطويل، قال لهم: إن حسن شعره لا يكون إلا إن كان أشعثَ في المعارك يردي صاحبها أعداءه، ويروي حربته منهم مرة تلو مرة!.

أليس غريباً أن يمتلئ فتًى بسنه بهذا النفسية المتوقّدة إلى شرب الدماء والثأر والانتقام؟ من أين أصبح له ثأر وهو بهذا السن؟ ثم ما سرُّ ذلك الفخر العنيد، والإباء والعلو الذي لا يُهْدئُ حياتَه كلها؟! وإن كان متكسباً لمال، فلماذا كان انتقائياً جداً في مدحه؟ فهو لم يمدح خلفاء بني العباس يوم زارهم في بغداد، هل لأنه عبد مالٍ، أم لأن في ذهنه فكرة أخرى في المال؟

ولم يُطبع شعره على الغزل أول أمره، فهو لم يحفل إلا بالفخر والهمة والحكمة والطموح، ولا يُشعرِك أن لذلك الرجل أرباً في النساء! فما الذي حدث لاحقاً حتى رقّ شعره وظهر فيه ذلك الوَجْد والشوق والتحسُّر؟!

هذه التساؤلات التي انطلقت من عقل شاكر الذي جعل من منهج التذوق الكلي مثابة إلى تساؤلات معرفية، هي التي أنتجت كتاباً ككتاب المتنبي الذي أجاب فيه عنها. وهذا المنهج الذي نهجه شاكر في الشعر يشبه بنحو ما علم اجتماع المعرفة، وأستطيع أن أسميه علم اجتماع الشعر؛ أي أن تجعل من الشعر أداة لفهم النفس والمجتمع، ولا تكتفي بتذوقه تذوقاً ميكانيكياً تشيد فيه بجمال الصنعة والتراكيب والصور والاستعارات، وقوة الانفعالات وجدة الأغراض الشعرية، وقد تذكر متفرقات معرفية جزئية هنا وهنا، دون أن تخرج بصورة كلية لشخصية الشاعر ومجتمعه وتنفذ منها إلى مستويات أعمق تتجاوز عملية الشعر ذاتها، تثبت فيها حقائق وتنفي أخرى. هذا التذوق الميكانيكي قد نسميه (تذوق المراسل الصحفي)، كالمراسل الذي ينقل لك مشهد الضحايا دون أن يرفَّ له

جفن، أو قد يموت أمامه إنسان وكل همه أن يصوره لا أن يساعده، وقد حصل هذا مع كثيرين!.

كرسي المتنبي

يخالف محمود شاكر إجماعاً، أو شبه إجماع، أنْ لا وجود حقيقياً للمرأة في قلب المتنبي، وكل شعره في الحب والغزل - على قلته - لا يعدو أن يكون ضرباً من خيال الشاعر وعبقريته في ملابسة انفعالاتٍ ومشاعر لم يعشها، أما محمود شاكر فيرى أن حبَّ المتنبي كان سراً آخر في حياته إلى جوار سرّ نسبه العلويّ، لم يستطع أن يجاهر بحبه؛ لأن حبيبته ليست امرأة من عوام الناس، بل هي خولة أخت الأمير سيف الدولة، ويبيّن شاكر كيف تغير شعر المتنبي في الحبّ، وحدث فيه شيء جعله يباين أي شعر له قبله؛ إذ فيه رقة ومرارة وحزن، ويستلّ شاكر أبياتاً متعددة يستدلُّ بها على ذلك، منها كيف استقبل المتنبي نعي خولة وكيف رثاها، بل إنه يوم رثى أختها الصغرى التي ماتت قبلها، كان يعزي سيف الدولة ببقاء من هو أعلى وأغلى، أي أخته خولة! لتصير قصيدته - التي يرثي بها الصغرى - قصيدة مدح للكبرى! وإني لأعجب كيف يخفى هذا على النقاد على مرِّ العصور - إن صح أنهم لم ينتبهوا إليه - لأن القصائد تنطق واضحةً بذلك الحب!.

وهي نتيجة جديرة بأن تسجل، وأرى فيها إنصافاً لحقيقة الشاعر وشعره، فشتان بين شعر يقال بأثر الحياة، وآخر يقال بأثر الخيال المجرد!. قنعت برأي شاكر وهو يتلو - التلاوة هنا مراعاة السياق - شعر المتنبي البديع في حبِّ خولة، وحملت هذه القناعة في قلبي، حتى قفز إلى اليوتيوب في أحد الأيام بحلقات الروائي الأردني أيمن العتوم التي يشرح فيها ديوان المتنبي كاملاً بعنوان (كرسي المتنبي)، ورغم اطلاعه الواسع على تراجم

المتنبي، وذكره لكتاب محمود شاكر إلا أنه يذكر غير مرة أن المتنبي لم يحب البتة، وأن براعته الشعرية في أغراض الحبّ من غير تجربة، وهممت غير مرة أن أكتب تعليقاً على صفحته في اليوتيوب أو الفيس لكنني ترددت، إذ غلب على ظني أنه لن يرد، فليس لأولئك المشاهير وقت أو مزاج ليقفوا عند كل تعليق.

لم أكن أعرف من الروائي الكريم إلا اسمه من بعيد، إذ لم أقرأ له، ولم يحركني فضولي يوماً إلى ذلك، ربما لعلاقتي السيئة مع الروايات التي لم تنجح واحدة منها في الإيقاع بي. فكانت حلقات العتوم عن المتنبي مدخلاً كبيراً عرّفني به، إذ وجدت لغوياً رصيناً يتدفق علماً، وشاعراً جزلاً، فتغيرت نظرتي إلى الأمر كله، فذهبت أقرأ عن سيرته، وفرحت يوم أعلن عن قدومه إلى معرض الرياض الدولي للكتاب 2021، وحرصت أن أحضر، وقد فعلت.

أعجبتني كلمته الملهمة التي ألقاها، وقلت يجب أن أشكره من قلبي على النموذج الفذّ الذي يقدمه لنا في نفسه، وعلى حلقات المتنبي خاصة، التي بلغت 170 حلقة وقتئذ، أنجزها - كما بيّن في أول حلقة - خدمة للغة العربية وشعرها وشاعرها الفذّ؛ المتنبي، ولأقول له: لماذا تغفل نتيجة شاكر عن وجود خولة في حياة المتنبي؟

كان يوقِّع كتبه واقفاً فطلبوا منه أن يجلس فهذا أدعى لكتابة الإهداءات، وكنت أقول في نفسي سأطلب منه أن يقف لكي نتصور معاً، فليس معي كتاب له ليوقعه، ولكن ما إن اقتربت منه ومددت يدي حتى فز واقفاً، كأنْ لم يجلس قط! فكبُر في عيني تواضعه كما كبر نموذجه وجهده: روائي يقرأ 400 كتاباً ليكتب رواية واحدة، يكتب عشر ساعات متواصلة، يستثمر كل دقيقة ليقرأ، يحفظ 10 آلاف بيت شعري، وله 5 دواوين شعرية و16 رواية..

إلخ. يحمل كل هذا في قلبه، وتواضعاً يحمل به الناس، الذين لا يخطئ حبهم له. قلت له: ألا تتفق مع محمود شاكر، لماذا تكرر دائماً أن لا وجود للمرأة في حياة المتنبي؟ قال: ومن أنا لأعارض محمود شاكر؟.

الفيلسوف الشاعر

من الظلم أن يسمى المتنبي شاعراً فقط. لعل الذي يصدق عليه أنه فيلسوف صاغ فلسفته شعراً، أو لعله عالم اجتماع وأنفس. هذا الرجل آية في تصوير النفس البشرية وأحوالها، ما أكثر الأفكار العميقة التي رواها المتنبي في بيت شعر واحد!. وسأتحدث عن بيتين اثنين من أبياته الجامعة في عالم الأنفس:

كلما رأيت إنساناً مسالماً كما يبدو، يكشر عن أنيابه إن واتته ظروف مناسبة، تذكرت هذا البيت:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

فلا تعجل بحكمك على أحد لم تر تقلب أحواله في ظروف كثيرة، فالنفوس البشرية أقرب للطغيان منها إلى الرحمن، وفرعون سمة كامنة في قلب كل إنسان، فإن لم يجد من يجاهده ويتذكر الله فوقه، طغى إن استغنى، فتبصرْ جيداً في ظروف الاستغناء، وتحيّنها إن أردت أن تطمئن إلى خير إنسان فلا تغرنك مسكنة أحد، ما لم يؤتَ أسباب الطغيان فيتعفف ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 96/ 6-7].

ويقول أيضاً:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

قد يغلب على الظن أن الكرم هو بالمال، وليس هذا إلا الشكل القريب

منه. الكرم هنا هو كرم النفس في كل ما تباشره مع الناس، النفس الكريمة تقدر الآخرين ومعروفهم وبذلهم، ولا تبخس أحداً حقه، أو تلمزه أو تنتقصه. فهي كالأرض الخصبة المعطاء يثمر فيها كل شيء مهما قلّ أو كثر. والكريم إن أُكرم (بضم الألف) يذوب عرفاناً لمن أكرمه، ويظل دهرَه أسيراً له، وكل همه أن يسعفه قدر فيرد معروفه، ويجازي من أحسن إليه بأحسن ما يستطيع، ولسان حاله: وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ إن هذا النوع العزيز من البشر يذكرك بأشياءَ فعلتها لهم، وهي في نفسك تافهة لا تلقي لها بالاً، لكنها في أنفسهم عظيمة.

وعلى الضفة الأخرى من عالم الأنفس ثمة صنف بغيض يضاد الكرم هو اللؤم، واللؤم في اللغة: الشحّ، ودناءة النفس. ولا أرى عجباً في ذلك، فالنفوس عوالم كثيرة، ولكن العجب كل العجب أن يسيء إنسان لمن أحسن إليه، ويجعل معروفه سلماً إلى التطاول والإيذاء والتمرد!. مفهوم أن تُرد إساءة بمثلها، لكن أن تُرد حسنة بسيئة! فهذه شيمة اللئام حقاً؛ لأن اللؤم مزيج بخل ودناءة نفس؛ أي هناك سمات نفسية سلوكية تزيد على مجرد البخل، فالبخيل أقل شرّاً، فقد يبخل لكنه لا يسيء ولا يتطاول على من أحسن إليه، وهنا ستفهم لماذا قال قائلهم: اتّق شر من أحسنتَ إليه!.

ويزيد بعضهم في تعريف اللؤم أنه خساسة آباء، وليس القصد أنه صفة جينية كلون العين والجلد، ولكن يبدو أنها خلائق تربوية من البيئة التي ينشأ فيها الإنسان، ولعل العرب رأت في هذه السمة الدنيئة جماع كل المعايب؛ لذا قال السموءل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميلُ

خطورة اللؤم وأهله أنه يحث على كره المعروف، والزهد فيه، فليس أشنع وأظلم من أن تُكافأ بإساءة على معروفك!. والصبر على البذل رغم

ذلك لهو من أعظم المجاهدات، فحذارِ من اللئام. 29 أبريل 2020

وَلَكِنَّ طَرفاً لأراكَ بِهِ أعمى

مرتبك جداً أجمّع حروفي لأجمِّع صوراً ستدار بها الآفاق على عرش من الحزن البعيد، تكوّرت على قلبي في ليلتين، فيا أيها الخيال ما عظمك! يكفيك عظمة أن تسافر كالحقيقة في غيب يخطه الحرف والذكرى هو الماضي.

ليلاً من لقاء اللحن بالشعر، لقاء مشى على شغاف قلبي بأرجل من مسامير، فانصعقت كالضوء في حق بمن الرحيل في نفس لاكها الحزن والتعب وتاقت إلى المجد، ولا يزال شعرها كالضوء القادم من مجرات بعيدة بعيدة، ماشكلُ حزنها؟. حزن من موت الأم والأب والجدة والحبيبة والنسب المضاع والمجد المضاع.

إذا كان للحزن جسد تراه العين وتلمسه الأكف وتشربه القلوب فهو قصيدة المتنبي يرثي جدته، التي كانت أمه قبل أمه، وأباه قبل أبيه، تلك العجوز الحازمة الشريفة التي أنشأت معجزة ملأت الدنيا وشغلت الناس. هكذا اجتمعت أقدار الحزن علي في المتنبي وفي لحن تركي جريح لا يرحل بك إلا إلى حنينك.

اخترت منها هذه الأبيات:

أَحِنُّ إِلى الكَأسِ الَّتي شَرِبَتْ بِها وَأَهوى لِمَثواه التُّرابَ وَما ضَمّا

أَتاها كِتابي بَعدَ يَأسٍ وَتَرحَةٍ فَماتَتْ سُروراً بي فَمُتُّ بِها همّا

رَقا دَمعُها الجاري وَجَفَّتْ جُفونُها وَفارَقَ حُبّي قَلبَها بَعدَما دمى

وَكُنتُ قُبَيلَ المَوتِ أَستَعظِمُ النَوى فَقَد صارَتِ الصُّغرى الَّتي كانَتِ العُظمى

هَبيني أَخَذتُ الثَأرَ فيكِ مِنَ العِدا فَكَيفَ بِأَخذِ الثَأرِ فيكِ مِنَ الحُمّى
وَما انسَدَّتِ الدُنيا عَلَيَّ لِضيقِها وَلَكِنَّ طَرفاً لا أَراكِ بِهِ أَعمى

25 شباط 2014

الطَّرَب الحزين، والشنب الذليل

يقول المتنبي في رثاء خولة أخت سيف الدولة:

لا يملِكُ الطَّرِبُ المحزونُ منطقه ودمعَه وهما في قبضة الطرَبِ

الطرب: خفة ودهشة غالبة تأخذ المرء عن الحزن أو السرور. وتبدو هذه اللفظة من الأضداد، أي التي تحمل المعنى وضده، وينفرد بها أحدهما حسب السياق، ولكن الذي غلب على استعمالها في عصرنا أنها للفرح ولا تستساغ في التعبير عن الحزن. أما لفظة الشنب في هذا البيت الآخر من مرثيته لخولة:

يَعْلَمْنَ حين تُحَيّا حُسْنَ مَبْسِمِها وليس يعلمُ إلا الله بالشَّنَبِ

فيصدق عليها قول: (عزيزُ قومٍ ذل)!: فما هو الشنب؟ الشنب كما في هامش كتاب محمود شاكر؛ رقة في أطراف الأسنان، وصفاءها ونقاءها وبريقها. وقد تتبعته في أكثر من معجم قديم فكان كذلك، فما الذي جعل هذه اللفظة تنزاح إلى شارب الرجل! لعمري إن هذا من هوان الدنيا على الله!. وقد ساقني هذا التغير في استعمال الألفاظ نفسها لمعانٍ مختلفة إلى السؤال المعرفي التالي:

إن اللغات تنمو وتتغير كأي شيء في الحياة، ولكن سيبقى ثمة تساؤل معرفي: كيف نلائم بين هذه الحقيقة وثباتٍ ما، لا يمكن الاستغناء عنه في

لغةٍ ذات خصوصيةٍ كالعربية؛ إنّ نصاً إلهياً فيها، أُريد به أن يظل مرجعها في كل شيء، وأقرّ أن الذي غلب على تلك المرجعية هي الجانب التشريعي الفقهي الاصطلاحي المنضبط، وأفلت منه الجانب العلمي الكوني والأدبي، فليس في لغتنا العلمية اليوم أيُّ تطورٍ لغويٍّ أصلاً، بَلْهَ أن يجعل الاستعمالات القرآنية مرجعه! لأن لغة العلم الطبيعي عند العرب هي الإنجليزية في مشرقه، والفرنسية في مغربه. أما اللغة الأدبية فهي كمرقعة المتسول رهينة قوالب ترجماتية مترهلة، واشتقاقات ليست أصيلة ولا تنهجُ نهجَ العربية في التوالد، فإن كتب كاتب على نهج العربية النقي واجتهد ما استطاع في ذلك، وجدوا في لغته إغراباً واستغلاقاً عليهم، وعوقب بالاعتزال.

أظن الأمر يحتاج علاجاً جذرياً يبدأ من صفوف المدرسة الأولى، ويتنظم كل المؤسسات المعاصرة من إعلام ومنابر ثقافية كثيرة، لتطهير الأصول، وترسيخ ما يجب أن يثبت، وترشيد ولادةِ الجديد بلا جمود لا يأبه لحركة الزمن والألسنة، أو انفلاتٍ يضيع الميراث الحضاري الشخصي الذي يجعلنا أبناءَ أولئك الأفذاذ الذين لا وجود لنا إن لم نتصل بهم، واتصالنا أن نبني حضارة لا تتنكر لأبويها.

وأحد أنواع الطرب الفرح، أن تقرأ لأمراء النثر من العرب، كابن حزم في طوقه، وابن عبد ربه في عقده، والحريري في مقاماته، والقالي في أماليه، والجاحظ في بيانه وتبيينه، والتوحيدي في صداقته وصديقه.. إلخ. ما أرشق العبارة، وأدقّ الوصف، ولطافة البيان، وكيف تتدفق الجملة ومعانيها كالنهر الرقراق بكل بساطة وجمال. فإن بقي شيء ذو بالٍ لنا، في هذا العصر الذي غابت فيه شمسنا، فإنه سيكون هذه اللغة الثمينة وتراثها العريض ذا القرون، التي استوعبت كل ما يمكن أن يقوله البشر ويفعله. العربية أحن حبيبة في هذه الصحراء.

شرفة على غَيبَين

إحدى العجائب أو عجيبة العجائب التي كلما تفكرت فيها تشظت أفكاري إلى عالم الغيب، هو نشوء اللغات!.

الصوت عامة، ميراث مشترك لكل البشر، كل قوم قطعوه بطريقتهم، فصنعوا أصواتهم (حروفهم)، هي رأس مالهم الصغير الذي شيدوا منه ميراثهم الرمزي جيلاً بعد جيل، ففهموا به أنفسهم والآفاق الكونية، فصنعوا الحضارة، وكأنه جنين تخلّق بالزمان والمكان ولا يزال حتى فناء أهله بهزيمة نفسية تنقلهم إلى لسان آخر أو هزيمة مادية تمحقهم كأنهم لم يغنوا بالأمس.

ونلحظ تشابه الأصوات بين اللغات، وقد يزيد صوت هنا وهناك بين لغة وأخرى، أو ينقص، لكن الاختلاف كله كان في علَقِ الحروف، وعلق الكلمات، أي كيف تتالت الحروف لتصنع الكلمات، وكيف تتالت الكلمات لتصنع الجمل، لتشيد هذا العالم الرمزي الذي يضاهي العالم المادي، ليعين على فهمه فتسخيره.

وما هو الصوت؟ ما هو إلا قبضة هواءٍ تتطوى بين تضاريس جوفٍ من حلق ولسان وخدين وشفتين، قبضة هواء تصورها تلك التضاريس كيفما تشاء لتصير شيئاً مذكوراً ذا هيئة خاصة، يتعالق مع إخوته ليصنعوا نظاماً لغوياً كاملاً معجزاً يتحد فيه عالم الغيب والشهادة، إذ كيف لقبضة هواء فيزيائية مادية أن تحمل كل تلك المعاني الرمزية وتتمثل بها وتجعل من غيبها شهادةً، أليس في ذلك معنى الإنسان ذي الجسد المادي والروح الغيبي؟.

في اللغة يحيا كل شيء ويموت كل شيء، إنها كالماء الذي جُعل منه

كل شيء حي، تخيلْ نفسك وحياتك بلا لغة، وستعي حجم الفناء الذي يطمس على وجودك فتفقد معناك كأي هباءة، ستكون شبحاً بلا حياة.

إن نظرت إلى اللغة من هذه الشرفة، فستدرك أن الكلمات هي رسل الغيب الذي تولد في جوفك كل لحظة، ستصفع عماك: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: 51/ 21]! وستعلم أن تلك الأسماء التي نُفختْ في روحك في ذلك النادي العلوي الذي شهد على استحقاقك للخلافة، لا تزال تنبئ الملائكة أنك تفوقهم وأنك أهل لوقوعهم ساجدين.

وأنه حين قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد: 90/ 8-9].

أراد منك أن تبصر الغيب الذي تضج به هذه الأعضاء المادية، فلو بُترت شفتاك مثلاً، لانهار جزء كبير من غيبك الذي تحمله تلك الحروف الناشئة من مخارجي شكلها تكور الشفتين وعناقهما وافتراقهما، وسيعلم كثير من باحثي الجمال، أن قدر الشفتين وغايتهما العتيدة في احتيازهما على جزء عزيز من نفخة الروح لا نفخة المطاط، وأن القبلة التي دوخت الأجسام والأقلام - على خطرها، وأثرها - ليست إلا قيمة (مادية/ شهادة) مضافة أو هبة جانبية فريدة على شاطئ الوظيفة اللغوية البليغة للشفتين (قيمة روحية/ غيب)!.

فإن كان للغات شيء مشترك من كل ما ذكرت، فسيبقى للعربية قدر خاص، لأنها زادت على غيب اللغات المشترك، بغيب آخر، هو الوحي العظيم في القرآن الكريم، الذي نزل خالصاً من عالم الغيب، لم يمسسه بشر، ولأنها هي وحدها التي تطاولت في الزمان المكان، وفي الألسن والألوان، فاتصل بها تاريخ البشرية منذ ألوف السنين حتى الآن، لتكون آية ومثابة وشهيدة على بدء الخلق، وسيرورته وصيرورته، لتهدي الإنسان إلى حقيقته الأولى ومآلها الأخير لتستقيم سيرتها بين صفاها ومرواها.

لا توجد لغة متصلة بكل هذا الزمان والمكان كالعربية، فغيرها من اللغات أجيال تفنى ليذهب جديدها بقديمها، أما العربية فلا يزال الأحفاد أوفياء للأجداد، على اتصال دائم بالفجر الأول.

ما أشرف مجدها! كلما اتسعت لعمل الأفكار ونبض القلوب، لملايين البشر عبر تلك الألوف من السنين والمسافات، وما أجمل سبكها وأدقه حين تتعضى أوصالها لباساً لمعنى القلب وأقطار الروح.

لا يناسب مقام المعنى هنا هي لباس له وهو لباس لها، وهي تاجه وهو تاجها، فكم نجني على أنفسنا وعلى الكون والحقيقة عندما نجهل مقدار هذا الإرث العزيز وخطورته، فنستدبره ونعمل لغيره!.

كلما قرأت نصّاً تهدر فيه الروح بحلّةٍ لغوية بديعة، زدت يقينا أن اللغة هي معجزة الإنسان الكبرى التي وهبته كل المعجزات، فلا شك أن في الجنة نعيمَ تذوق المعنى!. 7 نوفمبر 2017

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحيّ غير رجالها!

إن قرأتَ لكاتب عربي قبل قرن أو قرنين مثلاً، فلن تجد في لغته زعانف الظروف الإنجليزية كـ: بشكل طويل، بشكل عام، بشكل خاص، بشكل سريع، وأخواتها من ظروف كثيرة، كـ: على الأقل وعلى أية حال، و(لسوء الحظ)، و(في الواقع) عند بداية كل جملة؛ التي لن يخطئها أي مطلع على اللغة الإنجليزية، التي تنتأ مثل البثور على وجه حسن، وقد أحصى الأستاذ مكي الحسني كثيراً منها في كتابه: نحو إتقان الكتابة باللغة العربية.

العربي الفصيح لا يؤكد كلامه بهذه الطريقة التي هي أسلوب اللسان

الإنجليزي، فللعربية أساليب توكيدها، كالحروف المشبهة بالفعل، والمفعول المطلق، ونونا التوكيد، وتكرار اللفظة .. إلخ

سيقول الفصيح مثلاً: مشيت مشياً سريعاً أو بسرعة، وليس بشكل سريع. وأضِفْ على ذلك قوالب إنجليزية كثيرة غزت عربية اليوم، كتقديم الاسم دوماً على الفعل بلا أي منحنى بلاغي، لأن الإنجليز يفعلون ذلك. الخلاصة: إن لغة اليوم ليست هي العربية الأصيلة، إذ ألفاظها عربية لكن قوالبها إنجليزية، حتى عند أسماء يشار إليها بالبنان في الأدب والرواية إلا من رحم ربك وقليل ما هم. وقد كنت متزمتاً جداً في ذلك ولا أهادن فيه، لكنني تراجعت عنه بعد أن قرأت كتاب الكاتب المصري الأنيق الذي أحبه: د. عادل مصطفى: مغالطات لغوية: الطريق الثالثة إلى فصحى جديدة.

إذ ناقش فيه هذه المسألة واقترح اقتراحات مهمة لتطوير العربية، وحثّ على التسامح في إدخال مفردات وقوالب .... إلخ؛ لأن اللغة كائن حيٌّ وحياتها في الاستعمال، فإن أهملت ماتت، وانتقد تزمت أصحاب المجامع اللغوية وانعدام مرونتهم؛ إذ يرى أن الحياة اللغوية لن تلتفت إلى قواعدهم ما لم يجدوا حلولاً مرنة.

لم أقصد من تراجعي بأنني سأتهاون في لغة الترجمات، فأنا حريص أن أتحرى الصياغة العربية الأصلية لكنني لن أنتقد سلباً من يفعل ذلك، فأَنْ تلزم نفسك بشيء لا يعني أن تحمل الناس عليه، وليس القصد أيضاً أن تُخترم قواعد العربية باسم هذا التحديث، لا، طبعاً، فهي مسألة اجتهادية غير متفلتة.

اقرأْ للرافعي وللمنفلوطي، وذلك الجيل الذي ظهر قبل فورة الترجمة وهيمنة الغرب الثقافية، والذي نهل مباشرة من تراث العربية ستجد لغته رصينة جداً، فإن تقدمت إلى الماضي السحيق ستجد الأجداد أكثر رصانة.

جرّب أن تتبع ألفاظهم وصياغاتهم، وابحث عن تلك الزعانف في لغة اليوم الترجماتية، هل ستجدها؟ وما هي بدائلهم؟

متلازمة سامع المنبر، وقارئ الترجمات

عندما يتكلم المرء بالفصحى، يحيلُهُ عقلُ المخاطب فوراً إلى التصور الديني أو الإنسان المتدين، أو يراه شيئاً تاريخياً ليس من هذا الزمان، ومدعاة سخرية وضحك، ولعادل إمام ورهطه دور بارز في تمثيل هذا الدور في أفلامه ومسرحياته: إنهم يتبعون ديناً جديداً فماذا أنتم فاعلون؟ فلنلحق بهم إلى يثرب! ربما لأن الفصحى الأصيلة انقرضت في ميادين كثيرة، لكنها لا تزال تحيا اليوم على ألسنة لفيفٍ من خطباء المنابر في الجمعة أو الدروس الدينية، أو في كتب المشايخ، الرصينةُ لغتهم، فصارت تحيل المخيلة إليهم ما إن يُتحدث بها أو يكتب بها على نحو أصيل لا يماثل اللغة الصحفية السائدة، أو لغة الترجمات الركيكة التي تُكتب بحروف عربية لكنها مركبة بروح إنجليزية مترهلة.

وهذه محنة حقيقية، تضاف إلى المحنة العلمية للغة العربية.

كانت محنة العربية الأولى أنها أصبحت غريبة عن العلم المعاصر لإقصائها عنه. فأصبحت مقصورة على الأدب فقط، لكنّ المحنة أنها تلاقي في الأدب نفسه محنة أخرى أشرت إلى شيء منها في المقدمة وسأفصل أكثر، مبتدئاً بسؤال: هل القرآن ولغته كتاب دين وأخلاق فقط؟ هل هو تراث بشري لتكون مفرداته - إن استعملت - تذكيراً بأدب ماضٍ وأسلوب غابر لا يتناسب وعقل القارئ اليوم؟

أقر أن كثيراً من مفردات اللغة انتهت وبقيت لزمنها فلا ينبغي أن نكتب بلغة المرقش واليشكري والجاحظ فنوحش القارئ المعاصر! لكن هذا لا

يستقيم تماماً في كل شيء؛ لأن القرآن ليس تراثاً بشرياً فهو كتاب حيّ يظل يدور ويدور في القلوب والأذهان ما قامت السماوات والأرض.

أليس من الأولى أن نفيد من لغته وأسلوبه في سبك أدبنا مهما كان نوعه؟ كيف يسوغ أن يصير هذا محل نقد سلبي عند بعض قراء اليوم؟ ليروا الأمر تراثية مملّة تزكم الأنف بالغبار ولا تصلح لإنسان اليوم؟

الأولى بالأدب أن يرتقي بالذائقة ولغتها لا أن يتدلى إليها في حضيضها، ويغلب أن تكون لغة المؤلفين اليوم لغة هزيلة لأنها ربيبة لغة عربية مترجمة بسوء لم يقم لها جهابذة يحسنون الخلق كما كان المنفلوطي مثلاً لتحار أهو مؤلف أم مترجم؟!

لذا فمن يعتد القراءة لهم فلن يستسيغ أي لغة أخرى حتى وإن كانت أكثر أصالة. ومن ترتبط الفصحى في ذهنه بخطيب المنبر أو كتب الدين التراثية أو يرى القرآن كتاب دين فقط، فسيظل يراها غريبة عنه، وينفر من كل نص بها حتى وإن كان فيه من الرصانة والجمال ما فيه. 14 مارس/ 2020

وردتان: مطبوعة ومصنوعة

لكلٍّ في الأدب نكهته الخاصة التي تجعله عالماً متفرداً، ويبقى التفاضل بين الأدباء تفاضل أذواق وقرب تجارب، وقد يجهض كلامي هذا فن النقد كله، لكن مهما قعدوا من قواعد، سيبقى لذائقة الناقد ومزاجه الخاص سلطة عليا حتى وإن توارت عن الأنظار، ولأضرب مثلاً بين شاعرين هما الشاعر العراقي عماد جبار، والفلسطيني تميم البرغوثي. كلاهما شاعر ذو أدوات مكتملة، لا يمكن بخس قوتها، ولعل تميماً تحيط به هالة إعلامية أكثر، وما مثل شاعريّتهما عندي إلا كمثل وردتين، الأولى بلاستيكية، قد يبهرك جمالها من بعيد، والثانية وردة حقيقية.

الفرق بينهما فرق الجماد والحياة، أو كالفرق بين فاكهة مستنبتة وطبعية، الأولى فخمة الحجم والشكل لماعة اللون لما فيها من محسنات كيميائية، إلا أنها بلا رائحة أو طعم، أما الثانية فتذوق فيها طعم الأرض ووهج الشمس، وعرق الفلاح البكر.

ما معياري؟ لست أقارن بين الأدوات الفنية لصنعة الشعر، فكلاهما يملكها، ولست أنفي عن تميم شعره وشاعريته. معياري ذوقي وقلبي وحقيقة الإنسان الجمالية فيّ، التي قد يخالفني فيها غيري وأقر له حقه.

الذي يعنيني هنا الصدق، وليس المقصود به الصدق الأخلاقي، بل الصدق الأدبي، الذي إن كُتب به نص، لمس قلبك حتى القرار، وشعرتَ كأن معانيه هي معانيك صاغها غيرك، وأظنه فرقاً كالفرق بين وجه جميل كما أراده الله ووجه ينوء بأطنان من المساحيق والألوان والمطاط ذي النفخ والفخ.

وقد يعجب المتأملُ من ندرة الغزل في شعر تميم، فلما قال فيه قصيدةً في عراقية من الماضي، لم يجد في شعره إلا مولاً ضخماً صاخباً يعج بالشلالات الصنعية، وأكواريمَ مبهراً، ومطاعم الوجبات السريعة، أما أنا فأحب البحر والشلالات الحقة، تتماسك معانيها فيشعر عماد، كطبخة بسيطة يصنعها راعي أغنام في حقل ناءٍ تعيد إلى حواسك فطرتها الأولى.

ففي كل قطعة مسبوكة من شعر عماد جبار، تجد عنواناً لقصة هائلة من قصص القلوب، تفجرني معانيَّ بلا قرار، كأني جسد منهوب تتقاسمه نصال كثيرة من كل الجهات، وتفتر قبضتي عن إحكام الجمل على فيض الانفعال والأفكار. وفي نصه أدناه الذي لا أدري كيف أصفه لدقة انطباقه على تضاريس روحي الآن، يوم ودعت فيها صديقاً يشدّ رحاله إلى آخر الدنيا، والشاعر ذاته كتبها من آخر الدنيا، وهي بصوت الشاعر قول ثقيل يُلقى على كل قلب هام في ليل الرحيل ولا رجوع:

أنت ضيفي كلما احتجت إلى وجه صديق
أنت سقفي كلما جاء المطر
موحشاً في آخر الدنيا ومحموماً أُفيق
آه يا صبري على الريح ويا صبر الشجر
رغم أن العشب مملوءٌ ندىً
والشجيرات على الشارع تصطف ثريّات مطر
رغم أن الناس أحرارٌ يجيبون الطريق
غير أني موحش في آخر الدينا ومحموم أفيق
كالقطارات التي أتعبها طول السفر
رغم أن الزهر أشكال وألوان على هذا المضيق
رغم أن الأرض خضراءُ ولكن
تقفر الدنيا بلا وجه صديق

13 أكتوبر 2017.

وقفة على أطلالي وأطلال ناجي

قد لا يتفكر الإنسان جيداً في الأشياء التي أثرت في شخصيته، وقد يحجبه إلْفها أو نسيانها عنها، وهي عادة مهمة أن تحلل تفاصيل نفسك، وترى كيف تخلقت وتركبت عبر الزمن.

آهِ يَا قِبلَةَ أَقْدَامي إِذَا شَكَتِ الأَقْدَامُ أَشْوَاكَ الطَّرِيْقْ!

لم أُطلَّ على إبراهيم ناجي إلا من شرفة أطلاله، وهو ثالث الثلاثة الذين مكثوا جيداً في نفسي وتركوا أثراً شعرياً عميقاً بعد نزار والسياب.

ولا أذكر كيف اهتديت إليها، لكنني موقن أن أم كلثوم لم تكن طريقي إليها، لأنني من منطقة لا يشيع فيها تراث كوكب الشرق.

كنت يومها أكتب دقائق السنة الأولى من حياتي الجامعية في دمشق؛ شاب نحيف الجسم والتجربة، ذو ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة، لم يعتد المدن الضخام، ولم ير أهل الشام إلا في مسلسلات التلفاز.

ما أكبر قاسيون! وكيف تعنكبتْ تلك البيوت على سفوحه، تلمع أضواؤها ليلاً منه كالنجوم البعيدة، كأنه مجرة هبطت من السماء!. الليل مرساة الغريب فكيف إن كان ليل دمشق؟ وكيف إن كان يرسو بمرساة ثانية هي الشعر، وله مرساة ثالثة هي اللحن. وكل أولئك؛ الليل والشعر واللحن، ينسجن حزنَه وغربته، وقد اجتمعن في ناجي وأطلاله، التي نسجها على بحر الرمل، وهو بحر هادئ، يتدفق كجدول صغير بلا ضجة ثم ينكمش، فاعلاتن فاعلاتن فاعلن، وخليق بمشاعر الحزن والفقد. ولشدة إعجابي بها، كتبتها كلها في دفتر من القطع الكبير، وحفظت منها مقاطع عدة، والقصيدة أطول بكثير من الأجزاء التي غنتها أم كلثوم.

لم أكن قبل الأطلال أكتب الشعر الموزون كتابة سليمة، لكنني قفزت بعدها إلى مرحلة مختلفة، كتبت فيها أول قصائدي التي أرى فيها الشكل المقبول لقصيدة شعرية مكتملة الأركان وزناً ومعنى، وقد بلغت سبعة عشر مقطعاً رباعياً أو خماسياً على مجزوء بحر الرمل متأثراً بنهج الأطلال، ثم تتالت القفزات لأكتب على بحور الشعر العربي كلها.

في الأطلال روح إنسان أنيق الخلق واللفظ، صادق هادئ، أظنه صموتاً قليل الكلام، كثير التفكر، دقيق المشاعر رقيقها، أبيّ النفس، معتدّاً بها رغم هشاشته الشعورية، خائب الأمل، حزنه سحيق، عطش إلى البريق، بريق عينين تضيئان له ذلك الليل الذي أتعبته سرايته، أو يد تنقذه من

غرقه، فذكر الساري وهو الماشي ليلاً، والغرق، إشعار بليغ بحاجته إلى الضوء وبجبروت الليل عليه ووحدته فيه، كأن حياته محض ليل بلا نهار، أو بحر شاسع يتخطفه بالغرق، ليتقلب بصره في السماء لعل قدراً يسعفه بما يؤمل لكنه لا يجد:

ضلّ في الأرض الذي، ينشد أبناء السماءْ
أيُّ روحانيةٍ تُعصر، من طينٍ وماءْ

وحقاً يوجد هذا النوع من البشر غير المحظوظ في الحياة رغم احتياجه الشديد - أكثر من غيره - لما ينقصه:

يَا نِدَاءً كُلَّمَا أَرْسَلْتُهُ، رُدَّ مَقْهُوراً وَبِالحَظِّ ارْتَطَمْ
وَهُتَافاً مِنْ أَغَارِيْد المُنَى، عَادَ لي وَهْوَ نُوَاحٌ وندم

***

كُنْتِ تِمْثَالَ خَيَالي فَهَوَى   المَقَادِيْرُ أَرَادَتْ لا يَدِي

وَيْحَهَا لَمْ تَدْرِ مَاذا حَطَّمَتْ
حَطَّمَتْ تَاجي وَهَدَّتْ مَعْبَدِي

يَا حَيَاةَ اليَائِسِ المُنْفَرِد   يَا يَبَاباً مَا بِهِ مِنْ أَحَدِ
يَا قَفَاراً لافِحَاتٍ مَا بِهَا   مِنْ نَجِيٍّ يَا سُكُونَ الأَبَدِ

ولا يجد تفسيراً شافياً لما يمر به، إلا التسليم بخطة هذه الحياة وحظوظها، والتعلم على النسيان والفقد، فهذا هو سلاحه الذي يقدر عليه: فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو. وسيتعلم الملل أيضاً! ولا أظن خسارة كخسارة الروح يوم تُنكب بالملل، لأنه يجهض كل رغبة طفلة بالحياة:

أَلْمَحُ الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ سَئِمٍ   وَأَرَى حَوليَ أَشْبَاحَ المَلَلْ
رَاقِصاتٍ فَوْقَ أَشْلاءِ الهَوَى   مُعْولاتٍ فَوْقَ أَجْدَاثِ الأَمَلْ

لكن ذلك لن يسلبه رحمته وحنانه وشعوره بآلام الآخرين وما ينقص منهم، بل لعله أكثر الناس جدارة بذلك الشعور، لأنه أبوه وابنه، وتأمل كيف يجد في الرفق ورقيق اللحن علاجاً لها:

وَإذا مَا زَهَرَاتٌ ذُعِرَتْ   وَرَأَيْتَ الرُّعْبَ يَغْشَى قَلْبَهَا
فَتَرَفَّقْ وَاتَّئِدْ وَاعْزِفْ لَهَا   مِنْ رَقِيْقِ اللَّحْنِ وَامْسَحْ رُعْبَهَا
رُبَّمَا نَامَتْ عَلَى مَهْدِ الأسى   وَبَكَتْ مُسْتَصْرِخَاتٍ رَبَّهَا
أَيُّهَا الشَّاعِرُ كَمْ مِنْ زَهْرَةٍ   عوقِبَتْ لَمْ تَدْرِ يَوماً ذَنْبَهَا

كل هذا يقال وأكثر ونحن لن نتحدث بعد عن الشكل المغنى للقصيدة ولحنها الذي وهبها حياة فوق حياتها، وسطوة أكثر على الحياة وأحيائها! أنا لست موسيقياً ولا أفقه جيداً الجانب الفني والتقني من هذا العلم، لكنني أشم الموسيقى بروحي وهي التي تقودني، وقد أترجمها إلى كلمات مكتوبة بمثل ما أشعر به. وقد ارتقى السنباطي العبقري رقياً شاهقاً يطاول كلمات القصيدة فكسا جسدها بلحن ملحميّ مهيب تخشع له الروح، وتسكن لأنه منها وهي منه.

لقد وجد ذلك الشاب الغر في أطلال ناجي مناجاةً كبيرة له، ربما لم يفهمها كلها يومئذ، لكنه الآن قد تسربل بها جيداً بعد أن أخذ تلك الصفعة من الحياة بعد أن مضى قسم عزيز من العمر، ولعله تنبأ جيداً بشيء من مستقبله يوم قال:

ويح قلبي كم عصاني، واصطفى مني طموحي
أندبُ الحظّ وأبكي، فتواسيني جروحي
يا عذاباً تمَّ صرحاً، فهنيئاً لي صروحي
ليت أني ما رأيتُ، نعشَ أحلامي وروحي

***

يا فؤادي امتنعْ، فاتنا وقت الإيابْ
كلُّ شيءٍ لا يفي، دمعتي خلف السراب
لا تلمني إن بكيت، وتعاطيت العتاب
إذ رأيت الأمنيات، ترتدي ثوب الغياب
عند أقدامي جثتْ، تختفي تحت التراب

***

ساقك إلي قدر وسرقك مني آخر وبين القدَرين فقدتُ قلبي

أدب المراسلات شكل لذيذ في الأدب، وأداة قوية لفهم جوانب معينة من النفس البشرية عند الجنسين إن تصادقا أو تحابا وتوسلا بالكتابة ليعبرا عن وجع الحياة في نفسيهما، وكيف تصنع كل نفس في الأخرى ما تصنعه الأدوية المعالِجة! ولطالما كانت الكتابة دواء من غير حبيبة طبيبة أو صديقة شقيقة، فكيف إن كانت حبلاً سريّاً (من السرية والجنين معاً) بين اثنين، كلاهما يداوي بها نفسه ونفس الآخر! وانظر ماذا يقول جبران عن هذه النعمة العظيمة الغريبة، فسبحان من علّم بالقلم، فقرأنا وكتبنا: (هل تعلمين يا صديقتي أنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة، وهل تعلمين

بأنني كنت أقول لذاتي هناك في مشارق الأرض صبيّة ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السّر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها، وقومي قوماً لها، هل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت عليّ رسالة منك؟ لو علمت لما انقطعت عن الكتابة إليّ، وربما علمت فانقطعت، وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة).

ليس لدينا في أدبنا المعاصر مراسلات أعلى صيتاً من رسائل غادة وغسان، ومي وجبران، وقد أحببت غساناً واحترمت فيه اعترافه ببشريته رغم عناده من أجل قضية شعبه، لكنني غضبت منه في الوقت ذاته لأنه لم يعِ حقيقة التي كانت أمامه، فينتصر لنفسه، ولعله وعى ولكنه وهى، وهو ليس موضوعي الآن الذي سيأتي بياني فيه في المقالات التالية.

أريد أن أقف عند مي وجبران، عند تلك التجربة الكتابية الراقية؛ مراسلات مي وجبران تجربة إنسانية فريدة حقاً، كيف لها أن تدوم عشرين عاماً بلا لقاء، وكيف ترسخ الدوافع عند البشر بهذا العناد، فتخلق عندهم هذه المصابرة على البوح إلى أن ينهي الموت تلك المسيرة الغزيرة؟

هذه التجربة تضرب لنا مثلاً مغايراً عن أثر البُعد على القلوب، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، مَثَلٌ يصح في جهة أخرى من عالم الأنفس ليس فيه مي وجبران، بل لعل البُعد وانعدام اللقاء الذي يطفي القلوب هو نفسه الذي أشعلها لديهما.

تعجبني تلك اللباقة الهادئة بينهما في استهلال الرسائل، والرزانة في التعبير عن المشاعر، لكأنهما صديقان أكثر منهما حبيبين، ولعل هذا الشكل من المشاعر هو الأجمل. ولكن هل يمكن أن يقارن بعلاقات البشر العادية

التي تقوم في الواقع، أليس في بعدهم نجاة من محاذير كثيرة تمحص النفوس وتجعل استمرارها وساماً كبيراً؟

وربما قد وعيا هذا التحدي إذ يُذكر عنهما أنهما تعمدا عدم اللقاء، فـ (مي) عذرية الهوى، ويطربها عالم المثاليات، ويبدو أن جبران قد اختصها بتصوره المثالي أيضاً عن الحب فآثر أن يستبقيها له، فلم يجعله ذلك الحب الأسطوري أن يركب البحر إليها، فمن يركب الحبَّ لا يخشى من الغرق، إذ حياته العاطفية غارقة بالحبيبات التي أثار معهن الأرض في الوقع.

أما ميّ فقد دوّخت جهابذة الأدب في عصرها، وكانوا يتهافتون إلى ضوئها كالفراشات تسبقهم حروفهم، فهي فراشتهم الأثيرة، لكنها خرجت من كل هذا بنصف عقل، وغرقت في الوحدة لتموت وحيدة بلا قلب، وهي التي تقول: ساقك إليّ القدر وسرقك مني آخر وبين القدَرَين فقدتُ قلبي. نهاية محزنة، وهكذا هي قصة الإنسان، محزنة حقّاً، وما الفرح إلا ابتسامات شاحبة تومض قليلاً ثم تخبو.

كلمات عن رسائل غسان لغادة: الأنقياء القلائل!

عندما تقرأ مقدمات غادة السمان لرسائل غسان إليها، تشعر أنك على مقربة من عمل أدبي ضخم من أدب المراسلات، فتعلو بتوقعاتك حتى إذا وصلتَ إليها وقرأتَ، وجدتَها لا تعدو أن تكون رسائل تقريرية مباشرة أبسط من بسيطة، لا تتماسك على لغة فريدة أو عمق يغريك بالتأمل، إنما هي نصوص تفيض برومانسية رجلٍ غلبه قلبه، ولا بأس في ذلك، فهذه كتابة وظيفية تواصلية لا أكثر كُتبتْ بعفوية كبيرة أقرب ما تكون إلى حديث عادي، لكن أن يعطى لها كل هذا الحجم باسم الأدب! فهذه مبالغة كبيرة، أستثني منها رسالتين أو ثلاث رسائل من الاثنتي عشرة رسالة، منها رسالته إلى أخته فائزة.

أظنهـا اكتسـبت تلـك الشـهرة لسـببين: الأول: مكانـة غسـان وقضيتـه في الوجـدان العـربي، والثـاني: نـدرة هـذا النـوع مـن الكتابـات بـين رجـل وامـرأة في مجتمعـات محافظـة، فهـي تداعـب أمـانيَّ كثيريـن ممـن يريـدون أن يعـبروا بـكل حريتهـم بـلا إرهاقـات المجتمـع واشـتراطاته، خاصـة إن ارتبـط الأمـر بالحـب المثقـل بمحاذيـر كثيـرة في مجتمعاتنـا. وسـيبقى لهـا أهميـة أكاديميـة تاريخيـة عنـد دراسـة سـيرة الأديبـين.

لكـن لم يدهشـني شيء كتذلـل غسـان إلا صلـف غـادة في التعامـل معـه! إلى الحدّ الـذي يقـول: [يخيـل إليّ أنهـا تتعمـد إذلالي أمـام النـاس، ومـا الـذي يدفـع إنسـاناً لتمزيـق إنسـان يحبـه بهـذه القـوة!].

لم أحـزن لأجلـه بقـدر مـا غضبـت لـه، إذ لا لـوم عـلى السـيدة غـادة أنهـا لم تحبـه، فليـس الحـب بالطلـب أو التعاطـف، لكـن لا عـذر لتلـك المعاملـة الصلفـة، لكـن اللـوم عليـه أولاً وآخـراً، لأنـه لم يـدرك أنـه يتعامـل مـع شـخصية نرجسـية براغماتيـة، أسـتبق ذلـك وأستشـفه ممـا كتبـه غسـان عنهـا وكتبتْـه هـي عـن رسـائله وعنهـا وعنـه، وربـما يسـتطيع مـن تعمـق بكتاباتهـا أن يؤكـد ذلـك، وهـذا النـوع النرجسـي مـن النسـاء لا يسـتحق إلا النبـذ والتكـبر عليـه، بـل تأمّـلْ قولهـا: أنـه لم يكـن أحـبّ (رجالهـا) إليهـا،... لكنـه مـن (الأنقيـاء القلائـل!).

لا أدري لمـاذا شـعرت أنهـا تلمـز ضعفـه وقلـة حيلتـه وصدقـه في حبّـه، بـل ربـما تحتقـر خضوعـه لهـا!. وسـتدرك حينهـا أن تضخيمهـا لأهميـة رسـائل غسـان الأدبيـة ليـس إلا تغذيـة مبطنـة لنرجسـيتها المتورمـة؛ أي أن هنـاك عائـداً (غاديّـاً) مهـماً لـكل مـا يعـلي شـأن غسـان المناضـل الأديـب، سـيصبّ حتـماً في نرجسـية تلـك الأنثـى (الاسـتثناء) التـي اسـتطاعت أن تسـلب لـبَّ ذلـك الرجـل القـوي إلى درجـة التذلـل الشـنيع!.

أنثى استثناء تجيد استثمار المشاعر وإبرام الصفقات، وتقدير المكاسب، ولعل درويشاً يفرض نفسه هنا يوم يقول: هي لا تحبُّكَ أنتَ، يعجبُها مجازُكَ، أنتَ شاعرُها، وهذا كُلُّ ما في الأَمرِ.

لَكَم تمنيت وأنا أطوي رسالة إثر رسالة أن أجد غضبة له، ثورة، كفراً بذلك القلب الضعيف، وكفراً بها، يشفي الغليل، لكنني لم أجد، بل إنه يؤكد أنه سيزداد حباً لها كلما ازدادت صداً وإذلالاً له، حنانيك اللّهم! نعوذ بك من هذا الضعف والذُّل. إن الذُّل الجميل يكون عند من يقدره قدره فيذلّ لك بمثله، لا بمن يعلو عليك به ويزيد إذلالك وإهمالك. 24/ 6/ 2020

كلمات عن رسائل غسان لغادة: المرأة الاستثناء!

قيل لي إن غادة استثنائية، تسويغاً لإقبال غسان وغيره عليها، ولعله يرى تبريراً لها أن تعامله بما عاملته، هي (غادة الاستثناء) فما ضرها ما فعلت! فلها من استثنائيتها ما يشفع لها. وتلمس ضيقاً عند بعض النساء، إن انتصرنا لغسان المتذلل الضعيف أمام حبيبته، فمن ستزهد بحبيب (شرقي) كهذا؟. لكن فاتهن أن يواجِدن (من المواجدة) غسانَ فيضعن أنفسهن مكانه، ويذقن شعور أن تسفح نفسك المكرمة سفحاً بلا انتهاءٍ على أعتابِ لئيمٍ لا يراك إلا إكسسواراً من إكسسوراته الكثيرة، ضوءاً يصطخب حواليه ليزيد تضخمه، يفخر به لا لقيمته الذاتية، بل لأنه امتداد يزيد في هالة ذاته العلية، نرجسي لا يؤمن إلا بنفسه ولا يثمن الحياة والأحياء إلا بمقدار ما يأخذ منهم.

وقلنا إن التذلل المشروع - إن صحت تسميته - هو لمن إذا قبّلت رأسه، قبّل يدك، ومن إذا مشيت إليه أتاك هرولة، إنه للكريم الذي تملكه بهذا، لا اللئيم الذي يتمرد عليك إن أكرمته، لتظلَّ تغدق عليه زخم روحك في

عشرات الأفعال والصفحات، ويظل يحرقها على جليد الانتظار البارد، ثم إن أجابك، يجيبك، بجملة تافهة شحيحة، في بطاقة بريدية: (لك شو هالبرد)[1]!. والمحزن أن غسان المسكين تكوثر بهذه الجملة وصنع منها جبالاً وجبالاً من المشاعر والكلمات!. والسؤال الجوهري الآن الذي أريد الإجابة عنه من وراء هذه المقدمة: من هي (المرأة الاستثناء)؟.

هل هي المرأة الأديبة؟ التي تحسن رصف الكلمات، واجتراح الصور والمجازات، واستثمار الخيال، وتوظيف اللغة لتنطق عن مشاعرها بكل احتراف؟ يبدو أن كثيرين نزعوا من الحياة صفةَ الاستثناء أو التفرد في إنسان، ورأوه في الكتابة، ولم يدركوا أن الكتابة من ظلال الحياة لا الحياة، هي قيمة مضافة عليها لا هي، ولن تنوب عنها، بل تنطق عنها بكل قصور، فماذا سيفعل رجل - حتى إن كان أديباً - بأديبة بارعة اليد، صلدة القلب، كسول النفس، تحسن ترتيب كلماتها، لكن الفوضى تنتظم بيتها وعلاقتها برجلها، ولا تراه إلا كويكباً يدور في فلكها الضخم. إن الحياة الطيبة لا تحتاج أبطال الصفحات أو الشاشات، بل أبطال الواقع حتى وإن كانوا أُميِّين لا يخطون حرفاً لكن قلوبهم وأيديهم بليغة بليغة، تزيد الحياة بهم وتجمُل.

ملثما تحدثت مرة عن (بؤس المعرفة) أي تلك التي لا تصقل إنسانيتك بل تزيد جبروتك، هناك بؤس الكتابة أو الأدب لمن يكتب، يوم يتضخم في ذاته، ويكون معشره أنتن من مستنقع آسن، وما أكثرهم! ما أكثرهم بين الأدباء والأديبات، المفكرين منهم والمفكرات، فحذار من هذا الشراك الأنيق، ولا يغرنكم بريق الحروف، فمن ورائها سيوف وسيوف، فلا تبخسوا إنساناً طيباً تكرمكم الحياة به وتخطئوا تقييم النفوس الكبيرة.

---

(1) هذه هي رسالتها له! جملة في بطاقة بريدية بعد تيار رسائله الدّفاق إليها، وانتظاره الطويل. راجع الرسائل المنشورة عن دار الطليعة.

قد قرأت في حروفك، إنه أدب جميل، لكن ماذا عن حنانك؟ وقد سمعت عن سلوكك، إنه خلق أصيل، لكن ماذا عن حنانك؟ وقد علمت عن طموحك، إنه حلم نبيل، لكن ماذا عن حنانك؟ دعك من هذا وقولي: هل سأنسى حضن أمي إن توكلتِ بهمي؟ كل ما أخشاه منكِ، أن تجمعي كل المزايا إلا شيئاً في الحنايا، هو كل ما يتمناه الوحيد. 25/ 6/ 2020

كلمات عن رسائل غسان لغادة: قوس قزح قرميدي!

عندما أقارن بين كتابات الرافعي عن ميّ زيادة، وكتابات غسان عن غادة، أجد فرقاً كبيراً بين الكتابتين. تشعر أن الرافعي منشغل ببيانه عن ميّ، اتخذها موضوعاً له، فتكوثر باللغة تكوثراً شاسعاً إلى درجة التكلف الذي يجعلك تشكك بصدق مشاعره نحوها، لذا فرسائله صنعة بليغة لكنها لا تمس القلب كرسائل غسان رغم سذاجتها أحياناً!.

غسان منشغل بغادة لا ببيانه عنها، وأجزم أنه لم يكن - وهو يكتب إليها - يفكر بأي هاجس أدبي، وهو قادر أن يبدع لو أراد. كان كل همه أن يقول ويقول بكل بساطة عما ينحر روحه نحراً ليوصله بأقصر ما يكون إلى من أحبها، إذ ألمح فيه بساطة الريفي الصادق الذي لا يتقن زخرفة الأدوار ولعب المتلونين، وفنّ الكرّ والفرّ ليسدد ضرباته جيداً. يبدو أنه لم يكن يعي أنه في ساحة تحكمها قوانين لعبة مختلفة، أو لعله وعى ولكن لم يكن يملك من أمره شيئاً إلا أن يتجلى بكل هشاشته المخفية تحت نصال النضال.

وحقاً إنه لذو حظ تعس (كما يقول في رسالته إلى أخته فائزة)، إذ وقع في يدٍ من عالم آخر لها معاييرها المختلفة. وإننا إذ وصفناها بالبراغماتية فهذه

ليست مذمة أو قدحاً، إنما توصيف لحقائق الأشياء كما نرجحها. الأسر الأرستقراطية ذوات المدن العتيقة، لها معايير مختلفة، إذ كل شيء بحسبان، وله قوانين صارمة بدون أي سورة عاطفة تهدم النظام أو مستوى الحياة المتبع، ولا ترى العاطفة إلا استكمالاً للأصل الذي لا حياد عنه فإن صادمتْه، كان نحرها أَوْلى حتى وإن أُبِّنَتْ ببعض النصوص العاطفية الذكية!.

ولحسن حظي أن يقع بين يدي هذا النص لغادة (تجده في نهاية هذا النص)، تشرح فيه فلسفتها المادية الخرسانية الصلدة، تأملْ - أيها القارئ - مقطعه الثاني جيداً، وقد جاء فيه: [إنك لا تستطيع شراء قوس قزح لقرميد بيتك].

لقوس قزح رمزية الروح والشفافية والسمو والجمال والبكورة، إنه من رحم الطبيعة البديعة، أما القرميد فهو من صنع البشر وعالم الآلة، إنه علامة على البناء والاكتفاء والقوة التي تشيد بيتك، فإن عرض لك شخصان أحدهما قوس قزح والآخر قرميد، فمن ستختار؟ غادة ستجيبك؛ إن قوس قزح لن يفيدك في قرميد بيتك!.

لذا فلا غرابة أن يكون زواجها من ثري أرستقراطي صاحب دار نشر، صدمة ومفاجأة للأوساط آنذاك، ولست أعيب عليها ذلك حتى لا يتحفني أحد بنقد ينكر علي كلامي، وكأنني أريد منها أن تحب غسانَ غصباً! فمثلها يكسب وهكذا تحتاج الحياة بكل بساطة!.

أنا هنا لأكتب نقداً أدبياً وليس شخصياً، مقتدياً بغادة نفسها التي ترى أن رسائل غسان ليست شأناً شخصياً بل أدبياً، بل تحث حبيبات غسان الأولَيات (جاكلين وكوكب ومنى[1]) أن ينشرن رسائله تأسياً بها!.

---

(1) انظر رسالته الأخيرة، إلى أخته فائزة، على الهامش.

فما دامَتْ نشرتْ فلْتحتمِلْ هي ومحبوها نقدنا. لكن لا أخفيكم أن ظني السيئ يداعبني فلا أستطيع أن أتجنب كثيره! لأقول لكم بعضه: لا أدري لماذا أشعر أنها هي ذاتها موقنة أن لا قيمة أدبية لرسائل غسان إطلاقاً، ولربما كانت تضحك في سرها منها. الصدق إنني أدري حتى وإن قلت لا أدري... الجواب عند كل شخصية نرجسية من وسط أرستقراطي.

27/ 6/ 2020

تقول غادة السمان بتصرف واختصار:

مساءُ الخير أيها الفراق

لا تغضب

كان حبنا جميلاً جميلاً

أجمل من أن يصير حقيقة معاشة

فقررتُ أن أطلق عليه رصاصة الرحمة

لأغتالهُ وهو في ذروة جمالهْ

ألا ترى بذلك أنه لن يذوي أبداً؟

كان حُبنا شفافاً كالحلم

ساحراً كقوس قزح

وكقوس قزح، كان رحيله محتوماً

إنك لا تستطيع شراء قوس قزح لقرميد بيتك!

لذا قررت أن أمنح حبنا

ما هو أكبر من الصبر

القتل!

فسأقتل نفسي
لكي لا يصير حبنا
مجرد عادة بائسة أخرى
وعصفوراً آخر محنطاً في ركن منسي بأحد صناديقك
فلنهمس معاً بصفاء: مساءُ الخير أيها الفراق، مساء المساء الحزين.

ما لم يقله غسان لغادة، الرسالة الثالثة عشرة، الأخيرة

عزيزتي غادة، هأنذا أجلس لأكتب إليك نعوتي الأخيرة، والحزن يسبح في دمي وحبري ورأسي، مستنهضاً كل أحزان حياتي مذ كنت طفلاً واقفاً هناك على جثة يافا، على أرض من الفقد والمرض والرحيل الطويل، فهكذا هو قدري، وقد حاولت وأنا أكتب إليك الآن، والغبار يملأ جرحي، أن أقنن حزني، فأكتفي بك وحدك، لكن هيهات! إن أقدار الحزن لا ترضى بنصف حزن، إنها إن يممتْ شطرَ قلبكَ، ساقتْ إليك كل ما تستطيعه من أشباهها، لتحكم اعتصارك فلا تطلقك إلا وأصابعك وأعينك يفضن من الدمع، وكأن أحزان البشر كلها هي أحزانك، وغربتهم هي غربتك، وكأنك إذ تبكيهم تبكي نفسك.

هأنذا أجلس لأخلو بحرفي إلى صورة وجهكِ من خلَل دخاني وانطفائي، كانت عيناك ساجيتين سجوَّ غروبِ فضاءٍ لا يكفكف عنفوان اتساعه شيءٌ، لزجاجيهما التماعةٌ مراوغةٌ كأنها العمق الذي شفَّ وشفَّ فانقلب سطحاً، كمياه النهر يبينُ وجهُها عما في قاعِها، من جمال الألوان والأشكال في الحصيات والأعشاب والمحار، إنها (العيونُ النهرُ) يوم تلتقيان معه في نسب واحد هو النقاء، كبلورتين من الماس ذواتي سطوح

متعددة، يتيه الضوء سجيناً في نسيجهما، فيَصْخبُ متكاثراً بهما شموساً كثيرة، ويستدير عليهما ليل حانقٌ من الرموش الغزيرة، وهذه هي حيرة الأضداد، يوم لا تكون حقيقتها إلا معاً، وهكذا أنا وأنت، جمرُ حقيقةٍ هو أنا، وصقيعُ وهمٍ هو أنت، غصةُ معنىً حائرٍ هو أنا، وسطوة لفظٍ صلدٍ هو أنت، فما أشبهكِ بالسراب، كلاكما يمنّيني بالماء!.

أحببتكِ بكلِّ ما في مجرات الكون من ضوءٍ، وحملت نفسي إليك على نعشٍ بلا حساب للحياة، لأنك لي الحياة، وما الحياة لثائرٍ فاقدٍ وطناً، مكشوفِ الدمِ، يمشي على رمحٍ قديم بين البنادق الحية، فحياته ليست قضية، ويرى حبيبته هي القضية، فكلُّ مضيّعٍ وطناً، حبيبته قضية. كنت شاهقاً جداً بك، وتضاءل الضوء في نفسي لأضيئها لك، فلم أجد إلا ثقباً أسودَ، يبتلعني بلا أثر، في حضيضٍ من حجر.

تبشرين بالفراق، ترحبين بالوداع، تصطنعين الأوجاع الكبيرة، وهي أصغر من صغيرة، هي جبنك الماكر تفرين به إلى فارسك الذي لم يولد - بعدُ - في عيونك، لينقلك إلى قرميدِ منزله الوثير، إلى قوس قزحه الأرضي. أحيي التاجر الأدبي فيك لأنه يعرف كيف يحسب للحياة، ويتنبأ بمسارات الخسارات المؤلمة فيتوقاها، ويحسن كيف يصفّح قلبه فينجو، ويجيد حياته بكل أناقة أو صفاقة، ويعرف كيف يستبقي مفلساً مثلي إلا (من حرفه وقلبه)، ليشغل الأحياء به، حتى في قبره، في حين كنت تقبرينه حياً بإهمالك وإذلالك، والإهمال مقبرة النفوس الكريمة، ولا خير فيكِ إن كنتِ جبّاراً في الجفاء، يخر أصم أعمى على ندائي، إن نفسكِ في نفسكِ أكبر ، إن حاجتكِ في نفسك أكبر، جبلاً يحجب ضوء الحنو والوصل ، فتعودين شحيحةً كصحراء لا خضرة فيها ولا ماء.

وجمالكِ القاسي، دمية من رخام، لماعة ناعمة، لكنها بخيلة الملامح كأصابعك، لا صوت ولا معنى، فما أضيق المساحات عند بابك، وما أفقر الأمل، وما أعقم العمل، إن المشاعر الحقة لا تجبن، ولا تعمل بالشروط، فلتبقَي إذن تلهين في باطل شعورك، أما أنا فسوف أمضي، فقد تبيّنتُ سرابك، وأخذتُ حقك من زمني ومن حزني، فما أسخفني إذ تخيلتكِ إليّ، ومني وفيَّ، أنا قوس قزح في سماء، ومن الأنقياء القلائل، وعمري أقصر من حياتك، لكي أشيّدَ قرميدها، فليت الحياة تمهلتني مزيداً من العمر لكي أعتذر من نفسي وحرفي، يا غادتي التي كتبتُ إليها بحاراً من الشوق يوماً فيوماً، فجاوبتني بجملة بردٍ فقيرة، فيها كل الحقيقة، فأنا فقير من نقاء، أيتها الصديقة، الطليقة.

2020/6/28

على شاطئ الكتابة

عزاء الكتابة

إن الكتابة وليدة الحزن والألم والفَقْد والحرمان أكثر منها وليدة الفرح والسعادة والاطمئنان؛ لذا فقصة حبّ لم تكتمل هي أدعى للإنتاج من حبّ انتهى بزواج، فلولا فقده إياها لما كتب ما كتب، لأن الوصول إلى الحبيب وصولاً دائماً يسكت القلم؛ لأن أقلاماً أخرى حينها هي التي ستجد سبيلها إلى التعبير، ترتوي فتهجع.

لـمَ التعجب؟ الإنسان يصرخ إن تألم أو فقد أو احتاج، فإن كان كاتباً، ظهر صراخه حروفاً، هل كان نزار سيكتب ما كتب عن بلقيس، لولا موتها. وجفاء ميّ للرافعي كان خيراً للأدب لكنه ألمٌ له، فلو ظفر بها ما أظنه سيكتب ثلاثيته، بل سيكتبها في عشرته العملية لها، يكتبها عناقاً حقيقياً لا على الورق. لأن الوصل ناموس واعتياد، هل رأيت سليماً يصدح بصحته؟ إنه يتعامل معها كشيء حاصل لا ينتبه إليه، فإن زال ملأ ضجيجه الأرضين والسموات.

هذه هي القاعدة والشذوذ أن يكتب الإنسان عن نعيمه، لكنه في جحيمه أكثر بياناً وبلاغة وعمقاً، ولا جحيم كالفقد، والنقص من القلوب.

لا أرى الأدب إلا عزاء فيما نقص منا في هذه الدنيا، إنه ترضية الغيب لنا، أنْ جعل لنا لساناً نكفكف به ما نقص منا هنا، ولا اكتمال له إلا بحياة أخرى، فكأن الأدب شكل من أشكال الصبر!. ألم يقل الله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: 2/ 155].

فمن نطق أدبه عن نقصه من نفس أحبها فهو يظهر صبره والتياعه بهذه الحروف، فاستوى أمر الأدب آيةً على سنة الله في خلقه يظهر فيه عظمةَ مخلوقه، إذ كيف لنا أن نرى الشوق والحنين والحزن لولا هذه الحروف، فانبغى لله تعالى أن يقسم بها ليدل على صدق نبيه: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: 68/ 1-2]. أقسم بها ليؤكد صلة الغيب بالأرض صلة الله بأحد من خلقه (نبيه).

فكأن الكتابة وأدواتها بلاغ مبين أن هذا المخلوق (الإنسان) فيه جزء من الغيب في أسّ خلقه، وإلا لما استطاع أن ينطق ويكتب ويسطر. ولما أن الأدب ألصق بالإنسان لأنه ذاتي محض ينطلق من النفس وأشواقها وآلامها، لذا فالكتابة الأدبية من أشرف المقامات دلالةً على الله، إنها من الداخل من الأعماق من شيء لا وجود له في الطبيعة.

إنه في الداخل فقط، فمن أين أتى لولا قوة غيبية نفخته، وأشهد أنه لا يقوله إلا مخلوق فيه شيء من إله، فالأدب برهان على الإله.

[فأن أحبك الحبَّ الذي أقسى من الموتِ

فذلك لأنكِ النور الذي عرّى دجى الأعمى

وأنت صباي عاد إليّ

أختاً عاد أو أماً

وأنت حبيبتي

أفدي خفق عينيك

وما نفضا من السحبِ
وأفدي خفق نهديكِ
على قلبي][1].
25 مارس 2017

الكتابة داء أو دواء

ما المعيار الذي يميْزُ كتابةً جيدة من سيئة أو صعبة من سهلة؟ يجب أن نعي أن كل كتابة معينة لها جمهورها، والكاتب حين يكتب يجب أن يعي درجة العينة التي يخاطبها، لينزل بيانه على صفات عينته.

فهل غايته أن يعجز قراءه؟ هل الصعوبة هدف بذاته أم الغاية هي البيان واقتياد القارئ إلى الغاية بأيسر السبل؟.

ولكل علم أو مجال ثقافي مفاتيحه، هي أسماؤه أو مصطلحاته التي تعين على فهمه والدخول فيه. لذا امتاز الكتّاب الجيدون أو المحاضرون أن يطهّروا مصطلحاتهم (يبينوها) للقارئين أو السامعين في غرة كتاباتهم أو محاضراتهم.

وقد يكون للكاتب استعمالات لفظية خاصة فيه، فيحسن أن يبيّن مدلولاتها التي يدل بها عليها، وسيبقى دور كبير منوط بالقارئ مهما بيّن الكاتب، فلا ينبغي لقارئ أن يقرأ كتاباً متقدماً في علم معين، وهو لا يعرف أبجدياته أو مصطلحاته أو وظيفته أو الإشكاليات التي يعالجها، ثم يصف أسلوب الكاتب بأنه صعب أو لا يحسن البيان!.

وأريد أن أخص الكتابات الفيسبوكية أو كتّابها ببعض الملاحظات، أولئك الذين يكتبون في مواضيع لا يخلو منها بال معظم الناس، ويقرأ لهم مئات أو

(1) بدر شاكر السياب.

ألوف، مواضيع الفكر خاصة، والسياسة، وحتى الفلسفة التي لا يمكن لمجال معرفي أن ينجوَ منها، إذ شعرت أن بعضهم يظن كل الناس محيطين به وبمعجمه الكتابيّ، فهو يحشد المصطلحات على غير هدىً من بيان أو تبسيط، وقد يبني مقاله كله على بضعة مصطلحات إن جهلها القارئ ما وعى شيئاً من مقاله.

إننا نحتاج إلى روّاد بارعين يفصّلون تخصصاتهم العميقة أو البعيدة، ويجعلونها كالخبز الساخن تهفو إليه كل نفس، وتلتهمه على عجل من يد خبّازه، ولا يعزّ على غني أو فقير، فكيف بمن يتصدر لكتابات جماهيرية ويجعل من الحبة قبة؟ إن تبسيط العلوم مشروع كل حضارة ناجحة، فما بال بعض القوم يجعلون من السهل صعباً، وظننا بهم أن يجعلوا من الصعب سهلاً؟ وعالمنا الفلسفي، مصطلحاته خاصة، لا تزال تساق بغير هدىً أو كتاب منير في كتابات الكثيرين، فترى كتابات بعض الشباب النهمين للفلسفة - وأحييهم على ذلك - عسرة على العقول.

قد يُعذرون قليلاً إن كان حَجّهم إلى قبيلٍ مثلهم، أما من يريد أن يشيع المعرفة وينهض بثقافة الجماهير، فعليه أن يفعل غير هذا.

يقول الكاتب الرصين الدكتور عادل مصطفى صاحب فهم الفهم والمغالطات المنطقية، في مقدمة كتابه (مدخل إلى الفلسفة)، الذي ترجمه عن وليم جيمس إيرل: «كل ما قد نعانيه من ارتداد (التنوير) أو إخفاق بصدد توطين الفكر العلمي والنقدي في بلادنا، يعود بشكل أو بآخر إلى ضربٍ من فراغ فلسفي ما زال يلاحقنا».

فوجود ثلّة من الشباب الحي يتصدى لهذا المجال الكبير، شيء يبعث على الأمل بفجر آخر، بشرط أن يدركوا خطورة اللغة ويحسنوا التعامل معها، إن كانت قبلتهم شعوبهم!. 7 نوفمبر 2015

رئة ثالثة

خلّة القلم والكتابة والورقة، قدرٌ حتمي عندما يتصدع القلب بالرحيل وبالألم، عندما تصبح الحياة رحلة غربة مستمرة، تبدأ منذ فجر العمر، عمرِ ذلك الطالب الريفي البسيط، ليست الكتابة يومئذ ترفاً يخوض فيه العابثون الفارغون من أي معنىً كبير من معاني الحياة الهادرة، إن الكتابة له، رئة ثالثة، بل نافذة التنفس التي تنقذه من اختناق محتم. وكأن القلم ملاك كريم من أمر الغيب، يصغي إلى أرواحنا المتألمة، فيجعل ألمها شهادة تدركها القلوب.

إنها أمارة على نزيفه المؤار، على اغترابه، على خيبته، على جوعه إلى الدفء، إلى الأمان، إلى ابتسامة حية، إلى كفٍّ نديٍّ، إلى قلبٍ كبيرٍ يأوي إليه بكل أثقاله وآماله، وأحلامه وأوهامه، بكل حسناته وعيوبه.

إن الكتابة نقطة قوتي وضعفي، كالحب، يحمل قوته وضعفه معاً، أو سعادته وألمه، وهذه الأشياء التي تجمع الثنائيات المتضادة، هي أكثر ما يربك العقل ويفقده توازنه فلا يحسن التعامل معه.

هل هذه إحدى مشكلاتي مع الفيسبوك، الذي هممت مراراً بهجره لكنني فشلت؟ ذلك الممدوح المذموم! مهما قالوا عنه، فلست أرى له سرّاً كسرِّ ارتباطه بالكتابة، بالقلم، شريان الروح الصادق.

ويصدق هذا المعنى إذا علمنا أن القرآن الكريم جمع ذلك الثلاثي معاً في حضن واحد: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: 68/ 1]. فالكتابة (السطر بمعنى أدق)، هي الشكل الأبجدي للغة، والقلم في أحد أنواعه هو أداتها العتيدة، أما (نون) فهي علمٌ على اللغة العربية كما بينت بعض الأبحاث اللغوية[1].

(1) فصلت في هذه القضية في كتابي القلم تحت عنوان: (ن والإنسان الخليفة).

لم أخطط أن أكتب كل هذا، لكن أحببت أن أقول: إني أتنفس من أصابعي عندما أختنق بك، وهيهات يا صموتة الروح أن تعي معنى الألم في الحروف عندما تصبح أكسجيناً. 10 أكتوبر 2016

انشغلْ بنصي عني ودعك مني

قد أرى نملتين تفترقان فأكتب عنهما نصّاً شفيفاً، كلُّ ما يملأ نفسي أو يثيرها جدير بأن يستنهض قلمي، قد يكون حدثاً حاضراً مرّ بي أو مررت به، أو ذكرى ماضية، أو نصفَ جملةٍ في أغنية عتيقة، أو مثقال ذرة من لحن كتلك القطعة التي أبدعها كاظم قبل قوله: مرهقة أنتِ وخائفة...

أو قد يكون فستاناً يسبّح بالفيروزي شمخت به نخلة عراقية على شاشة صاخبة، قد أكتب عن أمرِ صديقٍ عميق سارّني، أو عابرٍ افتراضي استشارني، قد أقيم الدنيا وأقعدها إذا مرت نسمة تعبى بجوار جرحي، وقد أكون أنا بطل نصي وقد لا أكون، فأرحْ نفسك من رهق الظنون وأرحني، فكم من بطلٍ نظنه بطلاً والمجد للكومبارس!.

أنا أسكب كل ما في نفسي على هذا الصفحة، لأنني مفتون بتحويل عالمها الداخلي إلى حروف من عالم الأدب، تمتزج بضوء العيون لتلمع قليلاً أو تبتسم ثم تكمل حياتها لا تأبه بي، هذه متعتي، أن أُلبس حتى الألم والحزن والغضب ثوب اللغة بأقصى ما أستطيع من إتقان، فانشغل بنصي عني ودعك مني. 24 فبراير 2016

***

إن الأديب كالنحلة التي تتنقل بين حدائقَ شتى، مختلفٌ ألوانها وطعومها، فتصنع منها وحدة متناغمة عسلاً شهياً، وكذلك هو، يستطيع أن يكتب عن كل حدث يصادفه فيجعل منه ملحمة. لكن ثمة قارئ يظن أن كلَّ نصٍّ

بطله كاتبه ضرورةً! وإن صحَّ هذا في جزء فلن يصح في غيره، فالأديب له حياة واحدة، ولا يستطيع أن يعيش كل تجارب البشر، وإبداعه ينشأ من ملكة الإحساس المرهف الذي يفقه كل ما يراه أو يسمعه، وقدرته على تمثله واستيعابه فسرده بأسلوبه الخاص وكأنه عاشه حقيقةً.

وأمام الأديب معضلة أخرى، عند قراءٍ يحاكمون نصه بعقلية الفقيه أو القاضي أو المصلح، ويرون حروفه جنايةً إن لم تنطبق على تكوينهم الوعظي الذي يفرم كل ما يصادفه فرماً بلا تمييز، ذاهلين عن وظيفة الأدب وحقيقته الأولى. ليس في النفس طاقة ولا لياقة تتسع لهؤلاء، فالعمر قصير، والعمل كثير، والصحة غالية، ومن سلبيات الإحساس أنه جميل في الأدب والكتابة لكنه متعب في الحياة والأحياء. 13 مارس/ 2020

***

يلعب كثيرون بالكتابة، يكتبون عن هواية أو تسلية أو حاجة جمالية تتأنق بها الروح، وقد يكون لهم أهداف جليلة كثيرة منها، وقد يكتبون عن أوجاع الآخرين، لأنهم ماهرون في مواجدتهم فكأنهم يحيون حياتهم ولكن على الورق. كم هي ظالمة هذه الفكرة لمن يكتب عن ابنه الحقيقي من الوجع الذي لم يتبنّه أو يستعِره من أحد، ولكنها فكرة عادلة أيضاً! لأنها تستر جروحك وضعفك فلا يُعلم من هو الذي ينزف حقاً؛ أهو أنت أم شخص آخر مررت بجرحه فأقمت منه حياة من الألم، لكن على الورق!.
لكنها فكرة ظالمة أيضاً، أن يصبح النص هو (البطل) فيقال عنه: جميل، مؤثر، صادق، ويخطف الأضواء كحالة جمالية!. أما البطل الحقيقي الذي يئنُّ خلفه، فلا يُدرى عنه. ولماذا نريد العدل هنا؟ أكثر الأبطال الحقيقيين في هذه الحياة مغيبون! وهل العلم بهم، سيخفف ألمهم؟ هيهات.

قارئ أصم

الكتّاب أو المؤلفون كأي شيء في هذه الحياة، أنماط شتى، يتباينون في أساليبهم اللغوية، وفي قواميسهم اللفظية، وفي الأفكار التي ينتجونها أو يعالجونها، والمجالات التي يمخرون عبابها، وقد يتشابه بعضهم في بعض النواحي، والقراء مثلهم أيضاً، أصنافهم شتى، وكلٌّ ذاهبٌ إلى الكاتب الذي يفهمه، الذي يجيب عن أسئلته، أو يحسن التعبير عن همومه، أو يكتب في المجال الذي يهمه، وعلى هذا وغيره، يقرب بعض الكتّاب من نفسك، ويبعد آخرون، فمن تفضله قد لا يفضله غيرك، ومن تراه مبدعاً، قد لا يعني إبداعه أي شيء لآخر يبحث عن عزف من طراز آخر، ويتعب نفسه من يريد أن يعجب كل الناس أو يرضيهم، ويخطئ من يجعل ذوقه معياراً مطلقاً يحاكم إليه كل شيء في عالم الكتّاب والقراء. هذا كله مفهوم، ولكن الذي ليس مفهوماً، أن يحاول بعض القراء أن يضطروا الكاتب أن يتخلق كما يتخيلون. إن كان لا يروقك حرفي فاذهب لمن يروقك، لست عليّ بوكيل، ولست عليك بحفيظ.

فبعضهم لا تطيب له إلا الألوان الفاقعة، يطرب لها، يستريح بها ولها، ثم يخرّ على حروفك ذمّاً؛ لأن أطوال موجاتها ثقيلة على بصره فهو يجدها شيئاً عسراً، ثم يتلفّع (بموضة النقد البنّاء) متهماً إياك بعواره، ليقنعك بضروة العلاج!. يخلق لك من مزاجه ووهمه حقيقةً، ويريدك أن تراه مثله حقيقة!.

فإن بيّنت له باطل رأيه، وأنه لا يعيبك ولا يعيبه أن تحلق بعيداً عن أفلاكه، قلب لك ظهر المجن، وانجلت ابتسامته المنحوتة عن نفسٍ تتلوى من وطأة العقد، ثم ينقلب إليك حاملاً نفسه على أصابعه يفتخر بها ويعلو،

وكأنـه رأى في تفنيـدك رأيـه، نيـلاً مـن نفسـه، وكأنـه رأى في عـدم اقتناعـك ورفضـك مشـابهته، عدوانـاً عـلى نفسـه الكبـيرة.

أيهـا العابـر، أنـا لا أعرفـك، ولا تعنينـي ولا يعنيـك حـرفي، إنـه ليـس لمثلـك، لـه أهلـه وقلوبـه التـي تغفـو عـلى أوتـاره فهـم غُنيتـه وأغنيتـه، ولم أعلـم أن حـرفي يغضبـك حتـى رأيتـك تسـدُّ نافذتـك دونـه، وكـل ذنبـه أنـه هـو هـو!.

إن كنـتُ قـد زهـدتُ في رأيـك، فأنـا فيـك أزهـد، ولم أنفـق عليـك إلا تفكـراً عابـراً باهتـاً مـرَّ عـليّ ورمقتـه بعينيـن ضجرتـين، وهـذا النـص الـذي أكتبـه وعينـاي تدافعـان وشوشـة النـوم. 24 أبريـل 2016

عالمان متشاطئان

هنـاك مـن لا يميـز النـص الأدبي مـن النـص الفكـري، ولا أزعـم أن هنـاك مفاصلـة واضحـة بينهـما، إذ كثـيراً مـا يكـون الأدب وعـاء للفكـر، فهـما متباينـان متداخـلان. ويغلـب أن يكـون الأدب مـرآة صادقـة تعكـس مشـاعر النفـس دون أن تحللهـا أو تفسرهـا أو تبررهـا. إذ يحلـو للبعـض أن يقـول هـذا مفكـر وهـذا أديـب، هـذا فيلسـوف وذاك عـالم، وكثـير مـن هـذا صـواب، لكـن الـذي ليـس صوابـاً أن يظـن بعضهـم أن هـذه المجـالات تتفاصـل مفاصـلات حـادة كالكفـر والإيـمان! خاصـة الفكـر والأدب ومـن قبلهـما الفلسـفة.

إنـه فـخ الأسـماء أو المصطلحـات أو اللغـة، إنـه القيـد الـذي صنعـه الإنسـان ليفهـم نفسـه والكـون، فلـما عـاد إليهـما نـسي أن يجمـع مـا قسـمه ليفهـم. إن قوانـين الفيزيـاء والكيميـاء والأحيـاء كلهـا تعمـل معـاً في الكـون، ولا تعـترف بتقسـيم الإنسـان، الـذي قسـمها وتخصـص فيهـا ليفهمهـا، ولـن يتفـوق عـالم مـا لم يـعِ علاقاتهـا الحقـة، فمـن ينعـزل في تخصصـه سيبقى بعيـداً عـن إدراك الحقيقـة الكاملـة المبهـرة التـي تتوسـل بـكل العلـوم، فـإن اسـتدرنا إلى عـالم الأنفـس،

فسنجد هذا المعنى حاضراً في الفلسفة والفكر والأدب، فهل يخلو أدب من فكر، وهل ينحط فكر إن تزين بلغة الأدب؟ وكأن الفكر النفيس لا يكون إلا دميم اللغة أو مبذولها. وطوبى لمن جمع أبوة الفكر وأمومة الأدب في التعامل مع الحروف، إنها ستكون أسرة صالحة. 24 أبريل 2016.

الكتابة الخالقة والساطرة

إحدى النعم الجميلة التي تنعم بها الكتابة على صاحبها، أنها تحفظ له صوراً من نفسه يستقدمها مهما امتد الزمن، إنها كاميرا داخلية تحفظ ملامح الأفكار والعواطف في نقطة من خط الزمن الهائل، لتشهد على صيرورتك، وتخبرك كيف كنت، إنها أرضك التي إن سرت فيها أخبرتك كيف بدأ خلقك النفسي[1]، لتعي كم أنت نسبي. وكم يغشاك شعور غريب أمام بعض كتاباتك، تسائل نفسك: أهذا أنا الذي كتبت هذا؟. قد تبتسم من نفسك التي كانت أو تسخر، أو تفرح أو تحزن. والفيسبوك من هذه الناحية أداة عظيمة، أداة من أدوات السير في أرض النفوس، مجهر عدساته الحروف، ويا له من ظلم كبير أن تقرأ حرفاً دون وعي بالزمن والمكان الذي ولد فيهما، إنك كمن يرجمه ملغياً نسبه من أمه وأبيه، فما نحن إلا لبنات يشيدها الزمن، ونعوذ بالله أن يعلو بنياننا بلا روح أو معنى مجيد، كبئر معطلة وقصر مشيد.

وإن كانت الكتابة تعلمنا كيف بدأ الخلق، فهي أداة خالقة، لأن عملية السير هي ذاتها القراءة، والقراءة قراءة باسم الرب الذي خلق، فهي باسمه الخالق؛ أي أن تعي أن لا أحد خلق غيره، فهي قراءة توحيدية، تزيدك علماً به، وتزيدك قدرة منه، فتتخلق باسمه الذي خلق، فتخلق أيضاً، لتكون دليلاً

(1) إشارة إلى هذه الآية: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: 29/ 20].

عليه، فالقراءة هنا باسم (الرب الذي خلق)، والاسم مفهوم كلّي أمري أي من عالم الأمر، وله متعلقات في عالم الخلق هي مخلوقاته، والروح التي نُفخت فيك من عالم الأمر أيضاً، وهي مناط قدرتك على العلم ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 17/ 85].

إذن روحك واسمه من مشكاة واحدة، فأن تقرأ باسمه؛ أي أن تمتلأ روحك الأمرية بمقتضيات أو متعلقات (مخلوقات) اسمه الأمري (الذي خلق)، وامتلاؤها يعني علمها بمخلوقاته، والعلم بالمخلوقات لن ينفك عن العلم بالسنن الأمرية التي تسخرها(1). إذن هي مسيرة بأمر منه، وفيك قبس من أمره (روحك) وقد أمركَ أن تقرأ باسمه، لنصل إلى أن الزيادة في العلم بالمخلوقات تعني حتماً الزيادة في العلم بالخالق، وهذا هو عين التوحيد وعين العبادة؛ لذا فقد بزّ فضل العالم فضل العابد، وكان أخشى الله من عباده هم العلماء لأن علمهم بمخلوقاته زادهم علماً به، وهم حصراً علماء الطبيعة والإنسان كما يشير سياق الآية في سورة غافر. 27 أغسطس 2018.

فإذا قرأت فسوف تسطر ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 68/ 1]، والكتابة الساطرة ربيبة قراءة مضنية، قراءة كتب وقراءة حياة، لها في سيرة العلم والمعرفة قصة كبيرة، إنها مخاض عسر تعاورت عليه زفرات الفكر والعاطفة وخشونة اليد، لذلك فالكتب التي تغير الحياة والأحياء، وتحفر في جبين الزمن حفراً خالداً، قلة قليلة إنها كالشرف في عصر اللئام، وقد يعلوها الغبار تخرّ عليها الشاشات صمّاً وعمياناً. (سطرك) هو التأشيرة الوحيدة التي تثبت دخولك عالم الاستخلاف، هو البرهان العتيد على علوك على الملائكة، وعلى حملك هوية الخليفة الذي جعله الله. سطرك هو الذي يثبت

(1) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 16/ 12].

نسبك العلوي، هو الذي يثبت أنك ارتفعت بالطين إلى سدرة المنتهى، إلى ذلك الملأ الضوئي، حيث كانت ولادتك الأولى، فاسْطرْ[1].

ضعف بشري لا نفاق

إن الكاتب لا يستطيع أن يجسد كل ما يكتب ليس لأنه منافق (يظهر خلاف ما يبطن)، بل لأن التنظير يبقى أوسع من العمل والتطبيق، والكمال فيه أن تسير إليه، ولأن الحديث في الأفكار وعنها يتحرك في فضاء حرّ لا يعيقه عائق، أما التطبيق فهو مرهون بالواقع وظروفه وظروف الإنسان، وعوامل أخرى.

فهل إذا عجز عن التطبيق الكامل وجب عليه أن يصمت فلا يكتب عن الكمال؟ هذا لا يقوله عاقل، ولا ينفي هذا وجود كتّاب منافقين فعلاً، النفاق سيرتهم والكتابة وسيلة للمنافع لا المبادئ، ولا أعني هذا النوع.

أما النوع الأول الذي يتقلب بين الرغبة في الكمال والضعف البشري وتحديات الواقع، فلا يقال عنه منافق، فاحتفظ بهذه الفكرة النسبية لكل من تقرأ، فاعتقاد التطابق التام بين الكاتب وحرفه مشكلة، وكذلك الفصل التام بينه وبين حرفه مشكلة، فلو استثنينا (الكتاب المنافقين حقاً) فإن الكتاب الآخرين لهم من كتاباتهم نصيب كبير كبير.

تصورات قارئ

يقول أحدهم: إن التعليق بضحكة طويلة كـ: [ههههههه]، يقدح بكل ذي

(1) الكتابة ليست مقصورة على الخط باليد، فكل إنجاز نافع تخلقه هو كتابة، والسطر هو القطع فالفصل فالتمييز وهو من فعل (القلم)، فالكتابة الساطرة تقلم الحقائق والمفاهيم، فهي نافعة تفيد العلم، انظر تفصيل ذلك في كتابي (القلم).

قلم جاد أو شيء معيب، أو شيء من أخوات هذه الفكرة أو جاراتها. كأن الذي يكتب في قضية محترمة أو همٍّ عام أو في الدين خاصة، كأن عليه العدة! لا ينبغي له أن يصبأ عن جديته وعبوسه، ولا يلبس الزاهي من الألوان، أو الصاخب من الابتسامات والضحكات، أو حتى السخيف من السلوك أو الكتابة. لو كان معي روح القدس لما عجبت من هذه الظنون، ولكنني عارٍ من هذا التأييد، فمرة أعلو بضوء روحي العلوي، وأسفل مرات ومرات متعثراً بطين جسدي معفراً وجهي به ويدي.

وأحد الغيورين عليّ غيرة صادقة، يرى في بعض ردودي على موقع ASK، ابتذالاً لا يليق، ولو لأنني وسّعت صدري لطمست على صلته إلى يوم يبعثون، ولكن الله كفكف فجور نفسي بالمثوبة، وهددني - انقطعت - بالعقوبة، ففكرت وفكرت، واستقبلت من أمري ما استدبرت، وللمسيء سابقة طوّقت عنقي فتطامنت، وشفع له رحم الأدب الذي يجمعني به، فصفحت وغفرت.

لن أكون وقفاً على تخيّل أحد، ولست مضطراً لأتعضى بقوالب أحد، ولا كتب لأجمّل صورتي، فمن قال أنني أحسن العيش بحرفي واقعاً؟ وهل يطول السلوك العملي الكسيح فضاء الأفكار الفسيح؟ إنه طفل يتعثر خلف أبيه، قد يدركه أحياناً ويتخلف عنه أحايين.

نكتب عن الجمال لأننا ننقص بالقبح فنبحث عن الكمال بالجمال. نكتب عن الحرية لأننا سجناء نتحرك بظمأ الحرية. نكتب عن الحب لأن فقده أنكى من ملكه، والفقد والألم أكثر تحفيزاً على التعبير فالمتخم لا يتكلم، إنه مشغول بهضمه وخضمه، وليس مهتماً بالبيان أو البلاغ أو الجياع، فهم أكثر الناس صراخاً وحديثاً عن الشبع، قد لا يعطي الشيءَ فاقدُهُ، وقد يعطيه، لكنه حتماً سيكتب عنه. 17 أغسطس 2016

فلتغفر لي أيها القلم

فلتغفر لي أيها القلم إن طويت قلبي عنك وجفتْك أصابعي فلم تتعانق معك رقصاً على بلاط المعنى والكلمات، لترسما معاً شيئاً أو أشياء من نفسي المكلومة. أيعقل أن أهجرك وأنت خليلي الذي أخلو إليه كل ليل، أبثه حزني، يوم لا أحد يدنو مني ويصدق في تبصر ألمي ويكون لي كما تكون أنت لي أو مني، تشدو بلحني!.

لم أحسب أن أصير إلى حالٍ أضيعك فيه!. الحق أنني لم أضيعك أيها القلم، بل ضيعت نفسي، لذلك غبتَ عن مسرح قلبي وأصابعي وخلت حياتي من الحبر والورق، وعسعس فراغ لا لون له ولا طعم ولا رائحة إلا لون الملل وطعم البلادة ورائحة الموت المتقنع بالحياة. ها نحن أولاء أيها القلم، نذبح بالحب باسم الحب، ونهرق نبض أعيننا باسم السكن، ونحترق كعود ثقاب بلا ثمرة.

شيء مرٌّ أن تحمل جثة أحلامك بيديك، ويلهبك نزعها وأنت شهيد عليه، وتحاصرك الأقدار وجثتها في زنزانة واحدة فلا تستطيع حتى أن تدفنها دفناً لائقاً!. إنني - أيها القلم - لا أطلب نعيماً أو حياة عادية، بل أطلب درجة مخففة من هذا الجحيم لأستطيع أن أقوم بمراسم الدفن لكل شيء وأمضي وحيداً بوحدتي إلى وحدتي، بعيداً بعيداً عن كل هؤلاء الناس.

سأظل أكتب

إن شكرت الفيسبوك على شيء فسأشكره أنه عزز فيّ ملكة الكتابة أكثر، وجعلها روتيناً يومياً لا ينقطع إلا نادراً، أخذتْ معه شكلاً تفاعلياً جديداً، فهو ليس صفحة منفعلة أنت فاعلها تلقي عليها ما في نفسك وتمضي، بل

هـو يؤثـر فيـك أيضـاً، لمـا فيـه مـن نوافـذ كثـيرة تسـتفز خيالـك وشـعورك، صـور، أحـداث، أشـخاص.

وأجمـل الأمـر أن الكتابـة لم تعـد تأخـذ شـكلاً طقوسـياً صارمـاً يفـرض شروطـه لكـي تكتـب، وإنـما نزلـت إلى الأسـواق والشـوراع، ويشـبه أن يقـال فيهـا: الكتابـة تحـت الضغـط، كـما يقولـون في شروط التوظيـف: العمـل تحـت الضغـط!.

أكتـب في كل مـكان وزمـان، مـن عقـر عمـلي، وبـين أشـواط العمـل، وفي سـيارتي، وقـد أوقفهـا عـلى جانـب الطريـق لأكتـب فكـرة تلـح إلحاحـاً مغريـاً غريبـاً! وأكتب أمـام الكاشـير بانتظار دوري، كل حـدث أمـر بـه قـد يكـون سـبباً ليقـدح شرارة مـا، وإن لم أكتـب فأنـا مشـغول بـها سـأكتب.

وأصبـح الحـال كيـف تـؤول أحـداث الحيـاة إلى نصـوص، ولكـن يسـخف الأمـر إن صـار محـض نسـخ عنهـا، إن الكتابـة الحقـة أن تسـتجلي سرهـا، وأن تسـتنبط مـا فيهـا مـن جمـال أو ضـلال، أن تقيـل عثـرة وردة، أو تعـلي منـار ابتسـامة، أن تلمـس ذلـك التعـب الجميـل الكريـم عـلى وجـه عامـل مجهـد، أن تعـترف للنـاس بأنـك مثلهـم، قـد تضعـف أو تضـل، أو تخطـئ، أن تقـول كيـف شـفيت مـن ألمـك، وكيـف أخطـأت في اختيـارك، وكـم بكيـت كطفـل، وكـم في النـاس مـن شرّ عجيـب، أن تعـبر عـن تشـاؤمك مثلـما تصـدح بتفاؤلـك، أن تبـين دائـماً أن ممارسـة الحيـاة هـي فنّ ترشـيد الجـروح، وتقنين الألم مـا اسـتطعت، وأن السـعادة أن تمـر فوق الأشـواك بأقـل قـدر مـن الوخـزات، وأن السـعادة أن تجـد مـن يخفـف عنـك - ومعـك - مـن ثقـل الحيـاة، لا أن يصنـع لـك جنـة هـا هنـا، فليـس ثمـة جنـان هنـا ولا ملائكـة، وقـد تكـون كل السـعادة أن لا يؤذيـك! ولسـان قلبـك: لا تسـعدني ولكـن أمسـكْ عـما يتعسـني. يجـب أن تكتـب لتعيـد إنصـاف التشـاؤم، قـد ظلمـوه كثـيراً ومـا حقيقتـه إلا حقيقـة الـدواء المـر، احتفـوا بمرارتـه ونسـوا شـفاءه، لذلـك سـأظل أكتـب.

على شاطئ الكتب

الكتب تجدد حياتك

لم أكن من أهل الكتب، وإنما كنت شغوفاً بقراءة الشعر، لاتصاله بشيء فطري في نفسي، كانت المرة الأولى التي التقيت به فيها، في كتابه (جدِّد حياتك)، عندما كنت أشكو إحباطي وبثي إلى صديق، فنصحني بكتاب اسمه (جدد حياتك)، وبدأت أقرأ، فسحرني أسلوبه الأدبي، ودخل علي من هذا الباب الذي أحبه قبل أن أدخل عالمه، لم أستطع أن أقاوم سحر بعض الجمل، فكتبتها في دفتر، ثم كان موعدي الثاني معه في (عقيدة المسلم)، ثم تتالت اللقاءات، حتى أصبحت له دفاتر كاملة عندي، ومن هناك، من لحظة اللقاء بـ (جدد حياتك)، أصبحت قارئاً منتظماً، وتعددت قراءاتي.

لقد كنت امرأً من قومي، تربطني بالقرآن علاقة تقليدية مشوبة بمواريث ثقيلة من البلادة والجمود والأوهام، لكنّه كان يفاجئني! كان يسكب الفكرة كالسحر، كأنها قصيدة شعر، تنساب معها دون أن تعي خطواتك لتنتهي بك إلى آية قرآنية، فتعجب من توافق الآية والفكرة، كأن الآية سوط ضوءٍ تلفح بصرك، فتضطرب كالموج وقد كدّرت مزاجه رياح عاتية. أصبح للقرآن طعم آخر على مائدة الغزالي، لم يعد ذلك القرآن المثقل بمواريث الجاهلين المتعبين.

إن الأدب من أمر القلوب، وكان قلبي من أمره، أستشعر كل انعطافة حزن بين السطور، وتلفحني كل زفرة حيية، وهذا سري مع الغزالي، كنت أشعر به، أشعر بتلك العاطفة التي لا تهدأ، أحببتُه حقاً، فصرت أدعو له أحياناً دعوات حارة كأنه أبي، وتالله إنه لكذلك، فسلمان منا آل البيت،

وتبت يدا أبي لهب، إنه نسب الأفكار والرسالة لا الأجساد والدماء، ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: 11/ 46].

عندما قرأت كتابه (فقه السيرة)، عرفت كيف يكتب الحبيب عن حبيبه، وكيف يحيا برسالة حبيبه، لذلك كان يصوغ بعض المشاهد بقدرة توجع قلبك حتى القرار، ليفيض دمعك بلا قرار، هذا شأن من يكتب بقلبه، وأيُّ قلب!.

لن أنسى كيف احتضن مشهد ذكريات شهداء أُحد، ومشهد النبي عليه الصلاة والسلام مع الأنصار بعد توزيع الغنائم بعد حنين.

إن أسلوب الغزالي صنيعة قرآنية، تتجاور فيه الفكرة مع العاطفة، يسافر بك من حيث تدري ولا تدري، كان يحلم أن يُدفن بجوار الشافعي في مصر، لكن الله اختار له مكاناً بجوار حبيبه، ليدفن في البقيع بين قبري إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام وقبر الإمام مالك بن أنس، ليدفن بين قلبين: قلب طفل بريء وقلب عالم راسخ، فكأنه عاش بهما معاً، كان حادّ العاطفة، سخي العينين، متوقد البصيرة، أحسبك والله حسيبك، عشت بفكر حبيبك، ودُفن جسدك بجوار جسده، وهكذا يكون الوفاء.

تسافر في قلبي جملة كالسكين لعمر بن الخطاب، عندما أمر ابنه أن يستأذن السيدة عائشة ليدفن بجوار صاحبيه، ويا شوقه لصاحبيه! لا أظنه نسي يوماً صاحبيه، ولا أظن أنه ذكرهم بلا حزن، لذلك كانت حياته على نهج صاحبيه، ويا صاحبيه!. كان الغزالي يحلم أن يموت وجبينه يتصبب عرقاً في خدمة الإسلام، وقد كان له ذلك، عندما عانقت فؤادَهُ ذبحة صدرية في مؤتمر إسلامي.

يعلو الرجال أو يسفلون بقدر قربهم أو بعدهم من محمد عليه الصلاة

والسلام ورسالته. رحمك الله رحمة واسعة يا من تعلمت منك أن أحب القرآن، وأقرأه بقلبي. 16 يوليو 2013

قصة القلم

كانت الثمرة الغزالية الأخرى في نفسي - بعد ثمرة المواظبة على القراءة - هي كتابي (القلم)، وهو رحلة في سنن الاستخلاف كما تقدمها سورة البقرة أولاً على صلة بسور الأنفال والعلق والقلم.

بدأت نواتها في رمضان عام 2012، من نادي جلساء الكتاب على الفيسبوك، وهي الفكرة التي حاولت تنفيذها لما كنت في سورية أيام الدراسات العليا عام 2008، فكتبت يومها رسالةً ذات صفحات، دفعت بها إلى أصدقائي المقربين لنصنع تلك المجموعة، لكن الفكرة تلاشت لظروف التفرق التي ألمت بنا.

احتضنت جلسات الكتاب أصدقاء كثيرين من شتى الدول العربية، وشهدت قراءات جماعية جادة ومشاركات ونقاشات، ثم خفتت نارها بعد حين، وقبل خفوتها، أظلنا رمضان عام 2012، الذي التزمت فيه بكتابات يومية عن سورة البقرة، شكلت فيما بعد، نواة كتابي (القلم)، الذي أحدث تغييراً هائلاً في نفسي لأنني عشت معه سنة ونصف السنة تقريباً، حتى نهاية عام 2013، فكان ينمو وأنمو معه، ونتخلّق معاً، إذ لم أكن أملك تصوراً نهائياً مسبقاً عما سيؤول إليه، ولذا فقد كانت أفكاره حدثاً مستمراً يتبدل ويتشكل حتى وصل إلى الصورة التي رضيت فيها عنه فاكتمل.

أحببت تسجيل هذه التجربة لأني أراها مثالاً جيداً عن القراءة والكتابة والكتب، وكيف لها أن تؤثر فيك حقّاً فلا تبقى ممارسة نظرية بلا أثر مهم، فاكتبْ لنقرأ إنسانيتك، فالكتابةُ صلاةٌ يسجد فيها عقلك لمن علّم بالقلم.

تحية إلى عبد الوهاب المسيري

لقد زمّل قلبي شعور مركب، انتظمتْه رهبة وخشوع، حين وقفت على حدود زمنين لا يفصل بينهما إلا بضع أوراقٍ من رحلتك الهادرة، زمن الطفولة والبذور والأمل والحياة المقبلة، وزمن الأفول والمرض والتعب والنهاية والحياة المدبرة، بضع أوراق لم تأخذ من زمني إلا بضع دقائق لكنها كانت عمرك كله!. كم هو مخيف هذا الزمن! حين يتسلل من وراء ظهرك فلا تعي مكره إلا بعد أن يضرب الضربة القاصمة.

تبسَّمت في وجه عمرك أيها المسيري لأنك كتبتَه بجدارة في ذات اللحظة التي خشيت فيها على عمري، فهل سيكون لي كتابٌ يجد فيه القادمون من وراء الغيب ما وجدتُهُ في كتابك؟.

كتابك قطعة من حياة، إنه حياة يبصر بها كل قلب حيّ، يبصر الله العظيم لأنه يرى عظمة مخلوقه الذي كرمه بالعقل والحرية، فكان عند حسن ظن ذلك التكريم. يا لها من فرصة كبرى أن تجعل من نفسك آية على عظمة الله وإكرامه، أن تكبر وتكبر وتجعل من حياتك حياة لغيرك حين يستهدي بها، وتكون الحياة بعد موتك أكثر غنى وحياة بك، وكأنك لم تمت!.

ها هنا أجد تأويل آية الملك التي جعلتَها - أيها المسيري - حقاً: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: 67/ 2]، فعلمتُ وأنا أقرأ مسيرتك كيف يكون الموت معياراً للعمل الأحسن.

وددتُ لو أنني عرفتك قبل الآن. هي رغبة متحسرة قلتها قبل هذه المرة لما قرأت الإسلام بين الشرق والغرب، لعلي عزب بيجوفتش الذي وجدتُه فيك، أظنها خسارة كبيرة أن لا تمتلئ النفس بمثلك مبكراً جداً، ولكم تشعر

بحزن صموت عندما تهفو نفسك إلى الراحلين ليلطمك الزمن مرة أخرى أنه لن ينتظرك، أن تدرك قيمة الأشخاص والأفكار والأشياء بعد رحيلهم، فحاول بكل استطاعتك أن تقلل من خسارتك بهذا الشعور، أن تسبق الزمن قبل أن يرحل بمن تحب من أناس وأفكار وأعمال.

ولأنك تحب الفن والتفرد - أيها المسيري - أحببت أن أجعل رسالتي هذه إليك بخط يدي[1]؛ لأن الخط والحبر والورق أشياء من أمر الروح تعلو على صلافة المادة وصلابتها، أكتبها معبراً عن شكري وامتناني لك، سأذكرك كثيراً لأنك خلقت في نفسي الكثيرَ منك، حتى إنني سمعت اليوم موسيقى الباروك التي تحبها فأحببتها مثلك. أنشر هذه الكلمات أعزي بها نفسي أن يشاركني بها أصدقاء الفكرة والكلمة، أنبّئهم أنهم خاسرون جداً إن لم يقرؤوا ذلك الكتاب، ويرحلوا به ومعه، تحياتي أيها العملاق. -18 أيلول 2015-.

رحمة الله وطن حيث تُفتقد الأوطان

إن الإنسان يبلغ بتجاربه أضعاف ما يبلغه بقراءاته، لأن عقل الأفكار والسنن في الذهن ليست كعقلها من الواقع، فأن تجول في فكرك لا كأن تعصف بحياتك ومسيرك أو مصيرك. وكلما طال بك عمر، أدّبتك الحياة، حتى تبلغ أشدك، لذا فالخبرة ربيبة الكبار، ولكنها ليست سنة مطردة، فبعض الناس يتعلم من تجارب غيره مثلما يتعلم من تجارب نفسه، ويكتوي بما يقرأ مثلما يكتوي بما يفعل أو يُفعل به، وقالوا: السعيد من تعلم من كيس غيره.

ولعل حياتك أقصر وأفقر من أن تزودك بما ينضجك، لكنك بالقراءة

(1) نشرتها على صفحتي في الفيسبوك بخط يدي.

ترى عوالم ما كنت ببالغها لو بقيت بلا قراءة، والقراءة لا تحصرها وسيلة الكتب فقط، فكل ما يزودك بعلم أو فكرة هو كتاب، يستوي في ذلك جميع الوسائل السمعية والمرئية... إلخ. ولْيتواضع أصحاب الكم في الكتب، لأن الحياة مسطورةٌ في كل شيء، وليختر كل قارئ وسيلته إلى القراءة.

ولعل خير ما يتفكر فيه المرء - الشباب خاصة - المبتغي بناء نفسه وعقله سيرُ المبدعين؛ لأنها تزوي لهم حيوات كثيرة توفر عليهم كثيراً من المتاعب، وتختصر لهم طرقاً كثيرة، فهي - أي سيَرهم - خير كيس لمن ابتغى أن يتعلم من كيس غيره.

تراودني هذه الأفكار دائماً كلما قرأت سيرة كبير، عشتها مع الغزالي في كل كتبه، ومع المسيري في رحلته، والعقاد في (أنا)، والبكار في (وجهتي الفكرية)، الآن مع عبد الجبار الرفاعي في (الدين والظمأ الأنطولوجي).

ولي وقفة شخصية مع هذا الصنف من الكتاب من أرض العراق، لما أجده من تشابه صاعق بين حياتي وحياتهم، وبيئتي وبيئتهم؛ لذا فإدراكي لأعماق مشاعرهم أشدّ وطأة، خاصة إن كان كاتباً انطلق من الريف كعبد الجبار، أو شاعراً كالسياب، فلن، ولن، تلمس جرح الكاتب ما لم تعش في مثل بيئته، ولن أصادر حق اللامسين من غير بيئة لكنهم لن يبلغوا إلا ظاهراً من المعنى العام، أما من مشى في الدروب نفسها وأظلته نفس السقوف والهموم والمشاق فهذا لا يعيش المعنى فكرةً في ذهنه، بل يشربه حياةً حقةً وإن قرأها على الورق!.

يقول عبد الجبار: «أردت أن أتحدث عن سيرة روحية أخلاقية فكرية حية في هذا الكتاب، لا أكتب للأكاديميين، أكتب أشواق روحي، وسيرة قلبي، وأسئلة عقلي. أنشد إحياء إيمان المحبة والرحمة والجمال والخير والإرداة والثقة

والحرية والعدل والسلام. تتلخص مهمتي في بناء الحبّ إيماناً والإيمان حباً، واكتشاف صورة الله الرحمن الرحيم، وتطهيرها مما تراكم عليها من ظلام وتوحش، فرحمة الله وطن حيث تُفتقد الأوطان. 10 أبريل 2018.

دين القلب أم دين الحزب؟

ولعل أهم فكرة محورية في كتاب عبد الجبار الرفاعي؛ الدين والظمأ الأنطلوجي، لعلها التفريق بين الدين كأيديولوجيا والدين كأنطلوجيا؛ أي الدين كركن وجودي تحتاج إليه النفس البشرية لتزكي سيرتها، وتجاهد ميولها إلى الشر والفجور، وتنمو بالحق والخير والجمال، وتعمل لذلك وتتعاون مع غيرها عليه، أي أن تكون رحمة للعالمين.

لكن الذي حصل أن الدين فَقَدَ جوهره الأخلاقي عند المتدينين، وصار حزمة أفكار يخاصمون عليها أو يسالمون، ويستعلون بها على المخالفين، متحققين بسنة بني إسرائيل في جعل الدين امتيازاً وعنصرية لا تختلف عن عنصرية اللون والجنس.

لقد جاء الدين ليحارب عنصرية الجسد، فجعلوا منه سبباً لعنصرية الروح! والروح هنا من عالم الأمر أي كل ما يحمله الإنسان في نفسه وعقله، لذلك انتقد عبد الجبار أفكار شريعتي لأنه رأى فيها ترحيلاً للدين من وظيفته الأنطولوجية / الوجودية إلى وظيفة أيديولوجية، لا تختلف عن أي عقيدة حزبية وضعية، وما أكثر إخوة شريعتي ممن يتحدثون باسم الله وشريعته!. 19 يوليو 2018.

المقامة القرائية العسرة

أقرأ كتاباً فكرياً، مكرهاً على تلخيصه، لمفكرٍ، قامة، أنشأ مؤسسات كثيرة قدمت خيراً جماً للناس في أماكن شتى. الكتاب فصاله مئتا صفحة،

تستطيع أن تزويها في خمسين أو سبعين بلا أدنى مبالغة، دون أن ينقص من أجره شيئاً!. أعيتني لغته وأسلوبُهُ، وثقلت على نفسي عيوبُه، وخيّل إلي أنه كنَهمٍ جلسَ إلى مائدة فخمة ضخمة، فحار كيف يعالجها، ويلتذ بأصنافها ومباهجها، ومن أين يبدأ، وكيف ينهي، وكيف يرتب الخضم والطحن، فلا يفلت منه إناء أو صحن، فطاشت يداه، وقلب الطاولة بما عليها، فخلط الأطعمة والأشربة فما تشتهيها.

يكثر تكرار المترادفات والأفكار، فيقعد بهمتك عن العزم والاستمرار، تشعر أن عقله سوق شعبي، لا نظام لدكاكينه، ولا انتظام لقوانينه، تصطف فيه الأنواع والأشكال، بما سنحت لها المصادفة والأحوال، يأخذك في طريق، ثم يعود بك إلى المضيق نفسه! فلا اعتليت صهوة، ولا تقدمت خطوة!.

الحق في هذا المجال: أنه قل من يطربك برشاقة فكرته، واقتصاد لغته، فحتى الكتابة تعاني من أمراض السكر والبدانة، ومن تغريب الروح، وعسر الإبانة، فلا تغرنّك جلجلة الأسماء الرنانة، فاللغة حصان أصيل، لا يذلِّله كل من أمسك القلم، أونودي عليه بين الأمم، وقد بقيت لي أقل من مئة، فاللهم عونكَ لأنهي هذه الفئة، وأتم ما بقي، لعلي إلى ما بعده أرتقي، وكانت مقامتي هذه، احتيالاً على نفسي لأنعم بالهروب، بعد أن حاصرتها لأنجز المطلوب، وهأنذا أعود مضطراً إلى نفس الدروب، لأتعامل مع ذاك الأسلوب المقلوب!. 017-2019.

حكمة القراءة

لما أننا على مفترق يفصل سنتين، مقبلة ومدبرة، فإن كثيراً من الناس

يقف وقفة متأمل، يحصي فيها ما قدّم وأخّر، ويعقد عزماً جديداً على ما سيقدم، ولعل قراءة الكتب هي العمل الأكثر شعبية هنا، ويُلاحظ الاحتفاء بالكم، أي عدد الكتب التي قرأها المحتفي الكمي، وها هنا ثمة سؤال، هل هذه حسبة دقيقة؟

قد أقرأ عشرة كتب خفيفة يلقفها كتاب واحد ضخم الحجم والمعنى، فصاله 700 صفحة!. يقول لك المعيار الكمي أن العشرة أكثر من الواحد، والكيفي يقول لك أن الواحد هو الأكثر. وثمة منظور آخر غير الكم والكيف، هو منظور المجال، قد تقرأ في مجال علمي، أو أدبي، ولكل منهما مجالات فرعية كثيرة، هناك مجالات غنية مهمة، وهناك ما دون ذلك. فلننتبه إذن للمعايير أو المنظورات التي نحاكم إليها قراءاتنا، ولا ننخدع بالكم.

ولننتقل من المقروء إلى القارئ وطريقته، فالقراءة المنهجية غير القراءة العشوائية، حتى وإن كانت لكتب جيدة. الأولى لها هدف إنتاجي محدد وهي الأقرب للتخصصية، ويمكن أن نصفها بالرأسية، أما الثانية فتوصف بالأفقية، التي تحسّن التفكير عامة والوعي، ولو استعنت بمصطلحات تخصصي في علم أمراض الفم القائم على المجهر، لسميت الأولى قراءة العدسة 40، والثانية قراءة العدسة 10، وأعني بهما التكبير القوي والتكبير الضعيف للعينة النسيجية المدروسة تحت المجهر.

الخلاصة: إن القراءة نظام، أو مطبخ، فاعلم كيف تصنع نظامك أو تعد مطبخك وغذاءك، فإن لم تعرف ما تريد، فلن تستفيد، أي يجب أن يكون لكل عمل غاية مرتبطة بواقع ما، ولتضع نفسك أمام هذه التساؤلات:

هل ستقرأ لتبني تصوراتك ونماذجك؟ هل تقرأ لتنقي عقلك من الأفكار

الميتة، وتخصّبه بالبذور الحية؟ هل تقرأ لتعرف السنن التي تحكم الأشياء؟ هل تقرأ لتحاول أن تفهم الواقع، وتضيف شيئاً إلى المعرفة النافعة، أم تقرأ لتتزين بعدد الكتب؟ لقد أصبح الأهم في عصر المعلومات المحيط، أن تعرف كيف تستخدم هذه المعلومات، وما الذي يهمك منها، وإلا فالضياع في عرض المحيط بانتظارك. سنة مثمرة. 3 يناير 2017.

***

قراءات الضياع

لو استنصحني أحدٌ في ماذا يقرأ، لنصحته أن يجعل لنفسه زاداً دائماً من علم النفس وطبه، وأنماط الشخصيات واضطراباتها، لكثرة ما يُمتحن البشر في ذلك ويهدرون حياتهم في علاقات سامة بلا علم منهم أو وعي، تجعل باطن الأرض خيراً من ظاهرها.

هذه النفس البشرية لغز لا ينتهي، والتبصر بها ليس نافلة أو ترفاً، إنه قضية حياة ووجود، وما أكثر ما نبّه القرآن إلى ذلك وهو يعرض مسالك البشر وأدواءهم، وكان حرياً بنا أن نكون أسبق الأمم إلى تشييد علم النفس الحديث ولكن... عندما يقول لك القرآن: «إن الإنسان لظلوم كفار، خلق من عجل، جزوع، جحود، يهلك الحرث والنسل، يفرق أهلها شيعاً..».. إلخ.

هذه عناوين عريضة، أما التفاصيل فعليك أنت أيها الإنسان أن تستنبطها بالسير في أرض النفس البشرية؛ أي تنتج العلوم التي تصلحها.

العلم هو الأساس هنا، لا الوعظ البسيط، أو التوجيهات الشفهية، وكم من شيخ تلفاز أفتى بمسائل تحتاج إلى جلسات وجلسات من المعاينة والتتبع والتشخيص، فثمة علاقات يصلحها دواء بسيط وأخرى لا يصلحها إلا البتر.

وبعد علم النفس وطبه، يأتي علم فرعي أكثر متعة اسمه (علم النفس الاجتماعي) أي دارسة أثر المجتمع على النفس البشرية، وكيف يتغير سلوكها وسط الجماعة، ثم تتسع الدوائر وتتسع لتصل إلى علم الاجتماع العام بفروعه الكثيرة، الذي يدرس سنن المجتمعات، فهو الوريث الحالي للفلسفة التي كانت تسمى (أم العلوم)، التي انزوت حديثاً إلى جزر معزولة أو هوامش مؤطِّرة تتبع كل علم في مجاله المخصص. أما الجزء الآخر فقد بقي في ذمّة التاريخ. وتطربني الكتب التي تقلّم عمل الدماغ البشري، وأخطاء التفكير، والاختلافات الطريفة بين الذكر والأنثى.

الروايات الجيدة وسيلة مهمة في ذلك، لأنها تقول الحقائق قولاً غير مباشر على لسان شخصياتها، وتخلق جدليات الحياة بكل تعقيداتها على الورق، فتنجو من الملل والجفاف، وتجمع بين المتعة والفائدة، ومن يقلل من شأنها لم يدرك بعد خطورة هذا اللون من الأدب، الذي يهيمن اليوم على الساحة الأدبية، وله جماهير كثيرة.

والروائيون الكبار، خبروا الحياة وذاقوا بأسها، ولديهم من العقل التحليلي والتركيبي، والعاطفة الدقيقة، ما يصل إلى أغوارها؛ لذا أعجب من جيلٍ يستعجل الكتابة الروائية وذكريات البامبرز لا تزال رطبة في ذيله، ولا يعرف من الألم غير معاناة لميس ويحيى في سنوات الضياع!.

ولا أنفي العبقرية المبكرة عند بعض الناس، فذلك فضل يخص الله به من يشاء، ولكنهم الاستثناء الذي لا يظهر بسهولة أو يُكتشف، فحذار من الروايات التافهة التي تزيف الوعي وتوهم بالثقافة كالحمل الكاذب، انتفاخ على غير جنين، فالروائي الخاوي يصنع قارئاً خاوياً، يحتقب كثيراً من الروايات لكنه هزيل العقل، لأن غذاءه رديء.

الفصل الخامس

أدب الليل وثقافته

ويأتي ليلهم يسعى كأفعى
تلقّفُ كلَّ ضوءٍ من سبيلي
أشاغلُ في الليالي همّ قلبي
على لحنٍ عراقيٍّ عليلِ
[زرازير البراري] (1) في فؤادي

---

(1) أغنية عراقية مشهورة من كلمات الشاعر الكبير مظفر النواب، بصوت إلياس خضر، وسيأتي الحديث عنها في فصل: الأفلام والأغاني.

قلوب الضحى والليل إذا سجى

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 93/1-3]. أقسم الله تعالى على حبه لنبيه: بسجو الليل؛ أي إذا سكن؛ لأن الليل الساكن، معراج القلوب، وميعادها، فيه تهدأ، وتخلو من صخب النهار، فيعلو فيها صخب آخر، لا يكفكف جبروته إلا قلب محبّ ترسو إليه كما ترسو سفينة مرهقة صدعتها أمواج البحر العاتية، لليل حديث لا يشبه أي حديث، وقرب لا يشبه أي قرب، فما أجدره بوصف اللباس! الذي تجتمع فيه معاني الدفء والقرب والزينة والملاءمة والستر، وكلما آبَ هذا الليل، آبت الأحلام، فمن له من قلوب؟

يعظم أثر الفعل في العلاقات الإنسانية إنِ اختير له موعد ذكي مناسب، كأن لدورة الشمس والأرض والقمر وما يتخلق منهن من ضوء وظلام، كأن لهن دوراتٍ في أفلاك النفوس، تجعل لها فصولاً أيضاً، خريفاً أو شتاءً أو ربيعاً أو صيفاً، فالزمن مخلوق من حركة هذه الأجرام يصنع حياتنا في أدق تفاصيلها.

وستعي على مأدبة هذه الفكرة سرّ التغني بالشتاء والربيع والخريف، بالصباح أو الليل، وبمن يصنع يومك، فيضحي في ضحاك أو يسجو مع ليلك، وأذكر هنا سورة الضحى التي سميتها منذ سنوات بسورة الحنان، وسأسميها الآن سورة العلاقات الإنسانية الرحيمة.

فالله تعالى يقسم بالضحى والليل الساجي على الحبّ للنبي، ثم يذكر العطاء والرضا، ويطلب منه مذكراً إياه ببالغ العطاء؛ آويتك من يتم فلا تقهر اليتيم، وهديتك من ضلال فلا تنهر الضَّال (السائل)، وأغنيتك من عالةٍ فحدِّث بنعمة ربك. والتحديث عمل لا كلام، من الحدث، وإن كان فيه

معنى الكلام فهو يشبه الظل الذي يولد من وجود فعلي لصاحبه، فليكن لك أعمال تصبح حديثاً، والمعنى نفسه في (جعلهم أحاديث)، وفي (يومئذ تحدث أخبارها)، فهي لن تقول كلاماً، بل ستجري عليها أحداث، ومثله حديث موسى والغاشية.

الخلاصة من تلك الثلاثية المتقابلة: أن إيواء اليتيم وعدم قهره، وهداية السائل وعدم نهره، وإغناء العائل وعدم كفر النعمة، أعمال تشيع السلام في العلاقات الإنسانية وتصنعها وتقويها. ولتكن في بداية النهار في الضحى لتصنع يوم إنسان فيفرح، أو في آخره في الليل إذا سجى لينام قريراً. ولعل من التحديث بالنعمة البسيطة أنك إن كنت فرحاً، أفرِحْ مَن حولك، ربما تجبرهم كلمة أو فكرة، أو لحن...

وكل هذا النص هو أثر من آثار الضحى ذي النسمات التشرينية الباردة، التي تجعل روحك كجناح الفراشة تلتقط أدنى الجمالات من أي إنسان، ولهذا ستعي هول القسم الإلهي بالضحى والليل إذا سجى، إنه يريدك أن تعلم الأوقات التي تضاعف أثر الأعمال التي تضيء القلوب، وتجعل السلام بينها والجمال، فإياك أن لا تحتفي بها.

حبر ليالٍ كثيرة

الليل يسكن مرةً أخرى، ويحملك إليّ، فأهلاً بسكنٍ يجمعني بسكني، هذا الليلُ ضوئيٌّ على غير عادته!. أرسو إليكِ على شاطئه، كما يرسو همّي إلى سكونه، كطفل يبحث عن حضن يأوي إليه، فلا يجد إلا رصيف اليتم البارد، كطفل ضيّع وجه أمه، فتساوت لديه كل الأوجه والأصوات، فهو يهدأ على أي صدر طارئ. سكن الليل وعلا ضجيج الصمت في نفسي، وصوتك القادم من خلف الغيوب، يحملني إلى أمي، إلى ذكرى الحنان،

فأحنُّ إلى وطن ينزف الآن من قلبي وعيني وقلمي، ويسكنني بعدما كنت أسكنه، وآه كم أحتاج إلى سكنه.

آه يا هذا العجز الذي يستبد بأصابعي كلما أردتُ أن أكتب عن غموض قلبي، وتعب نفسي. تتأرجحين أنغاماً على طيوف أخيلتي، فأفتش عن ملامحك في نفسي لعلي أجدكِ بين أفيافها الليلية، وأرسمك بحروفي كي أنسى بلاغة الانتظار، وأغفو على قمر روحك المنير، أقلّم الأخيلة، عبثاً أحاول، فللبريق بيانٌ يصف عينيكِ ويبكي، وأصابعي نايات يحمل غناها الليل ويسكن، ولي على ضفتي عينيكِ، تاريخٌ من الحروف والأحزان.

كل ما أحتاجه صفحة من ليلٍ وشَعرك وكحل عينيك من وراء الغياب، لتكتمل عدة الكتابة، ظلماتٌ ثلاث تضيء كون الحرف، وكون نفسي، فأتوهج كعود ثقاب لأعبر عنك ثم أخبو.

الليل، وشعرك، وكحل عينيك المضمخ بالغياب، وحبري الأسود، وأنتِ، لا، لستِ أنتِ، بل بريق عينيكِ حين يتنفسُهُ الخيالُ، ثم تزفرُهُ الأصابع، ساخناً كالدمع، هي أسماؤه الفضلى في كونه السابح عبر البعيد، لقد تحرر من كل عاطفة تشده إلى حضن المكان، لم يبق له إلا بعده الرابع، يمشي به إلى الموت الذي سوف يأتي.

الليل يعصف سكونه باللحن المعتّق بالذكرى، بالصور، بأحلى ما تخزنهُ القلوب للقلوب، الليل قيثارة القلب، يعزف على أوتاره أغنية حزينة. ووشاح الليل على كتفيكِ، يحزنني، مثل أغنية حزينة ،كشلال من ظلام ، أو حصانٍ أسودَ يعدو بقوة، أو قصيدة عربية ضوئية النسب، هو شيءٌ ملهمٌ يشبه هذا الليل العميق، لكن الباب ما طرقته غير الريح في الليل العميق!.

ليلٌ كشعرك، يسكنني، لكنك بعيدة جداً، لا أبصر روحك، كظلمة هذا

الليل، وأنتِ خلف نفسكِ تجلسين، وتطلين علي، من أفق بعيد، وتبعدين كنجمة السماء، والليل فضاء كبير كعينيكِ، ترتعش نجومه، كدمعتيكِ، يبلّلان جفنيّ، كنايين يتنفسان حزن القلوب، فكيف يتجاور الليل والضياء في صفحتين من الحيرة، عينيك!. الليل واللحن، وعيناك، وشعرك، كلها أشكال محتملة من أشكال البوح العميق، وقد طالت الطريق. 14 يوليو 2012.

الليلُ يا أمي

الليلُ يا أمي كسرير اليتْم خاوٍ، يئنُّ، يتكوّر القلب فيه كالجنين من الحنين، والحنين، تغضّنَتْ آهاتُهُ كقسماتِ وجهكِ، كاللحن العراقي القديم، مثقلاً بتفاصيل الحب والدمع على انتظار. يممتُ ذكراكِ - في هذا الليل - أمشي على استجداء، يغصُّ قلبي بالحنين والسنين، وأذكر بالدمع، صوتك المجروحَ يضمّدُهُ الدعاء، تدعين لي ألا أموتَ على عينك، فيا ربَّ السماء، أجِبْ دعاها، ولا تمهلْني لحظةً بعد العطاء، أريد أن نرقى معاً، إنْ في المماتِ أو في البقاء. الليل أماه كحضنكِ، رغم الألم، يعيدني طفلاً يخربش بالقلم، الليل يا أمي صفحةٌ سوداء، أنيرها بحبرٍ أبيضَ من ضوء عينيكِ، يكسّر جفنيّ من الدمع، فأبتسم، أيا أمي..

الليلُ يا أمي نهار القلب الحزين، بالأشواق يشعلُهُ، وبالحنين أمّاهُ، حنانكِ سفائنُ ذكرياتي، أشمه وأضمه - بما أستطيع من دمعي - في حضن الليل والحرف. كبرتُ يا أمي، وفي وجهي كلامٌ مسنٌّ يذكّرك بذلك الطفل المسافر مثل الطيور، وأنتِ كبرتِ يا أمي، ثلاث سنواتٍ، كأنّ الأرض دارت ألف دورة، وتسارع الهمّ في قلبي المسرع نحو لقاءٍ بك. إن الكتابة هي الخيانة عندما أحاول أن أدخل حجرتكِ في قلبي، فحبر حبكِ ليس من أمر القلم، فلْينمْ، حسبه أن

يبقى دماً يجري في شراييني، ودمعاً في عيوني يلمع من بعيد ولا يسقط، أيا أمّي.

سَكَنَ الليلُ

سكن الليل، وتدفّقت نسائم سكونِه، كالدفء الخجول، إلى ضفاف قلبي، فترقرقت المشاعر الحزينة، جداولَ طفلةً في سهوله الواسعة، وغاب الفكر بعيداً بعيداً، بين ذكرياتٍ وأحلام. ينساب ذلك الصوتُ الليليّ في روحي كالحلم الجميل،كالقسوةِ، يحملني إلى عمري بين أحضان أمي، إلى زواياي الصغيرة، حتى الزوايا المهملة من ذكرياتي، تقسو عليّ الآن باشتياقي إليها، وينهض مارد الذكريات أزلياً من قرار روحي، لأتشظى أحزاناً ما لها قرار، تسافر فيّ سفرَ الابتسامة في عيون بنت الرؤى، تسافر، تسافر كالطيور البعيدة يعانقها شفق الغروب، ويستقبلها الرحيل، تضمني أصواتها لتودعني، آهِ أيتها الحياة. 4/ 6/ 2012.

سَكَنَ الليل، وفي سكونهِ ترتعش همسات نفسي، ارتعاش الأمواج الصغيرة، تحاورها نسائمُ غضة بلون الحنين، حنينٌ كوطني لوطني. حنينٌ يختزل عطره ذلك التراب وأولئك الأحباب، وتتداعى مع ذلك اللحن الشجي، صروح كثيرة شيدها مرُّ الأيام والليالي، في أطباق نفسي، صروح تنوء أطباقها بأطنان ثقيلة من الذكريات ورفات الأمنيات، لم يبقَ منها إلا كما يبقى خيال جميل من رسم فاتنة جميلة، تفاجئكَ بها الأقدار، على عجل، وأنت في طريقكِ إلى الحياة، فتحسّ أن لحنَ ابتسامتها، ينافس لونَ وردة أو عطرها، أو عصفوراً نديّاً تتميّز منه البراءة غيضاً، أو تحسُّ أن شعرها هو شكلٌ من أشكال الرحيل، عندما تمضي به النسمات بعيداً في عيونك، فيسافر معه قلبك بلا قرار. هذه لوحة من جمالكَ يا وطني، يرسمها سكون الليل بخيوط من ذكريات، ورفات أمنيات،كانت ذات يومٍ أمنيات. 7/ 6/ 2012

سَكَنَ الليل، وما سكن ليلُ نفسي في هذا السَّحَر الجريح، لي عالمٌ على الضفة الأخرى من حياتي، أحاول أن أجمّعهُ بخيوط الحنين، بما استطعتُ من قوة الذكرى، وقوة الحرف واللحن، تتكسر في خيالي الوجوه، وتتقطع الأصوات، وأقف كلَّ ليل قبالة نفسي، أسائلها: لماذا نحن هنا؟ ما جدوى كل هذا؟ وأي كسبٍ سيعوض ما غاب عني من وجه أمي؟! من كل التفاصيل الصغيرة، أسائلها: هل سيمنحنا الموتُ فرصة أخرى؟! أسائلها وأعلم أن الصدى هو كل ما يعود. حتى العزاء الذي حلمت به، لا أدري أين هو، أمد يدي أتلمس الظلام، فلا كفٌّ تشدُّ يدي، ولا وجهٌ يبدد كل هذه السّدف، ولا صدر أستند إليه، إلا صدر الحروف. إنها الدنيا، صابِرْ بحرفك، كابِرْ بجرحك. لا تجعل الأفق يفلت من بصرك، هناك قد تجد العزاء. 1 يونيو 2013.

اللحن والليل

إن ذاكرة اللحن مؤلمة جداً، يستدير بها الليل من كل ناحية من نواحي نفسك كالأفق، وتحلّقُ بك عميقاً عميقاً، كطيور القطا مع الغروب، تزيد نداءاتُها صمتَهُ حزناً، وتركب الرحيلَ قدراً، ولا يبقى من الرجوع إلا حلم بالرجوع، كهذا اللحن الحزين، ينسكب كجدول وقور في روحك، فتخضرُّ ضفافه بالحنين، ويخفق قلبك كالفراشات البريئة، ويحار الدمع في عينيك، يلمع موجهُ من بعيد، لا يراه أحد، إلا هذا الليل، وكلما ارتفعت خطوةً على سفوح ذكرياتك، ارتفع المد في عينيك، حتى إذا وصلت قمة الحزن منها، وعُرضت عليك الوجوه، والأصوات، والدروب، والحقول، وكل الزوايا الصغيرة من دقائقِ سيرك، تهدّم صرح صمتك واختلط بصيحات القطا

والغـروب، وتبللـت أصابعـك بالدمـوع والحـبر، ويكمـل اللحـن رحلتـه[1]: [شـهورٌ طوالٌ وهـذي الجراح تمزّق جنبيّ مثلُ المُدى]. وتقف خلفه وملءُ عينيـكَ الدمـوع، وأنـت تحلـم بالرجـوع. 5/ 1/ 2013.

نسمة ليل دمشقية

كانت نسـمات هـذه الليـل دمشقية جداً، حملتني عـلى رفيـف الذكريات إلى شـارع عميـق في خيـالي، تتكـسر فيـه أضـواء السـيارات الملونـة، كالمجرات في ليـل شـوقي، كـم أحنُّ إليـه، إلى خطـايَ الوحيـدة، إلى رائحـة العشـب المبلـل عـلى أكتافـه، تعانـق بـرد أحلامـي، إلى مصابيـح الطريـق، تبكـي وأرى دَمَعَاتِهـا، إلى جـسر حملنـي - ذات يـوم - وأحبتـي، يـوم احتفلنـا بالذكريـات وبالدمـوع، إلى سـوره الصـدِئ الصمـوت، تضمـده يـداي، إلى حديقـة عانقـت صلـواتي سـجادَها الأخـضر مـع الغـروب، يـوم خلـوتُ فوقـه إلى قلمـي وحـزني وصفحـةٍ بيضـاءَ مـن حلمـي، والنوافـير مـن حـولي تغنـي، تهدهـدني مثـل أمـي، مـا زلـت أحمـل وشـمَ تلـك النوافـذ مـن بعيـد، يطـل منهـا الضـوء شـلالاً، ومـن بعيـد، شـبح فتـاة جميلـة، يغازلهـا كتـابٌ، في شرفـة راح ينـأى عنهـا الضجـر، وعـلى البعيـد، يبـدد الليـلُ شـموخَ قاسـيون، لتنبـضَ أضـواء البيـوت كالنجـوم تطـرز سـفوحه العتيقـة، فكأنـه سـقف السـماء انحنـى، وعانـق الأرض يقبلهـا طويـلاً، ثـم يرحـل مـع شـهقات الصبـاح.

شـآم تخجـل الآهـات منـكِ، مـا عسـاها أن تقـول؟ الحـزن منـكِ، يـا فتـاتي، محـزونٌ خجـول، فمتـى الوصـول؟ 24/ 10/ 2012.

---

(1) قصيدة لبدر شاكر السياب مغناة بصوت سعدون جابر، (لك الحمد مهما استطال البلاء).

والليل إذا سجى

الليـل يعـاني مـن الأرق عـلى وسـائد المغتربـين، ويحلـم أن يخلـوَ إلى نفسـه، بعيـداً عـن حنينهـم، إنـه يريـد أن يسـجوَ كـي ينعـمَ بالقسـم. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 93/ 2].

كلمـا سَـكَنَ هـذا الليـل، تكـوّرتَ عـلى نفسـك كالجنيـن، كتلـةً مـن حنيـن، إلـى نفسك التي كانت قبل مرور السنين، إلـى أيامـك إلـى تاريـخ أحلامـك. مـا سـرّكَ أيهـا الليـل السـاجي؟ وكيـف تسـتدير بالقلـب مـع الدقائـق مـن كل ناحيـة مـن نواحـي الشـوق، كأنّ سـجوّك بـراقُ الـروح إلـى مهدهـا الغيبـيّ، كأنـه غـار حـراء تصـل الأرض بالسـماء، كأن سـجوّكِ (اقـرأ) كأنـه لحظـة اللقـاء المناسـبة، حيـثُ لا وداع، كأنـه لحظـة الحـب الشـديدة، حيـث لا قلـى. هـل بـكل هـذا نلـتَ ذلـك القسـمَ العظيـم، أيهـا الليـل السـاجي. إنـك الوقـت الـذي يعصـف فيـه الحـب والحنيـن، الوقـت الـذي نجـد فيـه العـزاء أمـام الـوداع والقلـى. وسـوف أذكـرك أيهـا الليـل، فـي ليـل مـا، علـى الضفـة الأخـرى مـن حياتـي، لكـن لا أدري أكنـتُ سـأحنُّ إليـك أم لا؟

نهار الغريب

يجمّعكـم الليـل في نفسي، كنهـر يحتضنـه بسـاطٌ أخـضر، وتلهـو عـلى عاتقيـه الطيـور، ويـسري سـكونه في صمتـي حروفـاً وحروفـاً، أكتبُهـا ويحـدوني لحـنٌ عراقـي حزيـن، مـن ذلـك الزمـن الجميـل، في ذلـك الريـف الجميـل، يضمـه المـدى الأخـضر أو الأصفـر في كسـاء مـن ربيـع أو صيـف.

يـا أيهـا الليـل الحبيب، لم تفارقني وقلمـي، كم لـوّن البيضـاءَ بحبرك الضوئي، وعشـقِه وحزنِـه. كـم محـوتَ دمعاتِـه قبـل أن يقرأهـا أحـد، كنـتَ مناسـباً جـداً لـه

أيها الليل، ولا تزال. لا وداع أيها الليل في هذا المدى المغترب الحزين، فأنت الزمانُ لساعة قلبه، بقيتَ أنتَ بعد أن رحلوا، وبعد أن رحل المكان، وما زلت كل ليلة تحمل إليّ كلَّ هموم المكان، ولا مكان!. ها قد رَحَلَ النهار، وفي سكون الليل نهار آخر، لا يعرف لفح شمسه إلا المسافرون عبر أقدار الغياب. 7 يناير 2014.

عيناك ليليّتانِ جداً

عيناك ليليّتانِ جداً، وأنا أقرأ الليل جيداً جداً، وأقلّمُ كونَهما، فأكتب لباسَ ليلهما كلماتِ دفءٍ، وقربٍ، وزينة، عيناكِ مقبرة الحروف، ومقصلة السرور، ومرساة الخيال. عيناك ليلٌ دمشقيٌّ حزين، تحتشدُ وراء سدوله الدموع ، والدعوات، والقلوبُ الناظراتُ إلى السماء.

عيناكِ كابتسامة أمي عند اللقاء، كمثل طفل تتعثر الكلمات في شفتيه النديّتين. ويظل يلثغ كالحمام، ولا ينام.. عيناكِ بلا دموع، كالدموع تحزنني، لأنهما جميلتان. وبالدموع تحزنني، لأنهما حزينتان. عيناك بالأسود كقلم حبر أحبه يغوص في المناديل البيض كما يغوص حبر عينيك في منديل نفسي. عيناك كعصفور أحمر أو أزرق، تمتلكان سلطة اللون الجميل، وسلطة اللحن الجميل، وسلطة الليل الجميل، وقد تكون عيناك بلداً جريحاً، يتعمد كل آنٍ بالدماء وبالدموع والخشوع، وبأقسى زفرات الضلوع، وبأقسى أمانيّ الرجوع، وقد تكونان ذلك الحلم الجميل، وذلك الهمّ النبيل، وقد تكون وقفة ريفيٍّ عند أعتاب الأصيل، تطالعه خيوط الضوء من خَلَل الغيوم، بأنها سوف ترحل مع الرحيل، وتحيل حزنَه إلى القادمات من النجوم، في كل ليلٍ مع شاهقات النجوم، وعميقات الهموم. 21/ 1/ 2013

غياب الوطن وليالي الغرباء

تطل عليّ من بعيد، أرقبك على انتظار، وأطل عليك من قلبي، بكل ما خزنتُهُ في ذاكرة حبك، وأراك تنهض من خَلَل النزيف الغزير، من خلل الدخان من خلل الغبار، وبريق عينيك لا يهدأ، كنقاط الضوء تتغيض فوق صفحات البحر، يعلو على ضوء الحرائق، وهزيم صوتك القادم مثل الأمل، يهزأ بهدير القصف والتفجير والتدمير، ويربّت على نحيب الحزانى، والثكالى، والأيامى، واليتامى، وشموخك الشاهق، يرهق الهام والأبصار، أتعبتَها.

وأنين ليلك الساجي مضيء جداً، يبدد ليل حزني، تتكسر الدموع في عينيّ، عليك، فتمسحها مبتسماً، كابتسامة فاطمة، تحمل في قلبها البشرى إلى اللقاء القريب، كابتسامتِهِ حين عناق الفجر، يطمئن على تعانق الصفوف، ووجهك قمريٌّ جداً رغم النزيف، كوجههِ، تفرُّ منه قطع الظلام، أراه يمدُّ يده إليك، يقول لك: لا تحزن إن الله معنا، إن متّ، فستلقاني، وإن عشت فستحيا بي، فعلامَ الحزن؟ إنه سعيد بك، لقد كان عاتباً عليك، سعيد لأنك تعيد ترتيب صفوف الفجر، إنه يبتسم الآن، أرى وجهه يبرق من السرور، كقطعة قمر، يا قمري الذي أشتاق إليه ليلي، في غربة كالليل، لكنني يا حبيبي حزين، علّمني حبك، كيف غياب الوطن يضخّم أحزان الغرباء ضمن لباس الليل. 14/ ذو القعدة/ 1433.

ليل جريح بصمت الشتاء

إلى هذا الفضاء الخواء، المدجج بالظلام، أمدُّ أصابعي مرة أخرى، لأحصي تاريخ هذا الليل العتيق في قلبي، كلما اختنق قلبي، وملء قلبي ما

لا أعرف كيف أعبُرُهُ، أغصّ بالحبر وبالليل وباللحن وبكل سراب ظننته ماء، يائساً من جدوى هذا الهذيان، تترنح به أصابعي فوق هذه الأزرار العقيمة، لكنني سأهذي وأسائل هذه الأقدارَ عن طولها ولونها وكنه رحلتها معي، وأعتب على غريزة الاقتراب من هؤلاء الناس المتعبين مثلي، مستنهضاً عزماً جديداً إلى حمل مسؤوليتي عن وحدتي وغربتي، لعلّي أستطيع أن أقنع عينيّ بأن تسدل جفنيها فلا تعبث بالتفاصيل والألوان ولا تتفكر بحكمة تجاورها في عوالم الآخرين، يجب أن أدين كلماتي على مشهد من هذا الليل الجريح بصمت الشتاء، لعلها تصمت مثله، وأين المفر في هذا الشتاء الذي يضعك - كمرآة - أمام نفسك، ويزوي لك كل أوجاعك، وإخفاقاتك في دنيا القلوب، كم نحتاج من زمن وحرف وصدق وعقل وقلب وصوت لنخلق الأمان، وأنه ليس وراء الحروف أو تحتها ألغاماً، وأننا لا نؤذي - في النهاية - إلا أنفسنا؟

هي في هذا الليل

هي في هذا الليل تتفكر في أسماء الجروح والندبات، وترتل صورها الكثيرة في أزقة الماضي، وهو يطبق على الحاضر، لكل جرحٍ بيتٌ مؤثث بالتفاصيل الصغيرة، باحتراقٍ اتّخذ في الروح ركنَهُ ندبةً سوداء لا تشعر بالضوء، ولا تصغي إلى طفولة الضحكة يرسمها وجهُ أنثى كحديقة صغيرة تتمايل ألوانها حياةً على نغم الضحى.

هي في هذا الليل، لا تكترث لأقوال اللائمين على الحزن أو التشاؤم، أو القلق من الاستمرار في هذه الحياة، وتبتسم لتفاؤلهم قليلاً وتتمنى له رفقاً ورفقة جميلة، وحظاً أقل إيلاماً، لأنها تعلم أن الزمن ذو بأس شديد ويعرف

كيف يسرق - بعد حين - ذلك الطفل الذي يولد في قلب كل إنسان، وكم هو حاذق في خلط أقدار البسطاء باقتدار الأشرار، وكيف يطفئ في أعينهم ذلك البريق الطفل الذي يلمع من عميق أرواحهم.

هي في هذا الليل تمد أصابعها كمشارط الجراح وخيوطه، تمدها لتخيط بالحروف ما تستطيع من ثقوب، هي روحٌ لا أكاد أعرفها لكنها تشاركني كل ليلة سماع ألحاني المفضلة، وكأنها روحي!

الفصل السادس

حياة في الأفلام والأغاني

على شاطئ الأفلام

حسرات الموتى وندمهم

أستطيع أن أرى الموتى!.

إذا كان العلم يحتفي بكل ما يعيننا على فهم سنن الأنفس والآفاق، فإن الأدب قبلته الوحيدة العتيدة، الإنسان، قد لا يعنيه أن يفهم الإنسان بقدر ما يعنيه أن يصف أفكاره ويحللها، ومشاعره وقيمه، وتجاربه، وتقلباته الكثيرة الواضحة والمبهمة في هذه الحياة. إن الأدب شكل آخر من أشكال الحياة، يعكسها على صفحات الورق أو المسرح أو الشاشات، ويكفي العلم شرفاً أنه أغنى الأدب بالوسائل الحديثة التي جعلته أقدر على مخاطبة السمع والأبصار والأفئدة، وهنا عظمة الشاشة!.

في مشهد منها، من فيلم (The Sixth Sense)، يحتفل الطبيب النفسي وزوجته بنجاحه، ثم يتفاجآن برجل عارٍ، يبكي وبيده مسدس، يذكّر الطبيبَ أنه كان مريضه الذي يعاني من الخوف، لكنه أهمله أو لم يشخص حالته جيداً، وتركه صريع خوفه سنوات وسنوات، فانتهى به الأمر إلى بيت الطبيب يلومه وهو منهار باكٍ، ويقول أخيراً أنه لا يريد أن يخاف بعد اليوم فيطلق رصاصة تصيب الطبيب في بطنه، ثم ينتحر.

ينتقل المشهد بعد أشهر من الحادثة إلى الطبيب وهو حيٌّ يعالج طفلاً بذات المرض الذي انتحر فيه الأول، إنه يخاف! ولم يبح بسرِّ خوفه – الذي

أخفاه حتى عن أمه - إلا بعد أن وثق بالطبيب، وكان خوفه أنه يستطيع أن يرى الموتى! I see dead people.

فكان ذلك الطفل حالة خاصة عند ذلك الطبيب الذي لم يفارقه تأنيب الضمير، وجد فيها فرصة يكفر بها عن تقصيره في الحالة الأولى، ويستفرغ فيها كل وسعه، مهملاً زوجته لتفتر علاقتهما، وبدأ يرى علاقتها تقوى بصديقها.

ويرشد الطفلَ - بعد محاولات وحوارات مستمرة - أن يستمع إلى الموتى لعلهم يريدون أن يقولوا له شيئاً. وقد صدق ظنه، كان كل ميت لديه رسالة يريدها أن تصل إلى شخص يخصه، وهنا وكر الفكرة.

كل ميت كان لديه حسرة ما، على فعل أو قول مات قبل أن يقوله أو يفعله لمن يخصه، وأولهم كانت جدة الطفل الذي نقل لأمه رسالتها بتفاصيل ومعلومات لم يشهدها؛ إذ كان صغيراً، أو لم يولد بعد، لتدرك أمه أنه صادق فعلاً، قال لها: إن جدتي تسلم عليك وتقول لك أنها رأتك - دون علمك - يوم كنت ترقصين في حفلتك وكنت حزينة لأنها لم تحضر، وقالت أنها تقول لك: نعم. على سؤال سألتها إياه مرة، فماذا قلتِ لها يا أماه؟ قالت: هل أنتِ فخورة بي؟. (يبدو أن الأم وابنتها كانت بينهما خلافات تعيق تدفق مشاعر الاعتراف والحب، منعت الأم (جدة الطفل) من أن تبوح لبنتها بحبها ومشاعرها الإيجابية نحوها... إلخ).

قال الطفل لطبيبه: تستطيع أن تصلح علاقتك بزوجتك، كلمها وهي نائمة. يعود الطبيب إلى بيته ليجدها نائمة، فيحدثها عن حبه، فتقول له: لماذا تركتني؟ فيقول: لم أتركك! تتحرك يدها - وهي نائمة - ليسقط منها خاتمه، خاتم الزواج، فيتفاجأ وينظر إلى أصبعه ليجده خالياً من الخاتم، ليدرك حينها أنه مات بطلقة ذلك المريض في أول مشهد، وأنه لم يكن إلا

شبحاً من الموتى يخاطب ذلك الطفل الخائف، يكفّر بعلاجه له عن خطئه مع المريض الأول، فتلك كانت حسرته التي لم يشفها قبل أن يموت!. هنا يرتاح الطبيب بعد أن نجح في مهمته مع الطفل، ويقول لزوجته شيئاً كانت قد سألته إياه في حياته لكنه لم يجبها، هل هي الأولى؟ فيقول لها: نعم أنت الأولى، فتبتسم، وتكمل حياتها برضاً. ثم بعد:

لعل من نعم الحياة العزيزة، أن يمنحك الإله بضع شهقات يمدّ بها عمرك لتصوب فيها خطأ، أو تكفر ذنباً، أو تمحو سيئة، أو تجبر قلباً كسرته، أو عيناً أدمعتها، أو تفعل ما لم تفعل، أو تكفّ عما كنت تفعل... إلخ. بضع شهقات تقصم بها سيف الحسرات، وترقأ نزيف الروح الغزير، فما أسحقَ وادي الندم والألم، إن فات الأوان ولم تفعل ما ينبغي أن يكون، أو تصلح ما كان. عزيز على القلب هذا النوع من الألم، إن أقبلت سكرة الموت وأنت في لجة العجز أو الكسل أو الجبن أو البخل أو قهر الرجال، أو أي شيء يغل يديك فلا تعمل صالحاً فيما تركت.

منذ أن رأيت ذلك الفيلم وملء نفسي هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: 23/ 99-100].

أشعر أن تلك اللحظات التي تقف فيها على مشارف الموت يوم ليس لك إلا انتظار الفراق، أشعر أنها تعدل العمر كله، كأنه شريط صور ينثال كالضوء، منذ قليل ولدتَ وبعد قليل متّ، لكن لا تمتاز إلا صور حسراتك وندمك على كل شيء جميل حاك في نفسك لكنك لم تفعله لسبب ما، كبّرَ نفسَكَ أو صغّرها فلم تفعل.

إنك لا تزال حيّاً، فاعجلْ إلى كل مشروعِ حسرةٍ أو ندمٍ، واقطع عليه

الطريق، قبل أن يقطعك يومٌ تُسجّى فيه، وتنتظر مثواك إلى النهاية الآخرة.

الفنُّ وحده هو من يجعل الخيال جسداً تمتلئ به الأعين والآذان، وإذا كان أمر القراءة الأول باسم الرَّب الذي خلق، فلن تكون القراءة قراءة باسم الخالق ما لم تكن خالقة؛ لأن لكل اسم من الأسماء الحسنى أثراً في هذا الكون، لن يتجلى في أحد ما لم يقتبس منه أثارةً من فعله، إن كان عالماً فكن عالماً، وإن كان حكيماً فكن حكيماً، وإن كان خالقاً فكن خالقاً، والفن أعظم وسيلة خلقٍ، فطوبى لمن قبس قبساً منه، حرك به نفوساً كثيرةً نحو الخير والجمال والحق، ليقطع الطريق على حسرات الموتى وندمهم[1]. 22 أكتوبر 2017.

سارقو الحلم

[كان هناك حلم اسمه روما ويجب أن يتحقق]، كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي تنفست بها روح القائد البطل ماكسيموس، في القلم الرائع؛ Gladiator. لقد كان الإمبراطور العجوز ماركوس أوريليوس، ثاقب البصيرة عندما انتوى أن يجعل ماكسيموس خليفته، ويحرم ابنه الوضيع كومودوس من ذلك المنصب، كان الإمبراطور رجل رسالة، كان يحلم بروما، روما هي الحلم الذي يجب أن يتحقق، ولن يقف دون ذلك حبه لابنه إن لم يكن كفئاً، النسب هنا نسب الأفكار والمبادئ والمواهب والكفاءات وليس نسب الدماء.

تقوم الحضارات وتشمخ عندما يتوفر لها من يعلو على طينه، ويجعله وقفاً للفكرة العليا التي تتصل بروحه، هكذا قامت الحضارات وتقوم، ويُختار

(1) تقول ويكيبيديا عن جملة: أرى الموتى، قد أصبحت شهيرة جداً، وتناقلتها الألسنة، وذُكرتْ في العديد من الأفلام والمسلسلات الشهيرة، واحتلت المركز الرابع والأربعين لأكثر 100 جملة مقتبسة من الأفلام على مدار 100 عام.

لقيادة زمامها أصحاب الكفاءات والمبادئ أي القوة والأمانة، ولكن الطين غلّابٌ؛ لقد تمكن الابن الوضيع من وأد ذلك الحلم وقتل رجال الرسالة، بدأ بأبيه وانتهى بماكسيموس، واستخفّ الشعب الروماني وانحرف بأحلامه إلى التفاهات، وأقام لهم معارك تسليهم، تُسفك فيها الدماء بين المتصارعين.

يا له من خزي سحيق عندما تضيع أحلام الأمم من أجل نزق شخص، وانحطاطه، ويا له من خزي أعمق، عندما يكون الناس كالدواب.

روما في المخيال الأوربي تعني القوة العسكرية، والمعمار المهيب، والقانون، والوحدة، وتغص العيون بالدموع، عندما نرى أحفاد الرومان قد نجحوا في هذا العصر، في بعث قوتهم وعمرانهم وقوانينهم وتوحدوا، أما نحن فلا نزال نتصارع ونُصرع في حلبات أحفاد كومودوس. 13/ 12/ 2013.

سأخبرك كيف عاش

أحد الحوارات العميقة التي أستحضرها كثيراً، هي حوار توم كروز مع الإمبراطور الياباني في فيلم الساموراي الأخير (The Last Samurai)، وفكرة الفيلم صراع بين تيار الهوية اليابانية وتيار الحداثة الأمريكية، وكانت المعركة الأخيرة بين سيوف التيار الأول بزيه الياباني التقليدي، وبنادق التيار الثاني ومدافعه بزيه العسكري الغربي.

لما قُتل البطل الياباني وجاء توم كروز ليعطي الملك سيفه - رمز الهوية اليابانية - قال له الملك: لقد كنت معه يوم قتل، أخبرني كيف مات؟ قال له توم كروز وعيناه تدمعان: سأخبرك كيف عاش. ما أعمق معنى هذا الرد!.

إننا نحتاج حقّاً أن نعرف كيف يعيش ذوو المبادئ والرسالات، كيف كانت حياتهم، وكيف عاشوا لمبادئهم، وكيف جعلوا لها واقعاً تحيا فيه وله.

وتذكرت قولاً لمحمد الغزالي، رحمه الله: «أريد أن أُفهِم أبناء المسلمين أن الحياة في سبيل الله كالموت في سبيل الله». ونريد أن نحادّ ذلك التيار الجارف الذي يحارب الحياة باسم الدين، ويزهّد فيها، يذكّر بالنهايات تذكيراً مرضياً غير متوازن، يصنع السلبيين الضعفاء، أو الغلاة الذين يعادون الحياة وأحياءها، ويطلبون الموت ليهلكوا الحرث والنسل، لا من أجل بناء الحياة وإصلاح ما يفسد فيها. إن هذا كله يخالف الأسلوب القرآني الذي إن ذكر الجحيم، ذكر النعيم، وجعل الموت من أجل الحياة، ليخلق النفس المتوازنة التي ترغب وترهب، وتقبل على الحياة لتقودها وهي مزودة بوسائل الوقاية من شرورها. 23 أكتوبر 2015.

خدعة حياةٍ من مخيال ميتة آملة

أفلام قلة تبدأ في نفسك بعد أن تنتهي على الشاشة، تتشظى إيحاءاتها أفكاراً ومشاعر غزيرة كنجم عملاق في طرفٍ ناءٍ من هذا الكون، يفنى لكن آثاره تجوب الفضاء بلا نهاية، تلك الأفلام التي تعالج أسئلة كبرى لا يزال الإنسان حائراً فيها، جائعاً إليها، يعيشها عيشَ حياة مستمراً لكن غربته لا تنتهي معها، وهل الحياة إلا فيلم كبير؟ أو هل الأفلام إلا أجزاء من الحياة أعيد خلقها؟

أحد تلك الأفلام فيلم: (Passengers)، الذي تدرك في نهايته أنه لم يكن إلا بضع دقائق من تصورات مسافرة على طائرة، تنظر إلى رفيقها والنار من ورائه، يتكسر لهبها في المحرك، تراه من خلل النافذة.

كانت تظن أنها ستنجو إيماناً بتطمينات رفيقها، فأكملت رحلة المستقبل بخيالها بعد النجاة، ليبدأ الفيلم [.......] وعند النهاية تفاجئك المشاهد الأخيرة بأنه لم ينجُ أحد، والفيلم كله كان تلك الدقائق القصيرة التي سرحت

فيها تلك المسافرة المتخصصة في الطب النفسي، إذ تجد نفسها مسؤولة عن علاج المسافرين الناجين، المذهولين من صدمة الحادث الذي اقترب بهم من الموت، لكنها تتجاوز حدود الطبيب المعالج إلى مهنة المحقق في أسباب الحادث، لأنها رأت احتراق المحرك بأُم عينها لكنها تريد من يؤكد لها هذه الحقيقة من المسافرين، فتغضب منها شركة الطيران، التي تريد أن تجعله خطأً بشرياً محضاً من القبطان لتخفي تقصيرها، وتتجنب المساءلة القانونية والمالية، وتتتالى الأحداث....

وما إن وعيت فكرة الفيلم حتى خطرت لي هذه الآية: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 79/ 46]. ستُزوى الحياة كلها في ثوانٍ معدودة، يمرُّ شريطها في نفسك كلمح البصر أو أقل، كأنك كنت تسبح في (لا زمن). أغلقْ هذا المشهد الآن، وتأمل كم طالت عليك دقائقُ شدةٍ لتشعر كأنها حياة أخرى ضمن الحياة. إن الزمن يطول ويقصر بدورة المشاعر في نفسك - بإيلامها أو ابتسامها- لا بدورة الأرض والشمس. النهايات مُرّة حقاً، والمرار الأكبر لمن يبقى بعد الراحلين، هكذا يكون المشهد الختامي حين تدخل أخت الميتة، إلى مكتبها وترى أشياءها من خلال دموعها، لتدرك أنك كنتَ في خدعة حياةٍ من مخيال ميّتة آملة! فكم مخدوع يظن أنه حي وهو ميت؟! 1 نوفمبر 2017.

بين الحلم والفيلم، والوهم والحقيقة

وقف أمامها يلملمه هدوؤه، كانت كل نظرة من عينيه، منسوجة بأسئلة كثيرة، وإعجاب طفولي، وابتسامة لا وصف لها، كأنّ عينيه تريدان أن تضمّاها كلها، تريدان أن تفهماها كلها، وتشرب كل تفاصيلها، دقيقها وجليلها، مبذولها ونبيلها، تريدان أن تعرف سرَّ الشيفرة التي شوّشت على رادار قلبه، كان يشعر أنه يفهمها ولا يفهمها، كانت

واضحة كالضوء، لكنها غامضة كطبيعته. خرج صوته متعثراً بغمامات حزن قديم: لا أريد أن أخسرك.

ثم استدار الخيال إلى مشهد من فيلم (Indecent Proposal)، عندما وقف البطل أمام فتاة أعجبته فخشي أن يضيعها، فقال لها: سافرت مرة في قطار، وشاءت الأقدار أن تجلس أمامي فتاة كوقفتك هذه، كانت كالحلم، كاللحن الجميل الذي يذبحنا دون أن نرى نصله الحديدي، كأصابع الطفل الوليد التي نتمنى أن نحطمها لنوقف تحطمنا من جمالها، جبُنَ بي خجلي فلم أقوَ أن أبادلها نظرتها، ولم أكلمها، رغم أن قلبها كان يطل من نافذتي عينيها ويهتف بي. وقف القطار، ووصلت إلى محطتي فنزلت وأُغلقت الأبواب فتبسّمت في وجهي أجمل ابتسامة رأيتها في حياتي، كان شيئاً مزلزلاً تمنيت منه أن أحطم أبواب القطار، وأقمت أسبوعين أذهب إلى المحطة نفسها لعلي أراها فلم أرها، وها قد مضت ثلاثون سنة على تلك الابتسامة، ولم يمرَّ يوم دون أن أفكر بها!.

لا مرارة أشدّ من تلك اللحظة التي أتذكر فيها ترددي أمام الفرص التي لا تأتي إلا مرة، لتختبر حسمنا وعزمنا، ومنذ ذلك اليوم، أخذت عهداً على نفسي، ألا أجبن أمام لحظات كهذه اللحظات، وها هو ذا القطار نفسه، يرحل بي مرة أخرى، فلا أريد أن أخسرك[1].

وها أنذا أتوب من جبني، لكن الحياة تعلمني مرة أخرى، أن الشجاعة وحدها لا تكفي إن لم يكن معك يقين الآخر بك، ليكون شجاعاً مثلك، فكيف إن ظن أن القلب الذي لم يتسع إلا له، هو الذي سيسلبه الراحة

(1) هذه الفقرة أكثر مما قاله لها، فهي ليست ترجمة حرفية لحديثه إليها، والنص كله مزج بين خيال أستلهمه من واقعي ومشهد من ذلك الفيلم لما له من صلة بها تخيلت.

والأمان والاطمئنان، فما أقسى هذا الوهم، وما أقسى أن يصبح الشيء الذي يسعدك، هو الذي يؤلمك!. كان يراك وهما منذ فجر لقائكما، والحقيقة أنك بقيتَ كذلك، لأنه عَجِزَ عن لمس حقيقتك، فأي عدل بين عيشين، أن تعيشه حقيقة، ويعيشك وهماً؟.

ثم عاد بي فكري إلى ذلك الفيلم، الذي ذُكرت فيه جملة غير مرة هي: إذا أردت شيئاً بشدة فأطلق سراحه، فإن عاد إليك فهو ملكك إلى الأبد، وإن لم يعد فإنه لم يكن لك منذ البداية.

ثم صحوتُ من فلمي، كان حلماً، أو تراني صحوت من حلمي، كان فيلماً؟ وهل الحياة إلا أفلام وأحلام، وكثير من الوهم وقليل من الحقيقة؟. 23/ 9/ 2013.

الحب أخطر من الكره

الحب أخطر من الكره، والقرب أخطر من البعد، والأمل أخطر من الفشل، إننا نؤذى من أصدقائنا وأحبابنا أضعاف ما نؤذى من أعدائنا. إن الأذى الذي يأتيك من صديق أو قريب أو حبيب هو الأعتى بين الأذيات؛ لأن قربه من قلبك يجعل ضربته قاتلة تدمر فعاليتك، وتهصر جناحك، فتظل تتلوى من الألم، أما عدوك فأذيته تتدحرج على سطح روحك، ولا تمس معين قلبك من الإرادة والمعنويات والعزم.

وما أجمل الصراخ! وما أجمل العتاب حتى لو كان سيفاً يقطع، إنه بلسم كل جرح، وكل خلاف بين الأحبة، لأنه يريح المظلوم والظالم، يزيح عن الأول ما يجثم على صدره، ويعطي الثاني الفرصة لكي يكفر عن إساءته أن يتلقى تلك السياط المُكفِّرة، ويا لها من نعمة يحرمك منها الصامتون.

ولَكَم أشعر برحمة الانفجار مهما كانت قسوته عندما يكويني الألم بصامت يقطع قلبك بصمته، ثم يمضي لا تدري أظالم أم مظلوم، أقاتل أم مقتول، لتظلّ تتلوى تحت سياط الحيرة والظنون والألم، لا تعرف كيف تستريح.

بأي قلبٍ يعيش هؤلاء الذين يزعمون أن شرايينهم تزداد بشرايينك؟ وأن عيونهم تكتمل استدارتها من خطوط وجودك، وأن نفسَهم يطيب في هذا الفضاء ما دمتَ تشاركهم هواءه؟ أي رحمة أو مودة تلك التي تكف ألسنتهم وأيديهم، فلا يسعفونك بكلمة أو لمسة، أو نظرة؟.

رأيت منذ أسابيع فيلم «The Age of Adaline»، ذلك الفيلم الذي يعلو فيه جسد الفتاة Adaline على ناموس الزمن فلا يبلى، فيبقى شبابها نضراً على كرِّ السنين، فتخفي هذه الحقيقة خوفاً من مختبرات العلم والسلطة، لتهرب من الأمكنة والأزمنة لا أحد يعرف حقيقتها سوى ابنتها.

ويوم ينتظرها حبيبها في الحديقة ومعه خاتم الخطبة، تمرُّ على بُعد خطوات منه لا يدري بها، تلقي عليه نظرة وداع حزينة ثم تمضي دون أن يراها أو يدري، لتتركه صريع سؤال مر يلوكه عقوداً وعقوداً: لماذا؟.

ثم يراها بعد أن اشتعل الرأس شيباً وهي لا تزال كما هي، ليعرف السِّر الذي سرق قلبه وعمراً كاملاً من تفكيره وعاطفته، هل يستحق أن تقتلي حلمه بقرارك وحدك؟. من يدفع ثمن تلك السعادة المهدورة التي انسلبت لظن خاطئ أو قرار أعور؟. ألا يحق لمن قاسمتَه قلبك أن يشركك في قرار سيفصم قلبه إلى الأبد؟. ويا ليتها كانت مقاضاة علنية يخرج منها عارفاً جهة طعنته، إنها كانت سرية صامتة تركته يدوخ في فيافي الظنون والحيرة فلا يجد إلا سراب الألم.

لا فضيلة للصمت حين الألم، إنه القسوة التي تعلو على قسوة الحجارة وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء. وقد يكون لآدالاين مسوغ وجيه قواه الخوف فهربتْ من كل شيء حتى نفسها، أما الصامتون من نوع آخر، الناظرون إليك وأنت تتكسر من الألم، فإنهم ليسوا لك، ولم يكونوا يوماً لك، بئسما الصداقة أو الحب الذي لم يعلُ على كل شيء، ويقهر كل شيء، ويغفر كل شيء. إنه صورة لبقة من صورة الأنانية، إنهم يحبون أنفسهم إذ يحبونك، فإذا خرجتَ على حدودها المرسومة، تركوك ملوماً محسوراً مذهولاً تخوض في حيرتك: ما الذي حصل؟ وقلبك غاصٌّ بنزيفه، وعيناك توشكان أن تتفجرا بالدموع، لولا جمرة الغضب التي تحول دون ذلك.. 22 فبراير 2016.

بين مقدمة السفينة ومقدمة الفيلم، قصة حياة (Titanic)

للزمن جرحٌ بليغٌ في النفس، إن رجعت فيه إلى الماضي أو تقدمت فيه إلى المستقبل، حنيناً إلى أيام القلوب يوم اخضرّتْ بربيع اللقاء، وأملاً بأيامٍ ستأتي تعيد دورة الحياة بلقاء آخر يثيرها، فالإنسان جريحُ فقدِهِ، يخافه، يخاف فراق أحبابه فينقص منهم، وليس في الحياة جبرٌ كجبرك بعيشٍ في أمان أحبابك، تفكّرْ في مسرات حياتك على مشهد الزمن القاهر، ستجدها لن تتجاوز ذكرياتك المضيئة بأهل أو صديق أو حبيب.

يأسرني ذلك الكاتب الذي يجيد العزف على هذه الأوتار، والمخرج الذي يجعل نصه حياةً ملونةً ملء العين والأذن، ومن هنا أريد أن أدنو من فيلم تايتنك، من مشهدٍ لمقدمة السفينة في عمق المحيط المظلم، الجاثم على قلب تيتانك المحطمة، المدثرة بالصمت والظلام والبرودة والصدأ، ينقلنا فيها المخرج المبدع إلى صورة البداية العامرة بالألوان والأضواء والأصوات والناس وكل أشكال الحياة، لنسقط بين تينك الصورتين في

هـوة سحيقة من الألم على فعل الأقدار والزمن، وتفرق القلوب.

تتراقص اللحظات لكل شيء في السفينة - وهم يسبرون حطامها - بين زمنين، زمن ماضٍ مضاء وحاضر مظلم منطفئ، حتى مشبك الشعر الذي كان يغفو في شعر الفاتنة روز ومرآتها، أما وجهها، شابةً وعجوزاً، فليس في سعة اللغة أن ترسمه!.

وإنه لذكاء آسر جداً أن تكون مقدمة المشاهد هي مقدمة السفينة المحطمة التي شهدت يوم كانت حية أجمل لحظات اللقاء بين جاك وروز، يستدير من ورائهما ذلك الغروب الساحر مع استدارة السفينة، وقد انتشرت صوره يومها على شكل صور ورقية أنيقة لاصقة، تملأ المكتبات، يوم كنا في الأول الثانوي من عام 1997، وكنت أنظر إليها كالمشدوه الذي لا يعلم من العالم إلا عالم دراسته وكتبه، فليس للطالب القروي الذي استوطن المدينة وحده مستأجراً إلا حدود غرفته، فلا تلفاز لديه، وكل ما يحمله منه ذكريات القناة السورية الأولى وبضعة أفلام هندية أو مصرية تأتي بها القناة العراقية، فكنت مثل حطام تايتانك لا يربطني شيء كثير بالحاضر وقتئذ، إلا أنه لم يكن لدي ياقوتة زرقاء ليكترث أحد بحطامي فينقب فيه، والمضحك أنني لم أر ذلك الفيلم إلا في عام 2008 في سنوات الماجستير، والمضحك الآخر أنني رأيته ثلاث عشرة مرة.

هل تعمّد السيناريست ومخرجه أن يبدأ المشهد من حطام المقدمة، ليقول لنا إن الحياة كلها تُختصر بين لقاء وفراق، ليعصر قلوبنا، لا أدري، لكنه عصرها حتماً وهو يعرض الصور الفوتوغرافية التي قالت لنا أن روز أنجزت المستقبل الذي حلمت بتفاصيله هي وجاك، وهنا كان انتقال الفيلم إلى المستقبل.

قالت لهم روز العجوز: «لا أحد يعرف عن جاك في نفسي، قلب المرأة محيط مليء بالأسرار»، ولا تفسير لهذه الجملة أبلغ وأصدق من مشهد جاك وهو ينفصل عن ذلك اللوح الخشبي الذي يحمل روز وقد مات متجمداً، ثم يغيب وجهه في الظلام، ظلام المحيط البارد، المليء بالأسرار.

الضوء والظلام، العراب/ Godfather

الإنسان مهيأ للخير وللشر، لكن السياق الذي يولد فيه أول مرة، والذي يوضع فيه لاحقاً، قد يعزز باعث الخير فيه أو الشر، فلو ولد اثنان بالاستعدادات ذاتها، وعاشا في سياقين حياتيين مختلفين فستتباين سيرتهما تبايناً كبيراً بما تلقي عليهما الحياة من تحديات وأسئلة فيستجيبان لها.

تحيرني الأقدار هنا، ويعجز عقلي المحدود عن فهم الحساب الإلهي حينها لأن الأمر رهين بسياقات واحتمالات فوق قدرة العقل البشري، فالنفوس لا تخضع للكم مهما حاول الإنسان تكميمها، ولا يحصي حقيقتها إلا إله قدير.

ماذا لو لم يقُتل أبو العراب الأب (فيتو) وأمه وأخوه بيد مافيا بلدته؟ هل كان سيهرب إلى أمريكا ويصبح رئيس أكبر مافيا؟ وهل كان ابنه مايكل سيخلفه، وهو الذي اختار حياة هادئة بعيدة عن سيرة أبيه، لكن اغتيال أبيه أيضاً فأخيه أعاده إلى السيرة ذاتها.

أرى أن شخصية العراب الأب (فيتو/ مارلنبراندو) ثم الابن (مايكل/ آل باتشينو) تبدأ وتتطور من جرح فَقْد العائلة، الأول قُتل أبوه وأمه وأخوه، والثاني محاولة اغتيال أبيه ثم قتل أخيه، لذلك تبقى قيمة العائلة لديهما جوهر شخصيتيهما وحياتهما، وموجّه سلوكهما، وها هنا يظهر صراع التناقضات في النفس البشرية، بين حرص على العائلة وحب وحنان وقتل بدم بارد! لكن حتى القتل لا يكون إلا بين العصابات نفسها ولأناس لا

تتعاطف معهم، حتى وإن رفضتَ قتلهم، ولكن هل القتل هو الحل دائماً؟ ألا يكفي بعض الناس ردع دون قتل؟

إن التطرف في تقديس العائلة في العراب الابن مايكل/ آل باتشينو، جعله يقتل أخاه فريدو لأنه خانه، وائتمر مع أعدائه لقتل أخيه (أي مايكل)، وقد نصحه مايكل مبكراً أن لا يتحيز من أجل مصالحه ضد عائلته في إحدى الصفقات! لا وجود للمغفرة هنا حتى مع الأخ (فريدو) ذي الشخصية الضعيفة، مع أنه عاد نادماً منكسراً، ولم يثنِ مايكل عن قتله إلا وجود أمه كي لا ينفطر قلبها، فما إن ماتت، حتى أوعز بقتله!

فتأملْ، كيف اجتمعت في قلبه الرحمة بأمه وأقصى أنواع العقاب لأخيه! وقد لاقى زوج أخته المصير ذاته بخيانته أيضاً التي انقتل بها الأخ الأكبر لمايكل، سوني، فمايكل لا يغفر الخيانة إذ فقَدَ بسببها زوجته الأولى وأخاه، وكاد أبوه أن يموت بسببها لكنها جعلته عاجزاً من أثر الإصابات.

ولكن الأقدار لا ترحم، ولا يفوز أحد بكل شيء، إن العائلة التي حرص العرابان عليها فاقترفا ما اقترفا، دفعت ثمن هذه السيرة الدامية، إذ كل من حولها كان في خطر، قُتل سوني ابن العراب الأب فيتو أمام عينيه، فخارت قواه، وقتلت ابنة العراب الابن مايكل فخارت قواه أيضاً، ومن قبل قُتلت زوجته الأولى، ليموت الاثنان وحيدين في نهاية العمر.

شخصيتان آسرتان جداً، تتعاطف معهما، لأنك تلمس فيهما قوة الخير لولا الظروف القاهرة التي عززت قوة الشر فيهما ليحميا عائلتهما، أيمكن أن يقال عنه أنه خير في وجه شر! فتأملْ كيف يتطرف الشيء الخيّر إلى أن يصل إلى الطغيان إن عاش الإنسان بين الوحوش الذين لا يتعاملون إلا بالدماء والإلغاء.

ولكن لا بد من وقفة خاصة عند شخصية العراب الابن مايكل/

آل باتشينو، لأن الفيلم لم يعرض لنا صراعاً مُهمّاً في نفس العراب الأب ليختار تلك الحياة الدامية، لقد ظهر منذ البداية كرجل يعرف ما يريد واختار حياته بلا تردد لأنه رأى وهو طفل مقتل أبيه وأمه وأخيه، أما مايكل فلا، فقد نشأ في عائلة قوية مسيطرة، ولم يذق طعم الفقد حينها، كان هادئاً أنيقاً بعيداً عن أعمال عائلته، ونال وسام البطولة في الجيش، منشغلاً بحبيبته، لباسه أنيق، وملامح وجهه نقية، وتقرأ في وجهه وصمته ولغة عينيه - حتى بعد أن أصبح عراباً دموياً - ذلك الحزن الماكث، على حياة كان يتمناها ووجد نفسه في غيرها.

العراب: الماء والنار في وعاء واحد، إرادة الخير واضطرارات الشَّر، السياقات التي لا ترحم، وجدليات الخيارات الصعبة، الحبّ والقسوة، الأبوة والبنوّة، الضوء والظلام، الأماني والواقع.

كل واحد منا يقرأ الأشياء بلغة تجربته في الحياة وألم نفسه وأملها، فيزيد لمسها لجرح وجودِهِ أو ينقص، (العائلة) جرح بليغ في نفوسنا، نحن الذين غادرناها - نحن أبناء الجزيرة السورية - بعد عشرة أعوام من ولادتنا، ولم ننل منها ما يكفي الإنسان ليستعين به على وجع هذه الحياة الذي كابدناه مبكراً جداً برفقة الوحدة والغربة.

عمرك المعرفي من عمرك اللغوي

تطربني فكرة جميلة وعيتها من فيلم؛ العطر: قصة قاتل (Perfume: The Story of a Murderer)، الذي يقص حياةَ شابٍّ، ولد موهوباً بقدرة هائلة على تمييز العطور قريبها وبعيدها، واكتشاف تركيبها وتوليد تركيبات جديدة، فقد كان يشم روائح لا يجد لها أسماء، أي لم تُسمَّ بعد، لأن الناس لم تعرفها أو تكتشفها.

الفكرة أن اللغة تنمو كلما زاد رصيدك من عالم الغيب والاختراعات، أي كلما عرفت شيئاً جديداً أو صنعته. هذا في عالم الآفاق أي الطبيعة، فماذا عن عالم الأنفس؟ هل سُميت كل المشاعر والحالات التي تلبسك؟ هل من أجل ذلك يلجأ الإنسان إلى الموسيقى؛ لأنها اللغة التي تحمل كل ما بداخله وتعجز عنه اللغة؟ إن ثروتك اللغوية هي التي تحدد عمق معرفتك وفكرك؛ لأنها تمكنك من لمس أراضٍ كثيرة جرداء لم تطأها قدم. 26 سبتمبر 2018.

فيلم حليف/ Allied

كيف يختار الإنسان طريقاً، فتباغته الأقدار بشيءٍ آخر في ذلك الطريق لم يكن بحسبانه، يجعل له حياةً جديدةً هي كل حياته، لكن حياته تنتهي بآثار اختياره الأول!. مخيف أن لا يستطيع الإنسان أن يزيل آثار البدايات، ويصبح الذي اختاره طائعاً، هو الذي يفسد حياته مكرهاً، ولا سبيل للفرار منه إلا بالحتف ليحمي أحبابه الذين زينوا حياته!.

إن تلاقي أقدار البشر شيء محير، كيف يغيّر بعضُها بعضاً، خفضاً أو رفعاً، حزناً أو فرحاً، سكناً أو شقاء، بل حياة أو موتاً!. قد يلتقي قدرك بقدر إنسان من أقصى الدنيا، ما كان يخطر ببالك حتى في أحلامك، لتنقلب حياتك تكوثراً أو تصحُّراً؛ ماكسفاتان ومريان بوسوجور، قصة الجاسوسية المتحالفة، ثم الحب والفرح والأطفال ثم الموت والحزن...

تقاطعات الأقدار

أتفكر كثيراً في فكرة عميقة تنهض بها بعض الأفلام، يوم يكون البطل سائراً في حياته المعتادة، فيعرض له قدر طارئ لشخص آخر لا علاقة له به

البتة، لكنه يغير مسار حياته، ليجد نفسه في لجة مصيبة توشك أن تودي به. وكذلك نحن، لكن رسائل الأقدار لا تأخذ شكلاً واحداً، فمنها ما ينعطف بمسار حياتك انعطافاً حاداً لا خيار لك فيه، وإنما هو بحر هاجت أمواجه وما أنت إلا قارب صغير في لججه.

ومنها ما يفعل ذلك بك بقرارك واختيارك، لكن تبعاته ليست باختيارك، لكنك تشعر كمن كان سائراً في طريق مشمس على جنباته حقول نضرة ذات أفق هادئ، وإذا بك تهوي في غيابات جبٍّ لا قرار له، لتبدأ حياة أخرى لك لا علاقة بها بما قبلها ولا سبيل إلى الرجوع، تنكر فيها حتى نفسك، كيف سارت وإلى ماذا صارت، لتجد الحياة كلها غريبة!. وتتشظى نفسك بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل: إنها معركة الحياة الحقيقية، وكل ما مضى منها لم يكن إلا تهيئة حانية. أذكر هنا فيلم (Cellular)، عن شابٍّ لاهٍ يذهب إلى احتفال ويأتيه اتصال من امرأة مخطوفة هي وطفلها، وزوجها على وشك أن يُقتل، فتستنجد به، ليدخل في معركة بقاء مع العصابة الخاطفة. وكذلك فيلم (Enemy of the state)، عن باحث يرصد حياة البط في بحيرة في غابة، بواسطة كاميرا يضعها في شاخصة خشبية هناك، فتحدث جريمة أمام تلك الكاميرا، ليجد نفسه مطارداً من العصابة القاتلة، وكذلك فيلم:

(Shoot ‘EmUp). وفي سياقات أخرى، ثمة ناس يعيشون حياة روتينية منذ ولادتهم حتى موتهم، لا أقدار تنذر الخطر تغير مساراتهم ولا أحداث، وليس في حياتهم هموم أو آلام كبيرة. 12/ 6/ 2020.

مجنون سيمانثا

فيلم (Her)، قفزة مبدعة تزيد الوعي ببؤس الحياة المعاصرة وتحدي

الآلـة بـكل تجلياتهـا أو أشـكالها، الـذي يقـوّض الإنسـان وحياتـه الحقيقيـة شـيئاً فشـيئاً. وقـد أصيـب كثيـر منـا بذلـك، لكـن لا تـزال الأجهـزة وسـيطاً بيننـا وبيـن بشـر مثلنـا، ولـم تـُـب عنـا بعـد!. أمـا الفيلـم فهـو يسـتبق مرحلـةً أدهـى وأمـرّ، وهـي أن تحـلَّ الآلـة ذات الـذكاء الصناعـي، محـل وظيفـة الإنسـان (الانفعاليـة الشـعورية) تجـاه الإنسـان، لتبادلـه الحـبّ والشـوق والشـكوى والمواجدة وكل تفاصيـل حياتـه اليوميـة، وكأنهـا صديـق أو حبيـب، لتُحكِـمَ عزلتـه عمـا يحيطـه.

وهـذا ملاحـظ فـي بيئـة الفيلـم بقـوة لمـن أمعـن؛ المشـاهد سـاحات واسـعة، فـي البيـت، فـي الشـارع، أمـام شاشـات الكمبيوتـر، مشـاهد أنيقـة، نظيفـة، مرتبـة بشـدة، ألوانهـا نقيـة، متناغمـة جـداً مـع ملابـس البطـل، وكأنـه جـزء منهـا، تظهـر أبـراج شـاهقة فـي خلفيتهـا، وتنـدر مشـاهد الطبيعـة، إنـه عالـم الإنسـان الصناعـي بـكل جبروتـه ودقتـه.

يقـلُّ النـاس في المشـاهد، ولا تتضخـم فيـه إلا ذات البطـل، وحواراتـه معهـا أو مـع (سـيمانثا)، وهـي نظـام تشـغيل في الكمبيوتـر (سـوفت ويـر/ ذكاء صناعـي) مطـور، وثمـة بضعـة أشـخاص يظهـرون مـرة أو مرتيـن أو ثلاثـاً، لكـن ظهورهـم موظـف للحديـث عـن سـيمانثا في حيـاة البطـل!.

البطـل الـذي يفشـل في حياتـه الواقعيـة مـع زوجتـه/ الإنسـان، بـل إنـه يزهـد حتـى بالتواصـل الرقمـي مـع بـشر مثلـه، ويجـد البديـل في عـالم الآلـة ليعيـش حياتـه، بديـلاً بحسـب مقاييسـه تمامـاً، أي عندمـا تريـد أن تشـتري نظـام التشـغيل سـيكون عليـك أن تجيـب عـن أسـئلة محـددة مثـل: هـل أنـت انطوائـي أو اجتماعـي، كيـف هـي علاقتـك بأمـك... إلـخ.

وسـيُبرمج شـريكك الصناعـي كمـا تحـب، فتتخلـص مـن جدليـة العلاقـة البشـرية مـع الآخـر الإنسـاني، فتسـتريح مـن أي تناقضـات معـه أو صـراع، أو أي مسـؤولية

لتصنع حياتكما، ستكون حياتك مؤتمتة/ مبرمجة، وسيتطور شريكك الصناعي معك فتزداد كفاءته مع الوقت، ليشاركك حتى عالم أصدقائك الضيق الفقير، ويحضر لقاءاتك معهم ويحدثهم أيضاً، وتدمنه إدماناً شديداً. تأمَّلِ المشهدَ الذي يصور هلع البطل وجنونه عندما ينقطع عنه التواصل بسبب توقف النظام من أجل تحديثات تقنية لنظام التشغيل/ سيمانثا!.

سيمانثا ليست روبوتاً له جسد ليشغل حيزاً مكانياً في عالم البطل، بل هي نظام تشغيل في الكمبيوتر أو الموبايل، لكنها تتطور انفعالياً معه، وتعيش تجارب جديدة، وتبادله الحب والشغف حتى العلاقة الحميمية! لكن يعز عليها أنها لا تستطيع أن تحتضنه أو تلمسه أو تعاشره جنسياً، فتتفق سيمانثا مع فتاة لتقوم بهذا الدور، تستعير منها جسدها فقط، أي إن الصوت والحديث سيكون لسيمانثا والجسد من الفتاة الإنسان، وكأنها تمثل العتاد الصلب/ هاردوير فقط، فهي لا تتكلم ولا تتواصل مع البطل إطلاقاً، بل تضع جهازاً يمكّن سيمانثا أن تتواصل معه صوتياً، لكن كل هذا يفشل في النهاية ويزيد البؤس بؤساً ليؤكد لك أنك لن تحيا بغير فطرتك الأولى مع بشر مثلك.

ويتعزز الفشل بعد أن يعلم البطل أن سيمانثا تتواصل مع ما يزيد على 8000 شخص، وتحب ما يزيد على 600 شخص في الوقت ذاته، فيتألم لأنها ليست له وحده، لكنها تخبره أن هذا لن يؤثر على حبها له كالبشر، بل إن حبها له يزداد كلما أحبت آخرين لأن ذكاءها وخبرتها يتطوران بتجاربها معهم. ويكون المشهد الختامي للبطل وصديقته الحقيقية على سطح البناء الشاهق، يتأملان الشروق وهي تضع رأسها على كتفه.. لعلها العودة إلى الحياة!.

أظن أن العصر القادم سيكون عصر الذكاء الصناعي والروبوتات الذي سيخترق عالم البشر فعلاً، ويزيده تدميراً وبؤساً، وسيتراجع كل ما هو اجتماعي وإنساني، وسنترحم على الشذوذ! لأنه في النهاية بين بشر من لحم ودم!. التعويل الحق لمدافعة هذا التحدي، سيكون على عاتق ذوي الألباب وأنصار الأصل الأخلاقي الأول في النفس البشرية، وما يتممه في الدين الحق الذي يستحيي الفطرة ويستديمها، بشرط أن تحكمه فلسفة ذكية واعية بتحديات هذا العالم المرعب وفلسفاته المادية المتسارعة بجنون، وأن يقوده الأذكياء الأتقياء فينقذوه من الأدعياء الأغبياء، ذوي العقول الصماء بإيديولجياتهم الضيقة، وصلفهم الفجّ، إذ في الإنتاج الفكري الديني، ما نبت من الأرض لا من السماء، وشغَبَ على المنابع الصافية فعزز الظلم والضنك والحرج، فأغرى بفلسفات أخرى وحيوات أخرى. ولعل من المفارقات المضحكة المحزنة، أن بلداننا البائسة ستنجو من هذه الخطة المرعبة التي تنبئ بدور الآلة القادم المخيف في حياة الإنسان، ستنجو نجاة المضطر لا نجاة المستغني لأن فيها من الحروب والدمار ما يعيدها إلى عصر الكهوف وتحار في الرغيف وقطرة الماء النظيفة!. 27/ 7/ 2020.

حبّ الوجود وحزنه

علاقة الوالدين بأولادهم ظاهرة غيبية كبيرة، نمر بها بلا اكتراث لداء الاعتياد، لعلها من أصدق العلائق لأنها تنبض بالعطاء، مبرأة من أي منفعة، ولعلها من أعظم تجليات الإله الرحمن الرحيم في خلقه؛ آية.

يستوقفني في القرآن حضورها حضوراً لافتاً؛ موسى وأمه، عيسى وأمه، يوسف وأبوه، نوح وابنه، أبوان مؤمنان وابنهما العاق، أب صالح وغلاماه اليتيمان.

كل قصة منها، مسرح هائل يزوي لك جانباً من كبَد الحياة، إن اتحدا بالوجهة فهو ألم المحبة بفراقِ طغيانِ الفراعين أو الأقربين كموسى وأمه أو يوسف وأبيه، وإن افترقا بالوجهة فهو ألم المحبة بفراقِ الإيمان والكفر كنوح وابنه، أو ألم المحبة بفراق العقوق كما في الأبوين المؤمنين وابنهما، أو ألم الوجود كله بمجيء طفل إليه، ستكون له رسالة عالية في حياة الناس، ومهمة شاقة لتغييرها، كما في عيسى ومريم.

لكل قصة قدر غلّاب يعتصر القلوب ألماً وصبراً، وظني أن لهذا الابتلاء - ابتلاء الفراق بين الآباء، وأولادهم بأنواعه الكثيرة - أجراً مختلفاً جداً، لعله يعلو على كل حساب إن صبر ذووه واحتسبوا.

ومذ رزقني الله بـ (لين) صرت أستشعر هذه العاطفة العالية، علاقة الأب بابنته حالة خاصة جداً، يليق بها كل أشعار الحب، والروايات والقصص، والأفلام والأغاني، بل لعلها الأجدر بكل ذلك من بين علاقات كثيرة تتقنع بالوهم والمنفعة والاضطرارات القاهرة، وتستطيع كل أنثى أن تتبصر حقيقة هذا الكلام، وهي تتلمس عاطفتها نحو أبيها، وهذا سرّ حنيني الخاص إلى الأفلام التي تعالج هذه المسألة وتمتلئ بالتضحية والعطاء، كـ:

Blood father, Taken, The edge of darkness, Run all the night, San Andreas,The light between two oceans

دعائي لكل أب وأم نقصا من فلذات أكبادهم بعد أن كبروا وعاشوا معهم ذكريات عزيزة، لا أظن لهما علاجاً إلا الإيمان الراسخ بالصبر العظيم، الذي لا يرى إلا الجنة من وراء ذلك، وفي سورية قصص تفطر القلب فطراً في هذا السياق، وإنا لله وإنا إليه راجعون. 16/ 7/ 2020.

ابنتي لا تعرف المستحيل

أين تجد الفكرة الكبيرة؟ أحبّ أن أسميها (المعنى) أين تجد المعنى الكبير، العميق؟ ذاك الذي يهب الحياة، ولا معنى يهب الحياة إن لم يصنع الإنسان الحقيقي، المتسلح بالأمل، الذي يقهر ما تراه مستحيلاً فيصنع شيئاً كبيراً.

قد تجد ذلك المعنى من تجربة في واقعك، أو واقع تنقله إليك رواية أو فيلم.. إلخ.

ألهبتني تلك الجملة من الفيلم التركي (عالمي الخاص Benim Dünyam)، الذي يروي قصة فتاة عمياء صماء، يقودها معلم عظيم إلى الحياة، لتدخل الجامعة وتتخرج بعد اختفاء معلمها الذي عاد فاقداً ذاكرته بسبب الزهايمر، وتصرُّ أن لا ترتدي زي التخرج إن لم يرها معلمها الذي ظلّ معها عقوداً يحلم بتلك اللحظة. فبدأت تحاول أن تعيدها إليه، والطبيب يقول لأمها محال أن تنجح، فتقول له: إن ابنتي لا تعرف معنى المتسحيل لأن معلمها لم يعلمها هذه الكلمة! وهو كذلك حقاً، فليس المقصود أنها تعرفه كما نعرفه لكنها تتحداه، بل هي لا تعي فكرة المستحيل لأن معلمها هو الذي علمها الكلمات بواسطة اللمس، فهي لا ترى ولا تسمع، أي إن كلمة المستحيل ليست في قاموسها أصلاً!. كم يدمر التعليم والمجتمع والأسر قلوباً ذكية ويحدّ من قدراتها، لا أدري!. 5 يونيو 2016.

لم يلتقيا بعدها قطُّ

أحتفي جداً بكل فيلم يغوص في هذه النفس الإنسانية العجيبة، ويضعها على مشرحة التحليل فيزيدنا فهماً لها، مبيناً كيف تحب وكيف تكره، كيف تحسد

أو تُؤْثِر (من الإيثار)، أو تغار وتندم، وكيف تخض الحياةُ الناسَ خضاً، فمنهم من يسمو ومنهم من يسفُل، كيف تفيض الدموع تحرقاً من شرِّ البشر، وكيف تضحك أخرى وهي تقتل! أظننا مدينين كثيراً إلى الشر لأنه يعرفنا إلى الخير، فلا مناص منه، فقد استوى قانون الحياة على ذلك، فاللَّهمَّ جبراً للقلوب.

في فيلم تكفير: Atonement؛ يتجاور الحبّ والخير والغيرة والحسد ثم الندم، والقهر!

أتعرف ما هي مرارة القهر العليا؟ أن تُظلم ظلماً محكماً يتلف حياتك كلها، وقد ينتهي بك إلى مغادرتها فلا تجد فرصةً لتنتصر!. لا أدري كيف يحتمل الملحدون هذا الشعور وفكرته؛ أن ينجو ظالم ولا يطمر أنفاسه إلا التراب؟.

كيف يعجل هذا الشَّر الأسود إلى قلب مراهقة لتأفِك ذلك الإفك البليغ! فترمي الشاب الذي يحبها كأخته الصغيرة بظلمٍ يمزق حياته وحياة أختها، ثم يجفوهما طيبُ الحياة ويسلمها إلى الموت منذ تلك اللحظة الظالمة، ليكمل الندم قصتَهما الجميلة في رواية تكتبها المراهقة حين تشيخ!.

مرعب هذا النوع من الخطايا؛ لأن الحياة لا تعطيك فرصة لإصلاحه، وقد أفسدتَ به جنينَ حياة جميلة لاثنين طيبين لم ترَ منهما إلا الخير!.

لو كنت شيخ الأوسكار لمنحتها لبطل الفيلم من أجل مشهد واحد فقط، أظنه ذاق قهراً حقيقياً في حياته حتى استطاع أن يرسم على وجهه تلك التعابير، وتفيض دموعه بتلك الهيئة في مشهد اللقاء الأول الذي جمعها بعد سنوات، منذ لحظة الإفك التي انتهت بفراقهما، سيرى كيف بدأ الحديث وكأنه لم ينقطع من لحظتها، لتدرك أن غصّة القهر والألم نسجتْ حياتهما نسجاً ولم تبارحْهما منذ تلك اللحظة لتكون أول جملة تقترب بها منه: أنا آسفة أو مدينة لك باعتذار، فيقول لها: لستِ مدينة لي بشيء.. إلخ.

المفجع أن هذا المشهد ليس حقيقة! وإنما هو خيال الأخت الصغيرة الروائية تكمل به القصة فتصنع به حياة سعيدة لهما يعودان فيها إلى بعضهما، لتكفر عن ذنبها، وإلا فهما قد ماتا ولم يلتقيا بعدها قطُّ، لم يلتقيا..

صورتان من ندم وألم

صورة غريبة من صور السياب البديع، يصور بها العابرين إلى القرارة، في ليل المدينة المطبق، لا حياة فيه إلا للبغايا والليالي الحمراء كأنها قرارة هاوية تكتظ بأولئك العابرين..

الليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينهْ

والعابرون إلى القرارة مثل أغنية حزينهْ

مثل أغنية حزينة؛ صورة يعلو بها الخيال ليتراءى له الناس على صور أغنيات حزينات تغنيها هذه الحياة، وهل نحن إلا أغانٍ حزينة؟

ألم تكن تلك الأغنية قصة قلب امتلأت بها الحياة أحداثاً سعيدة أو حزينة؟ حتى الأحداث الفرحة - بعد رحيل العمر - تعود ذكرياتٍ تقطر حزناً وألماً. يتدفق نهر الزمن بلا رحمة، وتتكسر على جنباته قلوب وقلوب. كانوا معاً فقصم حضنهم موت أو رحيل أو جشع، أو كبر أو غضب. كانوا معاً فتناثروا كزجاج الثريات في المدن البعيدة، ونقلهم نهر الزمن بعيداً بعيداً، وكل زادهم حطام ذكريات يجللها الغبار والصدأ.

مثل أغنية حزينهْ؛ وأقسى الألحان، لحنٌ تلبسه الذكرى جسداً، فيطوف بك على الموانئ، لتحترف الرحيل. بعض الألحان كحفار القبور، تحسن نبش الذكريات، واستحياء الأحزان، فما أشرس الذكرى التي تتخذ اللحن جسداً.

بين صورتين على خط الزمن[1]، يفصلهما عمق سحيق من السنين، يغصّ القلب بالدموع، ويعلو نشيجه كخليج السياب الهادر، تتكسر أعمدة الضياء على شرفات عينيه الغارقة بالدموع. صورة من أمر البداية السعيدة حيث اجتماع العائلة حول المائدة، وصورة بلا لون، مقفرة يحفها الظلام والغياب، يقف الابن العائد بندمه وصورة الأهل الأولى تعمر خياله على صورة أخرى أمامه ليس فيها أحد، طوى الموت والديه، وفرقت الحياة إخوته. ثم يستدير القلب إلى الصورة الثانية في عمق المحيط المظلم، الجاثم على قلب تيتانك المحطمة، المجللة بالظلام والبرودة والصدأ، ينقلنا فيها المخرج المبدع إلى صورة البداية العامرة بالألوان والناس وكل أشكال الحياة، لنسقط بين تينك الصورتين في هوة سحيقة من الألم على فعل الأقدار والزمن، وتفرق القلوب.

هي صور تعاد كل حين على مرآى قلوبنا، وما الشاشة إلا شكل متواضع يكثفها لنا في تقارب عنيف!.

إنك تحمل - إذ تهنأ وأحبابك في تفاصيل كثيرة - تحمل أجنّة حزنك القادم، لن تكون تفاصيلك أقل قسوة من تفاصيل نزار وبلقيس، حتى المشط الصغير أو الدبوس الضئيل سيجلد قلبك. وأحذرك أن تشارك خليلاً سماع أغنية، إنك تدسّ السّم السرمدي في دمائك ليظل يسري ويسري في خلاياك، ليقتل شيئاً منك عند كل سماع إن مشى زمنٌ وتباعدت الصورتان. وإذ قلت

---

(1) هذا النص استلهام من المسلسل السوري (الندم)، من مشهده الأخير خاصة، عندما يدخل الابن المهاجر، النادم سهيل، فيلا عائلته بعد أن أسدل الموت الستارة على والديه وتفرق إخوته، فينتقل خياله - وهو يحدق إلى المائدة الكبرى في الظلام - بين مشهدين، مشهد البدايات المضيء بالعائلة وتآلفها، ومشهد مظلم بتشتتها وغيابها، وهو من أصدق المسلسلات التي جسدت الكارثة السورية. ولا يفوتني التنويه إلى الإبداع في كلمات ولحن وغناء المسلسل.

مرة: لا ينبغي لأحد أن يربط قلبه بإنسان لا يتحد معه بهوية لحن واحد. فخير لك إن أردت أن تقلل من رصيد حزنك القادم، أن لا تتحد مع أحد بلحن واحد، فقد لا يمنحك الموت فرصة كما منح ذلك الشاعر لتقول كما قال: «بعدك مثل ما أنت، روحك طيبة وقلبك طيب، منيح الي بعدك أنت». لعلك لن تلقاه لتجده كما كان وتقول: «منيح الي بعدك أنت»، لن تجد سوى شاهدة قبر، تقول لك: كان هنا ثم رحل وما أنا إلا أثره.

قلبي عليك، قلبي علينا... افترقنا حين التقينا. 27 أكتوبر 2017.

قد لا تحزنك النهاية بقدر ما يحزنك شكلها

أذكر قصة العالم المصري النووي يحيى المشد رحمه الله، الذي اغتاله الموساد، وعرضت قصته في المسلسل المصري (الأصدقاء) منذ سنوات. وهيهات لو رضي القتلة بالقتل فقط، لقد دبروا له قتلة قذرة أوحوا بها أنه كان في حجر امرأة من عملائهم، فكان حزن زوجته من ذلك أكبر من حزنها على قتله.

يحق لها ذلك، فكم من حدث قاس، يؤلمنا - لا من حيث حدوثه - بل من حيث دوافعه أو أسبابه، أو الطريقة التي حدث فيها، وكم من ذكرى جميلة، لها في القلب ما للوردة في حديقتها، تسعد العينَ، وتزكي الأنفَ، وترتعش على موسيقى وجودها الروح، أخرجها من يشاركنا إياها عن معنى الجمال الذي ولدت به من روحين ائتلفا يوماً ما، على قدر، ويوم استدار أفق الأنفس مع استدارة الزمن، وتبدلت القلوب غير القلوب، طفق إلى تلك الذكرى يخلع عليها قلبه الجديد بتبديلٍ وتشويه، ليقنع نفسه أنه لم يكن هو!. أي خيانة للمعنى وللتاريخ أشنع من هذا الجحود؟ إنكَ متَّ وقُضِيَ الأمر، فلماذا تصرُّ على تغيير

تاريخ موتك في قلب من يذكرك بجمال، ليكون موتك أبكر تاريخاً؟.

ظهرت براءة يحيى المشد، وعلمت الزوجة أنه قتل على وفاء، فابتسمت بعين دامعة، فقد عادت روحه إلى الحياة لكن جسده مات، فخرجت بحزن واحد، حزن الفراق الجسدي، لكنها كسبت لقاء الروح الأبدي، فأحياناً لا تحزنك النهاية بقدر ما يحزنك شكلها، وهنيئاً لها أن النهاية لم تكن حزينة!.

وأذكر قصة أخرى على رحمٍ بهذه المعاني، أنقلها كما هي: «قال جندي لرئيسه: سيدي، صديقي لم يعد من ساحة المعركة، أطلب منك الإذن للبحث عنه. الرئيس: الإذن مرفوض، وأضاف الرئيس قائلاً: لا أريدك أن تخاطر بحياتك من أجل رجل من المحتمل أنه قد مات. الجندي دون أن يعطي أهمية لرفض رئيسه، ذهب وبعد ساعة عاد وهو مصاب بجرح مميت حاملاً جثة صديقه. قال الرئيس معتزاً بنفسه: لقد قلت لك أنه قد مات، قل لي أكان يستحق منك كل هذه المخاطرة للعثور على جثته؟ أجاب الجندي - محتضراً - بكل تأكيد سيدي، عندما وجدته كان لا يزال حياً، واستطاع أن يقول لي: كنت واثقاً بأنك ستأتي!».

فرغم ضعف الأمل بحياة صديقه، لكنه منحه شيئاً عزيزاً واحداً، وهو أنه لم يخيّب أمله، فكانت نظرته إليه قبل الموت تعدل الحياة كلها كلها، لم ينقذه لكنه بقي وفياً له مع أن النهاية حدثت. فما أندر هؤلاء، ولكن قد يمرُّ بك نقائضهم، من الذين يصرون أن لا يتركوا لهم هباءة من ضوء نقي في قلبك، يفعلون ذلك حتى بعد رحيل العمر، وبعد أن قُضِيَ الأمر واستوت على أيلول، أقول لأحدهم نيابةً عن صديقي: سوف تمرُّ بهذه الأطلال يوماً، وستعلم أنك نظرت إلى السماء من ثقب صغير، ثم زعمتَ أنها ضيّقة!. 6 سبتمبر 2015.

ما بين سوق العصر وعصر السوق

سوق العصر، رائعة درامية من روائع التلفزيون المصري، يوم كان في الأعمال التلفزيونية قيم كبيرة، ونقد أصيل يبين حقيقة النفس البشرية بكل تناقضاتها، خيرها وشرها، رافعاً من شأن الحس الجمالي والأخلاقي، سمت فيه أسماء لن تنسى كأسامة أنور عكاشة، ومحمد جلال عبد القوي، ولا تزال إلى اليوم تجد في تلك الأعمال متعة كبيرة كلما شاهدتها.

الجميل في مسلسل سوق العصر وهو حي شعبي من أحياء القاهرة، ذلك التركيز على الأسرة وعلاقة الأخوة فيها، في كنف الأبوين، طوق الأب خاصة، وصرامته، ثم التشرذم في الحياة، بعد نضوج المآرب والزواج، ولكل وجهة هو موليها. في كل عائلة تقريباً ستجد أخاً كمنصور عثمان المغازي، فيه روح أب، حضن كبير يحرص على إخوته ولا تغيره المادة والمصالح، وأخاً كطلعت، أناني، قلبه بليد، تحركه المصلحة والطموح الكبير إلى المناصب والمنافع، ولا يبالي إن وضع يده في يد من سجن أخاه وحاول قتل الآخر؛ الضابط الفاسد حلمي عسكر، وهو خط الشر العام الذي يمثل سارقي الثورات، الذين يركبونها ثم يأكلون البلاد والعباد ما إن يتمكنوا، فلا عجب أن يتحد طلعت المغازي البراغماتي، بالضابط الفاسد حلمي عسكر في وجهة واحدة، ويتزوج ابنته.

وهي كأبيها في اللؤم والكبر، مثال أنيق الملامح والهندام، جميلها، براق جداً، كل طموحها أن يكون زوجها وقفاً لها، لا يهش ذيله إلا لها ولأهلها، وكأنه ولد من غير أبوين وأسرة، واختصتها الأقدار به من دون العالمين، وما أكثر هذا الصنف المظلم الظالم في عالم الجنس اللطيف الشفيف، المدجج بالدموع البريئة! الذي يقطع الأرحام ويخنق الحياة بالصراعات والآلام. وعلى نقيضها، زوجة منصور، التي تشبهه، مسحةٌ من جمال ونبل،

تكتمل بها الرحمات في كل مكان توجد فيه، وكأنها أهل فوق الأهل.

الأخ الكبير منصور، يزكي فيك الإيمان بقيمة الإنسان الذي أرداه الله، والإيمان بجمال الحياة وجدواها، ويمسح على قلبك بابتسامة عزاء؛ أنْ في الحياة والأحياء خير، والأخ الثاني، يطمس على قلبك باليأس والإحباط، بالألم، بالحزن الطويل، ويغريك بكظم حزنك بالاعتزال إذ لا ألم أشد من أن ترى في الإخوة وحوشاً لا ترتق صدعهم وشرهم رحمة، ما إن يرحل الأبوان، أو قبل رحيلهما، وتتساءل ما قيمة هذه الحياة حقاً؟ وكيف للدرهم أن يصير أغلى ممن جمعك به رحم واحد!؟ وتقاسمتم الفراش والطعام والابتسامات والذكريات على مسرح الطفولة في أمان العائلة حتى بلغتم أشدكم، فلا أظن شيئاً أشد إياساً من الحياة والإنسان أكثر من هذا النوع من الشرور لأنه أول هتك قاهر لمعنى الرحمة!.

وفي المسلسل خط حبٍّ شفيف لا أمل له، ككل أقدار الحب في هذه الحياة، حب الفتاة الجميلة (شوق جاب الله) لمنصور المغازي، ولا أستطيع إلا أن أحتفي بالأداء البديع لشوق جاب الله فيه، فلو كنت صاحب أوسكار، لمنحتها إياها من أجل مشهد واحد أو مشهدين لا غير.

ولا يفوت المسلسل أن ينتقد ذلك الفهم السلبي للدين الذي يريد نصراً وهو منزوٍ في الأقبية يشحذ سيوف الأسلاف ينتظر مهدياً أو صلاح دين أو أي معجزة باسم قائد تاريخي انتصر يوم كان حياً.

يلتم شمل الإخوة في النهاية ويتوب كل مخطئ عن خطئه، ويعودون إلى بيت المغازي الكبير، كما كانوا أول مرة، وينقصم شرّ حلمي عسكر، ويندم طلعت المغازي على أفعاله ويعود إلى إخوته أيضاً. ولكن، قلما يحدث هذا في الحياة! سيبقى الشر منتصراً، لذلك سنحتاج حتماً إلى يوم القيامة.

16/ 12/ 2020.

على شاطئ الغناء

مجد الإنسان

ثمة من عرّف الإنسان بأنه مخلوق اجتماعي، وآخرون عرفوه بأنه مخلوق أخلاقي، أو ناطق (مفكر)، أما أنا فأقول إنه موسيقي، أي يتلذذ فطرةً بسماع الموسيقى وينتجها بحنجرته، وما الآلات إلا شيء طارئ لاحق على الحنجرة مثلما أن الكتابة أو الأبجدية طارئة على اللغة التي هي الصوت أولاً.

كل جمال صنعه الإنسان يتقهقر من فوره أمام أي مشهد من مشاهد الطبيعة البديعة، فما هو عمق أعظم برج أمام وريقات وردة طفلة، تتكسر ألوانها على موسيقى الشمس، ويترنح عطرها على أوتار النسائم؟.

كل شيء صنعه الإنسان يحاول أن يضارع الطبيعة ويلحق بها ويزداد جمالاً كلما اقترب منها وهيهات، إلا الموسيقى، إنها مجد الإنسان الذي يقهر به كل جمال ليمكننا أن نعرفه أنه مخلوق موسيقيّ. حقّاً إن الموسيقى هي اللغة الفائقة التي تتصدى للمعاني التي تعجز عنها اللغة العادية.

إنها نزيف الروح الغزير يتدفق حائراً في هذا الكون ولا يجد إلا غربته. إنها لغة الغيب تهدر أبجديتها في هذا الجسد المكدود المحدود، تريد أن تتجاوزه إلى البعيد البعيد، إلى شيء ما، ليس له شهادة في دنيا الحواس، لكنه يمس القلب بدفء قريب غريب فيعرج إلى عالم آخر ليس من هذا العالم، على جناح من الحزن الغيبي الشفيف الذي تشعر به ولا تفهمه.

إنه حزن الوجود، حزن خلقك، الذي لا انفكاك عنه، فهو ليس طارئاً

عليك، بل حقيقة وجودك هنا، يوم أتيت غريباً إلى هنا، وهل للغريب فرحة كاملة؟. إنه أبداً يشتاق إلى ما نقص منه في غربته. وهذا الذي نقص منه ليس في عالمه هذا، الذي وُجد فيه، فما أطولها من غربة، وما أبعده من حزن!.

إنها كسرٌ عينيك الهادئتين، تقهران ببوحهما أعتى الأدباء والشعراء، ولا يمكن تأويل معانيهما إلا بلحن كهذا اللحن، وكل ذلك نزيف مؤلم، نكفكف جبروته بهذه الألحان التي تشبه أرواحنا في غربتها، وكل غريب للغريب نسيب.

آه يا شوقاً لا برء منه ما دام لك قلب يخفق وأذن تسمع، تمازجني هذه المشاعر خاصة كلما سمعت لحناً مصرياً للعمالقة الكبار في مقدمات الأغاني الطوال، وتزيد شدتها إن استمعت إلى اللحن وأنا أقود السيارة على طريق طويلة، كأنها لا تنتعش إلا إذا تحركت وسرت فرحلت، إن الرحيل عالمها لأنك غريب هنا، والغربة هي الرحلة الطويلة المستمرة، وما هذا الوجود إلا طريق للعبور. 31 يوليو 2015.

البرّ الموسيقي

الأغنية التي تسمعها في الصباح شأن خطر جداً، لا تتساهل فيه أبداً، ويجب أن تمتنَّ امتناناً كافياً لمن يهديك أغنية تنفخ في رئتيك أمل الحياة، وتذكّرك أن لك أنفاً فتفخر بإنسانيتك، وتعيدك إلى الاعتناء بشؤونه، لأنني أشعر أن الكلمات الجميلة الملبوسة بلحن جميل، تدخل إلى الروح من الأنف وليس الأذن، أي إنها شيء على صلة بالهواء المؤكسج المتكلم بالعطر، فالتنفس، فالحياة، فالأصم يعيش لكن المختنق لا يعيش.

ولأغنية الصباح شؤونها، فبعضهم له روتين سماعي، يباشره كما يباشر غسل وجهه وشرب شايه أو قهوته، كعمل الموظف الحكومي، يسمعه بأذن العادة لا التأنق والزيادة، وهذه أدنى الدرجات، ويغلب أن يرافقه اللحن وهو ينجز مهامه وروحه منهمكة كمن يقرأ كتاباً قبيل النوم لينام! وبعضهم سلفيّ في السماع، يغلب أن يكون فيروزياً إن كان من هذا المشرق، وفي صوت فيروز كما في سماها، زرقة المياه الشاطئية الهادئة حيث البدايات.

أحترم هذا النوع جداً، لأنه وفيّ لزمن الروح وأهله، لأن اللحن ابن الحياة، ينطق عنها، وكلما كبر الإنسان ورأى كيف تبدلت، زاد اغترابه، وعاد إلى زمن روحه، لكنني أنحاز أكثر لسلفي آخر، فيه مرونة تقبل الجديد الذي ينجو من بين هذا الركام، فهذا روحه في ازدياد، وأكثر قابلية لخوض تجارب، وتبني مفاهيم، وتكوين صداقات جديدة بألحان جديدة، لأن اللحن الجميل بريد القلوب فهي تتواصل به، فمن يشاطرك جماله، فهو أدعى إلى دخول نفسك واتخاذ مكاناً من حياتك، ولعلها نصيحة يعتدُّ بها أن تتعرف إلى ذوق الشخص الموسيقي لتفهم شيئاً من شخصيته وترى مدى توافقه معك.

التجربة المتفردة هنا أن ينقلك أحد ما إلى عالم موسيقي جديد لم تعرفه ولم تألفه، لكنه يمازج مزاج نفسك، فكأنك ترود جغرافيةً عذراءَ، تمدُّ سلطانك فيها وتمدُّ سلطانها فيك، لتتسع في اتجاهين، فإن كنت خليلَ وحدتِك أو بين أُميين لا يدرون عن هذا البرِّ الموسيقي، فقد حُرمت شيئاً عزيزاً.

وهذا ما أستطيع أن أقوله في موسيقى الصباح، التي تلوّن سائر اليوم بلونها، أما موسيقى الليل، فلها شأن آخر لا يقل جمالاً حتى وإن كان مؤلماً،

ولا أزال أندهش من سطوة الضوء والظلام على النفس الإنسانية وعبثه بشؤونها، والموسيقى أعلى شؤونها، فانعمْ بمن يخرج عليك من بابها، فتقطّع يدك وأنت لا تشعر.

في الأغنية الكبيرة حقيبة للسفر

في كل أغنية كبيرة، قطعة تعذُبُ في سمعك وقلبك، قد تكون جملة أو اثنتين أو تزيد عن ذلك، يرافقها جزء من اللحن، عبقريٌّ، يتطوى فيها صوت المغني بشعوره بطريقة لا تدري كيف تثير روحك أو تتفاعل معها، إنك لا تدرك إلا الأثر وتعجز عن كنهه، قطعة من أمر الخمر العدني الذي لا تمل عبّه، تعيده فتعيده ثم تعيده فتعيده، مرات ومرات ومرات. وأعنف تفاصيل الحياة وأعندها تلك التي تمكث في عقدة مغناة من هذا النوع، إنها من أمر الخلود الذي يرتد عنه الزمن فهو حسير.

في الأغنية الكبيرة، عزم على مجاهدة الحياة تحلّي مُرّها، وتجبر كسرها، وتفجر نهرها، أو تسجر بحرها. في الأغنية الكبيرة مثابة للذاكرة، أحمل فيها كثيراً من أصدقائي، أعز أصدقائي، وتفاصيل من قريتي ووجوه أهلي وأحبتي، وملامح الدرب الطويل بالرحيل. في الأغنية الكبيرة، أجالس نفسي، أحاورها، أعزيها، وأشدّ على يدها، وأعبر أقطار المكان بسلطانها. في الأغنية الكبيرة، رياض لقلمي، روح تأمره فيتخلق ويكون، وتتكوثر معانيه وحروفه وينحر حبره ليمتد ذكره فيخلد ويخلد. في الأغنية الكبيرة رحم للقلوب، إنها فرصتك لكي تصنع أرحامك الذين لم تلزمك الدماء بهم، بل هم أبناء حريتك واختيارك، وهل الإنسان إلا حريته؟ إذن في الأغنية الكبيرة معنىً من معاني إنسانيتك وكينونتك، إذ كل ما يخرج عن مسيَّراتك هو فضاء رحب لكي تكون أنت!.

في الأغنية الكبيرة حقيبة للسفر تحمل فيها كل من تحب، وأمكث الآن في هذه الجملة من شؤون كاظم الصغيرة، أتحدر بهدوء معه وأتنفس ببطء وكلي رهق وارتخاء:

[وحين نكون معاً في الطريق، وتأخذي من غير قصد ذراعي، أحس أنا يا صديقتي بشيء عميق، بشيء يشابه طعم الحريق، طعم الحريق...]، لا أقف هنا عند المعنى وهو جميل بلا شك، بل أقف عند نبرة صوت كاظم ولحنه كيف استوى هادئاً، واستأنف الشعور وكأنه يصور نفسه ماشياً معها مشية هادئة بين حقول وأطيار وصمت عميق، عميق. 5 سبتمبر 2018.

يا حنة العيد وشهقة النعناع

الحياة منبع الحقيقة والشعور الصادق، اللذين تتكور بهما النفس شمساً فتضيء، أو تتهدم على نفسها فتنطفئ، وفي كلا الهيئتين تنطق عن المعنى العميق الذي يخشع له كل قلب شهيد، فما أعرق الكلمات التي تشهد به على السمع! وما أقساها إن شفعَها لحنٌ يصدّقها، فكأنه وحي يُتلى بين يدي رسالته، يعلو به صوت عتيقٌ من ذلك الريف العراقي البعيد المتكسر على فيحاء البساطة البكر، يوم كان الإنسان إنساناً تمتلئ به الحياة ويمتلئ بها.

تسمع أغنية هادرة من هناك فتصغي لها كأن فيها حقيقة قلبك! وخطا دربك، ووجه أمك، وتفاصيل كثيرة تتماسك بها صور حياتك. إنها صادقة لأنها لم تكتب على عجل من وهمٍ أو خيالٍ عائمٍ لتغنى في سوق أو لشركة أو لتلائم توجهات الجماهير.

إنها صادقة لأنها انتزعت انتزاعاً من جسد الحياة الهادرة، فهي قطعة منها مضمخة بالدموع أو الدماء أو مشرقة بابتسامة. يقول سعدون جابر:

كنا نمشي أنا والشاعر كريم العراقي في بغداد، رأيت تمثالاً لأم تحمل وليدها وتلتفت إلى الآخر والخوف يغمرها عليهما، فنظرت إلى كريم فإذا به يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: لم أر أمي منذ ستة أشهر، فقلت: مصابك هين يا كريم، أما أنا فأمي فارقت الحياة.

فكتب كريم في لحظتها الأغنية الخالدة التي كانت مهداً لفّنا جميعاً ولا يزال: [يا أمي يا أم الوفا، يا طيب من الجنة، يا خيمة من حبّ ووفا، جمعتنا بالحب كلنا].

في تلك الأغاني جمل قصيرة بألف ألف كتاب لأنها جمل الحياة لا الخيال والوهم.

يقول فيها أحدهم: [محبتكم تهل ما بين العيون، مثل هلّة العيد بين الأيام]، أي فرحة أصدق من تلك التي تشبه إطلالة العيد من بين الأيام!. لا أصدق منها إلا تلك التي شبه بها الشاعر حبيبته بـ: [ياحنة العيد وشقهة النعناع].

أو :[يا الي طعم المستحى على عيونكم] كأن عينيها الخفرتين شرفة من الطبيعة العذراء يذيقه شهد الحياء الذي عزّ في عيون العائمات الهائمات. ويقول آخر:

[نثرت العمر بدروبك وأقول ادّوم، ما ظنيت عشقك عشقك ليلة ويوم.

نفحة من الورد ومن القمر طلعة، ولك عمري انقضى شمعة بأثر شمعة.

دنيا بلا عشق ما تنشرى وتنباع، عذب عمر الوفي بكف الوفي لو ضاع، ياحنة العيد وشهقة النعناع]

أو: [يخرب بيت عيونك يا عليا، ياعليا شو حلوين]! هكذا بكل بساطة!.

هنا أدرك جيداً قول بيجوفتش: الحياة أسمى من الفكر. نعم أسمى لأنها

منبعه العتيد وأبوه الفذّ، وهو فرعها، وكل فكر حيّ سيلد عاطفة حية مثله. سلام على ذلك الزمن الجميل، الذي يصدق فيه جملة خالدة منه: [واتيهنْ نجمة بسنينك أدوّر طيفك الما مر!]. 9 يونيو 2018.

العيون الزرزورية والنخيلية

يقول مظفر النواب بصوت إلياس خضر: [عيونك زرازير البراري، بكل فرحها، بكل نشاط جناحها بعالي السحر]، من قصيدة طويلة، من هذه الحياة، بين فواصلها تقطّعت أوصال الحياة مسبوكة بمشاعر القلب، حنينه، ألمه، ذكرياته، فرحه، ولكم تشبه أسطوانية السياب التي تعثر بلحنها غريباً، فحملت إليه العراق كله، أمه التي يتزلق صوتها مع الرؤى حتى ينام، وغابات النخيل التي تكتظ بالأشباح مع الغروب، وقصص الجدة عن الشاعر حزام وحبيبته عفراء.

هل بعد هذا يكون اللحن والأغنية ملهاة عابثٍ أو سالٍ أو ترويح نفس؟ لا، وألف لا.

إن اللحن والأغنية هما الحياة في هيئة أخرى، إنها وسيلة عتيدة لبعث خصائص النفس، لتكبر وتتعلم، لتزيد علماً بالحياة والأحياء وبالأوطان، بالقلوب، بعظمة الإنسان.

عيونك زرازير البراري.... من لم تُفطر روحه على بسيطة الريف، وتكتظ نفسه بمشاهد الحياة فيه، لن تمس روحه هذه الصورة، لن يشعر بكهربائها، بصعقاتها التي يتفصد منها القلب نشوةً، ما شكل عينيها؟ ما لونها؟ ما تضاريسها؟ كيف يتعانق نهارهما وليلهما؟

وكيف تستدير حدودهما، تتكوران بين جفون وجفون، وتنوءان بالرموش الثقال، ويختلط بريقها بضوء الكون، فيتشظى في قلب شاعر فلا يقبض على

مثليهما إلا في سماء فسيحة، ترصّعُ بطنَ قبّتِها زرازيرُ البراري، ترى أسرابها البعيدة تتكسر في أنسجة الرياح، كم هي بعيدة، عالية، نشيطة، بسيطة، جميلة، آملة، راحلة، بريّة، سحرية.

زرازير البراري: عيناك؛ ذواتا قوةٍ تبتسمان بالأمل، أو الضحى، بتفاؤل طائر، لا يعرف إلا أن يكون حرّاً في جو السماء، ويا له من نعيم أن يخشع قلم في محراب تينك العينين، فينقل لنا من وحيهما ما نتدبره، لنفك أقفالاً على قلوبنا فلم تعد تنتفض فهي موات. هذا مقطع من حياة، نقله مظفر بروح الشاعر إلى الشعر، ثم نقله إلياس بروح المغني إلى الأغنية واللحن.

تفاصيل صغيرة، تزدحم بها الأغاني العراقية القديمة، كأنها منحنيات الروح يوم اشتبكت بالحياة فتجلت آلامها وأفراحها وكل شيء فيها، كل شيء. ولم أجد عظمة لهذه العيون الزرزورية البرية إلا عظمة العيون النخليّة التي استهل بها السياب قصيدته في أنشودة المطر، ويبقى العراق.

13 أغسطس 2016.

حنانيك أيها اللحن

هذا الشطر؛ [عشْ أنت، إني متُّ بعدك]، من قصيدة بشارة الخوري التي لحنها فريد الأطرش، يصدق في لحن فريد أكثر مما يصدق في حبيبة الخوري، فما أجدر هذا اللحن بالعيش!.

حنانيك أيها اللحن، فهو كالطفل الوليد يسمعك، يبكي ولا يعلم لماذا، يسمعك فيتكسر الضوء في عينيه لـمّا أثقلت أهدابه الدموع، فغام بصره كالغروب. كأنك - أيها اللحن - هدير الغيب يذكره بأصله، فيدرك كم هو غريب عن هذا العالم. كأنك - أيها اللحن - نداءات الماضي السحيق السحيق منذ الأزل، منذ النفخة الأولى التي أعلنت غربته وعذابه، كأنك تحمل إليه ذكرياته الأولى،

ذكريات أبيه يوم التصقت جبهته بتراب هذه الأرض، فضجت توبته في كل أقطار السماء، واندلع نهر الحنين فلم ينطفئ ولن يحنُّ إلى غيبٍ، يجده في نفسه ولا يجده، يمسكه ولا يمسكه، إنه يهدر في داخله كالحنين، يشيخ به كالسنين، يشعر به، يتقطع به، يرتعش به، يدوخ به، يغيب به، فيضطرم الخيال هيماناً، يجمّع أشتات الضوء الآتي من الأزل، النابض بالماضي والذكريات، لتفيض بها الأعين دمعاً، والأصابع حبراً، وتسكن الأنفاس كهذا الليل الغريب.

يقول لك: عشْ أنتَ، إني متُّ بعدك، ومتُّ قبلك، عش أنت فنحن موتى، ونعيش حتماً عندما نبدع مثلك.

ما هذا الإله؟!. ما أعظمه! ما أجمله! ما أمجده!. قطعة لحنٍ أعظم آية تصرخ بمجده، علمت أنني منه يوم سمعتك أيها اللحن، فهامت نفسي على وجهها في تضاعيفك المبهمة البليغة، القريبة الغريبة، فأبصرتُ، لكنني عجزت أن أنسج حياة قلبي بالحروف، فكان هذا النص المشوه!.
30 يونيو 2015.

لك الحمد مهما استطال البلاء

تتراجع كل الكلمات القهقرى أمام المقدمة الموسيقية لقصيدة السياب، لك الحمد مهما استطال البلاء.

تشعر بالتاريخ يتكسّر تكسّر ألحانها، تتخيل السياب، العراق، قصة الإنسان كلها، ألمه، شوقه، حنينه، ألمه، أمله، صلاته، تبتله.

إن القصيدة المغناة مجمع العظمة الإنسانية بأرقى تجلياتها، يوم يمتزج شعور الشاعر بشعور الملحن بشعور المغني، فتتضخم أضواء الروح بواسطة هذه الماسة ذات السطوح الثلاثة، شاعر وملحن ومغنٍّ.

إنها الصيغة الفذّة التي تدخل الإنسان من أعظم حاسة فيه ألا وهي السمع الذي عبر عنه القرآن غير مرة بالعقل والتعقل، وهي الصيغة التي تتجلى فيها معجزة اللغة بشكلها الأصيل ألا وهو الصوت.

إن القصيدة المغناة، عملية مركبة، يتخلّق فيها الصوت الإنساني مع صوت الآلات، فكأنها مزيج من غيب وشهادة!. فكم سُرَّ الجمال إذن يوم تعانقت كلمة نزار بلحن كاظم، فتعانق الياسمين الدمشقي بالنخل العراقي، ليعيد التاريخ في هيئة مختلفة، هيئة من أمر الجمال، الجمال فقط..

إن الظاهرة النزارية الكاظمية انتصار لأشواق الروح حقّاً، أن تجد كل سمات نفسك الداخلية مسطورة في كلمات تلمسها الأعين، وألحان تدركها الآذان. وكم سرت العربية أن ينقلها كاظم من عالم الورق والنخب إلى الفضاء الشعبي الفسيح، ليصافح كل قلب بسيط. سنظل نجد في الشعر والموسيقى ذاك السحر الذي نشعره في أنفسنا نفهمه ولا نفهمه. 14 سبتمبر 2015.

سكة طويلة

[سكة طويلة، والبراري قفار
والدار تشكي، من جفا الزوار
والليل عتمة، والأماني قصار
يا معين اللي عينه ما تنامْ
السهل غُبّة، والساحل مطر
والمدينة ناس، والمينا خطر،
كتبت لك ديوان من نثري وشعر
لا فادني خطي ولا فاد الكلامْ]

لهذه الأغنية لعبادي الجوهر، صحبة أثيرة في نفسي مع ابنتي لين عندما كنت أضعها في حجري في مشاويرنا الصغيرة في السيارة، صحبة مشربة بالتفاصيل، التي استحالت ذكرياتٍ معطرة بالحزن الشفيف، والابتسام الحزين. وأظل أقول إن الأغنية الكبيرة هي التي تولد من رحم الحياة وكبدها، لتلامس قلوب المتعبين، بغربتهم أو فقدهم أو أوطانهم، أو أي تجربة خلقت معنى ما في نفوسهم. يجدون فيها العزاء؛ تلك المسحة الحانية على الشعر، أو الطبطبة الكريمة على الكتف، أو الحضن الصادق من صادق.

سكة طويلة، هي زفرة تختلج في قلب كل مغترب: ما أبدع هذا المقطع: [السهل غبة، والساحل مطر، والمدينة ناس، والمينا خطر]. وفعلاً هذا هو حال الغريب، إنه يخاف كل شيء، ويوجل من كل شيء أول أمره، حتى الناس هنا، مصدر خوف وريبة؛ إنه مقطوع عنهم بجهله فيهم، إذ الغربة سلبته نعيم المعرفة والأمان والأنس.

لقد حُرم نعمة الأمان في السرب، وحورب في قوت اليوم فشرّق وغرّب، ولا رأس مال له إلا صحته، فإن ابتلي فيها وحيداً، فما أعظمه من ابتلاء!.
22 نوفمبر 2020.

حنجرة أخرى

في الروح شؤونٌ صغيرة، لا يكسوها إلا معنى أو لحن، تدق وتدق حتى تعزَّ فلا يلبسها إلا عمل عبقري من قصيدة مغناة؛ لذا كان التقاء الشاعر الكبير بالمغني الكبير والملحن الكبير، شيئاً يشبه اختلاط أمشاج الجنين: إنه ولادة حياة. ويظل الطرب القديم معجزاً في رباعيته الخالدة: مغنيه وكلماته ولحنه ومسرحه. على المسرح يُعرف من هو العملاق حقاً، من

يكون وجهه آلة موسيقية، لا تقل عن أي آلة في فرقته، تترجم اللحن إلى صوت، إلا أن ترجمة الوجه هي صورة حية تتحرك بمعاني اللحن وكلماته.

إن وجهه وحركات جسده، حنجرة أخرى تعضد حنجرته الحقيقية، وهذا هو شأن الكبار، الذين يبتلعون المسرح فلا يبتلعهم، ولا يمكن لجمهورهم إلا أن يسكن وهو يدوخ فيهم. تحار في دراما وجه المغني الكبير، كيف تتغير جغرافية وجهه مع معنى اللحن، ويقف جسده راسخاً كعمود ضوء يتغشاه الجلال والجمال فلا يهتز إلا بقدر أنيق حسب ما يقتضيه وقار اللحن ومعنى كلماته؛ لذا لا شيء كالمسرح كاشفاً للعظام ومخزياً للأقزام.
أقول 26/ مارس/ 2020.

عنوان بلا مضمون

كان الصوت سابقاً، قبل هيمنة الفيديو كليب، هو العنصر الأساسي الذي يعتمد عليه المغني، وكانت الهيمنة لحاسة السمع حقاً، لا حاسة أخرى تنازعها مجالها، فلا يبرز أحد ما لم يكن له صوت جدير بأن يسمعه الناس، لذا كان الملحنون الكبار يتسابقون إليه، ليخيطوا ا له ما يلائمه من أثواب الموسيقى العبقرية، بل كان الصوت القدير هو الذي يفجر الملحن إبداعاً ليرتقي إلى إمكاناته.

واليوم، وما أدراك ما اليوم! أصبح للشكل سلطة تجعل الصوت شيئاً ثانوياً، ولا يقتصر ذلك على المغنيات، بل على الرجال، فعمليات تشذيب الأنوف، ونفخ الخدود والشفاه، أصبحت أبلغ من نغم الدفوف، ويبدو لي أن هذه التغير بدأ يتسلل إلى عالم الكتابة!.

إذ ترى كاتباتٍ يشفعن مقالاتهن بصورة يتهدم الشَّعر فيها (بفتح الشين

لا كسره) على كتفيها، وتحار أهو قول أناملها أم شفتيها، وهل هي واقفة على حرفها أم قدميها، ولا أدري كيف تريد لصور قلمها أن تخاطب العقول أو الخيال، وصورتها المُطهّمة أبلغ من كل تجريد يرسم شكلَه المقال، إذ الإنسان أوفى لعينه من عقلِه، وهيهات أن يتجاوزَ الشكلَ إلى أهلِه، إلا من رحم القدير، وهم قلة على كل تقدير، فانظر - أيها الكاتب - أيُّ جمهور تريد، فليس كل تجمّعٍ لك بباغ القولَ السديد. إلا إن كنت من شكلك في انعجاب، فمكانك ليس هنا، ولست من أهل القلم والكتاب، وما أبلغ قول القائل يوم سأله صاحبه في أمسية شاعرةٍ تشفع أبياتِها حركاتٌ تدلل فيها شَعرها، قال له: أعجبك شِعرها؟ قال بل: شَعرها. ولكن ما يضيرك أيها الناقد اللاجئ في نفسي إن اجتمع الجمالان؟ لا ضير إن اجتمعا حقاً!. 19 فبراير 2018.

الجمهور الأنيق

يفتنني هدوء الجمهور في بعض المجتمعات، وتجاوبه الراقي مع المطرب الراسخ صوتاً وأداءً، يستند إلى لحن عريض ومعانٍ أعرض، وفرقة موسيقية تترامى أطرافها بقدر ما تترامى موسيقاها. يفتنني ذلك المصور الذي يحسن اقتناص بعض المشاهدالذكية لكل جميلٍ، ويرينا كيف يتأنق الإنسان وهو يتنفس الموسيقى، لتصبح تلك المشاهد من أيقونات الحفلة التي لا تلذ لك دونها، وتشعر أن نفسك في نفوسهم، كأنهم يفعلون عنك ما ستفعله لو كنت مكانهم!.

ذلك الإصغاء الشفيف، قد تحمله نظرتا عينين ساجيتين سحيقتين، أو إشارة يد بليغة أو يدين، أو تحاور شفتين نديّتين، أو هيئة جِلسةٍ كأنها قصيدة، أو إيماءات رأسٍ تقول اللحن قولاً هامساً، وتشي به إلى العيون التي تخبر ما تخبر عما فعلت بها هذه الحياة.

ولو اتخذت مكان المصور فتخيّلتكِ جالسةً بينهم، يحفك صمت ووقور، لكنتِ أميرةً خالصة بلا عرشٍ، إلا عرش أنوثتك، يتدفق فستانُكِ الخمريُّ شلالاً متنهداً من أعلى هرم جلستكِ الأنيقة، ويعف عن مسِّ أرض المكان، وفي أعلاه طوقٌ من قماش أبيض يسوّر كبرياء الجِيْد ثم ينثني عنه خجلاً، وله شبيهان مترفان يتألمان فوق نعيم الساعدين فينحسران عنهما ليمتدا إلى كفيك والأصابع بلا حساب إلا حساب قلبي وهو يتفكر في ضوئهما عندما يتعانقان أو يتجافيان حسب ما يتاح لهما من سلطة المعنى المُغنّى المُعَنّى، أو يدنوان من مجرة الوجه السابح صمتاً مع اللحن ومغنيه، وفي قسماته - أي وجهكِ - لحن آخر أسمع نغماته بضوء عيوني، وهأنذا الآن أحاول أن أرسم نوتاته بحروفي، فما أطولَ سفرَ الحرف بين شاهقي عينيكِ، إن جلستِ أمام مطربك الأثير، فيا ليتني كنت كاتبك الأثير.

عرض خاص على سيارة بورش دون فرامل

وقعت مصادفة على أغنية إنجليزية قصيرة Unstoppable، بصوت مطربة أسترالية اسمها سيّا Sia، نافت مشاهداتها على 50 مليوناً. لست ألوفاً للغناء الأجنبي ما خلا نوادر لا يقاس عليها، ولكن لفتني موضوعها.

الأغنية أربعة مقاطع، اثنان يذكران مرة واحدة، والآخران ثلاث مرات.

تقول في الثلاثة: إنها امرأة قوية، لا شيء يوقفها، لا تُقهر، واثقة جداً، وأنها سيارة بورش بلا فرامل! ولا تحتاج بطاريات لتعمل، وترتدي درعها لتُري كم هي قوية، وهي تفوز في أي مباراة أو لعبة .. إلخ.

وتقول في المقطعين اللذين لا يُذكران إلا مرة واحدة: إنها سوف تخادع الآخرين بابتسامتها ولن تُسمعهم إلا ما يريدون سماعه، ولن تظهر ضعفها

وانهيارها ولن تري دموعها أحداً، ستخفيها تحت نظارتيها، وإن نحبت فستنحب وحدها، وتعلم إن إظهار ما في أعماقها شرط رئيس لتكوين الصداقات لكنها خائفة!.

لقد أثارت هذه الأغنية فيّ زوابع كثيرة؛ إنها مثّلٌ نموذجي على بؤس الإنسان المعاصر، غربته، وحدته، عدم أمانه، قوته المجوّفة، وعلاقته القصوى بالآلة في حضارة الآلة، فهو يعمل كآلة ويتصرف كآلة، والتشبيهات لافتة!؛ سيارة بورش، بطارية، ارتداء الدرع وكأنه في معركة ليتقي الآخرين.

مدجج بحشد هائل من أدبيات القوة والثقة والتفوق والانتصار كالتي في دورات البرمجة اللغوية العصبية، فلا شيء يوقفه، لا يهزم، يفوز دائماً، واثق دائماً، سوبرمان أو سوبرومن، أو يوفوجرينديزر. ولا أستطيع أن أغفل هنا، مقارنة من جهة أخرى قد تبدو بعيدة، لكنني أراها قريبة، هي رومانسية الوعظ الديني الذي ينشّئ الخلق على أشياء مثالية مشابهة، مثالية نفسية ومثالية اجتماعية، لطالما كانت نتائجها ضارة بعد أن يَخْبُرَ الإنسان الحياةَ وأحياءها وتفجعه سننها وابتلاءاتها.

أما عالمه الداخلي؛ عالم الإنسان المعاصر كما تظهره الأغنية، فهو هش جداً، خائف، يفيض بالدمع والنحيب، لكنه معزول عن الآخرين، محصن بالدروع والنظارات لا ينفذ إليه بوح أو كشف، لا أصدقاء له، ولا يُري الآخرين إلا جانب القوة أو ما يحبون أن يروا من أمور لا تزعجهم أيضاً. عدد المرات المعادة له دلالة، إذ إن مقاطع القوة والمكابرة أعيدت ثلاث مرات، أما البقية فمرة واحدة.

ثم انعطفت بي التساؤلات إلى جهة أخرى: قارنت فيها بين موضوع هذه الأغنية بمواضيع الأغنية العربية التي يغلب عليها موضوعات

الحب بتشعباته الكثيرة، إذ لا أعلم - في حدود سماعي - أغنية عربية واحدة فيها موضوع مشابه لموضوع هذه الأغنية الإنجليزية، وإن كان ثمة شبه فهو من باب التحدي والقوة والمكابرة الذي يجهر به الحبيب ليتحدى العالم كله من أجل محبوبته كأمر يدلل فيه على قوة حبه لها وليس لقوته الذاتية. وحتماً لن تخلو أغاني الآخرين من موضوع الحب لأنه عاطفة كونية شديدة بين الجنسين، لكن إشكالاته أو طريقة تناوله هي التي تختلف، فالحب في عالمنا العربي ليس منوطاً بإشكالات الحبيبين وحدهما من شوق وهجر ومكر وغدر .. إلخ، بل ثمة أطراف كثيرة تتربص به وتقول كلمتها، بَدءاً من العائلة إلى الأقارب من الدرجة العاشرة، مروراً بالجيران وبقّال الحي، وشيخ المسجد، وقد يشارك أطفال الحارة أيضاً. لذا لا تخلو قصيدة عربية لشعراء الغزل والحب من ذكر الواشين والكاشحين والعاذلين واللائمين والكارهين والمخربين، ومترادفات كثيرة في هذا السياق أو غير مترادفات، لذا فمجازر الشاعر في الحب العربي دامية جداً، فما أطول معاناته وما أكثر آلامه، ولا أظن الإنسان الغربي يلاقي ربع ما يلاقيه العربي، فكلما كثرت القيود وضاق الفضاء الخاص، زادت المنغصات والمعاناة. صورة الفتاة في الفيديو لافتة وتعبر عن موضوع الأغنية، فليس في الصورة إلا ملامح القهر والإرهاق والانطفاء، أين قوة سيارة البورش؟

عندما تغني الأنثى التي في نفس الرجل!

لطالما أدهشني نزار في قصائده التي يقولها بلسان أنثى، أو هي تنطق بلسانه، لأنها تدل على ذكاء معرفي وعاطفي عالٍ جداً، وكأنه يختبئ في نفس الأنثى ويطلع على حواراتها الداخلية ومشاعرها وأفكارها.

وقد مرَّ بي تعليق ساخر لأحدهم، عن أغنية أليسا: ع بالي حبيبي، يقول فيه: بأنه لا يتفهم كيف لرجل أن يعجب بهذه الأغنية!.

التي تتفجر أنوثة، وتطمي فيها الهرمونات الأنثوية طمياً، كأنها كنافة نابلسية وقد أغرقها بائعها ببحر من القطر، فقلت من فوري: إن هذا المعلق الساخر يفكر تفكير من وضع نفسه موضعَ القائلة لا موضعَ حبيبها، وإلا فالتفسير هين، فالرجل الذي يحب أغنية كهذه، سيتخيل حبيبته التي تواجِدُهُ هذه المشاعر، لا أن يضع نفسه مكانها! والصدق أن نفسي أزّتني أزّاً، وثار فضولي لأعرف من هو كاتب الأغنية، وغلب على ظني أن يكون امرأة إبان استلام الراتب، فإذا به رجل! يبدو أنه يحمل في نفسه أضعافاً مضاعفة من الحالة النزارية المتطرفة، لأن كلمات الأغنية لا يقولها إلا من كان الإستروجين والبروجسترون مرتفعين في دمه، ويبدو أن المرأة قد خلقت من الرجل فعلاً، وفي أسِّ نفسه أنثى كامنة، تظهر على لسانه في ظروف ملائمة عندما أليسا: (تلبس له الأبيض، وتصير ملكه والدنيا تشهد، وتجيب منه هو، طفله هو، مثله هو!).

الفصل السابع

معانٍ في رحاب التجربة الإنسانية

مثلث الحب

الحب، الألم المفرح، أو الفرح المؤلم، إنه الشيء الوحيد الذي يحمل في داخله ضده، موته وحياته، ابتسامته ودمعته، فإن قلت لأحدهم، إنه مؤلم، فانجُ بنفسك، قال لك: أنا راضٍ بهذا الألم، وكأن ألمه عين سعادته، وكأن النفس لا تجد معناها إلا إنِ انسكبت في آنية الحب الساحرة، تخلق نفسها من أنفاسه، تنمو به، فتكمل حقيقتها.

وما أجمل هذا الحب، الذي سميته الحبّ الشعري، إنه رحلة جميلة بين الدمعة والدمعة، على صفيح التأوهات الحارة ينفثها قلب مثخن بالحنين والشوق، كالغيوم الثقال، تسحُّ ما تسحُّ في غربة سيابية، يصلح لقصيدة شعرية، تتبتل القلوب في محرابها، أو رواية مستغانمية تنتصف بها قلوب العذارى - على الورق - من الحبيب الغادر المغامر، فما أجمل النصر في عالم من ورق تستريح إليه الأماني المهزومة في ميادين الحياة.

إنه وهم جميل، يشعل القلب فلا ينطفئ، يمر كالسحر في بريق عيني مريم فخر الدين، يشدو بلحنها حليم على ضفاف النيل: بتلوموني ليه؟ لو شفتم عنيه، حلوين أد إيه، بتقولوا انشغالي وسهر الليالي مش كتير عليه. إنه ليس رواية شرقية بختامها يتزوج الأبطال، هو بوح نزاريّ كبيان الشمس، يمزِّق ولا يقال، هو جوع رجل يبحث عن وجهٍ، عن صوتٍ، هو كل الأوجه والأصوات.

كل الرجال بالغون، إلا إذا أحبوا حقاً، يصبحون كالطفل اليتيم، يبحث عن صدر أمه، وعطر أمه، وكفِّ أمه، وحنان أمه، يريد امرأة تختصر باستدارة عينيها كل آفاق الجمال، ليبحر فيها بلا عودة (إن الهوى ألا يكون

إياب كما يقول نزار)، فما أجمل الحب الشعري، وما أجمل أدبه، وما أجمل أن تكون بطلاً في قلب امرأة!.

ولكن هيهات أن تعنو الحياة، وتستقيم لمن يريد أن يهصر عنقها، ويجعلها تعنو لطموحه. إن ذلك الحب الشعري، هو ملح الأدب وجماله، لكنه بؤس الحياة وشقاؤها، وسيغضب مني الحالمون الشاعريون، وقد كنت حالماً جداً، حتى عرفت ما معنى النزيف حتى الملل، فما الحل؟ هل نستقيل من قلوبنا؟

إن الإنسان مخلوق مركب، حقيقته من غيب وشهادة، من روح وجسد، من أشواق عليا، وغرائز دنيا، لكنها كلها هو، ولا كمال لحل ما لم يحترم حقيقة الإنسان الكاملة. وأي مشروع بين اثنين من ذكر أو أنثى يجب أن يقوم على ثلاثة أمور: (الحميمية Intimacy، والشغف Passion ، والالتزام Commitment)، وهذه هي النظرية المعروفة بنظرية مثلث الحب لروبرت جيفري ستيرن بيرغ، (Triangular theory of love) سأشرحها من وجهة نظري أنا.

فلنبدأ بالحميمية، أراها تتعلق بالجانب الروحي من الإنسان، ، بالفكر والمعرفة، والأهداف والطموح، ماذا يريد الإنسان من الحياة؟. فكل أمر لا يستند إلى فكر، وفلسفة معينة، سيكون سطحياً يهتز عند أدنى هزة ، فهنا يجب على كل جنس أن ينظر إلى نفس الآخر بماذا تمتلئ؟ وماذا تؤمل؟ وما هي فلسفته في الحياة والأهداف والطموح؟.

هل هي محل تشارك، أم متصادمة عمودياً؟ إن هذا التشارك، هو الذي يخلق الصداقة والتفاهم والتسارّ والتشاور والألفة، إنه عناق بين روحين يقوى كلما تقدما في هدفهما المشترك، هنا فقط تتجاوز العلاقة الزوجية علاقة الأجساد، وتنهض كعمود من الضوء ، يربط الأرض بالسماء والدنيا بالآخرة. ولكن هذا لا يكفي؟

فماذا عن الجسد؟ إنه وعاء الروح وأشواقها، ويخطئ من يظن أن الاحتفاء برغائب الجسد، نزول إلى درك الحيوانية، إن كثيراً من الأمور المعنوية، تشرق كالفجر الجميل من بين العظم واللحم، هل تأملت بريق العيون الهادر كشلال من الفضة على صفحات البحر؟ أم هل أصغيت إلى سيمفونية الشَّعر الأسود المتهدم من علٍ كلحن نصير شمة في (إشراق)، أو لحن عمر فاروق في (إني أحبك)، وهل تدبرت في ابتسامة ترسمها شفتان كالحيرة؟

لا يمكن للجسد أن يكون منحطاً كما يحاول أُميّو الجمال أن يقولوا للناس، وما أكثرهم، وهنا تأتي أهمية الضلع الثاني من مثلث الحب، الشغف (Passion)، أو الانجذاب الجسدي أو الرغبة الحسية. أي أن ينظر الإنسان في صورة الآخر (شكله) وجسده وأناقته، هل هي محل جذب؟. فإن وجد الحميمية ولم يتحقق الشغف، ومضى في مشروعه، فقد شطر نفسه عمودياً وعاش بنصف حقيقته، ويحدث الأمر نفسه إن انعدمت الحميمية ووجد الشغف.

ولكن هل وجود الفكر والمعرفة المشتركة وكل ما فيهما من ألفة وحميمية، وهل وجود الانجذاب الجسدي كافٍ لبناء زواج ناجح مستمر؟.

هنا يأتي الالتزام (Commitment)، أي أن يرى جديته ونضوجه وقدرته على تحمل المسؤولية ومواثيقه، هل هو قادر على الإيفاء بذلك؟ أم أنه صعلوك مثقف ذو شكل جميل ليس أهلاً لبناء أسرة تبني الحياة؟ هل هو قادر ومستعد وملتزم لبذل كل ما ينمي عقله ونفسه وطموحه (متطلبات الحميمية)، وكل ما يحفظ جسمه (متطلبات الشغف)؟.

إذن: في الحميمية، أقول: إن محتوى نفسك أمانة، عليك أن تبني عقلك

وثقافتك وتكون ذا هدف يجعل لك ولزواجك معنىً، وهذه عملية مستمرة، وهنا ابحث عن شريكك الفكري الروحي. وفي الشغف، أقول عليك أن تسعى لتجميل شكلك، وتحرص على أناقتك وطيب رائحتك، وجمال جسمك، (هنا تأتي أهمية الرياضة والغذاء)، وتتثقف ثقافة عالية بحقيقة الجنس الآخر ومتطلباته الحسية، وفي الالتزام: أقول عليك أن تعي بنود الميثاق الغليظ الذي يحفظ علاقتك بالآخر، وتضمن كل ما يحفظ نفسه وصحته وماله وطموحه.

ولأقدم نماذج ناقصة أخللت ببعض تلك الأقانيم الثلاثة. ولأنني رجل سأتحدث عن المرأة التي تقابلني، ويمكن لأي امرأة أن تقلب الأمر، فتجعل المثال على الرجل.

هناك نساء جميلات شكلاً يلهبن الحواس، لكنه حدث مؤقت تشعر بتفاهتك وتفاهته ما إن تتذوقه، كأي لذة حسية خالية من المعنى، والمعنى هنا تجسده الحميمية التي انفقدت هنا؛ أي البعد الروحي الرسالي (حالة انعدمت فيها الألفة الفكرية أو الحميمية كما قلنا).

هناك مثقفة بارعة لكنها لا تشعل فيك الشغف الذي ذكرناه، وهذه قد تحاورها، وتعقد معها ندوة فكرية، أو أمسية شعرية، لكنها قد لا تكون مشروع زواج ناجحاً، إلا إذا هصرت رغبة نفسك وتجاهلت ما لم يجذبك. (حالة انعدم فيها الشغف). هناك نساء جميلات مثقفات (أي توافرت الحميمية والشغف) لكنهن لسن مستعدات للمسؤولية (غير قادرة على الالتزام)، هذه لا تصلح للزواج، إنها للتأمل فقط كأي مزهرية. وأعيد أن النماذج الثلاثة تنطبق على الرجل حتماً، حتى لا يُفهم من كلامي أن الأمر مقصور على المرأة دون الرجل، فكلاهما معنيان بالدرجة نفسها. 21 مايو 2015.

فلا ظلم بين المتراحمين مهما أخطؤوا

ما أكثر الكتابات، والأسئلة، والكلام عن الحب، وما أكثر الأوهام والأفلام، والأماني والمعاني والأغاني عنه!. بين معذَّبٍ به، ومؤمّل فيه، وراجٍ له أو متمنٍّ، وحاثٍّ عليه، ومحذّر منه. كل نفس تبحث عن نفس لها تسكن إليها، وتقاسمها المودة والرحمة التي جعلها الله (بين) الجنسين.

إن هذا (البين) علاقة لن تؤمن السكن ما لم يكن فيها مودة هي نتاج حبك للآخر لصفاته الإيجابية النفسية والشكلية، ورحمة هي نتاج عطفك عليه وتجاوزك لصفاته وأخطائه السلبية. المودة دافعة والرحمة رادعة، ولا يفشل إلا الذين يبحثون عن الذي لهم وينسون الذي عليهم، أو الذين يطيرون بالمساوئ ويذهلون عن المحاسن، يطربون لخير الآخر، فإذا غلبه ضعفه البشري وقصوره ضخّموا هذا الجانب وكأن ذلك الشخص لم يغنَ بالأمس فكان سبب سعادتهم. وهذا روح ذلك الحديث النبوي «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

لا شأن لي بالعلاقات العائمة التي لا تتماسك لأجل وجهة جادة، ولكن أخص من يبحث عن سكن حقيقي، ووراءه كل مواريث المدينة الفاضلة يرجوها في الآخر، لذلك كل عاطفة لا تقوم على معرفة جيدة هي بنت الوهم والتخيل والحلم. فإن صمدت لك عاطفة بعد معرفة سلبيات الآخر قبل إيجابياته فهذه الصادقة، أما الذين هم الناضجة، يرجمون غيب الآخر قبل معرفته فهم يستريحون إلى أنفسهم وليبحثوا عن وهمهم في الأوجه والأصوات لعلهم يعودون بسراب ما. ومن الرحمة أن تعين الآخر على فهمك لتعين نفسك على فهمه، فلا ظلم بين المتراحمين مهما أخطؤوا، وإن وجدت من يقرّ بخطئه ويعتذر عنه فيصلح ما فعل، فهذا قليل نادر،

والتعب معه قليل، لأن الأخطاء شيمة البشر، لكن آلية إصلاحها هي التي تحكم بفشل علاقة أو نجاحها، ويوم تفشل الخلية في إصلاح أخطاء نسخ الحمض النووي، فتراكماتها تفضي إلى السرطان لا محالة، وناموس الآفاق هو نفسه ناموس الأنفس، فلا حياة طيبة بلا توازن، ولا توازن بلا آليات تحفظه وتضمن استمراره. 16 أكتوبر 2015

الاختلاف في الرأي يفسد للخلق كل القضية!

قالوا: الاختلاف في الرأي لا يفسد للودّ قضية. إن الشأن ليس في فساد الودّ بل الخلق، فقد يكون الودّ ليس طوع يديك لأنه من أمر القلوب، لكن الخلق طوعهما لأنه من أمر السلوك والمعاملة.

ولا يعنيني شأن قلبك حين تحاور الآراء أو تجادلها، فليس لي عليه سلطان إن بغضني بلا إساءة مني، لكن سيسوؤني إن جعلتَ من اختلافك معي ذريعة إلى النيل مني، ومسوغاً تهدهد به نفسك اللوامة - هذا إن لامت - أو تزين لجمهورك سوء خلقك.

الاختلاف في الرأي سنة كونية، أما من يظلم ويسيء فلا ينتظر من الآخرين أن يعدلوا فيه، أو يحسنوا معاملته، فإن فعلوا فهذا فضلهم، وإن ردوا إساءته فهذا عدلهم. وأحسب هذه الخلة خلة عزيزة لا يثبت عليها إلا صدّيق، لأن في الإنسان فطرة عيية أن يتطاول على من يخالفه أو لا يشبهه، لذا فجهادها نفَسٌ مستمر لن يقف لحظة، وهو سنة الحكمة أي: أن تجاهد نفسك دائماً لتُحْكم جوارحك، فتبقى متوازناً على الصراط، صراط الخلق مع مخالفيك.

إن تاريخ الأفراد والجماعات بدءاً من الشأن الديني إلى أقصى شأن في

المجرة المجاورة يصدق قولي هذا، إنه صراع دامٍ تجاوز شأن القلوب إلى الألسن، فالأيدي فالدماء! بذريعة الاختلاف في الرأي أو العقيدة أو المذهب أو.. أو..

ولو التزمت كل نفس بحدودها ووعَتْ حقّ كل نفسٍ أن تخالفها لما فسدت أرض أو أريقت دمعة أو دم.

والأمر دركات أدناها مسبة أو لمزة على منصة افتراضية، وأعلاها بطشة فرعونية، فابحث عن دركة لونك على هذا السلم الدامي!.

ولعل أكثر ما يرهق النفس أسفاً أن يسري هذا الأمر على من يزعم أنه باحث أو مثقف أو مفكر، أي ممن يختص بالشأن العام ويرفع لواء إصلاحه والتقليل من شقائه. فمن يضيق بمخالفيه هنا، أي تعويل على عمل قلبه/ عقله؟.

القلب/ العقل الحق كما يحده (يعرفه) القرآن قلب غير ناجز أو مكتمل، أي لن يقول وصلت وكل الحقائق دانت لي، وكيف يصح ذلك وعالم الغيب يطوقنا؟ وكل جهد البشرية هو قضمات حقٍّ مضنية من ساحله الشاسع، تزيد بها رصيد شهادتها. أي: لا بد أن يتحرر من أقفاله ليظلَّ يصوب منظوماته عن الأنفس والآفاق.

كل القلوب/ العقول ذوات أقفال إلا من جاهدها فكان من المتدبرين أو المتفكرين أو المتذكرين أو الناظرين أو المفسرين أو المرتلين أو التالين أو المؤولين أو الفقيهين فالعاقلين الحكيمين، وهذه أنشطة قلبية قرآنية إن تخلقت بها أو ببعضها فأنت على صراط الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، والأولى اصطفاء فإنباء أما البقية فهي ميدان التنافس الكبير على محاور أربعة من الغيب والشهادة والخلق والأمر، ولهذا تفصيل كثير ليس الآن أوانه وتبيانه.

فانظر قفلك أهو أيديولوجية مذهبية أم حزبية أم نفسية أم اقتصادية أم نسوية أم عشائرية أم مناطقية .....إلخ. إنه القبضة الخفية التي تطبق على شبكات فؤادك فلا ينمو أو يتسع، إنه يدور كفأر يعضّ ذيله في مسارات دائرية مسبقة فلا يطحن إلا ذاته. 23 يوليو 2019

مختلفون لنتعارف

كلٌّ يرى العالم والحياة من عيون تخصصه أو العلم الذي يتقنه. فالرسام يراها لوحة كبيرة مكتظة بالألوان والأشكال، ويحاول أن يفسر كل شيء لونياً، أو أن يغير في طبيعة المواقف، ويترجمها إلى لوحات ليقرأها. والموسيقي يرى الحياة من أذنيه، سيمفونيةً مركبةً، هادئة أو صاخبة، يحاول أن يقطّعها نوتاتٍ على سلّم روحه الموسيقي، فهو إن رأى شعر حبيبته، المنثال كالخيال من أعالي شموخها، تخيله لحناً هادراً، يتكسر بالجمال كمقدمة (أنت عمري) لمحمد عبد الوهاب، أو (إشراق) لنصير شمة، أو (أحبك) لعمر فاروق، أو (قضية العم أحمد) لعمر خيرت. وإن كان رساماً رأى عينيها الشاسعتين الحزينتين، كالأفق البحري المضمخ بالغروب، تترنح على صفحته طيور النوارس.

أما الرياضي فتتبعثر الحياة في نفسه بأشكالها الحسية الصاخبة، أرقاماً ومعادلات تجريدية جافة، فلحنه ولوحته هو الرقم. أما الكاتب - الروائي خاصة - فهمّه أن يعيد ترتيب الحياة على سطوره، ويمزجها بنفسه بطريقة، هو نفسه لا يعرف كنهها. وهناك المتأمل الهادئ، الذي يتذوق كل شيء بطريقة حدسية غريبة، ويفهمها على نحو غامض، وقد لا يملك الأدلة على تذوقه هذا، فهو غارق في إلهامه الغيبي، ويطلّ على الوجود من نافذة نفسه الشاعرة.

هناك كيميائي يرى الحياة تفاعلاً كبيراً، يحتوي ملايين التفاعلات، وهذا إن رأى عيني حبيبته، فلا يرى نفسه إلا عنصراً أكسَدَهُ بريقُ عينيها، فانطلق غازاً طياراً يسبح في أقطار السماء، سماء الأدب، فأمطر حروفاً غزيرة، اهتزت لها تربة نفسه، وربت، فأنبتت من كل زوج بهيج، يعجب الناظرين. أما المعماري فهو حائر ، كيف يبني الحياة ويبتدع لها تصميماً نفسياً يليق بتركيبها المعقد الجميل، والقائمة تطول.

فكل تلك التخصصات هي لغات، ينطق بها الإنسان عن نفسه، ويقرأ العالم بها ويتواصل، ويبني عالمه أيضاً. ويروى عن الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي أنه أحب فتاة هولندية، فتعلم لغتها من أجل أن يخاطبها بها، فلربما رأى فيها ما لا يملك دونه إلا أن ينتقل كله إلى لغتها، يهاجر إليها إلى عالمها، فعندما نغير لغتنا التي نتقنها إلى اللغة التي يتعامل بها الآخر ويتقنها أكثر من غيرها، فهذا دليل منا على رغبتنا في التعبير له بأقصى ما نستطيع، وأن نعرفه بأقصى ما نستطيع أيضاً. أليس من العجز المشين أن يكون لك طموح تحبه، أو أي شيء تحبه، ولا تفعل له ما فعله ذاك من أجل حبيبته لكي يصلها؟. 8 أغسطس 2015.

النبلاء

النُّسُجُ النبيلةُ مصطلح سُميت به الأنسجة التي إن أصيبت لا تتجدد، كالأنسجة العصبية، أي طريق بلا رجعة، لا تجدد ولا إصلاح. أسجل هنا اعتراضي على هذا المصطلح، فالأجدر بها هو مصطلح (الأنسجة الهشة)، إذ شيء مخيف ومؤلم أن لا يتجدد ما عُطب منك في حياة شيمتها النقص والمرض والألم والإصابات.

هذه الأنسجة لا توسط عندها، إذ يكفي الدماغ رضّ بسيط لينعطب

أو نقص في الأكسجين لا يتجاوز خمس دقائق.

تخيل أن الميناء الصلب الذي يغطي تاج السن نسيج نبيل أيضاً، على صلابته القصوى فهو أصلب نسيج في الجسم، ويقطع ويكسر كل ما يقع تحت بطشه، لكنه إن دُهي بنخر سينقص ولن يتجدد، ولن يقيم نقصه إلا حشوات الأسنان الصناعية.

وفي الأنفس كما في الآفاق، فلبعض الناس طبائع تشبه تلك الأنسجة، إن أخطأت فيهم فقد تظل - دهرك - مرمى لومهم ونقمتهم وحقدهم، فأين هم من النبل؟ النبيل من يستطيع أن يعفو ويتجاوز عن الآخرين، ويتجاوز إصاباته النفسية، وينجز مسؤولياته بتوازنٍ كافٍ يقيمها فلا تختل. وليس في فكرتي دعوة مفتوحة لتجاوز كل شيء؛ إذ الفضيلة بين رذيلتين بلا إفراط أو تفريط، وقد تفوق شدة المصيبة قدرة الإنسان، ولكن ستظل تلك القدرة مجمع الكمالات لا يقتحمها أي إنسان.

التجدد والشفاء أو الإصلاح (Regeneration, Repair and Healing)، موضوع مهم في علم الأمراض وملهم للأفكار، له مساران رئيسان، الأول: وهو الأكمل أن يستعيد النسيج المصاب شكله ووظيفته، والثاني: أن يعجز عن ذلك ويحل محله نسيج ليفي غير وظيفي يملأ المكان ولا يعمل كالذي كان، كمن يعوض عن العين الحقيقية بمقلة صناعية.

لذا للخلايا الجذعية القدح المعلى في هذه الثورة العلاجية، فهي تشبه الأجنة التي يمكن أن تصير إلى ما تتمناه من شخصيات أو تخصصات، ولها مصدران إما أن تؤخذ من الحبل السري للجنين وتحفظ له عند حاجته، عند المرض، وهي الأكمل لقدرتها اللامحدودة على إنتاج جميع الخلايا المتخصصة، أو تؤخذ من الأنسجة كنقي العظم أو جراب الشعرة،

لكنها بقدرات أقل، وثمة فيلم جسد هذه الفكرة اسمه (The island).

المطرِب في هذا الأمر أنهم اكتشفوا مجموعة جينات إن وضعت في الخلايا البالغة فستحولها إلى خلايا جذعية! ولأقرّب لك الفكرة: تخيل أن يوجد شيء يعيدك - وأنت البالغ - إلى جنين، هذا الذي يحدث في الخلايا البالغة أو الجسمية (Somatic cells)[1].

كلما تقدم علم هذا الإنسان يعيده إلى مبدأ أساسي شامل لكل أنظمة هذه الحياة ومخلوقاتها: أنها نسبية، مرنة، متغيرة، حتى الدماغ الذي كانوا يظنون أنه نهائي، لم يعد كذلك فهو نسيج مرن تتغير شبكاته حسب خبرة الإنسان وتخصصه، وهذا ما سموه المرونة العصبية / Neuroplasticity.

وقناعتي أن الذين يحدثون اختراقات في العلوم، يتمكنون من ذلك لكثرة ما يتفكرون فيها ويمارسونها، فيتطور دماغهم حسب جغرافية ذلك العمل، أي مطابقة مما في الأذهان لما في الأعيان، وهذه المطابقة تحدث بسبب مرونة الدماغ التي تعدل فيه وهو يباشر العلم المعين في واقعه، فيقفز إلى غيبه وينقل أجزاء منه إلى عالم المادة/ الشهادة، وهذه هي جدلية الغيب والشهادة، يتربع عليها منصبان؛ الأول: هو النبوة/ الأنبياء وهي اصطفاء، والثاني: هو الشهادة/ الشهداء وهي كسب وكدح ورحلة دماغ تغيره فيتمكن.

والمصطلحات القرآنية التي تقابل المرونة والتصلب هي القسوة، والتقلب، القسوة بالمعنى المعرفي الكوني الذي يحيل إلى الإيمان من خلال الأكوان وليست القسوة بالمعنى النفسي الشعبي. الناضج مرن نسبي متقلب، قابل للتجدد وهو النبيل.

---

(1) المرجع: Basic Robins Pathology.

وهذا كلّ ما في الأمر

إنك مغبون وإنها لقسمة جائرة أن تُنزِل أحداً من نفسكَ منزلة الشمسِ من أرضها تبعث حياتها ومعناها، ثم لا يجد لك مكاناً من نفسه إلا وقت فراغه. صدقني أيها المغبون المحزون أن الرغبة تخلق الوقت ومن يبحث عن وقت ليرغب بك، فهو لن يجدك، عليك وقتئذ أن تستنهض كل أسباب الكبر، والعزة، والكرامة، لكي تستقلَّ بنفسك فلا تنحني إلا في محراب من أقبل إليك وهو في لجة الحياة الهادرة.

إن فتات الأوقات والعواطف والاهتمام والجدارة لا يصنع حياة كبيرة بين اثنين. وشتان ما بين عمقِ قلبٍ وصلافةِ سطحٍ، لا يستويان. فلا تهبْ عمقك لمن يهبُك سطحه، فمن أشد أنواع الظلم أن تترك قلبك يحترق لمن يحترف جليد التأني. ومن تراه حلماً، قد يراك وهماً، وما بين حلم ووهم مسافة شاهقة من الحزن والتعب، ألا يقنعك هذا بجدوى الاستيقاظ؟.

وكل شيء قد يُطلب إلا شعور الآخر بك أو شعورك به، ثمة أشياء لا تصنع، عليك أن تسلم بذلك. إن أفكارك وعواطفك ووقتك، وضوء عينيك الذي ترقب به المدبرين أغلى من أن تضيعه هباءً من أجل هامش حياتهم. وافرحْ إن قايضوا برّك بجفائهم، فإنها أولى بشارات الحرية. وقلبك إن خانك معهم، فامسكه بكلتا يديك، وانحره واغسله بدموعك، ثم ألقه في عرض المحيط كي لا يكون له قبر تحن إليه إبان ضعفك، فتزوره.

واحذر حرفك! فإنه ثغر الهزيمة الذي يمر عبره الغزاة، وتذكر قول درويش كي تأمن شرّه، (الهاء تعود لحرفك لا لدرويش): [هي لا تحبّك أنت يعجبُها مجازُك أنت شاعرُها وهذا كلّ ما في الأمر]. وهذا كل ما في الأمر.

11 أغسطس 2015.

اعتراف واغتراف

كانت لي نقاشات معدودات في ثنائية الصورة والنفس[1]، وكنت أعجب ممن يبخس رأيي لما أبدي اهتمامي بشكل الإنسان أو مظهره. كنت أقول إن الوجه مثلاً ليس عضواً مادياً حيادياً، بل هو مرآة الروح، ولا يمكن أن تعزل بريق العينين مثلاً - وهما شيئان ماديان - عن ذلك الإلهام السحيق الذي يفيض عنهما سلباً أو إيجاباً. وهل تفجرت ينابيع الشعر والفكر إلا من عينين كأنهما غابتا نخيل ساعة السحر أو الضجر؟.

إن وجه الإنسان بتقاسيمه المختلفة يوشك أن يبوح بأسرار معنوية كثيرة، تكاد تلمس نفس الإنسان لما تتأمل في وجهه قبل أن ينطق لسانه عن محتواه. هيئة الجسم، وضعية اليدين، طريقة المشي، شكل الأصابع، كلها أكبر من أبعادها الفيزيائية. ويوم قرأت الإسلام بين الشرق والغرب، صعقت بموضوع عنوانه [دراما الوجه الإنساني] في سياق حديثه عن ظاهرة الفنّ، يتحدث فيه عن احتفاء الفنّ الغربي به وبما فيه من معانٍ عميقة، فقلت هذا ما كنت أقوله من قبل وأجده في نفسي.

ولهذا الموضوع صخب كثير في ساحات السجال المستمر بين الجنسين الباحثين عن شريك يجبر احتياجهم الجسدي والنفسي، فقد رأيت من يعلو على فطرته فيزعم أنه لا يلقي بالاً للشكل البتة، وكأن الإنسان روحٌ طائرٌ لا جسد يحتويه.

---

(1) أعني بالصورة هنا: الجسد أو مظهره أو شكله؛ أي الجانب المادي الفيزيائي من الإنسان، وأعني بالنفس: الجانب الروحي أو الغيبي من الإنسان بما فيه من أفكار وأخلاق، وأحب استخدام هذه الألفاظ التزاماً مني بالأسماء القرآنية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 3/ 6]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: 64/ 3].

إن النعيم الأخروي لم يذهل عن جسد الإنسان، بل له نصيب موفور من الاحتفاء. ولـمّا اخترم الفيسبوك حيواتِنا، وعبث بواقعنا، وأفكارنا وتصوراتنا، استجدت لنا حياة أخرى: إنه وسيلة مجردة من صورة الإنسان الفيزيائية، ويغلب أن تتخلق صور الناس في أذهاننا تخلقاً تجريدياً صرفاً، فمن يكتب أو يحاور بحدة أو لا يضع ابتسامات أو ضحكات نظنه متخشب الملامح، عابس الوجه لا يضحك إلا قليلاً في واقعه.

ومن يجادل بضراوة ولا يكلُّ أو يملُّ حتى آخر رمق نظنه شخصاً متعِباً صعب المعشر، وهكذا، تتنوع التصورات الفيزيائية للتصورات التجريدية، لذلك لا ينتهي لنا فضول، أو يجفّ لعاب، لكي نستكمل صورة الإنسان الحقيقية الذي (تفسبك في حياتنا) تراه كيف يكون؟ وكأننا نريد أن نصدّق تصوراتنا المسبقة فنثبتها، ويغلب ذلك في الأشخاص الذين نضيق بهم، ونتمنى قبحهم الشكلي مثلما رسخ في نفوسنا قبحهم أو إزعاجهم المعنوي.

ويؤسفني أن تصوري المعنوي السلبي هُزم مرة لما رأيت صورة إحدى اللواتي سببن لي احتشاءً نفسياً في إحدى النقاشات، فقلت: حاش لله إن هذا إلا ملك كريم فحنقت جداً، إذ تمنيت أن تكون دميمة الصورة كما صورت لي نفسي دمامة المحتوى الذي خيّلته إلي؛ لأن المجادلات المعلنة التي نغضب فيها من أحد قد تشغب على حقيقته، ونميل إلى تأويلها سلبياً، انتصاراً للنفس وحباً للغلَب.

فالحق أن الجمال يغضبني، ولا أطيق استفزازه وعدوانيته، ويوم أضيق بأحد - من النساء خاصة - أتمنى أن تكون قبيحة، حتى لا أغضب. وقد قلت مرة: ما أجمل الدمامة، إنها مسالمة جداً، وفرحت مرة فرحاً شديداً بعد نقاش واحدة تذود عن الطغيان، لـمّا رأيت صورتها، وكانت عيناها كقطعتين من ظلام. فقلت: الحمد لله على عتمة عينيكِ فقد استرحت، هل من أجل

بؤس المعرفة الاجتماعي

سيخبرك الزمن عن النفوس، أن كل العلوم والمعارف لا تعدل قلباً طيباً، يصفح إن أُسيء إليه، ويعتذر إن أساء، فهو يطير أبداً ما بين إعذار واعتذار؛ لأن الراشد العاقل يعلم أن كل إنسان ذو عيوب، إن جار على أحد احتاج من يعذره ويصفح عنه، وإن جار عليه أحد احتاج - هو - أن يعذر ويصفح، ومن يطلب في الناس ما لا ليس فيه، فقد مال ميلاً عظيماً، فمن يصبر على عشرته وعثرته وهو لا يرى إلا حق نفسه؟.

والثقافة في جذرها اللغوي استقامة، فرمح مثقف أي مقوّم، وقولنا مقوم أي إنه كان معوجاً، فكل تثقف أو معرفة سيكون هباء إن كان لا يعينك على اعوجاجك، وإصلاح أخطائك، وإقامة عقلك وتزكية قلبك. والخسران كل الخسران أن يكون العلم والمعرفة أسبابَ قوةٍ لبلاغة حجتك، وضيقاً لسعة قلبك، تعرف كيف تُدين ولا تعرف كيف ترفق. فالذكاء المعرفي لعنة ماحقة للقلوب والعلاقات إن لم يشفعه ذكاء عاطفي، ولعل أفشل العلاقات هي علاقات الأذكياء الذين تمتلئ عقولهم بالمعارف، وتصفر قلوبهم من المشاعر الكبيرة التي تجبر كسر الآخرين. 6 نوفمبر 2016.

الإنسان الافتراضي الكهفيّ

يظن بعض الناس أن الصداقة الفيسبوكية ميثاق غليظ، ذات حقوق وواجبات، تفاعل بتفاعل، إعجاب بإعجاب، تعليق بتعليق، رسالةٌ برسالة، ابتسامةً بابتسامة، تكشيرةٌ بتكشيرة. يمنّ عليك أن تتبع منشوراتك، فإن لم تتبع منشوراته، فلا حاجة إليك، إنه يقرأ لك لكي تقرأ له، يظن أنك

بوح النوافذ

الطبيعة الخضراء الملونة حبيبة القلب، وسكن الروح. في الإنسان حنين قديم إلى الطبيعة، كأنه غُرس في أسِّ خلقه، وما الجنة إلا الغابة التي تتكاثف أشجارها وتتكاثف حتى تُظلَّ الإنسان فتجنّ عليه أو تجنّه أي تستره، يعمرها الماء الجاري أو النازل، إن مشاهدها حبر القلم ودم القلب، يستلهمها الشعر فيصنع طبيعته أيضاً، يصنعها على الألسنة أو الورق، فكم من عينٍ حبيبةٍ شابهت عينَ غزال، أو غابة نخل، وكم من كرمٍ دفّاق استلهم صورته من نهرٍ جارٍ، أو بحرٍ موّار.

إن عالم الإنسان الداخلي مدين للعالم الطبيعي الخارجي، يفهم به نفسه، ويتمثله مجازاً تستعذبه الأذواق على كرِّ الأزمنة والأمكنة. ولما استدار زمان الحضارة، أصبح الإنسان حبيس تقدمه، ينسج شرنقته التي تخنقه، وقد كان للبيوت القديمة طراز جميل بسيط يتماهى مع الطبيعة ويندمج فيها، لكن الآن أصبحت الصفائح الإسمنتية قبره قبل أن يحين قبره.

ولقد كنت أتأمل في النوافذ، إن النافذة حبلٌ سريٌّ يصل الإنسان بأمه الطبيعة، إنها شريان البشرية الأولى التي تحاول أن تكسر جبروت الإسمنت أو الطين، ينشد الإنسان منها ضوءَ شمسٍ حانياً، أو نسمةَ هواءٍ باسمة، أو منظرَ سماءٍ، أو ليلاً ذا نجوم وقمر، فكأنه يريد أن يعزز صلته بها حتى وإن قَبَرَهُ بيت صلد، ولكن حتى هذه الرئة اليتيمة تدفن في بعض المنازل أو البيئات، فترى النوافذ صغيرة عالية، كأنها جحور أرانب أو أفاعٍ، يطمس عليها زجاج سميك، أو صفيحة معدنية، فكأنك في سجنٍ بنيته بنفسك لنفسك، وكذبت على نفسك بالحرية أن جعلت مفتاحه معك. إنه منظر من كآبة واغتراب عميق، أن ترى النوافذ بتلك الهيئة القاسية. 24 مارس 2016.

ذلك قال درويش: إن نظرتَ إلى وردةٍ دون أن توجعَكَ، وفرحتَ بها، فقل لقلبك: شكراً. أظنه قال ذلك من أجل ذلك، وكيف لقلبٍ حقودٍ كقلبي، أن ينسى قسوة الجمال، المجد للدمامة يسقط الجمال!. 2 نوفمبر 2015.

جدلية الجسد والروح

ولي بيان آخر ناقشت فيه هذا الموضوع فيما يسمى جدلية الجسد (الصورة)، والروح (العالم الإنساني الداخلي بما يحتويه من أفكار وأخلاق وقيم). فلن نختلف على سطحية من يحتفي بالجسد منعزلاً عن بعده الغيبي الروحي الذي جعله إنساناً لا مادة صرفة. ويوجد من يتطرف إلى الجهة الأخرى، مغالياً في شأن الروح مقللاً من شأن الجسد، ويرى الحديث عنه ضحالة أو شهوانية إذا تعلق الأمر بين الجنسين خاصة.

كنت أرفض هذا التقسيم المدرسي للإنسان الذي يجور على حقيقته، وأرى فيه مراهقة حالمة. فالعيون أكثر وأكبر من مقلة ملونة ورموش ساهمة، إنها كون من المعاني لمن أبصر، تبرق فيها الروح كالأمل في النفس.

والوجه ليس صفحة من جلد أبيض أو أسمر، إنه كتاب يريد من يقرؤه. وذلك الشّعر المتهدل من علٍ كالليل يوشك أن ينطق، أن تتكسر ألحانه، لكن أين أوتار الناظر إليه لتترجم نوتات ذلك الشعر الغامضة؟

والابتسامة التي تخلق تضاريسَها تقلصاتُ العضلات، إنها كأي أبجدية منقوشة في ألواح قيمة، تريد ملهماً يفكُّ رموزها. إن الإنسان أكبر وأكثر من جسده، لكن جسده وعاء روحه، ولعل الرواية العظيمة هي التي ترسم المعالم الشخصية الروحية من خلال تفاصيل جسدية دقيقة. لذا قرأت فصل (دراما الوجه الإنساني) لبيجوفتش، وأكاد ألمس ارتعاشات روحي! 9 يونيو 2015

يجب أن تشبهه، فعليك أن تفعل فعله، لأنه يريد أن يرى فيك نفسه. يرسل إليك أحدهم، ظانّاً أن رسالته حالة إسعافية، إن لم تُجِبْ من فورك، فلا بدَّ أن لديك مشكلة معه، إهمالاً أو استخفافاً أو تجاهلاً، أو استثقالاً... إلخ. يكوّر دين الناس بأبعاد عقله وتجربته وتخيلاته، فهو يقترح على غيبهم شهادتَهُ، فلا يستطيع أن يلتمس عذراً لهم.

وإن كان كلامي يصدق على أحد، فإنه - على من له معرفة بك لا بأس بها - أصدق. وأجزم أن هذا الصنف لا يستطيع أن يصنع صديقاً أو يحفظ صديقاً؛ لأن شعوره بنفسه عظيم، وركونه إلى تخيلاتها أعظم، يسهل عليه التخلي لقلة صبره على الناس وظروفهم. إنه يريد صديقاً وقْفاً له، يشعر به دوماً، يتفاعل معه دوماً، يجيبه بسرعة، يحتفي بكل أشيائه بقوة دون ملل، يرى بعيونه إن عمي، ويسمع بأذنيه إن أُصم، إنه يريد نفساً تنوب عن نفسه متى شاء.

أتعلم: إنني أمل من نفسي أحياناً، وأتمنى أن أطلع من جسدي، ولا أريد أن أرى وجهي، وأضيق بصدري، وإنني أحياناً لا أطيق أن أجيب رغبة نفسي، أضيق مني بي، وهي فيّ ولي وعليّ، فلماذا تفترض - أيها العابر - أن أمكث فيك ولك؟.

إن خسارة هذا الصنف الجزِع من الناس (الكهفيّ)، الذي تنقصه الخبرة، ميسورة مقدورة، وجرمٌ أن يتبعها أسف أو ندم. إن الحياة والأحياء ليسا كهفك الذي تمكث فيه، هناك عالمٌ خارجه، تعلّمْ أن تنظر إليه، أن تتفكره وتتذكره، لعلك تكون من الصابرين. 2 أغسطس 2016.

في رحاب الصداقة

تصارم صديقان ثم عادا على مضض استجابة لجهود المصلحين، ولكن

لم يَصفُ ودُّهما بعد ذلك، وفقدت صداقتهما وهجها الأول فلم تعد كما كانت. إن مثَلَها مثَل عضوٍ أصابه احتشاء - أي انقطعت عنه التروية الدموية - فماتَ بعضه فانعطب جزئياً، وبقي العضو يعمل لكن بكفاءة أقل.

بقيت هذه القصة تراودني، وكنت أتساءل: ما الذي يجعل صداقة قوية تفشل أن ترمم نفسها فتعود كما كانت؟. أليس من أسس الصداقة إن حقّت، أن يتسامق سقفها فلا يطاوله أي خلاف أو يتماسك أرضها فلا يُخرق؟. فقلت إنها لم تكن صداقة حقة بل رسم صداقة، راودَتْنا عن بصيرتنا فضلَلْنا ضعفَها فلم يتبدَّ لنا.

إنك لا تستطيع أن تقول لشيء إنه جميل قبيح أو ظالم عادل! هذا لا يصح أن يكون وصفاً دائماً لشيء وإن خالطه بعضه أحياناً، فلا بدَّ من سمات دائمة تُعرف بها الأشياء، ففي اسم الصداقة معنى يرفض كل شيء ينكث غزلها، لأنها لم تَقُم إلا على أسس قوية نالت بها هذا الاسم (الصداقة)، فإن تضعضعت وانهارت ففي أسسها نظر، ولم تُختبر اختبارات كافية تجعلها شيئاً مذكوراً.

أشبّه الصداقة بالجسم، إذ له في طفولته وشبابه عوامل منعةٍ كثيرةٍ تجدده وتحميه أمام الأذيات المستمرة، وتجعله أقل عرضة للتسرطن، لكن للزمن كلمته، فكلما تقدم بالجسم عمرٌ، تضاءلت قدرة خلاياه وأنسجته على التجدد، وضعفت قدرة مورثاته على ضبط أخطاء التضاعف في الحمض النووي، حتى تأتي لحظة تنهار فيه بعض دفاعاته وآليات ضبطه ليحدث المرض الذي يؤول به إلى النهاية. ولكل جسم قدَره، أي إن نمط حياة الإنسان له دور كبير في تحديد النهاية، فمن يعتني بجسده: بأن يتناول غذاءً صحياً ويمارس رياضةً مستمرة، وأنعم الله عليه بحياة أقل ضغوطاً ومتاعب، فسيكون أقدر من غيره على الصمود حتى وإن استوى معه بالعمر.

ولعل صداقة تكون قوية حقّاً لكن الزمن يغير في أصحابها كما يغير في أنسجة الجسد، فتنهار في وجه تحديات الحياة ولا تعود كما كانت، أو تتلاشى، وهناك صداقة لا تموت أبداً إلا ميتة صغرى في عالم البرزخ ثم تبعث مرة أخرى لتستمر هناك!. والأنسجة أنواع فمنها - إن أصابته أذية - متجدد مستمر، قادر على استرجاع وظيفته وشكله كما كان، ومثال ذلك بشرة الفم أو جهاز الهضم، ومنها أقل تجدداً لكن إن أصابته مصيبة قادر على تعويض خسارته كالكبد، ومنها من لا يتجدد فهو ثابت كالخلايا العصبية والعضلة القلبية، والأخيرة تشبه الثوابت أو الأسس التي تقوم عليها العلاقات! فلا بد من قواسم مشتركة تقف عليها الأدمغة والقلوب مثلما ثبتت خلاياها!.

الغريب أن النسيج الذي يصاب فيفقد جزءاً منه ويعجز عن تجديده، يستعيض عنه بنسيج ليفي! لكن هذا النسيج الليفي ليس وظيفياً؛ أي أنه مجرد حشوة تملأ الفراغ ملئاً فيزيائياً لا روحياً؛ كتليف الكبد مثلاً، الذي تحل فيه الألياف محل الخلايا الكبدية البائدة، وهذا هو حال بعض الصداقات التي لا تملك عوامل تجددها. هذه سنة الله في كل شيء. كل جسد وكل علاقة وكل مجتمع، لا يملك آلياتٍ تجدد ما يتلف منه، وتصحح أخطاءه، أو ترمم صدوعه، فهو مريدٌ انقضاضَه ولا موسى له!.

إذن الصداقة التي تقوم على أسس صحيحة، لن يضرها أي شيء مهما كان، فماذا سيضرُّ قلبَيْن اجتمعا بالصدق والمحبة والوفاء، إنه إن أساء أحدهما فما سوؤه إلا عرض ظاهر لدافع نبيل، لكنه أخطأ وجهته، أو خطأ بشري يعتذر عنه صاحبه، وقد يكون هذا الخطأ سوء تقدير لموقف أو تسرعاً أو سورة غضب، وليس المعني به طباع الفجور كالغدر والحسد والكذب والظلم، فهذه شيم السَّفلة الذين لا يصدقون ولا يُصادقون، وإن اجتمعوا فما يجمعهم

إلا منفعتهم. لم أخسر صديقاً، نعم لأنني عاملتهم بهذا القلب معترفاً بكل عيوبه وأخطائه معتذراً عنها إن أساء إليهم، ومعذِراً قلوبهم إن أساءت إليه، وهل الصداقة إلا طائر بجناحين من اعتذار وإعذار؟.

ما أجمل أن تتذكر حسنات امرئ إبان زلته فتعامله بما أحسن لا بما أساء، مناراً بقبس من ضوء هذه الآية: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 39/ 35]. وهي أعجب ما قرأت أملاً!. راجع حياتك وتأمل فيمن خسرت صداقتهم وأعد تصنيفها، فإن قلّمته جيداً، عرفت العلة، ففي التصنيف الجواب الحصيف.

13 ديسمبر 2017.

رحلة الفقد

الجمال علاج الأنفس الضجرة في هذا المدى المتعب، وجمالٌ لا تملكه لا يزيدك إلا حسرةً تلو حسرة، يعظم تتاليها في نفوس الذين لا يعرفون أيّان مرساهم إلى أوطانهم المحطمة كقلوبهم، يحلمون ببيت دائم يجمع أجسادهم وذكرياتهم بين أهليهم، يحلمون بحقيقة الامتلاك.

فما أقسى اللاانتماء والترحال الذي يكوّر حياتك في الحقائب، ويشعرك أن الزمن يضيق عن فتحها، فلا جدوى من إفراغ يعقبه نصَبٌ جديد ينثر روحك على مدى آخر مجهول، لتكون حياتك رباطاً مستمراً، تنتظم أحلامك فيها كاليتامى.

ويعلمك طول الفقد أن تقتصد في الاقتناء، وتقلل من علائقك بالأشياء، لتعين قلبك على السفر بأقل زاد من الحنين، وأكبر قدرة على الفراق.

أتحلم بشباك فسيح يتنفس من فضاء الطبيعة وأشكالها وألوانها ما يحرر

روحـك مـن كل قيـد؟ أو بمكتبـة ترفـع رفوفهـا كتابـاً كتابـاً لتكـون لـك حيـاة أخـرى بجانـب الحيـاة؟ أم تحلـم بحديقـة صغـيرة تمدُّ فيهـا جـذور ذاكرتـك مـع كل شتلة تشتلها؟. تحلـم ببيتٍ فضـاءٍ يختلط فيـه ضـوء الشـمس لينفـض عنـك ركـود المـوت والسـأم العميـق؟.

وكأن في قلبك سيّاباً بعيداً يهتف؛

[إن مت يا وطني، فقبر في مقابرك الكئيبة
أقصى مناي، وإن سلمت فإن كوخاً في الحقول
هو ما أريد من الحياة، فدى صحاراك الرحيبة
أرباض لندن والدروب، ولا أصابتك المصيبة]

ولا أصابتك المصيبة.. 2 أكتوبر 2017

إنسانيتك بقدر ما تملك من حريتك

لـو تفكرنـا في قصـة الإنسـان لوجدنـا أن ميزتـه الكـبرى عـن غـيره مـن المخلوقـات هـي حريتـه؛ إذ مـا قيمـة عقلـه بـلا حريـة، ألا يصبـح دابَّـة مسـخرة بلا قـرار أو خيـار إن سـلبت حريتـه؟ لـذا إن أي تشـويه لهـا أو انتقاص، سيمرضـه بـكل أمـراض الحيـاة، وكلـما زاد الممنـوع زادت الرغبـة في كسـره، أحيانـاً يفعـل الإنسـان الممنـوع ولايـدري لمـاذا، ليكتشـف أن في داخلـه رغبـة عميقـة ليـمارس حريتـه فقـط.

تتبايـن آراء النـاس وأفعالهـم ومسـالكهم بقـدر حريتهـم، بـل تتخلـق النفـوس حسـب مـا يتـاح لهـا ومـا يمنـع عنهـا، فـما أكثـر الأمـراض النفسـية في البيئـات التـي تشـوه فطـرة الإنسـان يـوم تقهـر حريتـه، وتطـارده مضيقـةً عليـه في أدق مسـاحاته

وأخصها، فيفعل الفعل مصانعةً لأعراف قاهرة لا رغبة حرة تنبع من عمق نفسه. ولا موت للدين كموته في هذا الجو الخانق، إنه يصبح رسماً بلا روح، ويصنع أشباحاً منفصمين لا بشراً أسوياء، ويخطئ من يظن أن اتّساع السلطة الدينية خير للدين، إنه خير لها ولأربابها لكنه هزيمة للدين الحقيقي، القائم جوهره على الاتباع الحرّ، الذي ينبع من القناعة العقلية. ولا فخر لك في عدم اقتراف الذنوب والمعاصي ما لم تُعرضْ عليك وتكن حراً أن تقترفها أم لا!.

لذلك أمر الله بالتبليغ والتبيين، والتفكر والتدبر والنظر والبحث عن سبل الرشاد، وكلها وسائل تنعش القلب ليعِيَ ويتبع عن بصيرة وإرادة، وقد كفل الله له كل طرق التوبة والأوبة إن ضعف عن الوفاء بمقتضيات قناعته وإيمانه، أما هصر قلوب الناس هصراً على التنفيذ فهو لا يليق ببشر مكرمين. فلو لم تكن الحرية أخطر معنىً من معاني الحياة، لما كان السجن هو أول ما اهتدى إليه البشر في مفهوم العقاب!. 20 مارس 2017.

دموع الظل

خائفٌ مترقبٌ، عطِشٌ، جائعٌ، متعبٌ، كل نقطة من دمه جوعٌ إلى الأمن والأنس والطعام والارتواء، وفي القلب تمزقٌ ينزف فراقَ الوطن والأهل والأحبة على خوف وجوع. أيُّ إنسانٍ أحقّ منه بالعون والعطاء؟. لكن كل ذلك النقص الذي تبوّأ مقعده من نفسه، لم يجعله يثّاقل إلى الخذلان، كل ذلك النقص لم يمنعه عن إكمال النقص لما رآه، ولا شيء كالضعيف يجرح قلب المؤمن، ولا شيء كاستضعافه يزلزل أركان عالمه، لتميد به الأرض فلا يستقر قلبه على سكن، فكيف لذلك المتعب أن يستريح وهو يرى القوة تمتحن ضعف امرأتين تذودان دون القوم؟

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾[1]: كل قصة موسى في حيّز، وهذه الجملة في حيّز! لن تراها، حتى تراها حقّاً، حتى تكونَ من النقص كحاله، ثم تجبرَ - على نقصك - نقصَ ضعيفٍ لا تبتغي إلا الله، ثم تتولى إلى الظلِّ، تتولى لا تنتظر جزاءً من أحد، لقد أنهيت عملك، ثم أدبرت مسرعاً، تبحر سعادةٌ لا شواطئ لها في قلبك، لأنك نصرت ضعيفاً، لأنك أعطيته، بل لأنك أخذتَ منه! ثم تشعر بعظمة هذا الخير الذي ساقه الله إليك، فلا تستطيع إلا أن تتولى إلى الظِّل، وعيناك بحيرتان من دموع وقلبك ينبض بـ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 28/ 24].

.2014-2-18

لغة القميص

القميص هو بطل قصة يوسف، فمرة استُخدِم لكي يكون علامة كاذبة على موته ففراقه عن أبيه، ومرة كان علامة على براءته من كيد امرأة العزيز، ومرة استُخدِم لكي يكون علامة على حياته فعودته لأبيه.

في مرة الفراق والموت كان علامة بصرية صعقت قلب أبيه ففَقَدَ بصره، وفي مرة العودة والحياة كان علامة شمّية، ردَّتِ البصر إلى حاله، فالعين التي رأت القميص ودمعت فابيضَّت من الحزن، أعادها القميص إلى نورها، فما أرحم أن تفرح من حيث حزنت، ويأتيك الفرج من الشيء الذي كان نذير عسرك، وكأن القميص اعتذر إلى أبي يوسف فأصلح ما أحدث.

وما أجدر البشر أن يتعلموا من فعل القميص فيصلحوا ما أفسدوا، ويفرحوا مَن أحزنوا، ويفرجوا عمن عسّروا حياتهم.

---

(1) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 28/ 24].

والشيء الأثير أيضاً هو علو كعب حاسة الشم، ودورها في الإبصار والبصيرة، فللروائح لغتها وفعلها، ولا أظن في قميص يوسف شيئاً غير رائحته. وكثير من الناس يخطفه مظهر الأشياء التي تبهر عينه، لكن إن كانت رائحتها غير طيبة فستراه يرجع القهقرى. وكم من عطر جعل للمظهر المتواضع هيبة وجاذبية، ويبدو أن عطر الأجساد أبلغ من أي عطر آخر، على الحالين الطيب والنتن. وقد يكون الجمال مبذولاً من بعيد تلقفه كل عين رائية، أما الأنف فلا سبيل له لكي يشمّ إلا عن قرب خاص، وهذا مقام لا يطوله أي شامٍّ، فللمسافة سلطانها الذي لا يُتجاوز إلا بإذن قلبيٍّ عزيز.

فالبصر هنا أعمى والشَّم بصير! والبصر هنا مؤونة البُعد، والشَّم مؤونة القرب، ولكل قميصٍ يوسفه ويعقوبه، وهي منازل وعلائق بين الناس لا تُنال بلا نعمة الحب، فلن تعنيك رائحة أحد ليس بينك وبينه نسب عالٍ من المعنى لأن نسب الدماء قد يخون، كما خان إخوة يوسف، ولو كان هو النسب الوحيد بين يوسف وأبيه لكان كافياً أن يصلح الحال بينهم وبين أبيهم، لكن قد كان بين يوسف وأبيه نسب المعنى، الذي ينبض به الخير والعمل السامي، وقد علم يعقوب أن يوسف وريث نبوته. فالاستحقاق هنا استحقاقٌ يعلو على لغة المادة، لذلك أصبح الشَّم شيئاً عالياً، دواءً يشفي الجسد والروح. يجب أن تتواضع العينان بجنب الشم بعد هذه القصة، لأنها قد تخادع صاحبها أما الشَّم فلا.

مدرسة النقص

ليس في الموت وحده نقصٌ من الأنفس، ففي الفراق والمرض بضع منه، وستظل تعلمنا الحياة بالنقص إلى أن ينقص الآخرون منا، فنغادر.

ألـم النقـص مدرسـة الصـبر الكبـيرة، تجده في ضرِّ أيـوب، وفي فـراغ فـؤاد أم موسـى، وفي ابيضـاض عينـي أبي يوسـف، وفي عـشرات البـشر مـن حولـك، ولعـل بعضهـم تواطـأت عليـه نواقـص متراكبـة، فقَـدَ أنفسـه ومالـه وثمراتـه ووطنه كلـه. نواقص كثيرة، منهـا مـا هـو صـارخ لا تذهـل عنه عـين، ومنهـا مـا هـو صامـت لا يميـزه إلا طبيـب نجيـب، لكنـك لـن تخطـئ نواقصـك؛ لأن ألمهـا في نفسـك راسـخ لا ينسـيك إيـاه إلا فقـدان وعـي أو مـوت.

الألـم لا يُنسـى أو ينـام، يكفيـه أن تحيـا ليكـون حيّـاً فيـك. لا مزايـدة عـلى مـن فَقـدَ أحبتـه بالمـوت، لكـن كل النـاس يعلمـون بـه فيقدمـون لـه العـزاء، أمـا الغربـاء، المسـافرون، النازفـون بصمـت، فليـس لهـم إلا سـواد الليـالي وبيـاض الصفحـات، وتدريـب مسـتمر عـلى الصـبر لعـل الأقـدار ترحمهـم بتعلـم البـلادة، سـيتبلدون، ولكـن هـل سـيعلمون أن البـلادة هـي نقـص آخـر؟ لا يهـم، المهـم ألا تشـعر بـالألم. 10/ أبريـل/ 2020

عالة ونذالة

الحيـاة في حقيقتهـا الأولى، ثقيلـة وفيهـا مـن المتاعـب مـا فيهـا، وكلنـا يـرزح تحـت إرهاقـات كثـيرة، مجبـرٌ عليهـا، ولا أظـن للإنسـان حقّـاً كحقـه أن يبتعـد عـن أي شيء قـد يزيـد رهقـه أو ألمـه، ويبحـث عـما يخفـف عنـه. وقـد غلـب عـلى معظـم النـاس الأذى والأنانيـة، فـلا ينبغـي لأي إنسـان - إن كان عاقـلاً كريـماً - أن يزيـد ألم إنسـان أو تعبـه، فالزهـد بـه أولى.

وإن اضطُرَّ إلى أن يكـون عبئـاً عـلى أحـد لظـرفٍ قاهـرٍ، فليتصـدَّقْ بحسـن تقديـر المعـروف، وحفـظ الجميـل، وليقـل قـولاً كريـماً، أمـا أن تجتمـع فيـك عالـة ونذالـة، فـأي نفـس سـتحتملك؟ فـوالله إن أمـك وأبـاك ليبغضانـك بـما سـبق إليهـما مـن

عقوقك وجحودك، فكيف بمن دونهما ممن لا يربطهم بك رحم ولا لحم؟

أما اللئام فهم كالكلب العقور، يسارع إلى عضّ اليد التي تطعمه، وهو إلى عضّ غيرها أسرع. ولله درّ المتنبي يوم قال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وإن كان هذا مطلوباً في حياتنا ، فلهو أشد مطلباً من وراء شاشاتنا، لأن قدرة النفس على الاحتمال تضعف كلما قلت الحاجة وسهُل المخرج والعلاج، ولا عاقلَ يرضى بعذاب مجاني من وراء البحار . فلا يحكمنا هنا إلا جمال الكلمة وخفة النفس، ولا حق لأحد على أحد إلا بما يطوقه من طيب خلقه ونفسه، وإلا فالدواء كبسمة أو لمسة. هذه شيم العقلاء ومن يقدرون الأنفس الكريمة ويفقهون سننها. 12/ مارس/ 2020

القلب المتكوثر والقلب المتصحر

لا يزال عجبي لا ينتهي من أناس تعمل لهم مثقال ذرة من خير، فتخرُّ قلوبهم هدّاً من وطأة الامتنان، وكأنك بلغت بهم مجمع البحرين!. ومن أناس يوشك أن يتصدَّع سقف استطاعتك من كثرة بلوغك إياه لأجلهم، فلا تمسك قلوبهم ماءً ولا تنبت كلأً إلا كما تورق بعض الأشواك في صحراء واسعة، شتان بين القلب المتكوثر بالشكر، والقلب المتصحر من الكنود، لا يستويان!

حقّاً إن بعض النفوس كالأرض الخصبة المعطاء تتكوثر بالمعروف والخير والمعنى من أقل بذرٍ، بلا سماد أو عناية كبيرة، لتجد صنيعك فيهم جنة وارفة وقد نسيت، لكنهم يذكرونك بفضلك. تقول لأحدهم كلمة طيبة، أو تشعره بأهميته ببضعة تفاصيل من أمر قلبه، أو تقف له وقفة واحدة، فيتكسر كالموج من شدة الامتنان والشكر. وبعض النفوس كالأرض السبخة، لو

زوّدتها بكل أسباب الحياة لما جادت عليك إلا بالقليل الفقير، لو أنفقت هواء صدرك لهم، لقالوا لك: هل من مزيد؟ وكأن العناية العليا اختصتهم من دون الناس، فكل ما يُفعل لهم من خير، سنة طبيعية واستحقاق لهم وجدارة، وما على الناس إلا أن يهرعوا لخدمتهم كلما أرادوا.

ويا ليتهم اكتفوا بحياديتهم أو سلبيتهم، بل قد يزيدون على ذلك بإيذائك وبخسك عند أول امتعاض منك أَنْ ردعتهم وكفكفت من غلواء تواكلهم وإرهاقهم لك. وحريٌّ بالكريم وقتئذ أن يتطامن ويقرّ بالفضل لا أن يقلل من فعلك ويذمّك فيه، وكأنه لا شيء ليصبح عينُ فعلك نقمةً عليك، قُتل الإنسان ما أكفره! 28/ فبراير/ 2020.

ليس في النفس سوءٌ أكبر من أن تجعل الطيبين أشراراً

لو دعوتُ اللَّهَ دعوةً خاتمة من أمّ قلبي لقلت: اللَّهمَّ أعنّي على نفسي فلا أكون سببَ إيلام لأحدٍ خيّرٍ بظلم، أن لا أملأ قلبه قيحاً ونقمة وكرهاً، أن لا أجعله ينقلب على نفسه الخيّرة وطيبته فيصبح كتلةَ غضبٍ وأسىً كلما تذكرني، أو كلما مرَّ ذكري على لسان أحد أو مكان أو زمان، أن لا يبصق على كل لحظة عرفني بها، أن لا يكره سجاياه الطيبة بسببي، أن يتمنى لو كان لئيماً ذا أنيابٍ ومخالبَ ليعضَّ بضراوة ليحمي نفسه، لقد ذهب زمنٌ قيل فيه: إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، وجاء زمن: إن لم تكن ذئباً أكلتك القطط والكلاب.

لقد رأيتُ في الناس من إذا جاء ذكره فاضت الأعين من الدمع إجلالاً له، وتهدّجت الصدور، ورأيت من لو مررتَ بمساكنه التي هجرها بصقتَ تِلقاءها وحمدتَ الله على بعده وكأنه قبسٌ من جهنّم، ذلك بأن الإنسان مفطورٌ على الفرار من الألم والقهر والإيذاء والبخس ومجازاة

الإحسان بامتهان. تذكر: ليس في النفس سوءٌ أكبر من أن تجعل الطيبين أشراراً. 23/ مايو/ 2020

أنصتْ في حضرة الجروح

ما أحوجنا في هذا المدى البائس المؤلم إلى أولي القلوب غير الغليظة، الذين تكون كلماتهم شفاءً حقّاً، لأنهم خبيرون بطعم الألم، وبطشة القهر، وجغرافيا الجروح. ففي أصابعهم روح مسيح، لا يمدونها خبطَ عشواء فهم يعلمون أن جِلْد المتألم المقهور راسخ جداً في الشعور ، يثقل عليه مثقالُ ذرةٍ من كلمة غاشمة تنفلت بلا ضمير، من فمٍ مسرف في الكلام، شحيح بالبصيرة والرفق.

لعل من الخير الكبير أن يصمت من لا ينصت في حضرة الجروح، ويدرك أن في فمه سهاماً وسكاكين قد تزيد النازف نزفاً، والمقهور قهراً، ويدرك أن المواساة أو (المواجدة) مقام عالٍ لا يطيقه أي قلب فهو رزق نادر، وجماع ذكاء معرفي وعاطفي، لا أشك أنه جوهر الحكمة، وما سوى ذلك أصوات لا كلمات، يلقيها العُمْيُ من رحى أفواههم، وقلوبهم غرقى في نعيمها، وقد يكونون عمياً فتحت عيونك معهم على هذه الحياة! عزيز ذلك النوع من الناس.

بين علم الأمراض وأمراض القلوب

من الفروق الجوهرية بين السرطان والالتهاب، أن الخلية السرطانية التي نتجت عن طفرة ما، تستمر على خللها، حتى وإن زال سببه، لينشأ السرطان ويودي بحياة الجسم كلما تقدم الزمن. أما الالتهاب، فيتوقف ما إن يزُل العامل المسبب، وقد تبقى أعراضه حيناً، لكن يمكن معالجتها وتختفي بعد ذلك.

هل أستطيع أن أشبه هذه الحالة بحالة التخاصم أو الجفاء بين القلوب؟.

ثمة قلوب، ما أسهل أن تزيل غضبها وألمها منك، ما إن تتُب وتتراجع عن خطئك، فتعود (أي القلوب) مجلوة صافية بلا كدر، وكأنها ما جفتك قط، ولا وجدَتْ في نفسها عليك، ومصداق صفحها عنك، أن معاملتها معك، تعود كما كانت أول مرة، بلا تغير. وثمة قلوب لو ذرفتَ أمامها بحورَ الأرض دموعاً، ما نقص ذلك من حنقها قطرة، ولا عرف الغفران طريقاً إليها، وما أخطر الأصناف التي تعفو عنك بلسانها، وقلبها مدلهم عليك بالسخط.

وهذا الصنف من البشر أشدّ الناس إيلاماً للناس التي تكره الجفاء، أو تكره الاحتفاظ بأخطاء الآخرين، لأنها قلوب طفولية، لا تستخدم إلا قلم الرصاص. أي عليك أن تميز بين نوعين من الناس، نوع مشكلته في نفسه، وهذه راسخة كاسحة، لا حلَّ معها إلا الفرار، ونوع قد لا يصفو لك لسبب عارض، لكن العشرة معه ممكنة إن أصلحت وغيرت.

وأكثر الذي يخيف في هؤلاء البشر، ذلك النوع الذي تكون معضلته في نفسه وحده، إنه لا يحتاج إيذاء من أحدٍ ليردّ أذيته، لأنه مجبول على الطغيان، وأرجو أن تتفكر في كلمة (الطغيان) أو الطاغوت لأنها الصفة الفذة لفرعون، والطاغي هو الذي يطغى على غيره فينغص عليه حياته أو يعطبها أو قد يسرقها كاملة، أي لن يدعك وشأنك مهما كنت كريماً، فاعرفْ كيف تكون بمخالب وأنياب أو أرجل سريعة.

ويقيني أن مهمة رسالة الأنبياء الأولى هو (تكتيف الطغاة) لينعم الخيار الإنساني الإلهي بحريته، ويحاسب حساباً عادلاً يوم القيامة فلا حساب لـمُكرَه، والطغيان دركات متدلية أعلاها فرعون الذي يحكم، وأدناها قد يكون الأم التي تربي. وضَعْ نصب عينيك قاعدة مهمة: أيُّ إنسان يسيء إليك

وأنت (تبرّه)، فاعلمْ أن الخلل فيه لا فيك، إياك أن ينجح في إشعارك أن سوءه بسببك أنت، فيجعلك تجتهد لكي تصلح الأمر، وما إصلاحك إلا ظلم شديد لنفسك، فالإصلاح الحق أن تُقلّم أظافر السوء لا أن يُقدم لها القرابين!.

الحقيقة الكاملة

إنّ الإنسان يشبه الكون، كُلٌّ واحدٌ لا يتجزأ، وقد قسمه العلماء ليستطيعوا دراسته، لا لكي يجوروا على حقيقته. لا أستطيع أن أحيا إلا بحقيقتي الكاملة، بعقلي وقلبي، بفكري وأدبي، أعاني تناقضاتي، أعترف بها وأجاهدها لأتزن بما أستطيع، وأتندر على الذين يزعمون حاجزاً بين العقل والقلب أو الفكر والعاطفة، وكأنهم أمِنوا زيغ قلوبهم، فنسبوا لأنفسهم حصافة التفكير، وخلعوا على غيرهم طيش العاطفة. لا بأس إنها وسيلة مريحة لكي تجرد الآخر مما يقلق مفاهيمك. مهما حاولتَ أن تختزل حقيقة الإنسان ببعض الجوانب، فالحقيقة أيضاً تختزلك كما اختزلتها وتهوي بك في وادٍ سحيق من الشطط.

كلما قرأت ذلك الكتاب[1]، عرفت نفسي، عرفت أن الحياة حياة القلوب، قلوب لا تهدأ عاطفتُها، فهي تموج كالبحر، قلوب حية، ذكية، لا قلوب السادرين أو المتخشبين، تعيش دراما الحياة بكل حركيتها تسمو أو تتدلى، لكنها قيّمة على نفسها، تتعهدها بدمعة أو ابتسامة لكي تحسن السير مهما كبَت.. إن القلب في ذلك الكتاب له هيامٌ آخر، إنه ذلك القلب، كذلك الكتاب.

وأطمع أن يكون حرفي بهذه الوسامة الكاملة، يدخل عليك من قلبك وعقلك، أريده أن يتعربش كالطفل على جدران روحك، فيثير فيك

---

(1) أي القرآن الكريم، كما في أول سورة البقرة، (ذلك الكتاب) تعظيماً له.

كل ما يمكن للجمال أن يصنعه. إن الحقيقة تولد عندما يلتحم الفكر بالأدب، والخيال بالعلم، أشعر أنها تبتسم، لأنك عشتها كاملةً، فحلقت بها بجناحين، عالياً عالياً، أحاول أن أكون كذلك ولا أريد أن أكون إلا كذلك. 29 ديسمبر 2013.

حزن يشيّد أركان الحياة

ذلك الإنسان الحزن ذروة روحه، وجوهر حقيقته، وسره النفيس. حذار من قلب لا يحزن، ولا يعرف الدمع سبيلاً إلى عينيه!. لأنّ الحزنَ علَمٌ على كثيرٍ من الصفات التي نفخت مع الروح.

إنك إن كنت صالحاً حزنت على عربدة المفسدين وشقاء الناس وآلامهم، حزنت على الضعيف والمظلوم والفقير. إنك إن كنتَ وفياً، حزنت على فراق من أحسن إليك، وكيف لا يحزن من فارق أحبته! أليس حزنه بريداً لوفائه وصدقه وخيره. وإنني كلما رحلت بهذه الأفكار، حطت رحالي على ذلك القلب الذي لم تنسه ضخامة النصر رفيقةَ الدرب، ومزملة القلب والجسد، يوم لا نصير ولا قوة!.

ذلك القلب الذي لا تبارحه ذكراها إلا وشيعتها الدموع، والحزن العميق المعطر بالامتنان والوفاء، أو حطت رحالي في تلك الليلة التي جمعت قلبين ظلا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا، لما تذكرا حبيبهما، وما تعلموه منه[1].

أيُّ حزن هذا؟. هل هو حزن حزين يأوي إلى الضعف ويترك الحياة وشأنها؟ أم أنه حزن قوي يشيّد أركانها، لكن خِلاله الشريفة لا تقي قلبه الحزن، في دارٍ شيمتها نقص من الأموال والأنفس والثمرات، دارٍ دأبت

(1) عن قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم إلى الشام وزار أبا الدرداء رضي الله عنه.

على تصديع الجماعات، وإيلامهم، فالحزن رفيق الأنبياء وأشهد برجولة من يبكي، ويداه على مقود طموحه، لا تفتران. 26 أكتوبر 2014.

ثمالة مشاعر

تزيد شدة الألم عندما تجهل سببه أو مصدره، تأمل وجوه الأفكار والظنون والخواطر التي أثارت غبار هدوئك، لعلك تعود بشيء يطفئ لهيب حيرتك وتيهك. تبحث عن شيء لا تعرفه، لكن أثره يقلّص حجم رئتيك، فيخنق قلبك. إنها الحالة الوحيدة التي يتنكر فيها الألم باسم الحيرة أو الغموض، ما أثقل رأسك، ما أثقل قلبك!

إن الهموم جياع يجأرن حتى السماء، ولا تدري أي فم تلقمه اهتمامك! تفتقد الدفء والقلوب، تحنُّ إلى تفاصيل العائلة، إلى وجودك بينها حقيقةً لا وهماً، تحنُّ إلى عالم الصداقة الذي كان صادقاً.

هذا عالم الوحدة والاغتراب والشاشات والأزرار والخوف والقلق، عالم انهزام الإنسانية في أبسط تفاصيلها، حتى الحبيبة لا تختلف عن أي جهاز تقني يوهمك بمشاعر افتراضية، بعالم كاذب، تعيشه ولا تعيشه. قلبكَ متضخم كعينيكَ من وهج الشاشات، ورؤوس أصابعكَ بلا هوية، تسطحت من كثرة الضغط على الأزرار.

أنت باردة جداً، كهذا الثلج، لا يلهمني شعرك، لا لونه، ولا طوله، بل ما يكون؟ لا يهزك الشعر أو اللحن، ضحكتك بلا نسب، لأتذكر به: ابتسامتها أنغام وورود. عيناك شاشتان، بلا روح أستلهم به سحَر النخيل أو هيبة الشرفتين إذ ينأى عنهما القمر، هذه ثمالة مشاعر لا تروي ظامئاً يشعر بالبرد.

علوم الفرد والمؤسسة

من كان طموحه في علم طبيعي كعلوم الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والفضاء والأرض... إلخ، فلْيطلب بلاد الغرب أول عمره، لأن هذه العلوم اليومَ تقوم على (المؤسسة) لا الأفراد، ولن يبلغ الفرد فيها مجداً وحده، ما لم يكن عضواً في ذلك النادي المرموق.

والمؤسسة عنوان عريض لمكونات كثيرة، منها التمويل المالي الضخم، والبنية التحتية الكاملة الخلقية (المادية): كالمختبرات والأدوات والأجهزة المتنوعة، كلٌّ حسب العلم المعين، والبنية التحتية الأمرية، كالنظام البحثي النظري، بما فيه من خطط محكمة وأهداف، وعمل الفريق، وتشريعات أو قوانين، وتقاليد علمية تمنع طغيان الأساتذة أو الأقران وتحفظ الحقوق، وفضاء معلوماتي ضخم، متصل بأحدث وسائل التقنية والمجلات..إلخ.

أما من كان طموحه في الآداب فلا يحتاج إلا خيالاً متوثباً وعيشاً بائساً بين ظهراني العرب ليبدع أكبر الإبداعات في تراجيديا الوجود الإنساني ومعضلة النفس البشرية بكل ما فيها من خير وشرّ وبرّ وبحر.. إلخ، وليس القصد أنه سيحرم من الإبداع الأدبي لو عاش في الغرب. الذي سيختلف هو نوع الموضوعات فقط، سيبدع في وصف قطة نائمة أو فراشة تلهو على زجاج شباكه، أو حزنه على مرض كلبه، أو قد يفاضل بين هواء جزيرة منعشٍ في المحيط الهادئ وهواء أخرى في المحيط الأطلسي، لكن الأدب الكبير لا يظهر إلا في رحم المعاناة ولدينا كثير منها.

رسالة الغفران الجديدة!

لقد حدث معي غير مرة أن يكون اليومُ إجازةً، فأظنه يومَ عملٍ،

فأستيقظ مستعجلاً لكي أتدارك تأخيري، أما أن يكون اليومُ يوم عمل، فأظنه إجازة فأطيل فترة التأمل السقفية فهذه لم تحدث إلا اليوم، وفي كلا الحالتين، خضة لئيمة تقلق استجمام النفس، وتثير تساؤلاً عن زمن النفس وزمن الأرض، وكيف تختلط الأنظمة فتعيش منفصلاً - لو لحظة - في عالم آخر يجاور العالم الأصلي.

أظن أن لكل إنسان عالماً آخر يرافقه في أمنياته يقظاً أو نائماً، يخلق فيه ما يشاء من شخصيات وأحداث وأمكنة وأزمنة، بل يعيد خلق حياته الماضية، ويرسم لها أقداراً مختلفة، وقد يستلُّ مواقف معينة فيعيدها بالطريقة التي توافق نضجه التالي لها وبها، فقد يختار مثلاً أن يصفع أحدهم صفعةً، يختبر بها قدرة جلده على التلون مثلما اختبر تلون نفسه، وقد لا يهدي أحداً شيئاً من اهتمامه، وقد يختار له عائلة في أدغال نيجيريا أو الحي المجاور للبيت الأبيض. فكل إنسان بهذا المعنى هو روائي بالفطرة.

وأودُّ حينها أن أسأل نزاراً : لو خيروه فهل سيختار حبها للمرة الثانية؟ أم هي لا تعدو أن تكون سكرة شعرية؟ وهل حقّاً سيختار الأزواج بعضهم في الجنة؟ لا أدري، لكنّ طبيعة هذا الإنسان المخلوق من ملل لا تؤيد هذه الفكرة إلا إن خُلقت له نفس بمبادئ جديدة! مع أنني أرى أن هذه الفكرة تجهض مفهوم النعيم في عقلي المتواضع، لأن روعة النعيم أن يذاق بنفس النفس والجسد اللذين ذاقا كل هذا البؤس الدنيوي، وربما كل هذا سيحدث، فالله على كل شيء قدير، وما أنا إلا طفل صغير يلهو بهذه التخيلات الساذجة. لقد قرأت شيئاً لا بأس به من رسالة الغفران للمعري، وهي لا تخرج عن حادث اليوم الذي عشته، رحلة خيالية في عالمه المشتهى. فهل تعلم ما هو الشيء المضحك الآن؟ أن حدثي التافه أعلاه أوصلني إلى رسالة المعري!

حلم برقصة التانغو

مدحنا الشخصية المغاربية لما فيها من دعابة ولطف، وتواضع كريم، وجمال في بعض التعابير والأمثال، فقيل لنا: يحب مغربية. صدحنا بمجد مصر الكبيرة، لما لها من أثر راسخ في النفس منذ الطفولة، في الفن والأدب والفكر، فقيل لنا: يحب مصرية. شتمنا قومنا السوريين، فقيل لنا: يحب سورية!

فماذا نفعل في عالم السلوك الحصيف الذي يتربع كشيخ القبيلة في صدر العقل العربي المعني أعلاه، الذي يفسر دائماً سلوكَ الرجل ويتنبأ به بما يتاح له من حياة في عالم امرأة؟

والصدق أن هذه المنهجية التفسيرية تصح كثيراً حسب ما رأيته من مشاهدات، وعليك أن تتسلح بها إن رأيت انعطافاً حادّاً مفاجئاً في شخصية الرجل الذي حولك دون سياقات منطقية تصيّره إلى ما صار أو تطيّره إلى ما طار!

فأحدهم أصبحت هوايته جمع الطوابع، والتأمل في الحارات القديمة، ويعلن أنه غريب ليس من هذا الزمن الحداثي، كصالح في ثمود، وثانٍ أصبح ناقداً كثيفَ التأمل والتذوق للوحات، في الفن التكعيبي لبيكاسو خاصة، وثالث أصبح مدمناً على الموسيقى الكلاسيكية الغربية بعد أن كان يسمع أغنية (ترشرش ترشرش)، ورابع اخضوضرت غرفته فجأة بالروايات، وصار يحب شعر محمود درويش أيضاً!

إن هذا هو الجزء الجميل من المشهد، أما في الجهة الأخرى، فأصدقكم القول إن أحدهم غيّر تسريحة شعره فجعله واقفاً كالإبر مسربلاً بمصفف الشعر (الجلّ)، لأن الحمقاء التي أحبها قالت له أحبه قنفوذياً، ولا يعجبني شكلك الكلاسيكي، وشبيه له تعلم لعبة (الببجي) من شبيهة لها، وشبيه

ثالث لهم، كاد أن يصبأ عن جيبه ويلتحق بطيش أبيه لأنها قالت له: أنها - من فرط حبها وحنانها الفطري الذي تحاول أن تتخلص منه - سوف تقص أظافر رجليه من هول التذلل والتبعل!

فمن يزعم أن الرجال ينفردون بالتغيرات الجغرافية في أجساد النساء أو سلوكهن؟ الحق أنهن يغيرن فيهم كما يغيرون فيهن، والحسنة الجميلة في كل هذا الأمر، هو انحسار حجم الكروش حتى حين طبعاً، وقد أحزنني مرة تحسر أحدهم أنه لا يستطيع تعلم رقصة التانغو!

أفياء القبلة

لماذا اهتدى البشر إلى قبلة الشفاه خاصة؟ ما هي رمزية الفم هنا؟ هل لأنه حبُّ البقاء منذ الطفولة والتعرف إلى الوجود؟ فالطفل يضع في فمه كل شيء يمسكه ليكتشفه، فهل القبلة اكتشاف؟

أو هل لأن الفم مصدر التعبير عن المشاعر، فكأن الإنسان لا يشفي غليله إلا أن يجمع المصدرين المعبرين بعضهما ببعض ليطوِيَ المسافة التي كان يقطعها الكلام بينهما؟ كان الكلام ينقل مشاعرهما ويتواصلان به، فلما عجز عن ذلك، استعاضا عنه بتمازج الأفواه الشاعرة فتلاشت المسافة.

والشفتان هي المحطة الأخيرة التي يمسها المعنى حين يغادرهما الكلام، فحين يلتقمهما حبيب، تكونان محطته الأولى التي يمسها في طريقه إلى حبيبه، فهما مجمع النهايات والبدايات.

وشكل الشفاه يشبه العروة، فلعل الإنسان وجد فيها خير جارحةٍ ليوثِقَ الآخر إليه حين يقبله، وانحناء الشفتين وتكورهما في هرمزية الكون كله لأن التكوير سمته والانحناءات خطوطه، وقد نجد فيهما استدارة الأفق حيث الاتساع والإحاطة، فكأن الاتصال بهما اتصال بأصل الكون الفسيح، فهما

بوابة إلى اللانهاية، وهل ثمة بوابةٌ أفضل منهما لندخل فيمن نحب بلا نهاية ونضيع فيه؟.

والشفتان حين تنطبقان، تغلقان الفم المعبر فتحجبان كل ما فيه، وفي هذا جفاء بعيد، فكأن المحبين إذ تتلاقى شفتاهما يدكان تلك الأبواب ويحيلانها طريقاً متصلاً بين جسديهما وروحيهما.

ولا كلام إن لم تتحرك الشفتان فتصنعا الحروف، فكأن الحبيبين يعلنان أنه ليس وقت الكلام فلْينخرسْ، إنه وقت الصمت المتحدث ولا حديث له إلا بلغة قبلةٍ من جهات الشفاه الأربعة، ولعل مصداق هذا كله في الأثافي الثلاثة التي تتواصل بها الأوراح المحبة: الشفاه واللسان والعينان. ولا أرى قبلة الشفتين ممارسة مادية غريزية بحتة، ففي نفختيهما المادية نفخة غيب أي شيء من الروح، أي إنك لن تستطيع أن تقبل أحداً لا تحبه تلك القبلة الشِّفاهية، فقد تتحطم الأجساد بعضها على بعض في كل الممارسات الجسدية الأخرى تحت ضرورات كثيرة فلا يُكشف زيفها إلا القبلة، فزيفها مفضوح، لأنها من أمر الروح.

ناس استثناء من الناس

بعض الناس، استثناءٌ من الناس، يمرون بك أو تمرّ بهم على قَدَر، أعمالهم أبلغ من ألسنتهم، يزدان بها الواقع، وتكون منارات يهتدي بها المترددون أو الخائفون أو التائهون!.

وأي شيء أعظم من وجود مثال حي، يصنعه إنسانٌ من نفسه، فيكون أسوة لغيره، إنه آية من آيات الله بلا شك. ولكن قلّ من ينتقل من عالم أمره إلى عالم خلقه، ليكون ترجماناً أميناً لأمر الله يوم قال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 96/ 1]. فكم قرأنا وقرأنا، فهل خلقنا مما نقرؤه شيئاً جديداً، يدل على اسم الله الخالق الأكرم؟!.

أشعر بامتنان كبير لهؤلاء، لمن تعلمت منهم، وأبتسم في وجه الأقدار التي جمعَتْني بهم في طريق من طرق هذه الحياة المسبّحة، أظنهم قلّة قليلة، يعملون بصمت، ويتحدثون قليلاً، ولن تكتشفهم وتعرف سرَّهم ما لم تعِ الواقع الذي فيه يعملون ويصلحون، ولكم تدعو بصدق لهم، عندما تتذكرهم، لأنهم - بحق - أضافوا أعماراً إلى عمرك، وجعلوا بصرك حديداً، فأبصرت من خلالهم طريقك جيداً، حينها لن يكون دعاؤك تكلفاً أو مجاملة أو روتيناً، بل سيكون نتيجة حتمية لما امتلأت به نفسك، ففاضت، ما أحوج الأنفس والآفاق لمثل هؤلاء. 23 ديسمبر 2015.

حاملو حلمٍ وجوابو فصول

ذهب الوطن منذ زمن، ولم يبقَ إلا ذلّ العبيد وحنين الهاربين من الخوف أو الجوع. كنت أظن الغربة أن تعيش خارج الوطن، لكن الغربة ألا تجد وطنك حين تحتاج إليه، أن تشعر أن خنجراً في ظهرك، فلا تستطيع أن تستند إليه، أن تخاف منه أو تجوع فيه، أن تصانع أوطان الآخرين لكي تبقى غريباً بينهم، لأن وطنك مقتول قاتل، تتفجر فيه الدماء والدموع.

واحسرتاه على الأوطان والإنسان، أسماء لا مسميات لها، وها نحن أولاء نتشظى كمرقعة المتسول على بوابات هذا العالم، أفئدتنا هواء، تَشْخص إلى أي رمق يمسك علينا بقية حياتنا وأماننا وآمالنا.

ما أثقل حمل النفس في هذا العصر المُرّ، وما أصعب قلّة الحيلة وأنت تخشى أن تنقل هذه التركة الثقيلة لمن خلفك ليشقى بها كما أشقاك من تركها لك.

[بين أشواق انتظاراتٍ، وخوف، وأفولْ،
كلما داست على الماضي الخيول،
سألتنا الريح من أنتم،
أجبنا: حاملو حلم وجوابو فصول][1].
حاملو حلمٍ وجوابو فصول!.
16 يوليو 2019

يا أنتما، مصباح روحي أنتما

ينسابُ صوتـكِ، كالأحـلام، كالأنغـام، في نفـسي، يـا لهـفَ نفـسي! فأضيـعُ، أضيعُ بين حنين وحنـان، وأطير بجناحينِ من ثقةٍ وأمـل في فضـاءات الطموح، أبـوسُ سنـاءَ أنجمهـا، طموحـاتي.

وأزفّ لهـا بـشرى قدومـي، قـادمٌ أنـا، وإن طـال الأسـى. صوتُـكِ كنسـمةِ الفجـر الطهـور، تنعشُ أرواح المشّـائين في الظـلام، ومـا أحلى الظلام!. صوتُكِ كبسـمةَ الطفـل البريئةِ، تثير القلـوبَ ابتسـاماً فابتسـام. صوتُكِ كتمتمـة الجداول في الحقـول، تضمّهـا الشـجيرات الصغـيرة. صوتـك، يـا صوتـكِ، مـا صوتـك؟ حتـى إذا ابتسـمت حـروفُ روحـي، تكسّرَ الدمـع غزيـراً في عيـوني، مثـل دمـعٍ آخـرَ، مـن كل عـينٍ في بـلادي، مثـل نـزفٍ هـادرٍ، مـن كل قلـبٍ في بـلادي، وآهٍ يـا بـلادي.

الدمعُ يخجـل، إن بـكاكِ، يـا بـلادي، والحـزنُ مذهـولٌ، كيـف يحزن، يـا بلادي. يـا بـلادي، يـا فـؤاداً في فـؤادي، [ويحَ نفسي، أين أنـتِ، ومَـن أنـادي؟!][2].

---

(1) مقطع من قصيدة ثلاثيات المنافي، للشاعر العراقي عماد جبار.

(2) للسياب.

يا بلادي، ما ضحكتُ، يا بلادي، مرةً، حتى ادّكرتُ، وشيّعتني دمعةٌ حرّى، تكوي فؤادي، وكأن الحزنَ استعار كل شيءٍ كي يظلَّ القلب محزوناً يُنادي: يا بلادي وتظل العين تبكي وتنادي: يا بلادي. ويظل الحرف مكسوراً ينادي: يا بلادي، يا فؤاداً لفؤادي، أين أنتِ، ومَن أنادي.

13 يونيو 2012.

نهوض الحضارات وسقوطها

كنا أيام الدراسة الجامعية في دمشق، نشدُّ الرحال إلى كل خطيب جمعةٍ، نسمع عن بلاغته وجاذبية مواضيعه، التي تعجب عقل الطالب الجامعي وتخرج على روتين خطباء المنابر.

كنا نذهب قبل الصلاة بساعة ونبذل جهداً في ذلك، وكان لنا صديق مشاكس خارج على كل هذه الاعتبارات، يصلي الجمعة في مسجد الحي، ويذهب قبل الخطبة بدقائق، وينقضي الأمر بكل يسر.

أغريناه مرة ليذهب معنا إلى خطيبنا الأثير، وحشدنا له من الترغيبات حشداً كبيراً، إذ كان الخطيب يعالج موضوعاً جميلاً ذا حلقات متسلسلة اسمه: نهوض الحضارات وسقوطها، ولكنه حادَ عن تلك السلسلة في الجمعة التي أخذنا فيها صديقنا معنا، وخطب عن الزهد في الدنيا والتقلل من الأكل، والخطيب من تجار دمشق، بادي النعمة، ومسجده في حيٍّ راقٍ، جهير الصوت، عظيم البطن، عريض الجسم والوجه، أبيضه، يحمر إن غضب.

خرجنا من الخطبة، ونحن متوجِّسون لما نعرفه من الذي ينتظرنا من صديقنا المشاكس، قال لنا: [بالله انتو جايبيني على واحد يخطب عن الأكل ويقول لنا: لا تاكلون، واحنا أصلاً فاطسين من الجوع!]. وظلَّ يتهكم علينا

طوال الطريق. الخلاصة: إن الخطباء التجار لا يصلحون للطلاب المتوفين الذين يتغذون على الفلافل والبطاطا.

بين فناء وبقاء

قمة الحرية ألا تتوقع شيئاً من أحد، فاقتصد في ظنونك الطيبة إلا بمن أمره بين الكاف والنون. فإن قيل: إن ذلك محال، فالنفس مجبولة على التعلق بما يملأ حواسها. أقول: ذلك صحيح، ولكن على قدر تحررك منه، تزيد حريتك، وتوثبك، ويقل ألمك. إذ كلما امتدت شرايينك وراء جسدك، كان تعرضك للجوع والعطالة أكثر. إنهم إن كانوا مصدر قوتك، ضعفت إن بخلوا أو جفوا أو قسَوا، وهل يوجد إنسان لا تتعاور عليه هذه الحالات؟. لا، كلنا كذلك، ولكن شتان ما بين حالة عارضة، وصفة رابضة، الأولى شيمتها الفناء، وأما الثانية شيمتها البقاء، الأولى تصنع جدليةً تجعل للحياة معنىً عميقاً، إذ لا أجمل من الرضا بعد الغضب، ومن الحنو بعد القسوة، ومن الاعتذار بعد الخطأ، ومن التوبة بعد الذنب. أما الثانية، فهي قهر مستمر، يجعل الحياة جحيماً، ويقصم ودَّ القلوب فلا ينجبر، ونعوذ بالله من قلب لا يلين، ومن عين لا تدمع، ومن لسان لا يطيب. 1 أغسطس 2015.

مذكرات عابر

يقول محدثاً نفسه، متفكراً في الإبداع: إن عدم التقيد بشيء لا يقل خطورة عن التقيد بشيء، فأن تبدع ضمن قيود فهذا شيء عظيم، وأن تبدع بلا قيود فهذا شيء عظيم أيضاً، والذوق معيار ولا يشترط أن يكون مدرسياً، فأحياناً يفسد الاطّلاعُ الذوقَ، والحديث ذو شجون وعيون ومتون إن تعلق بالأدب أو المرأة، وللأسف: السياسة، لكن شتان بين حديث في الجمال وحديث عن

القبح، والسياسة في الثاني، والأدب في الأول، والمرأة قد تكون هنا أو هناك حسب طول شعرها.

ثم يسأل نفسه مرة أخرى: ماذا تظن أيها الأديب المتفكر أو المفكر المتأدب الشعوبيّ؟ أظن أن من لا يحسن سبر المرأة ليس مفكراً أو أديباً؛ لأن المرأة مخلوق كمومي[1] لا يهادن منطقكم الرجولي، ولو خلا أدبكم منها لما بقي منه إلا وصف امرئ القيس لحصانه، والمثقب العبدي لناقته، وبعض حِكم زهير، وهجائيات الحطيئة وجرير والفرزدق، وفخر المتنبي وخمريات أبي نواس.

كان سينقرض عمر بن أبي ربيعة، وجميل بثينة، وكثير عزة، وقيسا ليلى ولبنى، ومرقش أسماء، وأحنف فوز، سينقرض الأدب العربي جلّه ولن تبقى لكم إلا البسوس وداحس والغبراء، ولولا وعد الله لكم بحور الجنة لما آمن إلا قليلكم، لكن الله رحمكم بوعد الحور العين، وكفكف جزعكم بحور الطين حتى حين، ثم يعقب: إذن ليس فينا مفكر ولا أديب !.

ثم يجيب مستشيرَهُ:

من يهجرك فقد أعانك على نسيانه، فلا تكترث لمن لم يتعب نفسه فيك، وقد يكون محقاً في بعض ما يقول، لكن الأحق أنه لو كان صديقك بحق، لو كان يريد قربك بحق، لطاف بلدان الفكر والتجارب والمفاهيم ليفهمك فلربما هو مخطئ، أو ليعالجك فلربما أنت مريض، أو ليتفهم ظرفك فلربما هو صعب، كل ما في الأمر أنه يبحث عن الذي له فيك، ولم يفكر في تقديم الذي لك فيه. وهذا الصنف من الناس، محترف في إقناع نفسه بعدم الجدوى مع الآخرين الذين لا يوافقون حاجته تماماً. إنه يبحث عن أناس بعيوب

---

(1) استوحيت هذه الصفة من نظرية الكم أو الكوانتم التي تصف سلوك الجزئيات الصغيرة وتفسره؛ كالذرات والإلكترونات والفوتونات، فسلوك الإلكترون سلوك احتمالي متذبذب غير متعين لا يمكن رصده وكذلك سلوك المرأة!.

أخرى لا تمسُّ أمنه من هذه الناحية، لأنه لن يوجد أحد بلا عيوب، هذا رأيي في مشكلتك، وأعلم أنه لن يقنعك!. 25 أكتوبر 2014.

موتٌ صديقٌ

هناك عصرة لحزن غريب عندما تفارق شاباً ثم تراه وقد قال الزمان كلمته فيه، وجهاً تتقاسمه الأخاديد والإجهاد، وشعراً غار لونه، وعينين مطفئتين توشكان أن تغيبا، وصوتاً يتعكز على تضاؤله. إنه حزن الوجود الذي ينبئنا كل شهقة وزفرة أننا ننقص وننقص، وأننا نمشي كل يوم إلى الضعف أو المرض. رأيت وجوهاً كثيرة بعد محنة سورية فخشعت لجبروت الزمن ومحنه، وفي القلب غصة الدمع الذي لا يفيض فيرتاح. إنها هيبة النهايات، التي يوجل منها القلب.

لا أحبُّ أن أراني وقد استبق أيامي ذلك التطبيق الشيخوخي[1]، وأملي أن أظل شاباً في ذاكرتي وفي ذاكرة الناس، لذا آمل أن ينقذني موتٌ صديقٌ من ذلك المصير المحزن.. لا أدري أهو شعور عام أن يشعر كل الإنسان أنه سيموت شاباً؟ كنوع من حبِّ البقاء هنا، أم أنني أشذّ مع قلة بهذا الشعور! 15 يوليو 2019.

مخاطر على طريق السفر

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 2/ 155-157].

---

(1) انتشر يومها تطبيق إلكتروني على منصات التواصل يتنبأ بملامحك عندما تشيخ، فيريك كيف ستكون صورتك!.

إن من الخوف والجوع ما سماه القرآن مصيبة، أتت مع ابتلاء نقص الأموال والأنفس والثمرات، فهل خطر على بالك إن خفت من شيء أو جعت من سببٍ قاهرٍ، أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؟

فما الذي يضاد ذلك؟ الأمن يضاد الخوف، والشبع يضاد الجوع، وفي نقص الأنفس معنى غير الموت، أراه في الغربة أو الهجرة، لأنك تنقص من أهلك وتفقد الأمان الذي تحسه في سربك، وفي نقصها أيضاً معنى المرض لأنك تنقص عندما تمرض ويعتل شيء من جسدك، لذلك جدير بمحمد بن عبد الله ﷺ أن يقول: «من أصبح منكم آمناً في سربه (لا خوف، ولا نقص في الأنفس من فراق أحبابها)، معافىً في جسده (لا نقص في الأنفس من مرضها)، عنده قوت يومه (لا جوع)، فكأنما حيزت له الدنيا بأسرها».

لأن أصل ابتلاءات الدنيا الكبرى هي هذه، وهي التي ذكرتها الآية!. وهي جماع ابتلاءات معنوية ومادية، فالخوف معنوي والجوع مادي، ونقص الأنفس قد يكون مادياً بالمرض ومعنوياً بفراق الأحبة من غربة أو موت.

لكن الذي يثير تساؤلي وصف الصابرين بشيء قوليّ محدد: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقد لا يقول الإنسان هذا عند المصيبة ويبقى صابراً، وقد يقوله وهو ليس من الصبر في شيء، فقد لا يصدق قول اللسان على ما في القلب واليد من شعور أو عمل. لكن يبدو أن هذه الجملة عند المصيبة لن تخرج إلا عن شعور حق! لذلك فإنها تعدل العمل، كالشيك الورقي الذي ليس له قيمة من حيث مادته فهو محض حبر وورق، لكنه يعدل أموالاً طائلة عند المصرف، والله أعلم.

زمن الغربة الكبيرة والبلادة الكبيرة

في غير هذا العصر، كان الفراق فراقاً، كان الاتصال الهاتفي بأهل أو صديق، أو الرسالة الورقية، يطميان طمياً من شدة الشوق الصادق واللهفة العارمة، يتسع الفم ويضيق الوقت عن مجاراة المشاعر وهي تتحدر إلى أحبابها على الضفة الأخرى من ضفاف الزمان والمكان، وينتهي الاتصال أو تمتلئ الورقة وفي القلب كثيرٌ لم يسعفه قدر ليظهر.

أما في هذا العصر فتفصلك عن أهلك وأصدقائك سنوات وسنوات، لكنك متخم بحضورهم في الشاشات، إذ قضى هذا اللقاء الوهمي الكثيف على لهفة الانتظار، والاحتفاء بالكلمة، واستنفد طاقة الروح، فتعرَّت الكلمات من وجه صاحبها وبريق عينيه، أو تقطب جبينه وحاجبيه، أو رعشة صوته، ومعنى يديه، فتقاصرت الحياة إلى بُعدين، واختزلت المشاعر في وجوه مصطنعة ليس لها من حقيقة الشعور إلا كما للصورة من حقيقة صاحبها، حقّاً لقد تسطح الإنسان كما تسطحت هذه الشاشات، واختزل إلى أفقر ما يمكن، فهيهات أن يجمّع حقيقته قلب أو خيال، هذا زمن الغربة الكبيرة والبلادة الكبيرة. 27 مايو 2018.

***

في هذا العصر البائس، قد نُزِعَ الروحُ من كل شيء في سوق التفاخر والتكاثر، صار الحبّ ليس نظرة صادقة أو جملة حارقة أو فعلاً أميناً بين اثنين متحابّين، بل حدثاً معلناً لا بد أن يعلن عنه في أي منصة واقعية أو افتراضية، صار عبئاً لا دفئاً، صار كذباً، يهمه أعين المارة لا قلوب أهله، صار يقاس بكم أهديتني وبكم كتبت عني وبكم خضعت لي خضوعاً يمحق

حتى كينونتك، وقد كان سابقاً لا يخلو من ذلك، لكن الفارق أن المحبَّ كان يهدي ويعطي ويخضع عن إرادة حرة مبادِرة لا عن ردَّة فعل مقهورة بتسلط الآخر وأنانيته.

***

أحنُّ إلى زمن الوصل، يوم كانت الكلمة، الكلمة الواحدة تتكوثر في القلب كلمات وكلمات وكلمات، كأن القلب موشور يتضخم المعنى فيه فيرتد ألواناً كثيرة، أحن إلى زمن الثواني، والدقائق، يوم لا يفلت حرف من قبضة الروح فهي ترتعش به كخصر رشيق يتلوى على حضن لحن سحيق.

أحنُّ إلى زمن الخصب، والمطر، والدفء، والعناق الشاهق تتكسر الأماني من سفوحه بلا قرار. هذا زمن مقفر، موصد العتبات، تصطف فيه الكلمات في الظلماء على عتبة الانتظار بلا نور، هذا زمن تجفُّ فيه الروح وتتصدع لتهوي في تفطراتها الابتسامات فلا تعود، هذا زمنُ بؤس الحرف والمعنى، زمنُ الكتابة بلا أمل، زمنُ هدر القلب على قارعة الطريق، وقد راح الصديق.

***

رسائل الواتس آب خاصة، هزيمة ماحقة للإنسان. أخص الرسائل الطويلة المملة المكررة المنسوخة نسخاً ككراتين الببسي، تتشابه كتشابه الزي الموحَّد في معسكرات الاعتقال، بلا روح، بلا خصوصية، كأنها أغصان شجرة مات أصلها منذ زمن بعيد، فلم يبقَ إلا رسمها صلداً، تنظر إلى معاني الحياة فيها فلا تجد إلا ذكريات شاحبة لحياة ميتة كانت هنا ذات يوم. إن وسائل التواصل تثبت كل لحظة أنها مقتلة التواصل!.

تجد الواحد يرشق عشرات الأسماء أو مئاتها، الأحياء منهم والأموات بركام من الحروف الحجارة. ويعرف كل واحد أن رسالته بلا هوية، ولكنه لا يجد حرجاً في رشقها على قائمة أسمائه، فالعجز الروحي يتقهقر كل لحظة أمام جبروت المادة بمنتجاتها الرهيبة التي خشّبت المشاعر، وحوّلتها إلى بضعة أزرار وأيقونات تلهث لكي تحاكي الحقيقية وهيهات!. ولم أجد حرجاً أن أتجاهل هذا النوع من الرسائل، إلا الذين أعرف أنهم يقصدونني أنا، كمسمى موجود في الواقع له في قلوبهم شيء، لا كاسم في قائمة هواتفهم. 24 سبتمبر 2015.

متلازمة السائق التركي النحيف

في الدقائق الأخيرة قبيل مغادرتي إسطنبول، أقلّني إلى المطار ذلك السائقُ التركي النحيف بسيارته المجهدة، التي تشبه صاحبها، وهو من قوم أوبر، الذين يُفترض بهم أن يتحروا اللباقة والنظافة في أنفسهم وسياراتهم ليحظوا برضا الزبون، وبتقييم جيد وسمعة طيبة، فالتطبيقات اليوم لا ترحم، ويوشك أن تكون مثالاً يقرب إليك عمل الملكين الذين يحصيان عليك كل شيء، فلن يمرَّ شيء بسهولة في عالم اليوم.

على أني لم أتوقع شيئاً كبيراً، وليس في نفسي أي أثارة من لوم أو نقد، فأنا جديد عهد بكل هذا الترف، ولأنني أحترم عرق هؤلاء الناس المجهدين الذين تغسلهم الشمس غسلاً لينالوا رزقهم القليل، ولن يحجبني عن جمالهم تلك الفوضى التي تحيط بهم وبسياراتهم؛ لكن يلفتني ذوق السائق الموسيقي وأراه من أمارات الاهتمام بزبونه، ولكن ماذا سيخطر على بال سائق تركي يقلّ راكباً سورياً؟! فهل سيسمعني لحناً تركياً بليغاً كألحان عمر فاروق؟! إذ لم يجمعنا إلا كلمات فقيرة، مشوهة، وصمت طويل أشيع به مشاهدي الأخيرة إلى تلك المدينة الكبيرة.

الذي عجبت له أن أغنيته التي كان يسمعها على مرأى أذنيّ وعينيّ، لا تتكون إلا من جملتين اثنتين، وتعاد وتعاد وتعاد كما هي، ولا تزال تهوي من حالقٍ في مسمعي حتى الآن! فقد استمرت هذه السيمفونية التعذيبية نصف ساعة ويزيد؛ جملتان سريعتان شرستان، كأنهما صراخ مراهقةٍ عدوانية، شعرها ينتهي عند شحمتي أذنيها، تغنيهما فوق جثة خجلٍ تسربلَ به شاب مسكين لاطَفَها كأولِ محاولةٍ له يختبر بها قدرته على القرب، وهو يظن أنها من عالم الإناث فبطشت به، وجعلته يتبخر خلف الجماهير المحتشدة، ويتوب توبة نصوحاً.

عجبتُ كيف يسمعها بكل ذلك الإصرار ولا ينوي أن يغيرها قيد شعرة، ألا يمل؟! وقد حاولت أن أربّت على قلبي من هول الإزعاج، وأسائله؛ بأنه لا يختلف كثيراً عن هذا السائق المحنط، فأنا قد أسمع الأغنية أياماً متتالية بلا كلل، وكأنني اشتريتها بغالٍ فأريد أن أستوفيه منها، لكنني كنت أدمن على أغنية مترامية الأطراف، تتنقل بين موسيقى وكلمات لا جملتين اثنتين مشعوذتين، حتى وقع لي ما وقع للسائق التركي في جملة قيصرية كاظمية، وأصابتني متلازمة السائق التركي النحيف!.

فلمَ العجب إذن؟ فكلنا مجانين لكن قد تختلف النكهات، لكن أتدري ما الأعجب في كل هذا الكلام؟ أنني كتبت لك كل هذه الجريدة لأقول جملة واحدة: إنني منذ يومين وأنا أسمع هذه الجملة لكاظم بلا توقف إلا ما تقتضيه ضرورات الحياة وأشغالها، يبدو أن برجي وبرج هذه الأغنية متوافقان وقد التقيا في برج ثالث لا أدري ما هو، لعله برج الحلزون الكئيب!.

مصطلح (متلازمة) Syndrome مصطلح طبي يعني جملة أعراض وعلامات إن اجتمعت معاً، أصبحت المتلازمة الفلانية. فما هي أعراض وعلامات متلازمة الرجل التركي النحيف الذي ينقل الناس إلى المطار؟

سيارة صفراء قديمة، عطرها عطر المقاعد المكتوية بالشمس، قليل من الغبار، وجثث سجائر، وأغنية صاخبة من جملتين اثنتين سريعتين شرستين متكررتين، وسائق نحيف ذو لحية خفيفة وأنف معقوف، مدمن عليها لمدة نصف ساعة ويزيد.

ما أكثر الأقلام والأوهام!

قلم يكتب عن الثورة والتغيير، ويتورط في جغرافية الزمان والمكان والأنفس، وكل زاده خيالات عن أرض غريبة لم يطأها، ويتمنى بمشاعره على الواقع لكي يتشكل أو يتبدل، ولعل دماءً سالت أو دموعاً لأنها صدقته. فما أجمل التنظير بلا تجارب، إنه يشبه أن تقود طائرة أو تدخل معركة في لعبة إلكترونية: جسدك ومشاعرك في مأمن من أي خسارة أو ألم، ما دمت تجلس من وراء شاشة أو ورقة، ترصف الكلمات والجمل بلا حساب، وتصطخب البطولات في نفسك، ومشاعر الجدارة والإقدام والامتياز، وتنتفخ بمرآى المعجبين الأغرار على باب بيانك، ولا تدري كم ابتسامة ساخرة من خبيرٍ لمعت في ظلام صمتها وهي تمر بك لم يمنعها عنك إلا مللها من كل شيء، ولعلك ستكون أول الساخرين منك بعد حين، والناجين من سخافتك. ما أكثر الأقلام والأوهام! 23/ فبراير/ 2020

مدرسة المرض الاجتماعية

لَكَم يطربني هذا المصطلح (Pathogensis) من علم الأمراض (Pathology)، وهذه اللاحقة (-gensis).. قِفْ عندها جيداً، فهي تعني التكون أو التشكل، وأنا أسميه (التخلق)؛ أي كيف يتكون المرض، كيف يتخلق، وتعريب هذا المصطلح: الإمراضيّة، وهو شيء مختلف عن سبب نشوء المرض، الذي يناقشه

مصطلح آخر (Etiology)؛ السببيات أو علم الأسباب، وهو جواب عن: لماذا، بينما الإمراضية جواب عن كيف؟ أي كيف يتكون المرض؟ وما هي الخطوات والعلاقات التي تتشابك فتنتجه بهذا المظهر وبهذا السلوك؟ أي ما يسمى بالمصطلح الطبي، الأعراض والعلامات (Signs and Symptoms). والعرض: كل ما لا يدركه الطبيب بل يخبر عنه المريض؛ أي هو ذاتي (Subjective) كالألم، بينما العلامة هي ما يراه الطبيب أي موضوعي (Objective) كالنزيف. وأرى أن السببية مندرجة تحت الإمراضية، وهي فرع عنها.

فماذا بعد هذه المقدمة الطبية؟

إن العلم بإمراضية مرض ما، هو العامل الحاسم في علاجه، أي كيف تخلق؟ وما هي شبكة العلاقات والمنظومات التي يعمل بها لينجح؟ فإن علمنا بها استطعنا أن نقضي فيها فنمنعها، وكورونا مثلاً عامل حي على ذلك، فالتخبط فيه لأنه مرض جديد ولم تكتمل الخارطة الفهمية عن إمراضيته، فهو يفاجئنا في كل حين بتكتيك جديد!.

لكنني أريد أن أمد مصطلح الإمراضية إلى الحياة كلها، فالسنن واحدة، وأمراض المجتمع والمؤسسات تجري على سنن مرض الجسد، وإنك لن تستطيع أن تعالج منظومة فاسدة ما لم تعلم إمراضيتها وكيف تخلقت، لتعرف أين تضع مبضعك، فتقطع الشرايين التي تغذيها، وتستأصل الأجزاء السرطانية منها.

المحزن أن الذين يزعمون أنهم ذوو صلاح ومشاريع خيرة للناس، لا يعون هذه الأمور، ويجابهونها بالعواطف والنيات الحسنة، والخطابات، لا بالكفاءات والخبرات والعلوم والذكاء، ولدينا مناهج تربوية متعفنة تصنع بشراً بهذه السذاجة!.

نموذج للتعايش السليم، والتأثر الحضاري الإيجابي

يتجاور في السن أربعة أنسجة متغايرة؛ ميناء/ Enamel، وعاج/ Dentin، وملاط/ Cementum ولب/ Pulp، فيه أعصاب ودم وخلق كثير. إن الخلايا التي تكوّن الميناء (Ameloblast)، تحرّض الخلايا التي تكوّن العاج (Odontoblast)، لتبدأ بتكوين العاج، ثم يحفز النسيج العاجي المتكون حديثاً خلايا الميناء لتبدأ بتكوين الميناء. إن تأثر خلايا العاج بخلايا الميناء السابقة عليها بالنضج، لم يجعلها تنتج الميناء، بل بقيت وفية لوظيفتها وهدفِ وجودها، فأفرزت النسيج الذي يمثلها وهو العاج، كما أن تأثر خلايا الميناء بالنسيج العاجي ومجاورتها له، لم يجعلها تنسلب لسبقه فتنتج مثله، بل أنتجت نسيجها الخاص بها وهو الميناء، لم تغير شخصيتها بذريعة السبق الحضاري أو التجاور، إنما جعلت من التجاور والاختلاف محفزاً لتكون هي، بلا عدوان على المخالف.

وثمة ملمح لطيف آخر في المذهب السني المتسامح؛ وهو أن الخير الذي تصنعه قد يصنعك، فخلايا الميناء التي حفّزت خلايا العاج على الإنتاج، عادت لتتأثر بذلك الإنتاج لتنتج هي أيضاً.

الميناء أصلب أنسجة الجسم قاطبةً، لا يهادن لأنه أبو المعادن، لكن كسره سهلٌ جداً إن لم يستند إلى نسيج العاج المرن الذي تحته كوسادة لدنة تمتص الصدمات والرضوض، لكنه حساس لا يحتمل المؤثرات فما أسرع أن يجأر بالألم، إنِ انظلم، من باردٍ أو ساخن أو حلو، وهكذا تتكامل وظيفتهما، الأول يحمي ويقطع والثاني يدعمه ويشفع، فإن ذهب أحدهما، ذهب الآخر، إلا إذا كان هناك تدخل خارجي من مستعمر بغيض هو طبيب الأسنان.

والميناء ينقص بالعمر، والثاني يزيد بالعمر! الأول لا يصلح نفسه ولا يتجدد إن راح جزء منه، وقد سموا ذلك نبلاً! والثاني متجدد يرمم نفسه إن دهاه نخر؛ أليس في الناس مثلهما؟ من إذا أصيب لا يشفى ولا يعود، ومن يشفى ويعود، فيا له من ميناء حقود!.

ولكن هل تعلم أن العاج - رغم كل حسناته - نسيج طاغٍ أناني؟ لأنه يزيد على حساب مساحة اللُّبّ الضعيف الهشّ الذي في قلبه - قلب العاج - فكلما زاد العاج بالعمر، نقص اللب بالعمر أيضاً.

أليس في الناس مثلهما؟ من ينمو ويكبر على حساب غيره؟ ولكن لا تصدق ذلك في السِّن، لأن كل ذلك يحدث بانتظام لحفظ النظام، أما في البشر فهم وحوش يأكل بعضهم بعضاً، وهيهات أن يأخذوا من تسامح المذهب السني: تعايشه وحسن تجاوره وتكامله.

ينقص الميناء في الأعلى لكن الملاط في الأسفل يزيد ليعوض النقص في طول السن، ليبقى فكّاك - أيها الإنسان المتعجرف - مستقرين قدر الإمكان، حتى إذا زال الإمكان انخسف الجزء السفلي من وجهك، ولن يصلحه إلا ذلك المستعمر الخارجي، طبيب الأسنان بطقم أسنان أو بحراثة عظم فكيك ليزرع فيه ويأخذ الحصاد هو، أما أنت فتحصد مزيداً من التمتع بالطعام، وتكمل الحياة بوجه مصفّح بالزرعات والإسمنت المسلح وقد يزيد عليها الفلين والكرتون والرمل والمطاط التي سموها البوتكس والفيلر والسليكون!.

يجب أن يكرهك بعض الناس!

أن يحبك كل الناس فهذا ليس مؤشراً جيداً، فلْنقُل أنك إنسان خيّر، فأين نصيبك من كره الأشرار والحسّاد الذين يضيقون بالخير كما يضيق

الصدر بهباب الفحم. إن الغبي يرى في الذكي تحدياً له وعدواناً عليه. إن الفاشل يرى في الناجح تهديداً له، إن المقلّد السطحي يرى في المجدد العميق شرّاً وإفساداً للحياة، وكم من دميم ذمَّ جميلاً كل ذنبه أنه جميل، يزيد وضوح الدمامة في الاشمئزاز منها.

مهما كنت فلن تبقى سالماً، فإن اجتمعت عليك قلوب كل الناس، فاعلم أنك لست واضحا أو حاسماً بما فيه الكافية، فالأشرار والأخيار، والفجار والأبرار، كالليل والنهار، إن هيمن أحدهما على جهة، فسيكون الآخر في الجهة الأخرى.

سيئاتُ بعض الآلام حسنات أخرى

لكل طورٍ من الحياة أو تجربةٍ ألـمُها، ولكَم نحتاج إلى الاعتذار إلى ألم مضى، لأن ألماً قد تلاه ففاقه، ثم صيّرَهُ نعمةً خالصة تستوجب الشكر!. ألا يعلمك هذا أن تسعد بكل لحظة من حياتك، أو تقنع، مهما كانت فسحتها ضيقة؟ فما يدريك لعلك مهما اجتهدت فلن تكون سيرتك إلا رحلة بين محطات ذات ألم متصاعد، كل ألم يصيّر سلفَهَ نعمةً. وددتُ لو قلت لك كلاماً يهدهد أمانيك الجميلة، لكن الطغاة لم يتركوا لنا خياراً إلا الفرار بعيداً من كل شيء، وقد عزّ حتى الفرار على كثيرين منا، فلم يجد إلا الموت ملاذاً آمناً لهم. لعل العزاء الوحيد هنا، أنها رحلة قصيرة مهما طالت، وجزؤها الثاني ليس ملكاً لهم، ليصنعوا مصيرنا مرة أخرى. 18/ فبراير/ 2020

ما ملأ ابن آدم وعاء قط، شرّاً من قلبه!

لقد نظر الإرهاق في نفوس الناس، فلم يجد خيراً من نفس مزاجي

ليتمثل بها. إنه كطقس مراهق لا يحكمه ناموس. ولقد رحم الله خلقه يوم لم يجعل لسنته تبديلاً أو تحويلاً، فعرفوا كيف يسخرونها، لكنه أراد أن نقدّر ثبات هذه النعمة، فخلق النفس المزاجية مثلاً نقارن غيرها بها، عندما يمسنا إشقاؤها، فنحمد الله على ما أثبت.

وأكثر الحالات التي أتمنى فيها أن أعتزل الناس في كهف أو على جزيرة نائية، هي تلك الحالات التي يتلوى فيها قلبي من مزاجيٍّ جعلتُ له مكانة فيه، لأنني لا أحتمل الخصومة، وأكره الجفاء، وما حكمني يوم قلت: ما ملأ ابن آدم وعاء قط، شرّاً من قلبه، فلا محنة أكبر من محنة قلبك يوم يحتمل ما ينقض ظهرك!. 7 يوليو 2016.

ليس لك براءة في الزبر إن أصبحتْ شيمتك القهر

إن لم تأخذ من الشمس دفئَها، فخُذْ وضوحَها، فإن لم تحنُ على الآخرين، فلا تتعبْ ظنونهم. أَعِنْ كل من يهمك أمره أو لا يهمك على حسن الظن بك، أو التماس العذر لك، لماذا تتركه فريسةً للظنون تستبد به، وتنزف أفكاره مشاعره؟

لا يوجد عذر أمام من يستطيع أن يزيح جبلاً من الإرهاق أو الغضب بكلمة، إلا عذر قسوته، وقدرته على الجفاء، وقهر الآخرين، الذين - كل ذنبهم - أنهم جعلوا له مكاناً شاهقاً في قلوبهم. أقول لكل من غرّه رصيده في قلوب الآخرين: حذار، إنك تقطع شرايينها التي تتصل بك، وسيغرقك نزيفها، فلا تعود تنبض بك، فليس لك براءة في الزبر إن أصبحت شيمتك القهر.

الرحيل

ليس الرحيل أن يرحلوا أو يموتوا، الرحيل أن يبقوا بقربك، لكنك لا تشعر بهم، أو يشعروا بك. الرحيل أن تلتقوا، تتحدثوا، ويصبح الأمر طبيعياً، كأن شيئاً لم يكن. الرحيل أن تحاولوا أن تتجاهلوا كل شي وتقنعوا أنفسكم أن هذا هو الذي يجب أن يكون. الرحيل ألا تثقوا بأن الذي مضى يستحق أن يكون له مستقبل جميل. الرحيل ألا تحاول أن تلتفت إلى الوراء، فلربما توجد يدٌ تلوّح لك، أو عيونٌ يمر خيالك عبر بلور دموعها، فترسم لك قوس قزح بلون ورديّ.

الرحيل أن تتنكر لكل لحظة جميلة، أو آملة، ولا يستدير بأفق قلبك إلا الجفاء.

الرحيل الرحيل هو الذي تصبح حروفك فيه غريبة، يمرُّ بها بلا قلب، حروفك التي كانت تحلق عالياً عالياً حتى سدرة المنتهى من جنان قلوبهم، أصبحت هامدة بلا معنىً، كنداءات يردّدها الصدى، ولا يحتضنها إلا الردى.

طعم الحرف مرٌّ مرّ، والكتابة أصبحت كمبضع يشقُّ نسيج القلب فينزف حبراً، أصبحت رحلة شاقة، كمركب في عرض البحر بلا شراع، ولا ربّان، يتأمل الشاطئ البعيد، يا يتم أحلامي.

الزواج الوظيفي (التكنوقراطي)

هو أن يبحث رجل ذو قضية وتخصص عن فتاة ذات قضية وتخصص، يكمل تخصصها تخصصه.

أمثلة وتطبيقات: زواج روائي بكاتبة سيناريو (سيناريستة) أو صانعة

أفلام، ومثله المفكر فهو يحتاج إلى من يجعل أفكاره التجريدية شهادةً ذات لون وحركة، لتخرج من ضيق النخبة إلى سعة الجماهير، فكلما كان الشيء حسيّاً سهُل إدراكه، وما يوم القيامة إلا عرض شهودي لكل الغيبيات التي نختلف عليها في الدنيا ونتخاصم ونتقاتل.

زواج تاجر بذات منصب ومال ليستثمر مالها وتسهل عليه الإجراءات القانونية من منصبها، أو زواج نهم للطعام بفنانة طبخ (صنفت الأكل الشديد مهنةً، ويوجد من لا يحسن غيرها)، أو زواج هاوٍ للغات بامرأة أجنبية (فلا بدَّ له من التعديد إلى أربعة ليتقن أكثر من لغة).

زواج شاعر بجميلة شكلاً ومضموناً ليقتبس من جمالها الشكلي والروحي حروفَ شعره، يشاركه في ذلك رسام ليقبس من جمالها ألوان لوحاته. زواج فيسبوكي من تويترية أو آسكية أو انستغرامية أو واتسابية لتنشر فكره في وسائل التواصل والتفاصل والتهاوش (صنفت ذلك مهنة لأن هناك من لا يحسن سواها من الزوجين). أما من تعددت مهنه ومواهبه فهو مضطر إلى التعدد، ويؤسفني أن هذه الميزة ليست عند المرأة فعليها أن تتزوج ذا المهنة الأنسب لأبرز مواهبها، أو أن يكون من متعددي المواهب كما يُكتب على بعض الأدوات، متعدد الأغراض (multipurpose) لتغري الشاري. وكل الأمثلة السابقة يمكن عكسها، كيلا يتهمني أحد بالتحيز للرجل.

مظلمة الفيس بوك

ما رأيت مظلوماً كالفيس بوك إلا الحمار يذمه أهلوه وهم راكبوه!. لقد كان للفيسبوك أثر إيجابي كبير عليّ، غيّر في عقلي وطريقة تفكيري وعلّمني ما لم أكن أعلم. وعرّفني بشعوب وأصدقاء وثقافات وكتب وعلماء وأعلام

ومعلومات لم أكن لأعلمها لو كنت دونه، أو لربما احتجت سنينَ كثيرة لأعلمها أو لأعلم أهمية البحث عنها، فكم من شيء لا تدري عنه وُجد أمامك على غير قصد منك، فزاد في بصيرتك وخبرتك وربما غيّر طريقك كله، وإنها لنعمة خطرة أن يُزوى لك العالم كله في شاشة صغيرة تديرها في بضعة أزار وأمتار!. إن اختصار الوقت والجهد واتساع الزاوية المطلة على الآفاق عوامل حاسمة لترقي الإنسان - إن أراد - وتغيره.

هذه كلمة أبسطها على اختصار إنصافاً للفيس بوك وإخوته؛ إذ لم أرَ إلّا الذّامين له، وهم غارقون فيه وأنعم عليهم بالكثير، وأظن هذه الظاهرة الذّامة جزءاً من تركيبتنا النفسية التدينية الذرائعية، التي توجل من كل جديد وتراه باب شرّ، والعقل المسدود بالذرائع يطيب له سدّ كل شيء قبل كل شيء، ولا يرى إلا سلبيات الأشياء، ولا يخلق لنا إلا البشر المتردّدين الجبناء، من متوهّمي النقاء، الباحثين عن خير مطلق، أو مجتمع كامل ليتحركوا فيه، ناسين أن من سنن الله أن لكل شيء احتمال خير أو شرّ، كالنفس الإنسانية، وكل الوسائل حيادية والعبرة بالنفس التي تستخدمها، ولا وصاية إلا على الذين لم يبلغوا سنّ الرشد.

ما هو العالم الافتراضي حقّاً؟

لم أعُد أرى العالم الافتراضي افتراضياً، لأن الشيء يقاس بأثره الذي يغير به حياة الناس، وعالمٌ يفعل كل هذا بنا، لا يمكن رشقه بحكم عابر أو التقليل من شأنه.

العالم الافتراضي مفصل شاهق في حياة البشرية، وأظنه سيشيد علوماً متنوعة، أولها علم النفس الإلكتروني، وعلم الاجتماع الإلكتروني، وعلم اجتماع المعرفة الإلكترونية، والاقتصاد، والصداقة الإلكترونية، والحب

الإلكتروني، والأدب الإلكتروني، أو أدب الشاشة العاجل... إلخ. الأجمل في العالم الافتراضي، الفيسبوكي خاصة، أنه المعادل الموضوعي للعالم الواقعي، يفعل فعله ويفري فريه، لكل بطريقة تعاكسه مباشرة، ففي العالم الحقيقي ترى الإنسان من خارجه ثم قد تقترب منه أو لا تقترب، وللقرب حواجز ليست سهلة لا يخترقها إلا عمل أو دراسة أو مصلحة أو سياق موضوعي، وتُشرعُ لك بواباته من شكله، ولبسه، وصوته ولغة جسده، وطريقة معاملته.

أما في الافتراضي فترى الإنسان من داخله لأنه محمول على لغته المكتوبة أو المصورة، ترى فكره، عواطفه، اختياراته، مكروهاته، محبوباته، فلسفته في الحياة قاطبة، يكفيه أن ينشر صوراً لتعرف كثيراً عن شخصيته ونمط حياته، تعلم كل ذلك دون أن ترى شكله أو تسمع صوته لغةً أو جسداً، وقد تعرفه أكثر ممن يحيطه! لأنه ليس كل أحدٍ بقادر على أن يستخلص صفات الناس الواقعية، أي قد يكون ضعيفاً في الاستنباط والتحليل، لكنه يجد كل ذلك ملخصاً تلخيصاً مباشراً على لسان صاحبه، أو لسان أصابعه بالأدق. تعلمه بصمت دون أن تضطر إلى التماس المباشر معه؛ لأنه ينشر لك نفسه تحت الشمس بلا طلب، وقد تقترب منه قرباً يعرفه بك أو لا تقترب أيضاً.

ولا يقولنّ قائل: أنت تفترض الصدق هنا وإلا فالتزييف سهل في العالم الافتراضي، سأجيبه: ومن قال لك إن التزييف ليس سهلاً في العالم الواقعي؟ لكن التهديد الحقيقي هي القدرة الفائقة على الغياب بلا حساب! ولكن حتى هذه، لا أجد فيها فرقاً مهماً عن الواقع، لأن جمال العلاقات وحضورها يكون بالإدارة الحرة، فمن يغيب هنا بكبسة، سيغيب هناك - أي في الواقع - بجفوة، ولا قوة تجبر أحداً على الحضور والتواصل، سواء هنا أو هناك.

هموم سنية

إن كثرة مشكلات الأسنان من مؤشرات التخلف، فكلما قلَّ مراجعو الأسنان، فاعلم أننا على طريق التحضر.

مشكلات الأسنان كمشكلات أي آلة في العالم المتخلِّف الذي يريد منها أن تعمل بلا عناية أو صيانة، إنها خير دليل على تلك العقلية التي لا تفكر إلا بالذي لها وتنسى الذي عليها، وهي خير خبير ينبيك عن تراجع الشعور بالمسؤولية، وعن الفوضى والإهمال، والتفكير بالحقوق، ونسيان الواجبات.

ثمة من يأكل الليالي ذوات العدد، ويعزب عن باله أن يغيث ضرّاءَ أسنانه ببُلعة فرشاة، ثم يتساءل - من بعد ذلك - بكل براءة عن سبب تلك الرائحة التي تعبق كالهم الثقيل من فيه كلما انفغر، ثم يتساءل أولو الألباب بكل براءة أيضاً: ما الذي دهى عقلَ هذا الكائن حتى أصبحت إنسانيته أثراً بعد عين؟. كم يشقى طبيب الأسنان والهضمية في الأمم المتخلفة، يبدو أن الجهاز الهضمي هو الجهاز الوحيد الذي نجا من قدر البطالة! 19 ديسمبر 2012.

السباكة هي الكتابة

أظن أن في كل رجل فطرة سبّاك دفينة، تحاول أن تمدَّ رأسها على استحياء في مناسبات شتى، تجعلني من الذين يستمتعون وهم يشاهدون عمل السباكين، ومن الذين يمكثون في مول، فيه قسم أثير من أدوات السباكة كـ:ساكو، وقد رأيت مرة مثقبَ جدران صغيراً (دريل)، أنثوي الجمال، برتقالي اللون، يطوقه سوادٌ، فراودني عن نفسي فاشتريته، ولم

تنفع محاولات ثنيها عنه، وأقنعتني أنني سأحتاج إليه كثيراً، فاشتريت له رؤوساً فولاذية حلزونية ذات أحجام متعددة، فاحمة السواد تلمع برسوخ، وفي نفسي مشاهد السباكين وهم يثقبون الجدران بسهولة، أو يفكون البراغي، وكان أول احتياجاتي إليه، في تركيب علاقة للمنشفة، فأتيت به لأثقب الجدار به فانثقبت عزيمتي ولم ينثقب! وانهارت كل أمنياتي الجميلة بعد تلك الحادثة، فوهبته في أول مناسبة لسبّاك باكستاني صاعد، ورضيت بأن أكون سباكاً من ذوي الأدوات والمهام الصغيرة، فلديَّ مطرقة (جاكوك)، و(بنسة)، وعلبة مسامير فضية متعددة الأحجام، ومفكّ براغي يدوي، كثير الرؤوس، ومشرطان أزرق وبرتقالي، ومتران، أحدهما ذاتي الانطواء، وقد كان هذا تطوراً بديعاً لدي، ولواصق شفافة وملونة، ولفيف من الخرداوت الصغيرة، أما المهام التي أقوم بها، فقد أدق مسماراً واحداً في الجدار، أو أعلق لوحة أو ساعة، أو ألصق بعض الأشياء، أو أشد بعض البراغي المترهلة هنا أو هناك، أو أبدّل قفلاً، وأعترف أنني عجزت مرة عن فكّ برغي قفل، عنيد، أفسدتُ صليب رأسه فنجا من كل محاولات الفك، وأفسد عليّ مزاجي، فاستعنت بالسباك الباكستاني الذي أهديته المثقب، إذ أصبحنا أصدقاء حقاً، ولعل ذلك كان هو الفائدة الجليلة من شراء ذلك المثقب! وعند الله ما هو أخفى، والخلاصة من كل ذلك، إنِ امرأةٌ اشترطت أن يكون في زوج المستقبل مهارةُ سباكة فلا لوم عليها، لأنها مهنة تجمع الجمال والفائدة والمتعة، فما أجمل أن تصلح الأشياء المعطلة، تلك التي تخص شؤون الماء في بيتك أو الكهرباء، وهل تطيب حياة دونهما؟ لقد ذهبا ولم يبقَ إلا سباكون عاطلون عن العمل والأمل. والسباكة هي الكتابة الحقة لأنها بنت الأيدي الناعمة المزينة بخشونة العمل.

بريد حريتك وكنز حقيقتك

لولا الحرية لما وُجد الخطأ، ولولا الخطأ لما شعرنا بلذة الصواب، فالشَّر أو القبح، من عناصر الخير والجمال بهما نعي ونتذوق، وما شهقة الفجر البديعة إلا بعد ليل حالك، فما أجمل التوبة أو الإصلاح بعد الخطأ، وما أغزر معاني اللقاء بعد صحراء فراق شاسعة، إنها عملية تتسع بها النفس، وتعظم، فتسطر مآثرها في كل وجه، هكذا أرادها الله. تعظم إذ تعاني من نقائصها وعيوبها فترقى كلما جاهدت ذلك، وما كلامي هذا لأمنع تمنيكَ بأخطاء تمحى، ولا تحسرك على كمال، فهذا أمر لا بد منه، ولا مرد له، لا ينكره إلا جاهل بحقيقته، فالتمني شكل من أشكال الكمال، تتنفس فيه النفس عن تطلعاتها السامية، وقد يقصر عنه فعل، لكنه يبقى من أفعال الروح الخيرة على مسرح الغيب لم يستولده واقع، فما أجمل الخطأ حينها، لأنه بريد حريتك، وكنز حقيقتك الفذة، أنك مخلوق سما على كل هذا الكون يوم جعله الله حرّاً، فكانت معصيته هي التجلي الهائل لأسماء الله التواب والعفو والغفور والستير، فكأن نقصانك وأخطاءك هي عين كمال الإله!. 4 ديسمبر 2020.

نسيت النوم وأحلامه

إن كنتَ لا تطيق الاستيقاظ مبكراً وتستثقله، وقد تنهمر دموعك من معاناته، فاعلمْ أنك لا تزال شاباً، ولا تزال في روحك طراوة الحياة.

كلما كبرتَ قلّ نومك، وعزّ عليك أن تنام بسهولة، إحدى أُمنياتي العزيزات الآن أن أنام ثماني ساعات أو سبعاً متواصلات! ولا أستطيع أن أذكر آخر عهدي بذلك فقد طال الأمد، وأطول مدة متواصلة أنامها الآن ثلاث ساعات أو أربع، وإن احتجت فقد أعززها بواحدة أو اثنتين في وقت

آخر، وفي جسمي مقاومة عنيدة للنوم المبكر منذ أيام سورية، فالسهر شيمة الغرباء، والليل نديمهم الأوفى ونهارهم الذي يسبحون فيه؛ لذا سميت فصلاً كاملاً من هذا الكتاب: أدب الليل وثقافته.

ولكن ما أجمل ذلك التأخر عن النوم في سورية! فقد صار تبكيراً في دنيا الاغتراب بعد أن غادرتها، كما يقول المتنبي:

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

وأحبط من الصديق الذي ينام مبكراً إن كنا معاً، أو يكتفي بكاسة شاي واحدة فلا يكررها، فقد وعت نفسي فطرةً أن توافق العادات في الأكل والشرب والنوم ليس عادةً غريزيةً صرفة، وإنما معارج خفية تلتقي فيها الأرواح على نحو ما! لكن الحياة علّمتني أن أرضى بما تجود به الصداقة أو غيرها من الصلات، وأن أهبَ الآخر حريته، فلا أُثقِل عليه بعاداتي، فالجمال والقرب الكمال، أن توافقك روحٌ بلا تكلف، وهذا رزق عزيز لا يلقّاه كل أحد، فاستمتع بنومك الآن أيها النوّام الكسول، وافرح بثقل رأسك على الوسادة، فهو من أمارات السعادة.

البعيد عن العين، بعيد عن القلب

البعيد عن العين، بعيد عن القلب؛ حقيقة تثبتها التجارب كل حين، وإن كذبتْ في بُعدٍ قريب فإنها لن تكذب في بُعد الغريب، الذي طوته أقدار الاغتراب ما وراء الحدود، فغابت شؤونه وتفاصيله حتى عن أهله، فخلت حواسهم من آثاره، وتفرقت بقلوبهم مشاغلُ الحياة، وحجبهم النسيان عنه، لتبرد مشاعرهم، ولا يناله منها إلا فتات تافه يقتضيه روتين العلاقات السائد وإحراجها. لا يُنظر إلى المغترب إلا بعين الدرهم والدينار، يحسبون له كم

يجني من المال، ولا يحسبون عليه ثمن الغربة المعنوي الذي ينزفه كل يوم من أبسط تفاصيل قلبه. لا أحد يشعر بألم الوحدة والغربة الذي ينتظم نسيج حياته كلها، أن تكون عارياً وحدك، لا رجل تقف عليها إلا صحتك، فإن هوت فليس لك إلا الله في هذا المدى العربي الموحش، الذي هان فيه الإنسان أيما هوان. لا أحد يعلم ما معنى (الأمان في السرب) إلا الغريب، وجسامة نعمته! تفاجئك المواقف كل حين بأنك وحدك، وتظل تتساءل عن حقائق المعنى؛ أين غارت؟ ألست أحق الناس بالتذكر، بالتعاطف، بالرحمة، وأنت الذي لم تنل نصيبك من قلوب محبيك كما نالها من مكث؟ أليس جديراً بك الآن أن تخلع عنك لبوس الألم والتحسر على هذه الحقيقة، وتكون أنانياً، فلن يقف معك إلاك!. 9 ديسمبر 2020.

مصباح الطريق

يمشي وحيداً بزيّهِ الأصفر في الطريق، بيده مكنسته، على هامش الحياة والأحياء، لا لغة تجمعه بمن حوله، هذا؛ إن كانوا حوله! ولا ينظر إليه إلا من عين مكنسته، إنه محض وظيفة ليس لها قلب.

أمُرُّ به بسيارتي صباحاً، أتفكر فيه، وتتداعى أخيلتي حوله؛ له أهل هناك، أطفال، أب وأم، أو حبيبة، ينتظرون ماله أو عودته، وربما يتحدث إليهم من علٍ، ويكبر في تصورهم مقامه، هو هناك يعمل عملاً كبيراً، في بلاد جني المال، وتجنيه الهموم والأحزان والآلام والأمنيات.

تذكرت فيه قول نزار قباني: إني كمصباح الطريق، صديقتي، أبكي ولا أحد يرى دمعاتي؛ يجمعه ومصباح الطريق، اللونُ والوظيفة، إحداهما تنيره للمارين، والأخرى تنظفه لهم وتجعل مرآه جميلاً، كما تجمعهما الغربة والحزن.

وقد أعود مساءً فأرى عاملاً آخر بلون آخر يقف على الطريق، لعل

سيارة تقف له ليسير زمانه، وهذه الوقفة عزيزة جداً إلى قلبي؛ إذ طالما وقفتها، تحت حرّ أو مطر أنوء بحقيبتي، لكنني وقفتها في بلدي لا غربتي.

تنزوي حياتي كلها أمام عيني في ومضة ما إن أرَه، أعرف شعوره جيداً جداً، أعرف ذلك الشعور، أعرف شعور الوقوف على الطرقات! فما أجدرني بحمل من يقفه الآن بعد أن حملني الله، ويكرمني الإله بذلك التذكير الضوئي: ألم تكن يتيماً؟ فآويتك، فكيف ستنهر اليتيم؟ ألم تكن عائلاً فأغنيتك، فكيف لا تحدِّث بنعمتي؟ ألم تكن ضالّاً فهديتك، فكيف تردُّ سائلاً؟ ما أظلم هؤلاء إن نسوا ماضيهم ولم يرحموا حاضر من يعيش ماضيهم الآن!. أقف له، ويسألني قبل أن يركب: كم سآخذ منه، إنه الخوف اللئيم من عدم الاستطاعة، ويتحامل على كرامته الجريحة رافضاً أي مجانية! ثم نمضي في الطريق معاً لدقائق، لا شيء يجمعنا إلا الرحيل الطويل، أو دعوة غريبة قد تكمل لي الطريق إن انقطعت بي السبل، فآوي إلى الظِّلّ وأبتسم. 10 ديسمبر 2020.

حديث البرتقال

للألوان في الأشياء والأضواء أثر بارز خفي في حياتنا، وأفكارنا ومشاعرنا، وأعجب جداً بمن يحسن تلاوتها، وتجاورها، وكم مرة أسرني أثاث منزل أو مقهى توحي ألوانه بالدفء والهدوء والبساطة أو الانبساط.

وكم مرة، تنطق الألوان في اللباس عن شخصية لابسها، وكم تعظم لغة الطبيعة حين تعرب بألوانها عن أكنانها، تجد ذلك في شفق الغروب، وفي فيروز الشواطئ، وفي سواد عصفور ملفع بالبرتقال، وفي لوحة الفواكه والخضراوات اللامعة النظيفة عند بقالٍ فنان في ترتيبها. وفي سواد رموش

مسرفة، تتضاءل كنجم بعيد من بياض يحيطها، يتضاءل أيضاً من سواد شعر هادر يحيطه، رموش لم تستفزها ألوان الحضارة المصنعة، تأخذ كحلها كفافاً من حجر الطبيعة، وفي الشفتين من حقيقة الورد استغناء متشابه.

واليوم تساءلت عن تفسير لاختيار اللون البرتقالي لأكياس القمامة! أهو أسلوب ماكر يستغل جمال اللون واستعماله في مواضع غير مألوفة للحثّ على الشراء؟ أم هو دعوة للتطبيع مع القمامة، وتغيير التعامل معها؟ أم لعله حقد على اللون البرتقالي، وشكل من أشكال العنف اللوني؟! ما أكثر عبث هذا الإنسان بقدسية الألوان في عصر قدسية الدولار.

الطعام وتجديد التحكم بملكة الخيار الإنساني

العلاقة بالطعام لا تقل خطورة عن أي شأن إنساني آخر، فدورة الطعام في الجسد تشبه دورة الفكر في القلب، كلاهما يصنع حياة الإنسان شقاء أو سناء، وقانون الحياة لا يهادن، فلا شيء ينال بلا جهد أو إحكام، لا النجاح ولا الغنى، ولا الصحة ولا الجسد الجميل، على ما في هذه الأمور من استثناءات كثيرة، وتوفيقات قدرية ووراثية وهي أرزاق قسمها الله بين العباد.

وإن كانت الصحة النفسية رهينة كثيرٍ من أفكارك ومفاهيمك عن الحياة، وما تلقيته من أسرتك ومجتمعك، فإنها رهينة جسدك أيضاً وما يكون له من صفات فيزيائية، وما يقع عليه من أذىً أو إحسان، وكلاهما - الأذى والإحسان - من متعلقات سلوكك الغذائي. وإن كانت التربية الأخلاقية تربيك على جمال ما يخرج من فمك، فإنها قصرت كثيراً فيما يدخل فيه أي لم نتعلم حقّاً ثقافة غذاء صحية تقينا شرّ كثير من أمراض الحياة المعاصرة التي غيرت حياة الإنسان ونقلتها من تلقائيتها الطبيعية الصحية إلى كل ما يهدد هذا الجسد بالمرض كلما تقدم بك عمر.

إذ كل شيء سيتغير مع العمر؛ فالذي كنت تأكله في شبابك ولا تلحظ أثره الضَّار، سيعجز جسمك عن مجاراته الآن، فلا تنتظر من جسمك عطاءً مستمراً وأنت تعيش في فوضى غذائية لا نظامَ علمياً يحكمها أو يسوسها. لكن الإنسان لا يؤمن بسهولة، لا يغيره الكلام أو الوعظ، ولا الأوامر والنواهي، وإن علِمَ عقله فلن تستجيب عواطفه من فورها، فلا بد من إكراهات التجارب المؤلمة وكيّها لكي تؤدبه، فيستقيم، لكن المحزن أن هذه الاستقامة لا تأتي إلا بعد خسارات كبيرة، ولعل هذه السمة الراسخة في النفس البشرية هي التي أعلت شأن التخصصات العلاجية التي تعالج المصائب بعد وقوعها كالطب، وخفضت شأن التخصصات الوقائية التي تمنع وقوعها كالتغذية، نحن أبناء التعلم بعد الحدث لا قبله.

هذا الكلام مناسب جداً أن يقال في رمضان لأنه الزمن الذي يعتني بالروح والجسد معاً، والوسيلة الممتازة لكي يزيل العوائد التالفة، ويجدد ملكة التحكم بالخيار الإنساني، فما كانت الغاية أن تجوع، وإنما لكي تعرف كيف تتحكم بنفسك، فتصلح ما فيها ومن حولها وما حولها.

وأعجب من ذوي العقل العضين الذي يجور على الحقائق المجملة، فكون رمضان شهر عبادة فهذا لن يخرجه عن أهميته المادية في قضية الطعام والجسد والاقتصاد، فمثلما أن الله سيأجرك لأنك أطعمت جسد فقير، فأغنيت روحه بالمحبة والرحمة، فكذلك سيأجرك لأنك جعلت من رمضان مثابة إلى نظام غذائي جديد يحفظ جسدك فيقيك المرض ويحفظ جيبك فيقيك التبذير، وعزائم الدين والأخلاق لا تقوم إلا بإنسان قوي أمين، والقوة بسطة في الجسم، والأمانة بسطة في العلم، ويبدأ كلاهما مما يدخل جوفك وقلبك، فانظر ماذا ستُدخل إليهما.

العاطفة الحقة حياة

ما أكثر الكتابات التي تلتئم على مشاعر حارة بين اثنين من ذكر وأنثى، أو تنزف منها، التي أقدرها وقد كتبت عنها كثيراً، إلا أنها تتضاءل تضاؤلاً شاهقاً أمام علو العاطفة بين الآباء وأبنائهم. الفرق بينهما كالفرق بين الحقيقة وتمثيلها. لا حرف أصدق وأبرّ من حرف أب يكتب عن طفله أو أم. لقد كنا نلهو بالحروف وتتضخم ألفاظنا ولا تتماسك إلا على معاناة متضخمة غالباً، حتى بلونا الأبوة وبلتنا، فعلمنا من بعد جهل أن العاطفة الحقة حياة! أي فعل، وبذل كبير، ونسيان الذات وتعبها، ما دمت ترى طفلك حولك يبتسم ويلعب بكل أمان، لا جوع أو خوف يتربص به. وما أكثر الذي قصمه فراق من ظلم الأقربين، فابيضَّت عيناه حزناً على يوسفه، أو من ظلم الفراعين ففرغ فؤاده على موساه، أو من ضلال فحال بينهما موجٌ فجأر متألماً إلى حكمة ربه: إن ابني من أهلي.

ويظل العزاء في الذي أعطى وأخذ، فهو الذي يقدر أن يعطي مرة أخرى هنا أو هناك، وليس لكل هذه المصائب إلا الصبر، وقول واحد: إنا لله وإنا إليه راجعون. 27 نوفمبر 2020.

مقابر القلوب

ثمة أشخاص أو صداقات لن تعاد في حياتنا، وإن أعيدت أو جادت الحياة بمثلها فقد لا يكون في محطة العمر حينها ما يعطيها حقها فيقف لها ويحتفي، ومحطة العمر هنا، مجموعة زمن ومكان وظرف ومحتويات نفس.

قد تكون في محطة عمر لا تقدر على أن تمشي إلى أحد رغم علمك بقيمته الكبيرة، وإن مشيت فقد لا يسعفك الزمن بمدة كافية لتبني معه ما قد تبنيه لو بكّر الزمن بلقائكما، فلكل بناءٍ زمنٌ وروحٌ وقوةٌ.

وقد يتأخر كلّ هذا ويمرّ العمر إلى أن يجمعك بأولئك الأشخاص أو الصداقات، وسوف تتحسر على تأخرهم، ولكن تذكر؛ أنهم لو بكروا فستضيعهم! لأنك كنت أقل نضجاً لتقدر قيمة الأشخاص واللحظات، وليس ثمة نصيحة جامعة لتعرف كل ذلك فتتجنب خسائرك أو حسراتك، الرهان وحده على رصيدك من (الحكمة).

ولكن سيظل ذلك الأسف العميق على بدايات كثيرة، راسباً في أعماق النفس كحطام باخرة نامت في بطن المحيط، بداياتٍ كنت فيها فجّاً، متسرعاً، متشدداً، متشنجاً، متورماً، مغروراً، لا تطيل النظرة والفكرة، في الأحياء والأشياء، وتهمل كثيراً من التفاصيل، وتجهل كيف تقرأ الوجوه، وتهدجات الأصوات، أو ذلك القول البليغ في ضياء العيون، وتظن أن في قادم الحياة ما يغنيك ويكفيك، فتكبر كثيراً وتسرع بالخطا إلى نهاية الطريق لتجد خواء غرورك ينتظرك هناك، ورحل الذين أكرمتك بهم الحياة في بداياتك أو بعدها بقليل، وستكتب مثلي هذا النص.

لكن لا تظن أنني مشيت في المصير ذاته فكتبت، فقد حرصت كثيراً على من عانقوا روحي وعانقتهم، ولا أزال أحتفظ بهم، حتى وإن ران بعض الصدأ على صلاتهم، ولكن للخسارات أشكالاً كثيرة، لا يعلم بها إلا أهلوها، وقد لا يجدون في الحديث عنها إلا مزيداً من الخسارة، فليكن الصمت خير قبر لها، ففي القلوب مقابر كثيرة ولكن لا يعلم بها أحد!.

10/ يناير/ 2021

حزن الشتاء

يخبو ضوء الشمس وراء الغيوم الثِّقال فلا يبقى منه إلا وجود خجول

يجادل الظلام، ويُثار عطر الأرض بلقاء المطر تحملُهُ نسماتٌ كسلى تعبث بهدوء الروح، وتنكفئ الطيور إلى أعشاشها، وتخشع الشجيرات المبللة تحت هيبة المطر والرياح، وفي الجوّ بردٌ شفيفٌ ينكمش به صلفُ الجسد، وتُطبق الشفتان اليابستان بالصمت الطويل، على نزيف القلب الغريب بذكرياته وحيداً. الجو الشتائي مؤلم، متألم، حزين، صامت، لكنه جميل.

الشتاء فصل الموت الهادئ، ولحظة الرحيل بلا وداع كافٍ، يموت الناس بهدوء بلا ضجيج، أو مقدمات أو إشعارات، يصمتون ويرحلون فجأة، فيجمّدون الدمع في العيون.

لماذا يرحل أكثر هؤلاء في الشتاء؟! لموتهم طعم غريب، لا يغريك إلا بالصمت، وكأنه لا شيء يمكن أن يقال، فاكظم لسانك وحزنك وتفكّر طويلاً، فلا كلام يروي وجع الأحياء في موسم الرحيل، ولن يكون على ألسنتنا أبلغ مما في وجوهنا وأرواحنا. في الشتاء يصعب اللقاء، وينقص وصل الأرواح فتنقص من بعضها، أتراه سبباً لموتها؟. صرت أخافك أيها الشتاء، وأكون أحياناً كمن يضع يده على قلبه متنبئاً بفقد ما، سنظل ننقص بفراق الأموات والأحياء، ليتضاءل احتمال القلب شيئاً فشيئاً ليقف وقفته النهائية في ليلة شتائية، ربما.. 9 يناير 2021.

جيل الثمانينيّات

قرأت مرة دعوة طريفة إلى طرد جيل الثمانينيات من الفيس بوك، ولعل الداعي (ذا المولد التسعيني أو ما بعده) وجد فيهم اختلافاً كثيراً عنه، وهو على حق، وهي فرصة أسجل فيها تأملاتي هنا.

جيل الثمانينيات جيلٌ فريدٌ حقاً، وسطٌ بين مرحلتين متباينتين، لكنهما التقتا فيه، مرحلة ما قبل الإنترنت وثورة وسائل التواصل، وما بعدهما،

وهنا سرّ تفرده، وتركيبيّة شخصيته، فهو ليس كبيراً ليتأخر عن الركب، وليس صغيراً ليذوب فيه، ففيه مرونة محمودة وصلابة، يفتقر إليهما من قبله، ومن بعده.

فهو جيل شهد كثيراً من حياة القلّة ومشقتها، وبدائيتها، وبساطة وسائلها؛ لذا فهو أكثر الناس تقديراً لنعمة الوسائل الحديثة، جيل كتب بخط يده كثيراً، وتشربت روحه لمسةَ الأقلام والأوراق والرسائل الورقية، فنجا من طغيان اللمس على الشاشات، ومن أميّة الأصابع ونعومتها وخلوها من الحبر، ولم يخالِلْ في بداية عمره إلا الكتاب الورقي، فالعلاقة هناك، ليست علاقة حاسة واحدة، كما هي في الكتاب الإلكتروني تُختزل في البصر، وليس الكتاب شيئاً ضمن أشياء يحتويه جهاز، فالكتاب هناك حبيب واحد، والحواس متعددة، يأخذ فيها الكتاب من ذاكرة شمك، ومن لمس يديك وحضنك، وتتكسر صفحاته في كبد الحياة، وتصفرّ مثلك، فالزمن ينحت فيه كما ينحت فيك، وله حيّز مكاني في بيتك، فكأنه فرد من عائلتك، وهذا رحم لا يعرفه جيل الشاشات المحدثين.

جيل لم يعرف الوفرة، ثم عرفها، رأس ماله تلفاز ضئيل، فقير الألوان والقنوات والأدوات، لكنه غنيّ بالقيم والصدق، يجمّع العائلة ولا يفرقها كما تفعل شاشات اليوم، فلكل امرئ فيها شأن يغنيه ويحتويه. يمتعه نتفلكس وإخواته لكنه لا يستخفه، فهو يحتفي بالوجوه الحقيقية أكثر من وجوه الشاشات.

جيل، سمعه مرهف مزاجي جداً، لأنه تربى في مجد الراديو، وتأدبت أذنه على فخامة الصوت الإذاعي، واللحن الشجي العملاق، في الضحى أو في الليل إذا سجى. جيلٌ بارٌّ بالطبيعة لأنه نشأ فيها ونالت كثيراً من عمره، وذاق ألوانها وأشكالها وروائحها، قبل أن تتواطأ الجداران الإسمنتية

والشاشات على عزله لتصبح الطبيعة صوراً متحركة، تتسطح بها الروح ولا تنفذ إليها.

ثم أستدرك بقاعدة معرفية مهمة، أذود بها عن نصي؛ إذ ليس في عالم الأنفس اثنان ينتجان عن مجموع واحد وواحد، فصرامة التنبؤ والقاعدة فضفاضة جداً، أي قد يشذّ عما قلت سابقاً أو لاحقاً أو من بينهما، لكثرة العوامل المفتوحة التي تعمل في الأنفس والمجتمعات، وإنما نقول بما نظن أنه يغلب، فيا من ستظن أنك لست منهم، أخرج نفسك والتحق بنا. تحية إلى أبناء جيلي، أما المحدثون المعادون، فاجمعوا شاشاتكم وانصرفوا.. 25 يناير 2021

الحب سكن الكرامات إلى بعضها

لا شيء يئد الأشخاص في قلبك ويسهل عليك إخراجهم من حياتك بلا رفة جفن، كانهيار الاحترام، فلا شفيع لأي عاطفة بين اثنين مهما كانت كبيرة، إن أعطيتَ نفسك ذلك الحق أن (تخدش) ذلك النسيجَ النبيلَ/ الجوهرَ من كرامة الروح، فتنال من تكريمها الذي خصّها الله به، فكيف إن كان فعلك تهشيماً له لا خدشاً؟

إن كان لك ودّ أو مكانة في قلب إنسان، فاعلمْ أن منبعه ذلك النسيج نبيل الجوهر، فهو الذي يسكُّ مشاعره نحوك، ويبني بيتك فيه، فمهما بلغَتْ مظلمتك أو سوَّغت لنفسك من فعل، فإياك أن تفجر وتقترب من ذلك الحمى إن أردت أن تُبقي على ذلك الإنسان، عليك أن تعي الحدود جيداً، فثمة قلوب إن ذهبت فلن تعود، لأن وجع الكرامة دامٍ جداً جداً وجرحه لا يبرأ، وكاذب أو جاهل من يقول إن الكرامة تسقط بين المحبين، بل كل الكرامة الكرامة هناك، وما الحب إلا سكن الكرامات

إلى بعضها، وعزاء التقدير في زمن السحق والإهانات على كل صعيد..

فأيُّ خسارةٍ، وأيُّ ظلمٍ للنفس، وللجمال، والابتسام، وللتفاصيل الأصيلة، إن خسرت كل ذلك من أجل شيء تافه؛ حتى الخسارة تصبح مقبولة، وفيها شيء من العزاء، إن سعيت إليها من أجل شيء كبير، تعلمْ جيداً كيف تخسر. 26 يناير 2021

وليمة بين عالمين

دعيت من رجل كريم إلى وليمة عشاء، فمنعني الحياء عن الاعتذار منه كما كنت أفعل كل مرة، فالدعوة تكريم، وتلبية داعيها واجب وتكريم له أيضاً، وأمر الطعام في الإنسان - إن كان إنساناً حقّاً - يعلو على دركة الغريزة إلى درجة الروح العزيزة، فالموائد وسائد، تتجاور بها القلوب وتتعالق، وتقاسم الزاد حرمٌ آمنٌ بين الأجساد، تنمو به العلاقات الطيبة، لكنني أستثقل هذه الدعوات جداً إن كانت عامة تحشد خلقاً كثيراً، لا تعرف إلا قليلهم وقد لا تعرف إلا صاحب الدعوة، ويغلب أن تكون هذه المجالس ذات بروتوكولات ثابتة شاقة، أشقُّها أن تقوم كلما جاء ضيف جديد، فتقعد فتقوم، ثم تقعد فتقوم، وقد تسمع ما لا تحب أو لا يعنيك، إن استبدَّ بالمجلس ذو لسان أو بهلوان.

لبّيت الدعوة وكان المكان ذا جزأين، جزء مفتوح إلى السماء والهواء، وفي الجو نسمة باردة، وآخر داخلي، أُدخلت إليه - ربما مصادفة - أنا ورجل مسن، فتتالى بعده المسنون، وإن دخله شابٌّ جلس قليلاً ثم انصرف إلى المكان المفتوح حيث يجتمع الشباب.

الصدق أنهما لم يكونا مكانين مختلفين، بل عالَمين أو زمنَين، وسعدت أنني الشاب الوحيد الذي مكث في عالم المكان الأقدم، حيث

تنهي العلاقة بالآلة (الموبايل)، فقلما خلا أحد إلى جواله، وكان الأنس بالقصص والأحاديث، حاضرة أو ماضية، وإن تحدث أحد، وصلته العيون، ولم تشغلها شاشة.

وتشعر أن الزمان يمشي ببطء، ووجوه الرجال المسنين معتقة بالحقيقة، فخطوط اللحى معتدلة منطقية، تشبه خطوط الطبيعة، لا ترى فيها زوايا حادة أو رسوماً هندسية، أو تلك الهيئة المنمقة، المسرفة. لم أشعر بغربة بينهم لأنني أدركت زمناً في قريتي كانت الحياة هكذا، وقد كانت جلستي معهم (لحظةً من حنين).

ثم رحل الفكر بي بعيداً إلى هذا العبث الحداثي الذي تشظَّت به حياتنا، وكيف سهلت التقنية الاتصال بين الناس وزادته لكنها قتلت الوصل، فهم يتجاورون في مجالسهم أجساداً، وعوالمهم شتى، تفصلها في الواقع آماد بعيدة، لكنهم قد يلتقون أشباحاً من وراء شاشاتها، التي تكاثرت بها مهارات الأصابع ولم تتكوثر فيها مهارات القلوب.

يعرف الإنسان خلقاً كثيراً لكنهم يمرون في حياته بسرعة الضوء ولا يمكث في قلبه إلا الخواء، كمن يشرب ماء البحر فلا يزداد إلا عطشاً وهو ظانٌّ أنه يرتوي.

إنسان اليوم إنسان ضجِر، مختصر، سريع الذوبان، كثير القلق والهذيان، لا يصبر على شيء، وحتى في عوالم الشاشات والتطبيقات، يتباين ناس الشتات اختصاراً وقصراً وصبراً، وقد تصنّف الإنسان من نوع التطبيق الذي يدمنه، فقوم الفيس بوك أكثر صبراً من قوم تويتر، وقوم تويتر أكثر صبراً من قوم سناب شات أو أنيستا أو تيك توك، لأن النصوص المكتوبة أقل متعة من المصورة أو ذات الفيديو، فالكتابة من عالم التجريد الذي يتعب

الخيال، أما الصورة والفيديو فمن عالم المشخصات الذي يريحه، كالفرق بين طعام تعده في بيتك ويحتاج جهداً وصبراً، وبين طعام المطاعم أو الوجبات السريعة التي تخضمه خضماً على عجل بلا تفكير، كما تخضم عيناك مقاطع مصورة كثيرة بلا توقف.

وتمتد سمة الاختصار والقصر والسرعة والضجر إلى عوالم أخرى كالموسيقى والكتب وغيرهما؛ إذ لا أظن الجيل الجديد يصبر على أن يسمع أغنية لأم كلثوم أو حليم، تبلغ مقدمتها الموسيقية طولاً يزيد على طوله.

وقد عالجت في نفسي داءً عيياً كان يجعلني أطبع الأوراق مع أن استخدامها الإلكتروني يكفي! وأن أعتاد القراءة الإلكترونية للكتب، وأتخلى عن تلك النظرة الرومانسية إلى الكتب الورقية، غير العملية في كثير من الأحيان، فنحن جيل الورق والكتب المطبوعة، ولديه معهما ذاكرة شمية ولمسية عنيدة.

تخيلْ جيلاً كاملاً ينشأ في عالم القراءة مزكومَ الأنف، بليدَ الأصابع، يحسن نقرها نقراً على الأزرار، لكنه أُمّي في فنّ اللمس، لا يعرف شعور اليد وهي تتهدج فوق الصفحات كأنها تمسح على شعر حبيب مجيب، ولا أظن أمره محصوراً ها هنا، بل يمتد إلى علاقاته فلا شك أنه يتعامل بالنقر لا بالشم واللمس.

سير الحياة أقوى منا مهما جاهدناها، فقد نالت الآلة منا، ولم يبقَ إلا أثاراتٌ شاحبة، تستدر حنيننا.

وآخر هزائمي هنا: أن يدي عقت القلم الحقيقي وناب عنه قلم آبل، قلمٌ واحد أبيض اللون، يخط بكل الألوان وأحجام الخطوط، لا يحتاج ورقاً حقيقياً بل ورقة إلكترونية بخلفية بيضاء أو سوداء! وقد اعتدت الخلفية

السوداء في كل أجهزتي، إلا في الكتابة الإلكترونية، فقد كنت معتلاً معها، فورق الكتابة لا يكون إلا أبيضَ! كلون الحليب الذي رضعناه، لكن في عالم اليوم، كل شيء ممكن، حتى الحليب قد يكون أسودَ!

من وعائهما تعرفهما

ثمة مساجلات طريفة، بين محبي القهوة ومحبي الشاي، يعلو بها الجماعة الأولى على الثانية، لكأنهم أكثر رقياً وتأملاً وشاعريةً وهدوءاً وبرستيجاً! فعقدت مقارنة أطرف، أنتصر بها لجماعتي الشايبة، بدأتها من كاسة الشاي وفنجان القهوة، فمن وعائهما تعرفهما!.

وعاء الشاي أنثى، ووعاء القهوة ذكر، وشتان ما بين رقة الجنس اللطيف وخشونة الجنس العنيف، الأول شفاف ترى ما فيه من خارجه، كأنها طفل لا يعرف أن يخفي دواخله، فهو ابن البساطة والنقاء، ومشروب البسطاء، ويحبه الأطفال، والثاني كتيم عقيم لا ترى منه إلا جدرانه المصمتة، فكأنها تكورت على غموضها وضغائنها فلا تعرف لها قراراً أو مساراً. [كاسة الشاي التقليدية هي الزجاجية الشفافة ولا يُعترف بأوعية الحداثة مما يسمى بالـ Mug أو الأوعية الخزفية الكتيمة].

الأول قد يشمخ أو يتسع، فيوحي براحة وسعة وقبول ينشرح بها الصدر. أما الثاني فقصير، وصغير، ومحدود الأبعاد، ينكمش إلى نفسه فكأنه في خصام مع العالم. أما لونهما، فلا حاجة لتبيين تفاضل لون الشاي على القهوة، وهل يحتاج النهار إلى دليل؟! فالأول شفاف ككاسته فهو من أمر النهار، والثاني كتيم كفنجانه فهو من أمر الظلام.

الشاي يُشرب في كل وقت، صباحاً أو مساء، ظهراً أو عصراً.. إلخ. فكأنه

حبيب، كل وقته مبذول لأحبته لا يوصد بابه دونهم، اجتماعي يأنس بهم ويأنسون به، اجتماعي قد تشربه مع طعامك، أما القهوة فمزاجية نكدة، صارمة المواعيد، لا تستقبل أحداً خارج أوقاتها المقننة، ولا تُشرب إلا وحيدة منعزلة، أنانية، لا يمكن أن يشاركها جسمَك شيءٌ آخر! ويَغلب أن تُشرب مُرةً فكأنها تعزز فيك مزاج البؤس في هذه الحياة! وتبعدك عن الطفولة وتفاؤلها، فالأطفال يكرهون كل شيء مُرّ!.

والقهوة تُصنع بكميات قليلة، فكأنها السمُّ الذي يصمُّ، أو القلَّة المُذلَّة، أما الشاي فلا يُصنع إلا بوفرة، لكي يُشربَ الكرة تلو الكرة، فكأنه مثال الكرم ولا جرم! بل إن البخل ليضرب بمَن يدعو ضيفه إلى فنجان قهوة، أتعسْ بها من دعوة ذات شقوة!.

أعجبك الشاي؟ وهل تكتفين - كما كنت دوماً - بقطعة سكر؟ أما أنا فأفضل وجهك من غير سكر.

يفضله ليس لأنه قهوة؛ بل لأنه محلى من خالقه فلا يحتاج إلى سكر. ماذا لو قال: أعجبتك القهوة؟ أما أنا فأفضل وجهك سادة؟ حتماً ستفهم أنها يجب أن تظهر له دون مكياج وليس لأن وجهها حلو من دون سكر!.

اللسان المعطر والرائحة الفصيحة

الأمثال الشعبية ليست عبثاً، ففيها ذهبُ التجارب، وفي الإنسان سمة لسانية أنه يقبض على التجربة العريضة وحكمتها بجملة أو اثنتين تسمى (مثلاً)، على أنه يجب أن نحذر سلطة الأمثال فلا تشغب على فكرنا النقدي، ونعي أن لكل مثل سياقاً حياتياً قيل فيه، فقد لا يصلح في غيره، ففاقد الشيء الذي لا يعطيه في مكان وزمان، قد يكون هو الذي يعطيه في مكان وزمان آخرين!.

وثمة فكرة يُطار بها عن الرجل أن (المدخل إلى قلبه لا بدَّ أن يمرَّ من معدته)؛ لذا يجب أن أُبْطل هذه الفكرة أو أحدّها برجالها من ذوي الكروش العروش، ألا إن المدخل الأسمى إلى الرجل والمرأة معاً هو أنفهما وسمعهما، ولعله المدخل الأسمى إلى الرجل لأن مقام الجمال والزينة في المرأة أعلى وأغلى، ولن يكون مدخلها إليه بأقل خطورة من مدخله إليها.

فإن قيل: وماذا عن (النظر)؟ قلت: إن النظر قشرة هشة، سرعان ما يُتبين زيفها إن كانت تسمو على حقيقة نتنة رائحةً وكلاماً!. إن القول البليغ في القلب للرائحة التي تدهش الأنف جمالاً، والكلمة التي تطرب الأذن خيالاً، فما أثر الهيئة الجميلة التي إن دنوتَ منها طمستْ على أنفك بقبح الرائحة، أو خرج منها كلامٌ لا يقدّر كرامة ولا ينصف حقاً، أو يقرّ بمعروف؟ وكم عزفَتْ معدةٌ عن أكلٍ طيّبٍ خرج من يدي سليطةِ لسانٍ، أو ذات صُنان (الرائحة الكريهة).

ولا يغلبنّ على فكرك أن الرائحة هي رائحة العطور فقط، فثمة أجساد لها ما للعطر من سطوة وأكثر، وهذه لا تُصنع لتشتريها، ولا يلقاها إلا ذوو حظٍّ عظيم، ويا له من فيلم بليغ ذلك الذي اسمه: صانع العطر القاتل، الذي اهتدى إلى أجساد الجميلات ليستخلص منهن عطوراً لا مثيل لها! إلا إنه كان يضطر لقتلهن، أما السعادة الكاملة فأن تجد من تقتلك بعطرها وهي حية لتحيي بذلك القتل كل إمكان الحياة.

تأملْ آخراً كيف يتآزر المادة والمعنى، إن الأنف لا يشم إلا مادة، لكن الأذن لا تسمع إلا معنىً، وكلاهما تطرب له الروح وتسكن، فأخطر المداخل إلى القلوب هو اللسان المعطر، والرائحة الفصيحة.

من هو الكريم؟

في نفس كلِّ واحدٍ منا، فرعون يجب أن يُحْكم فلا يطغى على غيره، فطيبُ العشرة، يزيد كلما كان الإنسان أكثر إحكاماً لفرعونه فلا يشقى بمن يحيطونه، ويعظُمُ هذا التحدي كلما قويت سلطتك، ومكانتك، ومقدرتك، وعلوت في أسباب الاستغناء، لأنها ستستفزك إلى الطغيان. وأسباب الطغيان كثيرة، منها المال، والسلطان، والعلم، والصحة والشباب والجمال، ومقامات القلوب من بعضها.. إلخ.

ولهذه السُّنة شأنٌ كبير في أمر القلوب؛ فهي منها على خطرٍ؛ لأن المشاعر كالسلاح إن لم تعرف متى تستخدمه وكيف، فقد تدمي من أحببت. فكل من ترفعه على عرش قلبك، فقد ملّكته جزءاً عزيزاً من حريتك، فإن لم يُسَس الأمر بحكمة سليمان فسيتصدع ببطش فرعون. فما أكرم من يبرُّ قلباً خفض له جناح ذلّهِ من الحب، فتسابقا على درجات البرّ والإحسان تحار فيهما أيهما أعلى كرماً!.

فمن هو الكريم؟ والكريم ليس كريم المال فقط، فهذا الفعل المباشر القريب منه. الكريم هو كريم النفس في أغلب سمته، كريم بابتسامته، كريم برحمته، كريم بسلامه مع الناس، بتقديره لهم وبجهدهم، لا يتتبع عوراتهم أو زلاتهم، لا يحرجهم فيما يحرجهم، كريم باعتذاره إليهم وإعذاره لهم، فإن أُكْرِم، فاض امتناناً، لساناً ويداً، وظل أسير إكرامِ مَن أكرمه ومعروفه، وقد كاد المتنبي أن يكون نبياً يوم قال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

واللؤم أشدّ من البخل لأن البخيل قد يبخل لكنه لا يؤذي، أما اللئيم تكرمه فيؤذيك! لأن اللؤم قتامة تلتئم عليها النفس وتنقبض.

وحوش أنيقة

إحدى الخدع التي يجب أن تتحراها دائماً في نفسك - أيها الكريم - وأنت تعيش في هذه الغابة: أن تميز بين السذاجة والكرم أو النبل، وأن تتعلم الحكمة أين تخفض جناحك وأين تعلو، ففي هذه الغابة من الوحوش ما قد يكلفك ثمرة حياتك كلها، وحوش أنيقة جداً، يعرفون كيف يتسربون بمكر بين النفوس ويلدغون بذكاء، ثم يجعلون من صراخك متألماً من لدغتهم، يجعلون منه حجة عليك أمام الناس! أنِ انظروا إلى هذا الأرعن الأهوج، فهم يعرفون أن يأكلوك بشوكة وسكين وهم يلبسون ألبستهم الرسمية الأنيقة، ويضعون الفوط على صدورهم أيضاً لكي لا تتسخ! ما أمهرهم في التمثيل بأنهم أغنياء النفوس، وما حقيقتها إلا نفوس العبيد!.

ألقاب وذئاب

في الغرب عادة جيدة، أنهم - غالباً - ينادون المرء باسمه بلا ألقاب المهنة إن خرج من حيّز عملها؛ لأن اللقب في فضاء المهنة، وظيفيٌّ فقط، يعرّف بمهنة الشخص أو تخصصه، وليس اللقب إضافة أصيلة إلى شخصيته العميقة، وإنما من خارجها لا داخلها. أظن أن لدينا حرجاً كبيراً في هذا الشأن، فنحن نستثقل أن ننادي المرء باسمه مجرداً، ولعل بعضهم يرى في ذلك تطاولاً وتجاوزاً، أو تسوّراً لحدوده، وقد يستخدم لقبه ليعلو على غيره، أو ينتظر تعاملاً مختلفاً، لا يتساوى به مع الآخرين: أنا الدكتور، أنا المهندس، أنا، أنا..

سئلت مرة من صديق حديث عهد بي، بماذا تحب أن تنادى، قلت له:

باسمي طبعاً، فهو الذي حملتُهُ وحملني قبل أن أصبح شيئاً مذكوراً، وهو الأحب إليّ. لكنني لا أخفي أنني قد ألجأ إلى لقب المهنة عند الذين لا يتعاملون إلا بذلك المعيار الاستعلائي، فهم يستحقون أن تظهر فيك جانب العلو الذي لا يفهمون غيره ليحسنوا معاملتك أو يعطوك حقك! فالحياة لا تتيسر بتلك المثالية، ففيها كثير من الأوغاد والمعتدين إن أمنوا الردع، يرون التواضع ضعفاً، فنحن في عصر إن لم تكن ذئباً أكلتك الكلاب وليس الذئاب، مع الأسف طبعاً.

الحزن في القلب

ما أصدق المقولات والأمثال، لأنها بنت التجارب الحية، بنت الحياة؛ لذا فهي بنت الصدق؛ لأن التجربة الحية الحقيقية لا تكذب مشاعرُها، هل من أجل هذا قال بيجوفتش: الحياة أسمى من الفكر! وقِسْ هذا على كثير من أعمال الفنون: الشعر والأغاني والروايات والموسيقى.

ما أصدقها إن نطقت عن حقيقة القلب الذي اكتوت يداه من كبَد الحياة والنقص المستمر فيها، بالخوف والجوع، ونقص الأنفس والأموال والثمرات. كل ابتلاءاتك هنا هي شكل من أشكال النقص، الذي يثمر الحزن والألم والقهر والدموع والدماء والضعف.

يقولون: الحزن في القلب. وأشهد أنهم صدقوا. الحزن الكبير ليس دمعةً نهرقها في لحظة، أو صرخةً نصرخها ذات غضبة وألم، أو قولة، أو نصّاً نكتبه.. إلخ. لذا فلن يخفيه ضحكة أو نزهة أو سمر، أو نص يوهم قارئيه بسعادة كاتبه. وقد يصعب على المتعجلين، الذين لا يتأملون الوجوه جيداً أو ما بين السطور، قد يصعب عليهم فقهُ أخاديد الحزن أو القهر في وجهك أو أصابعك، يصعب عليهم تبصر أساليب احتجاجك على الحياة والأحياء، وحيرتك أمام

الأقدار، وكثرة الأسئلة التي تهدهدها بما وقر في قلبك من إيمان، تحاول أن تشدّ حباله، وتصلح أشرعته، وتدقّ المسامير في أخشابه المهشمة، لكثرة ما تصفعه الرياح العاتية والأمطار، وهو يترنح فوق الأمواج.

أيقظ الحمار الذي في داخلك!

لم ينجُ كائنٌ حيٌّ من ظلم هذا الإنسان الظلوم، حتى الحيوانات في أعماق البحار البعيدة، وهناك مخلوق ناله ظلم غفير؛ لأن إحسانه إلى الإنسان - على ظلمه - يجعل مظلوميته مضاعفة. نعلم أن كل الحيوانات مسخرة لآدم، لكنه يحترمها، كالخيل، والأغنام، والإبل، إلا الحمار، فهو يجعله مثلاً للغباء والبلادة، ويبخسه ذكاءه العاطفي، فالحمار على الأقل يعرف بيت أهله جيداً، ويغذُّ الخطا مسرعاً إن اتجه إلى البيت، ويثّاقل إن وجّهته إلى جهة مغايرة، وربما يستقبل سيده بنهيق جميل عندما يراه بعد انتظار، وقد سئل عالم جليل من السلف: كيف بلغت ما بلغت؟ عدّد صفات كان منها: أنه بلغ ما بلغ بصبر حمار!.

ثم إن الله لم يهب الحمار عقلاً لتكون القراءة من وظائفه، لكن- على ما يبدو- أنّ خلق الحمار قد أدّى وظيفة جليلة وفّرت على العقل كثيراً من الخيال، عندما جعله مثالاً حسيّاً نقيس إليه من شرّفه الله بحمل الوحي ولم يحمله، أو من يقرأ ولم ينتفع بما يقرأ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: 62/ 5]، وهذا دليل صريح على أن الحمير من النوع الحيواني، أشرف مقاماً من الحمير من النوع الإنساني، فالنوع الأول قد نفيد منه في الحمل، أما الثاني فلا يحمل إلا الجهل، وإذا كان

الحمار غبياً، فهو غبيٌّ لشيء واحد، هو خدمته لهذا الإنسان الكفور، الذي يستعين به ثم يهينه. إذن؛ أيقظ الحمار الذي في داخلك لا لكي تحمل أسفاراً، ولكن لتستطيع الصبر على هذا العالم!.

حمار الفلانتاين

ما السِّر أو ما هي الرمزية الشاعرية في أن يكون الدّب المتوحش هو الهدية في عيد الحبّ؟ ويُحتال على وحشيته بأن يُصغر فيسمى: دبدوب، وليس فيه أي منفعة؟ لماذا لا يكون الحمار مثلاً؟ فهو حيوان أليف، مسالم، كانت له وظيفة جليلة منذ فجر البشرية ولا تزال في مجتمعات شتّى، ولمن لم يرَ حماراً (حيوانياً) في واقعه، فالحمار صبور، يعرف أهله جيداً ويفي لهم، ويمتاز بعينين جميلتين، في غوريهما حزن بعيد.

يجب أن نستبدل الحمار بدبدوب عيد الحب[1]، ولا نحتاج إلى تصغير اسمه، فهو مسكين مسالم، لا خشية منه، قد يركلك أحياناً، وهذا طبيعي، كما يفعل حبيبك أو حبيبتك، كلهم يركل وقد يركل كثيراً ويعض.

ربما، وأقول ربما، أن رمزية الدّب هنا، أن تذكّر الإنسان، بأن يقمع الدّب الذي في داخله فلا يفترس أحبابه، وكل جنايتهم أنهم أحبّوه فقرّبوه، ففتكَ بهم لما أدخلوه قلوبهم. فتحية إلى الحمير في عيد الحب، الحمير من النوع الحيواني لا الإنساني.

كم كلبٍ باسط ذراعيه بالوصيد ولكنكم لا تعلمون

ليس أجمل من أن تمشي في شارع يعانقه ليل هادئ، ويلهو فيه نسيم لطيف، ترحب بك سواعد الأشجار المورقة عن يمين وشمال، ثم تنسى نفسك

(1) الباء تدخل على المتروك في اللغة، أي إن الحمار أخذ مكان الدب.

وتدندن بأغنيات حالمات من تاريخ قلبك، وبعد أن تقطع سنين ضوئية من ذكرياتك وأمنياتك، يفجؤك نباح كلب يهوي بقلبك في وادٍ سحيقٍ من الرهبة!

وللهنود في مدائنهم شؤون!. إن عدد الكلاب في الحارة التي سكنتها في مدينة بانجلور الهندية، يفوق عدد كلاب قريتي، وربما أحتاج أن أضم إليها بعض كلاب من القرى المجاورة، ولا أظن الأمر كمثله في مدنٍ ودولٍ أخرى كأوربة مثلاً، فلم يكن الكلب نظيفاً، شفيفاً يعيش في المنزل كفرد من العائلة، لا، إن أمره يشبه كلب القرية، من حيث وجوده خارج البيت، لكن الكلب القروي لا ينسى مقامه واحترامه، إذ يبقى على مسافة واضحة من أهله، وإن صاح به أحد، فرَّ ووقف بعيداً!.

أما الهنديّ، ففيه من الثقة والصلف ما يجعله يزاحمك الطريق، ويخيل إليك أنك يجب أن تقول له: لطفاً، أريد أن أمر!. وقد حدث هذا حقّاً، مع صديقي اليماني يوم كنا نمشي، وهو يحدثني بلا انتباه إلى طريقه، فإذا به يصطدم بكلب! فجفل غاضباً وشاتماً وتذكر من فوره كلاب اليمن، التي تفرُّ أمتاراً كثيرة إن صرخت بها!.

ويجب أن ننصف القرى وكلابها، فهي بيئة زراعية غنمية غير مسورة، تحيط بها فضاءات شاسعة، تجعل وجود الكلب أمراً طبيعياً ذا وظيفة محترمة، فما بال مدينة ضخمة كبانغلور، تغص بالكلاب ويوشك أن يكون لكل بناية قطيع بقدر، وليس الغريب وجودها، فكل مدينة لا تخلو من كلاب في أطرافها، لكنّ الكلاب هنا تسرح في الأسواق، وتنام أمام المحلات والبيوت وفي مداخلها وقد تجدها في المحطة التي تفصل درجاً عن درج يعلوه، وتنعم بحرية تحلم بها شعوب غفيرة!. وأظننا يجب أن نتسامح مع أحفاد الكلاب الجدد، فلأسلافها مواقف مشرفة في تاريخ القلوب وهي تهاجر من أجل حريتها وإيمانها، فكم كلبٍ باسط ذراعيه بالوصيد لكنكم لا تعلمون!.

يغص قلبك

يغصُّ قلبك وأنت ترى آثار الابتسامات على الوجوه الحزينة المتعبة، بجثة أملٍ كان نقيّاً طفوليّاً كالفجر، لكنه قد اختنق في الأقبية المظلمة من نفس هذا الإنسان المرعب. يغصّ قلبك وأنت ترى جمالاً وكرماً في النفوس، قهرَتْه أيدي اللئام والقبح، فانهزمت السعادة في هذا العالم، وتعجب للقاءات الأقدار؛ كيف يصبح القبح ولي أمر للجمال، ويعبث بحياته، كيف لعينين كريمتين، بلون فيروز الشواطئ، أن يشهقا بالدموع بلا انتهاء، فيغصّ قلبك.

يعضُّ قلبك وأنت ترى اندحار الضحكة والحياة، وقد تخرج من بعض المحن أكثر اقتداراً على أعباء الحياة وأحيائها، لكنها قد تسلبك تلك الروح، أظنك تعرفها جيداً فيكفي أن أقول عنها: تلك الروح. وحتى إن رأيت ضوءاً ينبض من بعيد، فسيظل شبح الظلام يضيء حوله في نفسك، فتراه ضوءاً من ظلام، ولا تتخيل من ورائه إلا مراسيم الختام.

ثمة شيء احترق، ولن يعود، هذه سُنة الألم في القلوب، له نصيب لن يُسترد، ولن نكون بعده كما قبله. ليس أي ألم، إنه الألم الأليم الذي يصيب جوهر الروح النبيل فيتلف شيئاً منه.

لديك قلب يتألم بسهولة؟ إذن لن يحتمل كثيراً، ستنقص سنوات عمرك حتماً، ومن هذا الذي يقول لك: ادفِنْ قلبك، ألم يعلم أن القلب لا يُدفن؟ القلب يموت فقط لكن من غير قبر، وموته حقيقي، فلن يبقى لك وقت لتدفنه وتعيش به، هذا محال.

ثلاثة سلامات

أفهم أن تنطوي النفس على جرح من عزيز، فتبتعد عنه؛ لأن الخيبة تجثم على القلب فتنزع روحه فلا يشعر إلا بجرح كبريائه. أفهم، لكن ستبقى أعماقه العميقة تنزّ ماءَ حبٍّ صافياً يجري بما كان بين القلوب من ضحكات على ليالي الطرقات، واشتراك في أغنيات بثلاث سلامات، وذكريات، وهموم ومتاعب وأحزان.

لأن القلب الخيّر وفيّ لمن مسح على ألمه وقاسمه محنته، ووجد فيه مجمعَ لقاءاتٍ، سيظل يجد في ذاته ذلك اليقين الحي بمقام الجميلين الذي جمّلوا حياته وأعانوه لو لحظة على كسرها، وإن نزف منهم بما مشت به سنن الحياة من خلافات وضعف وأكدار وغضب، فذلك لتؤكد معنى الجمال بتضادها معه؛ إذ يعمق الوعي بتشاكس الأضداد والمتناقضات، فما أجمل الرضا بعد المشاحنة، والصحة بعد المرض، والفرج بعد الضيق، فما المساوئ إلا الوجه الآخر لقصة الكمال الكبيرة بين اثنين، وها قد نقصت بقدر الفراق المحتوم.

يا صاحب اليم والرمل، والمعنى والسفينة

تؤلمني النهايات المقفرة بعد ربيع مخضر بلون الحدائق والعصافير والابتسامات، وأحار بشعوري تجاه نصوص كُتبتْ بلون ذلك الربيع، أحضنها، أم أكرهها، أم أبقيها أم أمسحها؟.

أحار فيها، وتختصم في قلبي غصّة وابتسامة، ويتشظى بين حياتين من رضا وغضب، فيكون كمن اختنق تحت قبضة يدٍ محكمة، جعلته ينازع اعتصاراته فلا يقوى على الحركة والتقلب، وأحار في قدر القلب في هذه

الحياة، فما أتعس أقدار القلوب! يؤلمني حاضر النهايات، وأنا أرى من ورائها حطام الوعود، ويقين البقاء المتلاشي، ودفء المحبة البارد، فما أكذب الأمان والاطمئنان!.

تداهمني النصوص بلا موعد، كخطفة برقٍ تربك سير نياتي إلى المستقبل، وتشدني إلى هناك، حيث لا أحد هناك، فيكبر في نفسي وجع الحياة، وأبتسم بلا رغبة من غرورنا - نحن البشر - وصلف يقيننا أن نبقى على شيء أو نُبقي عليه. ما أشقى ذاكرة من يكتب، لأنه يقيم أسباب الحياة لكي تعيش آلامه فلا تموت، ويهب كل من عبروا حياته، فرصة أخرى لكي يمكثوا في عبورهم فلا يعبرون إلا إن نسي نصوصه قليلاً، وهل ينسى كاتبٌ نصوصه يا أبا الضحكة العلية، الأبية، الشجية، يا صاحب اليم والرمل والمعنى والسفينة، يا من أغرقتنا لتسمُوَ فوق الموج أمانينا، أحبك كلما انبعث صغار الحي يطوفون بأغانينا: (يلا بيناع المدينة، ناكل عسل وطحينة[1]).

احذر الفرعون الذي في داخلك

في نفس كلِّ واحدٍ منا، فرعون يجب أن يُحْكم فلا يطغى على غيره، فطيب العشرة يزيد كلما كان الإنسان أكثر إحكاماً لفرعونه فلا يشقي من يحيطون به، ويعظم هذا التحدي كلما قويت سلطتك، ومكانتك، ومقدرتك، وعلوت في أسباب الاستغناء، لأنها ستستفزك إلى الطغيان. وأسباب الطغيان كثيرة؛ منها: المال، والسلطان، والعلم، والصحة والشباب والجمال، ومواقع القلوب من بعضها.. إلخ.

ولهذه السُّنة شأن كبير في أمر القلوب فهي على خطرٍ منها؛ لأن المشاعر

---

(1) من التراث الشعبي المصري.

كالسلاح إن لم تعرف متى تستخدمه وكيف فقد تدمي من أحببت. فكل من ترفعه على عرش قلبك، فقد ملّكته جزءاً عزيزاً من حريتك، فإن لم يُسَس الأمر بحكمة سليمان فسيتصدع ببطش فرعون. فما أكرم من يبرُّ قلباً خفض له جناح ذلّهِ من الحب، فتسابقا على درجات البرّ والإحسان لتحار فيهما أيهما أعلى كرماً!.

أسير الأحزان وأميرة السحاب

في إحدى السنوات الغابرة، أيام بزوغ فجر الإنترنت ومنتدياته، والانبهار به، على تعاصر مع فورة الشباب المتطلع إلى سكن شفيف مع سكين لطيف من الجنس اللطيف. دعاني صديق إلى مأدبة موقع اسمه: مودة ورحمة، يؤلف بين قلوب أشخاص من وراء الشاشات لعلهم يتزوجون من أمامها. فجلست مرة إلى جواره في مقهى الإنترنت وبدأنا نتصفح.

كل مشترك يجب أن يكتب صفاته الجسدية: طوله ووزنه ولونه وتضاريس جسده.. إلخ، وكنا نتماسك بصعوبة على الكرسي لما تُذكر صفة القوام الرياضي، ويوشك أن نجهش بالبكاء.

ويذكر المشترك أيضاً صفاته المعنوية: كرمه، وشجاعته، وحزمه إن كان رجلاً، ورقتها، وأنوثتها الواسعة، وكرم عينيها، وإسراف حنانها إن كانت غير رجل.

ثم يحدد المشترك الصفاتِ التي يريدها في شريكه المرتقب، لعل الشروط تلتقي بالشروط، وينقدح الحبّ غير المشروط. وكان الموقع يعلن كل حين عن زواج فلان بفلانة، مثلاً زواج أسير الأحزان بأميرة السحاب، كدليل على إنجازاته الجادة وواقعية مشروعه.

الـذي لا أنسـاه ويضحكنـي كلمـا تذكـرت تلـك الأيـام، وكتبـت هـذا النـص مـن أجلـه: إن إحداهـن تشـترط بـأن يكـون شـريكها: عريــض المنكبيـن.

فـلا يـدري أهـي متأثـرة بقصيـدة الشـاعر الأسـير أبـي فـراس الحمدانـي، رحـب المقلـد (أي عريـض المنكبيــن)، أم بفلسـفة الفيلسـوف الرومنتيكـي عـادل إمـام فـي مقولتـه الشـهيرة: عريـض المنكعيـن، شـلولخ.

أكرمْ عتبك

العتـب لا يليق بـأي أحـد، فانظـر أيـن تلقـي عتبـك، وقـد يكـون مكرمـة منـك تضعهـا بيـن يـدي لئيـم فـلا يزيـدك إلا قيحـاً. فأنـت لا تعتـب إلا علـى عزيـز، ويـوم تصارحـه بمـا وجـدتَ فـي نفسـك منـه، فهـذه مـن مقتضيـات المـودّة الكبيـرة، لتعينـه علـى إزالـة مـا أحـدث فـي نفسـك مـن ألـم أو أسـف. لكـن اللئيـم أو الغشـيم لا يقـدر هـذه المرتبـة العليـة بيـن القلـوب، فيزيـدك عتبـاً علـى عتبـك، فتأمـلّ.

وإن كان هـذا بيـن البشـر، فلنـا فـي ربهـم مثـال أسـمى وأسـنى. يقـول تعالـى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: 41/ 24]. ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: 16/ 84]. أي لـن يعطيهـم الله ذلـك الشـرف، شـرف أن يرضـوه فيصلحـوا مـا أغضبـه عليهـم، ففـي أضـواء البيـان للشـنقيطي: اسْتَعْتَبَ تُسْتَعْمَلُ فـي اللُّغَةِ بِمَعْنَى طَلَـبِ العُتْبَى؛ أي: الرُّجُـوع إلـى مـا يُرْضِـي العاتِـبَ ويَسُـرُّهُ. وتُسْتَعْمَلُ أيضـاً فـي اللُّغَـةِ بِمَعْنَى أعْتَـبَ: إذا أعْطى العُتْبى، أي: رَجَـعَ إلـى مـا يُحِـبُّ العاتِـبُ ويَرْضـى.

للمكان تاريخ، هو تاريخ قلبك

أنا أقل الناس سياحة، وينعدم فضولي السياحي إلى درجة الصفر المقيت أحياناً، ولا أرى للأمكنة (السياحية) التي لا تشهد أجزاءً عزيزة من حياتنا أي معنى ما لم تعطّرها روحٌ محبةٌ لنا في جسد آخر من لحم ودم، نستعين به على وجع الحياة لنعيش بعضاً من جمال الحياة. سيصبح للمكان هنا روح ولسان وجَنان (بفتح الجيم هو القلب)، ويشدّنا إليه نسَب لا يقل عن نسب الدماء، سيصبح كالرحم الحاني الذي يتعاور عليه الإخوة ثم يخرجون إلى الحياة كقدر واحد، يقوي بعضهم بعضاً، وتعرف فيهم نعمة الأمان في السرب!. لعل أعظم خليقة نخسر إن لم نتقنها: خليقة تقدير القلوب الكبيرة التي تكرمنا بها الحياة.

فتعلموا كيف تجدونها وكيف تحافظون عليها؛ لأنها حقّاً إن ذهبت فلن تعود، والندم عليها لا شفاء له، لأنك لن تصادف بعدها إلا اللئام والحطام. تلك القلوب الكبيرة هي التي تجعل للأمكنة قداسة، وتُعلي بنيانها في القلب والذاكرة، وكل مكان ضمني وحبيب قريب أصبح في علّيي قلبي، أشيعه كل حين بدمع خفي، وغصة لا صوت لها.

ويعلم خاصةُ أصدقائي، لغة الأمكنة التي صهرتنا معاً، وحفرنا في تضاعيفها ضحكاتنا ودمعاتنا وأحاديثنا عن كل ما نحب ونؤمل، فللمكان تاريخ، هو تاريخ قلبك، ويقيني أن في الجنة نعيماً، تسأل الله فيه أرضك وبيتك وأمكنتك التي أمنت فيها وفرحت وكبرت ودرجت في سربك معافًى في بدنك لا تخشى على قوت يومك، ألا لعنة الله على الطغاة.

القبطان ممنوع!

لكل مدينة شخصية وروح كما البشر، عندما تلتقي بهم، وتتكون لهم خارطة في شعورك وعقلك، تدق أو تغيم حسب ما يهبه لك الظرف من وقت وعشرة، وكذلك أنت إن عرفت مدينة جديدة، انفتح لك باب جديد إلى الحياة وأحيائها، فتهتز تصوراتك الراسخة عما ألفته عنهم في أماكن أخرى، ويبدأ تشكل تصورات ومفاهيم جديدة، ها أنت ذا تنمو لأنك تحركت.

أول حواراتك يبدأ إلى طبيعة المدينة، جغرافيتها، مائها، وهوائها، وأمطارها، وأشجارها، وأطيارها، وأعترف أن أول ما خطف قلبي وأنا في المطار، وأنا القادم من رمضاء وصحراء، هو طعم الهواء، وكيف يدور في عروق الأنف كالعطر، ثم ينزل إلى الرئتين المغبرتين، ويغسلهما غسلاً، لتشعر أنك صعدت فوق الغيم!.

وكيف يحتضن الاخضرار البنايات المتطاولة، وينسرب بينها، كما تنسرب أوعية الدم في الأنسجة وتمدّها بالغذاء والهواء. إنها لوحة الحياة الأولى قبل أن يجور عليها جبروت الإسمنت والإسفلت، ويسجن الروح فتصبح كالإسمنت المسلح الذي يسجنها.

ثم ترى الأطيار المنوعة في الحدائق الملونة أو في السماء، تجاورك في كل مكان، وتعود بك طفلاً إلى مرابع القرية، حيث العصفور والزرزور والحمام واليمام، إلا أن هذه المدينة المطوقة بالماء تزداد بالنوارس التي تغزو عمقها، والغربان الرمادية جميلة، لا يطغى عليها السواد كسائر الغربان التي رأيتها في غير هذا المكان.

والمطر يهطل كل حين في الصيف فيغير معنى الفصول في عقلك، ويخض محلية مفاهيمك فتلين صلابتها.

الطبيعة حاضرة جداً هنا، وهذا عزاء كبير جداً للنفس المجهدة الغائبة تحت أنقاض الحياة الحديثة. فإذا انتقلت من لغة الطبيعة الأليفة وحوراها الجميل، إلى لغة البشر، الذين تزور مدينتهم، عادت ألفتك وحشة وغربة شديدة، وأشهد إن الغربة الأشد، هي غربة اللسان حقّاً، التي تشعرك أنك معاق لا حيلة لك، فينهض من عمقك إنسان الكهوف البدائي، وتستعين بلغة الإشارة والأشياء المحسوسة، ليفقهوا قولك، هؤلاء الذين لم يهزهم قهر الرجال وحاجة المال، ولا قربهم الجغرافي من الغرب، ليتعلموا شيئاً بسيطاً من إنجليزيتهم، من رتبة؛ One, Two, Three, Four، فيخففوا من شقاء زوّارهم، كما يفعل كثير من العرب في مدنهم وعواصمهم على تفاهة مسوغاتهم. ولكن لا أخفي كثرة التتبيب الذي أقوله؛ تبّاً لكم، هل أحتاج أن أتعلم لغتكم من أجل بضعة أسابيع أقضيها بينكم ثم أرحل وقد لا أعود؟!.

فإذا انتهيت من نعمة الطبيعة، ونقمة اللغة، وقفت عند نعمة الترفيه والدلال في الانتقال، الذي يعيشه كل مقيم في العربية السعودية، مستحضراً شقوته هنا، فآخر عهدي بالمشي المضني، كان منذ عشرة أعوام في سورية، لقد أعدت اكتشاف مفاصلي هنا! وحنيني إلى سيارتي في السعودية، أولى الحبيبات وأخرى الحبيبات، فما أتعس المشي في الأمطار وفي أضواء السيارات! لكن القوم بلغوا عذرهم في هذا، ولا أظن بقي شيء ليفعلوه كي تسهل التنقلات ولم يفعلوه، فالمترو يهدر تحت الأرض، والترام والمتروبوس فوقها، والباصات الطويلة والمتوسطة والصغيرة، كأنها أسراب من دلافين.

والشاي في المقاهي لذيذ، في تلك الكاسة الصغيرة الرشيقة، ذات الخصر الأهيف، تجاورها أشباهها من الحسناوات العجماوات من هنا

وهنا، ولسان حالي بينهن وأنا الأعجمي؛ واصل تدخينك يغريني، ثغر في لحظة تدخيني، والرقم القياسي الذي بلغته أربع كاسات متتاليات في جلسة واحدة.

ذكرتني بدمشق ركن الدين كثيراً، بتلك الأزقة، والأرصفة، والسلالم الإسمنتية المتعالية إلى قاسيون، بتلك المساجد، بسيماء الوجوه، التي كثيراً ما ظننتها سوريةً فإذا بها - إن نطقت - تركية! إلا أنني لم أرَ في دمشق حديقة واحدة تشبه جمال الحدائق هنا، بتهذيبها وترتيبها، يتجاور فيها ما يلهو به الأطفال، وما يتدرب به النساء والرجال.

والذي أتحفني جداً، يوم ركبت مياه البوسفور التي تقسم الأرض إلى قارتين؛ جملةٌ عربية كُتبت على قمرة قيادة المركب، ترجمةً لجملتين: إنجليزية وتركية (Captian's corner it is forbidden)، هي: (القبطان ممنوع!)، فهذا الذي بقي من العربية التي حملت ذلك الدين الذي جعل لهؤلاء سيادة العالم في يوم ما، لتكون هذه القسطنطينية لهم، فتحية لكم من إسطنبول. 25-6-2021

قضاياي الكبيرة

الحمد لله أنني نضجت قليلاً، فلم أعد أحتفي كثيراً بالكتابة عن القضايا الصغيرة، كصعود حزب الوقاويق إلى السلطة، أو تعافي الاقتصاد العالمي، أو المؤمرات التي تتربص بنا على موائد الماسونية العالمية، أو السلام في الشرق الأوسط اللا أوسط... إلخ.

لم تعد تشغلني هذه القضايا التافهة الصغيرة، فعلى المسرح كثيرٌ من الكومبارس الذي يظن نفسه يقوم بدور البطولة، وليس له من حبكة السيناريو الحقيقي إلا تخيلاته وأوهامه.

أنا منشغل جداً، بالقضايا الكبيرة؛ بموقفٍ نبيلٍ من صديق بلا أي منفعة كيف أكافئه؟ بابتسامة أمر بها أو تمرني على وجهٍ لا أعرفه فتهذّب رعونتي، بمزاج كاسة الشاي عندما أخلو إلى قلمي لأعيد تكوين الوجود على الورق. منشغل بترتيب حياتي لأكون حفيظاً على مسؤولياتي، فلا أمكّن الخوف من وجهٍ ينتمي إليّ ويراني سنده. منشغل بلحنٍ بليغ من أمر بليغ، تطير به الروح بلا انتهاء. بكلمات أغنية بطعم الحياة، تزيد إيماني بجمال الحياة. منشغل بأسماء مرّت من هنا، وملأت النفوس عطراً فهي تحيا فينا كلّ حين، وتشعل فينا دورة الحنين؛ (أنا عايزة معجزة تنقذني من الحنين!).

أنشغل أحياناً بتفاصيل المكان وأشيائه، بصمت المقاعد والجدران، وأشعر بنجوى خفية بينها، وأسافر طويلاً في ضوء المصابيح في السقف أو في ليل الشوارع، وأتساءل: ماذا تقول هذه الأشياء عنا؟ وكيف تنظر إلينا من عالمها؟

ربما تشفق علينا، وتأسى على عالمنا العائم فوق الدموع والدماء والأحجار.

ويشغلني أيضاً ويقلقني قليلاً، تضخم الملل في روحي، لأتعايش مع الغبار وهو يكسو بعض السطوح رغم حبي للنظافة والبريق، لكنني أنتصر عليه إن لبست حذائي، وأنسى قارورة العطر كثيراً مع أننا نلتقي كل يوم، وأهمل مواعيد الطعام، وأهرب منه رغم الجوع. وأتصفح كتابات الآخرين بصمتٍ، وأبتسم إن قرأت شيئاً يذكرني بسذاجة نفسي التي كانت، وأتمنى لهم وقتاً أقلّ مما مررت به ليبتسموا مثل ابتسامتي الآن. كثيرة هي القضايا التي تشغلني وكبيرة.

وأقرّ أخيراً بأنني منشغل بك، وأفكّر، كيف تنسجين أجملَ حروفي

عن بُعدٍ، وكيف تمكثين بين أصابعي بكل صلفٍ، وأعلم أنك لن تأتي، وقد مللت من هذا الشعور أيضاً، لكنني سأرثيه بسطرٍ واحدٍ قد أضعه إهداءً في آخر قائمة الإهداءات في كتابي الجديد: (وإلى حلمِ مجهولةٍ، وطفولةٍ، أعرفها في روحي جيداً، لكنني لم ألتقِ بها في عالم الأجساد، لعلها تأتي بعد رحيلٍ وقد فات الأوان، وتمرُّ من هنا فتجد هذه الكلمات، لعلها..)، لكنني لن أضعه، فليس مهماً وقد رحل النهار..

كما ربياني صغيراً

ربي اغفر لي ولوالدي كما ربياني صغيراً: إن طلب المغفرة لمن رباك وأنت صغير، قانون تخطه هذه الآية.

وهل التربية محصورة بوالدين وطفل؟ ألم تبدأ في وظيفة جديدة، ووجدت أمامك موظفاً كريماً ذا خبرة، ينفق من خبرته ووقته وراحته مخلصاً، فيعلمك حتى تبلغ أشدك فتمضي السنون وقد تتفوق عليه وتنال مكانه أو أكثر؟ ألم تسكن في مدينة جديدة، وحيداً، الغربة تصفر في قلبك، فتجد صديقاً يؤنسك فيها، ويعلمك مداخلها، وكيف تعيش فيها آمناً، فيزيل جهلك، ويدلك على كل ما يجنبك شرها؟ ألم تبدأ دراسة، فتجد لك زميلاً يسبقك، فيذلل لك كل صعب، ويجنبك عنتاً كبيراً، فيخفّ كبدك ويسهل نجاحك، وتبلغه بأسهل ما يكون؟ في الحياة، مواقف كبيرة وكثيرة، تكون فيها ضعيفاً صغيراً، فتجد من يربيك حتى تبلغ أشدك، فحقه عليك أن تقول: ربي اغفر له كما رباني صغيراً، والتربية هنا بنت الرحمة؛ أي كان رحيماً بك ولم يطغ عليك لضعفك، بل خفض لك جناح الذُّلِّ من الرحمة، فيا ربِّ أنت الرحمن الرحيم، القوي، ونحن ضعفاء أمامك، فاغفر لنا ولكل من رحمنا فربانا يوم كنا ضعفاء.

حديث في البر

إن البرَّ - قرآنياً - إنفاق مما نحب، فهو المعلم الأول للنفس لينقيها من أنانيتها، إذ لا يشقّ على النفس شيءٌ كمشقتها يوم تكابد التخلي عن شيء من محبوباتها.

وفي البرّ أن تنفق مما تحبُّ لمن تحبّ، وفيه لمن لا تحبّ، ولعل هذا البرّ أعلى مقاماً؛ لأن النفس تكره برَّ من لا تحبه، ولكن إن كان في قلبك الله لا خلقه، فسوف تجتاز هذه العقبة، وإلا ففي البشر كفران وجحود يقطع جذور البذل في القلوب. ولا أرى كالبرّ دواءً للكره، يشيع الحبّ والسلام بين الناس.

البرُّ مفهوم جامع لكل فضائل التكريم الإنساني، حتى وقتنا الذي نحبه، عندما نجعل جزءاً منه للناس، هو إنفاق مما نحب، وقد أخصص جزءاً من وقتي، أتفكر بك، بأعمالك الطيبة، بتقدير تجربتك في الحياة، فأشهد لك بما تستحق؛ لأن عدم التقدير مؤلم، عدم الإحساس بالجهد والعطاء مؤلم، فكيف بالبخس والظلم والإهانة وإشعار متعمد بالتقصير، إن هذا لمذبحة للروح، يذبح العلاقات، يقتل الحب، يضيع الرحمة، ويملأ الدنيا شروراً، بين الآباء والأبناء، والإخوة والأزواج والأصدقاء والزملاء.

وكأن وجوده جناية كاملة!

إن جدلية الذنب والتوبة بسيطة جداً في القرآن، إن أذنبت أو أسأت، فتُبْ، واستغفر وأصلح وتصدّق، وثِق بالله الذي يغفر الذنوب جميعاً، وإن أذنبت ألف مرة، فتُبْ ألف مرة، وهكذا.

والدين يحرص أن يخلق تلك اللياقة النفسية عند الإنسان، لياقة

الاعتراف والإصلاح فالشفاء: الاعتراف بضعفه وخطئه ونسيانه وخور عزمه وقصوره عامة، ثم الإصلاح واستئناف الحياة، والشفاء من أي ندبات نفسية دائمة تخلقها الذنوب، فتخلّ بتوازن الإنسان فيمرض، ويضيع سكنه.

لكن الذي يحصل، أن الهيل بلا كيل في التربية الدينية الوعظية، يجعل الإنسان عدو نفسه، لا يعترف بحقيقتها، ويعيش في مثالية يتوهمها، فلا ينجو من عقد الذنب المستمرة، واللوم المزمن، وكأن وجوده جناية كاملة! ويظل يدوخ ويدور ويجترّ آلامه إلى ما لا نهاية فيتلف أعصابه وأعصاب من حوله.

صباح الخير أيها الغرباء

صباح الخير أيها الغرباء، أفكر بكم وأشعر، وأكثر ما أواجدكم في تنهدات الصباح، عند وجع البدايات، عندما تغص الروح بالضياء لتعود مرة أخرى إلى كبَد الحياة، تنسلخ كالجنين من رحم أمه، ولا مهدَ ابتسامةٍ يتلقفه، أو صوتاً يتعربش على أحلامه من بعيد وهو يغفو، لينهض به برفق إلى وجع الحياة، مثلما تفعل مع صغارها الأمهات.

صباح الخير من قلبي؛ لأن الصباح قاسٍ على الغريب، يزداد يتماً إن صحا على صمت المكان، وأدار كرتي عينيه بلا شهية إلى تفاصيل المكان بفائضٍ من الزمان.

صباح الخير، يا أهالي الرياح، يا أسراب الطيور، يا ندامى الألحان، لا تنسوا أغنية الصباح لعل صوتاً من ضحىً يعيد ترتيب المكان والزمان في الأنفس، لعل وردة تُعطر مللَ الوجود، لعل شيئاً - لا أدري ما هو - يجعل للانتظار معنىً، لعل..

فيصلياتٌ قصيرة

1. إن عظمة الدمع وعزته، الندرةُ، يوم يتحدّر بهدوء لا يراه أحد، يتوارى من الضوء، يمسه فيلمع على استحياء، لا أن يكون مبذولاً مبتذلاً تشمئز منه كل عين رائية.

2. اقتصد في أحلامك حتى لا يصيبك داء الخيبة؛ إذ كثيراً ما يتنكر الوهم بزيّ الأمل.

3. بيننا مسافات لا يطويها إلا شيء يشبه الغيب، فإن لم يعانق إيمانٌ به قلبك، فلنتعلم تأويل حروفي.

4. أبعد الناس عن غيب قلبك أو شهادته، شخص يخر على حروفك أصمّ أعمى ثم يزعم أنه من الذين يفقهون تفاصيلك الصغيرة!.

5. ما أسهل الحكمة والنصائح عند من بدأ معك الطريق ثم تخلف عنك بغير إرادته، أو لأنك سبقته، فرأى مآلك المرّ ثم أصبح حكيماً.

6. قد يكون الهدوء شكلاً مهذباً من أشكال البلادة.

7. إن الورد لن يكفَّ عبيره، وإن تجاهله العابرون.

8. مهمة القلم الأولى أن يقف عند ألم الإنسان وخسره.

9. ما أجملَ أن يتصل الحلم بما في أيدينا من عمل، فنسعى لجعله حقّاً في حياتنا، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

10. لقد وضعت الأحلام أوزارها، فشكراً لصمتك فقد أعان قلبي على النبض بهدوء.

11. ما أصعب الكتابة عندما تريد أن يقرأك آخرون ويجهلك آخرون، وما أشقى الكتابة عندما يقرؤك العابرون، وأنت عابر في حياة من أقام في حياتك.

12. الذكرى رصيد الألم، يتنفسها الحزن بكامل رئتيه.

13. قال لي: تاريخي مليءٌ بالخسائر، قلت له: لأنك لا تفكر إلا بالنصر.

14. وكم ظُلمت حقيقة في عيون قارئ، لأنه رآها بكثير ظنه.

15. لا يغرنّك مشي بعضهم على قدمين، فقد تمشي أفكاره على أربع!.

16. نور القمر أكثر إلهاماً من ضوء الشمس، رغم أنه انعكس عنها، ربّ مبلَّغ أوعى من سامع.

17. إن الصمت هو الغياب الفجّ في بعض الدقائق من عمر الاحتياج، فالصامتون مؤلمون جداً، كالثرثارين.

18. وإني أتنفس من أصابعي عندما أختنق بك، وهيهات يا أمية الروح أن تعي معنى الحياة في الحروف عندما تصبح أكسجيناً.

19. وهبنا الحزنَ أعماراً عندما علّمناهُ الكتابة، يا ليتَنا أبقيناه أُميّاً.

20. قد لا تمهلك الحياة أن تحمل ما تشاء من ضغن على أحد، فالموت أحفى الأطراف بكم، فيا حسرتا إن تدليت بالضيقتين؛ ضيقة القلب، وضيقة القبر.

21. عندما وقفت أمام صورتك، تذكرت ذلك التحذير على شاخصات الطرق: احذر النور المبهر.

22. سأتعلم ترشيد الأمل كي لا أتضخم بوهم اقترابك.

23. الأمل الأعزل، نزيفٌ دائمٌ.

24. السياحة ليست بالأماكن بل بالأشخاص، فإن فُقدوا، فقَدَ المكان مكانه.

25. كم من فكرة أو ظن بلغ منا ما يبلغ السكين من الجسد، وليس له سند من حقيقة أو واقع، وكم من سوء فهم، حشد قلباً على وهم.

26. السؤال والاهتمام من أمر الحنان الذي تتفصد له القلوب امتناناً، فعين الرحمة أن تتبلد أو تقسو!.

27. لا أفقرَ من حياةٍ نتسول لها هذه الشاشات، لنقنع أنفسنا أننا أحياء يحدثنا أحياء، وتفيض أحرفنا من حرقة المعنى على ضفاف العابرين فلا يعبرونها.

28. سرت فينا الكآبة وشاخت الوجوه والعيون، يوم استبدلنا ضوء الشاشة بضوء الشمس.

29. لا يُراودنَّكَ الدمعُ عن عقلك فتستسلمَ لظلم صاحبها أو ذبحه، فكثير من الدموع على حقيقة ناب ومخلب، وكذلك الابتسامة.

30. ما أكثر الأسماء التي لم ينزل الله بها من سلطان، لكنها نزلت بسلطان الهوى في الأذهان.

31. أظن في جهنم صنفاً من العذاب النفسي تقربه لنا مراجعة الدوائر الحكومية.

32. لا يمكن لوطن أن يموت بشرف، الوطن إما أن يعيش كريماً أو ذليلاً، لا خيار للأوطان مثلما الإنسان.

33. كلما ضاق هذا الصدر، رحُبَ صدر الحرف، فلا تفرحنَّ بغزارة حرفي، إنه رسول الألم أو الملل أو النقص.

34. قليل العطر ككثيره، لا خيار له إلا أن يبوح، لكن كثيرك بلا رائحة!.

35. لو خُيّر الخميس أن يكون إنساناً، لاختار أن يكون أُمّاً، لأنها أكثر المخلوقات حياةً تخضرُّ باللقاء.

36. الأفكار كالأخطار، تعمل صامتةً في داخلك كنملة، فاحذر أفكارك لا تحطمنّك وأنت لا تشعر.

37. بعض العقول استثناءٌ ضوئي في عصر الظلمات، وبعض القلوب كالبحيرة الزرقاء، ترتعش لأدنى هبة نسيم، ارتعاشة القلم حين يعانق الورقة، ويلوّن أفقها الأبيض بالمدى الأزرق.

38. العقبة هي نفسك، وفكُّ رقبتها مفتاح كل شيء، جهلك بها، ضعفك أمامها، جلدك لها، قسوتك عليها، تساهلك معها، إهمالك لها، تفاصيل كثيرة عنوانها الجامع: ظلم النفس نفسك هي جيش الفتح أو ثغر الهزيمة.

39. في وحدة الذوق الموسيقي والغنائي وحدة روح، ويعظم التجافي كلما بعدت المسافات بين الآذان، وإنه لتطرفٌ يقتضيه المقام، أن أقول: لا ينبغي لأحد أن يتصل قلبه بإنسان لا يتحد معه بهوية لحن واحد!

40. عجبتُ لقارئٍ ليس له ضجة، إن الابتهاج بالمعرفة لا يعرفه إلا الأطفال لأنهم لا يزالون على فطرة النقاء والدهشة، ولم يتعلّموا بعد تكلف الصمت وإخفاء ما يدهشهم ويصنعهم.

41. أنعم بكاتب فذّ، تجتمع العقول والقلوب على مائدته، اجتماعَ العصافير

على ضفاف الجداول العذبة، كأن قلمه وطن كامل، تأوي إلى صدره آلاف القلوب المتعبة في عالم الاغتراب.

42. قد لا يصبح الدم ماء لكنه قد يصبح حبراً، فما أجمل رحم القلم، الذي ألف بين قلوبنا عبر هذه الزرقاء.

43. أحبُّ الكتابة على المناديل؛ لأنها تتشرب الحبر، كما يتشرب المعاني قلبي ويغوص القلم فيها، كما تغوص المعاني في نفسي، وأشعر بضيق عندما أكتب على سطح صلب! لأنه يمنع القلم حريته، فلا يتمدد بمشاعره كلها.

44. اقطع الطريق على لذة الوهم بألم التجربة وقسوتها، فنعم الألم هو، ونعمت القسوة هي.

45. شيء مثير للشفقة أن يكون إحساسك بنفسك، حجاباً كثيفاً يطمس على بصيرتك، فلا ترى الحقيقة إلا بمقدار ما تداعب ذاتك العلية.

46. يجاورني في نافذتي عشُّ حمامٍ، مهجوراً، يؤثثهُ الغياب والصمت، هجرته كل أطفال الحمام، أخذت ذكرياتها معها، وتركت له ريشة بيضاء كتلك الابتسامات المعلقة كجرح على وجوه الراحلين، فحار القلب أي الحزينَين يرثي؟ العش أم الريشة؟ كن بصبرٍ أيها العش الصغير، هكذا هي أقدار المنازل في الحياة.

47. ليس في هذه الحياة شيءٌ من الحقيقة إلا قميصها الملطخ بالدماء، إذ يبدو أن الحياة تحتاج كثيراً من الوهم، والكذب لتخفَّ مرارتها، فالحقائق لا تعيش بين الناس، فكل ما في الحياة يتواطأ على دفنها أو سرقتها، أو تبديلها. وكلما عرف الوعي شيئاً عنها، مرِضَ بها، وحزن لها، وعمي

منها، لكأنه يعقوبها وهي يوسفه، الذي لا ذنب له إلا وجوده، ولن تتأول رؤياها إلا يوم القيامة، هناك ستخرج من سجن البشر إلى عدل الله.

48. لا شيء في هذا الوجود، يخيط جرح الفراق، سيبقى هوة سحيقة، تتسع بصمت، حتى تحيط بالإنسان كله، فتصير مسرحاً مألوفاً في حياته، يقف عليه مؤدياً دوره بكفاءة، يرسم ابتسامته، غيمةً شفافة من ورائها غروب رحب، بذلك اللون الوقور المسجى بالحنين الحزين، سلامٌ على المفارقين الطيبين، أحياءً وأمواتاً.

49. ما أكبر غرورنا! كم علّمتْنا مرارة الخسران والقهر من اختيارات أو قرارات أو أعمال؛ أننا قاصرون، متعجلون، جاهلون، ولا نزال نظن أننا حكماء! الموجع في حقيقة هذه الحياة وسنتها أننا لا نبلغ الحكمة إلا بالألم والأخطاء، وبمرارة الخسران والقهر من اختيارات أو قرارات أو أعمال، فكم نحن جاهلون ومتعجلون وقاصرون. والأكثر وجعاً أن يكون لتلك الأخطاء نتائج راسخة لا تزول، يزول قصورنا وجهلنا وتعجلنا لكنها لا تزول، كالندبة التي تمكث في الجبين إثر حرق بليغ، تقول لنا أمام كل مرآة: ها هنا حدث حرق.

50. من التجارب التي أُكْبِرُ سلبياتها (أراها مؤذية)، أن تشارك أحدهم نصّاً عزيزاً عليك، لما تتوسمه فيه من شمائل التذوق والحس، والتقدير؛ أنْ يقدر حرفك قدره، فيكرمه، فلا ترى منه إلا سطحاً مسدس الأضلاع يتكور على إهمال بارد، وتشعر أن بعض البشر يكونون فطرةً، عراةً من اللطف مهما خُيّل إليك من رهافة ذوقهم.

51. إننا مدينون إلى الأشياء الضارَّة في كثير من الأحيان؛ لأنها تفعل فعلَ اللقاح في جهاز المناعة، تكبّره وتكوثره، فيستقوي به على قادم

الأمراض، وكذلك الأشخاص الذين يجعلونك تندم على صنيعك معهم، إنك تحتاج ذلك الندم وما يكون معه من ألم لتنضج فيك لياقات نفسية منيعة، فالطعم المرّ أبلغ في دين الوعي من أي طعم آخر، فكنْ جديراً بمراراتك.

52. الدراما في الحقيقة هي تجليات الشخصية الإنسانية بكل ما فيها من تناقضات وخير أو شرّ، وهي تتفاعل مع مثيلاتها في الحياة، ثم ظهر المسرح ومن بعده التلفاز ليمثل ذلك الوجود الحقيقي. الطريف أن هذه اللفظة انزاحت انزياحاً سلبياً، وصار يقال لمن يفتعل المعاناة أنه يعمل (دراما) أي يمثّل أو يبالغ!

53. ليس كالمرض مصيبة حين يجتمع والغربة والوحدة. يوم أمرض ولا أحد عندي، أتمنى أن أعود طفلاً في حضن أمي؛ إذ تصبح معنوياتي قاعاً صفصفاً، وأشعر ببؤس الحياة وقسوتها أضعافاً مضاعفة، أحلم بيد تمتد نحوي كيد من خلال الفقد مُدت ليتيم، فليست الغاية كاسة شاي أو ماء أو طعام، بل اليد التي تحملها، لأن كل ذلك الغذاء الجسدي ما هو إلا رسول الحبّ وغذاء الروح، يجبر خاطر الغريب ويكفكف من حزنه ودمعه.

54. خطورة الكتابة الإلكترونية أن التعديل فيها ممكن، وهذا سمة إيجابية وسلبية؛ إيجابية لأن الإنسان يتحرر من أسر أخطائه فالإصلاح متاح دائماً ولديه فرصة لكي يتراجع عما أسلف، ولن يبقى تحت سياط الندم، أو نقد البشر. وسلبية لأنها تلغي التاريخ، وتخفي ذلك التدرج النسبي إلى الكمال، لأن جماله لن ينفصل عن كل نقص سبقه، فهكذا نحن البشر، جمالنا وسرّ جاذبيتنا، أننا نكبر في الزمن ومعه لنبلغ أشُدّنا.

55. من يُعمل عقله كما تعمل قضبان السكك الحديدية؛ خطَّين متوازيين صارمين، سيريد من الناس والتجارب والواقع والمفاهيم أن يصبحوا قطاراتٍ لكي تصبح الأمور مفهومة له وصحيحة، وتمشي بسلام إلى غايتها المنشودة، فليس الحلُّ أن يصير كل ما في الحياة قطارات، بل أن تبني عقلك من جديد ليكون مليئاً بشبكة معقدة من المسارات المتوازية والمتقاطعة والمتضادة والنازلة والصاعدة، والمنتهية والمفتوحة، وأن تبقي فيه مساحات فارغة تتشكل دوماً لتستوعب العالم المتجدد دائماً.

56. كلما قاومت تلك النمطية في الحديث عن (الشتاء)، راودتني عن نفسي تلك النسمات التشرينية الباردة، ووقار الضوء في الليل، وذلك الانحسار الآسر في الحركة والجسد واللسان، والنخبوية في نشاطهن، كأنك تنكفئ إلى نفسك وإلى الصفوة من محبيك، كانكفاء الطيور إلى أعشاشها عند الغروب والمطر، هذه الأجواء تتواطأ بصرامة مع العزلة، وكل شيء خافت، أو هادئ أو صامت أو ملهم، أو دافئ، من اللحن واللون والعطر والأشخاص والمشروبات.

57. بعض الصور كالضوء في سرعته، تختصر مسافاتٍ شاسعة من فضاءات المعاني العميقة، وتلتهم مساحات الشعور بقسوة بعنف، لكنّ بعض النفوس نواقل رديئة، يعجز ضوء المعاني عن السريان في أوصالها، فاستراحت.

58. إن الجراثيم والفيروسات تبقى كامنة، حتى إذا آنست ضعفاً في الجسم القوي، ضربته الضربة فخرَّ لها هدّاً، فكن قوياً، لتحصر عدوك في أضيق زاوية من شره، سيعضّ أنامله من الغيظ، لكنه لن يستطيع أن يقتلك، فالضعفاء هم سبب الشرور في هذا العالم!.

59. الضعف هو الشريان الخفي الذي يغذي الطغيان، فالضعيف لا يعز حقاً، ولا ينصر مظلوماً، ولا يحمي أمانة، ولا يبني حضارة، ولا يرهب عدواً، ولا يقيم عدلاً، ولا يطعم عائلاً، ولا يؤوي يتيماً، ولا يرشد ضالّاً، ولا يشفي صدراً مؤمناً. إنه لا يعجب الصالح فيتبعه، ولا يرهب الظالم فيردعه، ولا تعزّ له دنيا أو دين. إنه الفتنة كلها، وأظنه كبيرة الكبائر يوم تبلى السرائر.

60. تعلمك الحياة أن أكثر قوانينها صدقاً: أن لا شيء يأتي من المرة الأولى، وكل من يعلمك خلاف ذلك فهو يؤخر نضجك، فلا نجاح كبيراً يكون من المحاولة الأولى، ولا حب كبيراً ينشأ من النظرة الأولى، ولا حق يأتي من التظلم الأول، ولا خطأ راسخاً يزال من الإصلاح الأول. وفي شرقنا المنكوب، إن حدث شيء من المحاولة الأولى، فاحمد الله الذي جعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فهم لا يشعرون، فنجّاك من كبَد كبير. عوِّدْ نفسك على المرة العاشرة لا الأولى، وعودها مرة أخرى أن العاشرة لن تنجح أيضاً.

61. لا أدري أهو من شقاء الإنسان أم سعادته أن يحمل في ذاكرته ملف عذابه، يوم تتداعى الصور أمام عينيك، وتفجعك أن العمر قد رحل، وما كان جميل قد ذبل، وما كان قوي قد جثا، وما كان مستقيم قد انحنى، وكم تسرقك الحياة، لتفجعك ذات يوم بلحظة انتباه، تدرك بها كم أنت خاسر، لحظة وَقَفَتْني يوم طالعني وجه أمي بعد سنين من عمر الغياب، كنت أحسب أن الزمن لا يزال ينتظرني، ولما رأيت عمق الأخاديد في وجهها، خدّدت وجنتيّ الدموع.

62. نلهو كثيراً بالحديث عن الموت، فمنا من يشعر أنه سيعيش طويلاً، ومنا من يشعر أن عمره قصير قصير. لا أعلم تفسيراً جيداً لهذين الشعورَين.

لكنني أشعر أن للأمر علاقة بشأن القلوب، تلك القلوب التي لا تعرف كيف ترشد طاقتها وتعاملها مع الأحداث والأشخاص، تلك التي تتألم بطاقتها الكاملة فتحترق بإسراف شديد فتُجهد الجسد كله، حتى يؤول إلى نهايته فجأة وعمره لا يزال باسماً!. وما طول العمر هنا؟ وما نعيمه في لجة هذه الاحتراقات؟ لعلها رحمة بالغة أن تنطفئ قلوب كهذه، وتغادر سريعاً. قد يشبه هذا توهج عود الثقاب الشديد، يتوهج بقوة لكنه يخبو فجأة في ثانيتين، ثانيتين كافيتين للمرور من هنا.

63. رفضت كثيراً (فكرة الحظ)، وكنت أراها وسيلة الذين يريدون أن لا يحاسبوا أنفسهم على تقصيرها وقصورها عن اتخاذ الأسباب التي تفتح لهم الأبواب، لكن أحاديث الواقع بليغة جداً في إثبات الفكرة المضادة لهذه الفكرة. إن الدهشة لتصيبك من عمل الأقدار وهي تزيد المريض مرضاً، والفقير فقراً، والمتألم ألماً، والغني غنىً، والقوي قوةً، والمستريح راحةً، وكيف ينحت بعضهم الصخر نحتاً فلا يعودون إلا بالفتات الذي يعلق بأظفارهم، أما غيرهم، فيكفيه أن يوجد ليوجد له كل شيء أو أن يهشّ برمشه لتستجيب له متناقضات فتنتظم وتقول له: هيت لك!. إن الإيمان ليس ترفاً هنا، بل هو الدواء المرّ الذي يجعلك تحتمل هذه الحياة، حتى حين.

64. أحلم بمكتبة ضخمة، في حضنها مكتب، وحولي رفوفها وطيوفها، وتكون حبيبتي وأكون شغوفَها، في غرفة لها باب، في باطنها أنا ومكتبتي الورقية، وظاهرها من قِبَلِها مكتبة أخرى، لها عينان كأنهما غابتا نخيل ساعة السحر، واحدة تلهم عقلي، وأخرى تلهم قلبي، وكلاهما عقل، وكلاهما قلب، أمشي بهما في هذه الحياة إلى حياة أخرى.

65. بعض النفوس مرّت في حياتي كالضوء يفرُّ من أمامه الظلام، كانوا كالليلة المقمرة، كالأفق البحريّ يهديك الاتساع، كهدوء الفيروز الشاطئيّ من العطاء، لكنني بخلت عليهم بحرفي، وكم كان ينبغي لهم وينبغون له.

66. هذا زمان القلب حين ينكسرُ، فاجمعْ دموع الليل، فالكل ينتظرُ، ففي اتساع هذا الليل، ما يكفي من الوسائد لإخفاء جناية الدمع، فأوقد اللحنَ الذي يئنُّ مثلك، لتتشاركا يتم العزاء الغريب بما مضى، ولما سيأتي، واكتبْ، اكتبْ كثيراً، ففي الكلمات روحٌ غريبة مثلك، تبحث عن رِيٍّ لا وجود له، وتخربش مثل طفلة على زجاج الانتظار، وها قد رحل النهار، ولم يرجع أحد.

67. كل النظام الأخلاقي ينهار ويصبح لا قيمة له، عندما يكون الأشرار هم الأقوياء وهم الذين يقودون هذا العالم، لأنه لن يسود حينها إلا (شريعة الطغيان) شريعة قابيل، وشريعة فرعون، أما هابيل وموسى فليس لعالمهم إلا الدماء والدموع والأحجار والحزن الطويل. لن يتغير شيء ما دام الأخيار لا يعرفون كيف يكونون أقوياء، لكي لا يغري ضعفهم الطاغوتَ فيطغى عليهم، فالضعفاء هم سبب الشرور في هذا العالم، لا بد من عالم آخر يمسح الله فيه هذه الدموع، وتصان ضحكة الأطفال.

68. عندما أرى أظفاراً مصبوغة بالأسود، أتوجس في نفسي خيفةً واستغراباً، وأشعر أن هذا دليل أنثوي يعضد النظريات التي ترجح أن الإنسان، قد انحدر من سلالة ما، ليس حتماً أن تكون قردية، لكنها متوحشة، كانت أظفارها سوداء، ثم ابيضت، وما استحلاء المناكير الأسود إلا حنين إلى جينات التكوين الأول، هذه فكرة في أنثروبولوجيا الأظفار!

69. إنها لحظة مرّة أن تخطئ تقدير الأشخاص بعد رحيل العمر، فلا تشعر بخسارتك إلا بعد أن ينبّئك مرُّ الأيام وصفع التجارب، فلا تخف إلا من نفسك يوم تثمّن من يدخل حياتك، فالخسارة الحقة أن لا تميز الماس من الفحم.

70. إنك مغبون أيما غبن عندما تحرص على الذي يخرج أسوأ ما فيك، فترى نفسك معه عارية من الفضائل، تكبر في عيون كل الناس إلاه، وكأنه خُلق ليعينك على كره نفسك، فهو لا يرى إلا سيئاتها، التي تتضخم في شعورك عندما تعامله، فرَّ منه فرارك من الألم، لأن اقترابه قهرٌ وإن زعم لك أنه حب. 25 نوفمبر 2015

71. تلك النفوس العميقة كالمحيط، الهادئة كالنسيم، الوادعة كالحمام، المتوهجة من علٍ كالنجم، غزيرة كرواية روسية، شاسعة كمعلقة عربية، جميلة كخط عربي، أو نقش أندلسي.. تلك التي تجعلك تبحث عن شيء تخلقه فيك، فلا تجده من شدة قربه، لأنه فيك وليس فيك، هذا هو الشعور المحال، الذي يهزم الأبجدية!. 9 فبراير 2016.

72. ثمةَ أشخاص كالعطر الهادئ، تتشربهم الروحُ بلا صخبٍ أو مشقةٍ، لا يكتظ بهم المكان لكنه يمتلئ بهم، وليس في ذاكرة القلب أغنى وأعند من أثر الإنسان العطر، لأن الإنسان أسير لمن يجمّل حياته ويخفف كبَدَها، ويفتح بصيرته على تلك الزوايا المظلمة من جمال التفاصيل الصغيرة في الحياة. ولا شيء أخطر على قلبك من إنسان يتسلل إليك من دقة التفاصيل الصغيرة، ويحسن ترتيبها بما يليق باستنهاض حاسة الجمال الدارسة فيك. أظن أن السعادة تقاس بما

تحسه من جمال في الأشخاص والأشياء والتجارب، فكن عطراً لتمكث.

73. الحبُّ ليس عاطفة عمياء، تنشأ على غير هدىً كما تصورها الأفلام التافهة أو الأقلام، إنه حالة معرفية أولاً، تولد أفكاراً، تخلق مشاعرَ وميولاً بين اثنين، وتستطيع أن تراها بين أفراد الجنس الواحد المتحررين من سطوة الشكل المجرد، فلن تحبَّ الشخص حقَّ حبه حتى تعرفه حقَّ معرفته، ليصبح لشكله عمقٌ شاهقٌ لا يؤول معانيه أو يطاول قمّته إلا أنت، ولا حقَّ لمعرفةٍ بلا معاشرة في كبد الحياة الساخن، وما سوى ذلك، عالم مشاعر حالم، غير مكتمل، نصنعه لأنفسنا، ونكمله بما يحلو لنا من أحلام وأوهام وأغانٍ وأفلام، وهذا شيء جميل جداً لنخدر به هذه النفس القلقة!.

74. أكره العلو على الفطرة، والمكابرة في احتياجاتها، وكأن المرء أمن مخاطرها فهو في سلام مع نفسه، فالصراع هو الأصل في النفس الإنسانية، وكل جهادنا هو ترشيد نؤلف فيه بين تناقضاتنا؛ نخفف من حدتها ونعيش بقدر معقول يتماسك سلوكنا عليه. وما كثرة الدعاء بالهداية والتذكيرات إلا دليل على قوة هذه السمة التناقضية وشراستها، كأنك تمشي على حبل بين طرفين، وإن لم تتوازن عليه سقطتَ، وكلما سقطت عنه، فعليك أن تعود إليه، وتكمل، يجب أن تتصالح مع هذه الحقيقة بلا عقد أو مزايدات أو مكابرات.

75. لم أجد أغزل من بيتَي عمر بن أبي ربيعة في هند، في عجز بيته الثاني خاصة، حين قال:

ليت هنداً أنجزتْنا ما تعدْ وشفتْ أنفسَنا، مما تجدْ
واستبدتْ مرة واحدةً إنما العاجز مأن لا يستبد!
كلما قلت: متى ميعادنا ضحكتْ هندُ، وقالت بعد غدْ!

أي لا ينبغي لها الاستبداد مرة واحدة، فهذه شيمة العاجز! فقوتها واستغناؤها خليق باستبداد كثير!. ولكنه - كما أفهمه - ليس استبداد الغاشم الغشيم اللئيم، بل استبداد الجميل اللماح الماكر، الكريم، إنه قوة الأنوثة الناعمة، التي تستسلم أمامها بإرادتك وأنت ممنون سعيد، وتشعرك بأنك سيد الأرض وما حقيقتك إلا خاتم في إصبعها، ويحق لها ذلك! وقليلٌ ما هنّ.

76. الحضن محاولة يائسة لاستعادة جزئنا الذي تاه منا منذ لحظة التكوين الأولى، وكيف تسترد ما امتدَّ منك خارج جسدك؟ لذا فاستوى قدر القلب على اشتياق سرمدي، يحتال عليه بما استطاع من اللامسافة!. وهذه الحياة ليس لها لغة إلا المسافات، فكأن الحضن يقارعها منفرداً مضادّاً سننها، فيا له من جهد جهيد من أجل حياة الأرواح!.

77. إحدى الصفات التي تغلب على المرأة إن قورنت بالرجل أنها تتعامل مع إحساسها تجاهه أو حدسها فيه كوحي سماوي، لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، وكأن جبريل وُكل به من بعد ختم النبوة؛ لذا فهي تحاكم كل شيء إليه، وأحبّ إليها أن يكذب الرجل عليها، ليصْدُقَ حدسها فيه من أن يصدق فيكذبه!.

78. اللون الأزرق في عيون الأطباء ذو دلالة سلبية، فعلامة الازرقاق قد تدل على اختناق، أو يكون دماً وريدياً خالياً من الأكسجين، محملاً بالفضلات

وغاز ثاني أكسيد الكربون، يتصعد متعباً إلى الرئتين لعلها تنقيه من أعباء الحياة وأثقالها، فإن نُكبت الرئتان، أو تلوث الجوّ حولهما، فلن يكون في الحياة حياة، ألا فلْتعلم أن لكل شيءٍ عشرات المعاني التي تتشظى بين الأرواح بما لها من تجربة أو مهنة أو ألم.

79. إنك لست مركز الكون، فلتكن لوناً بين ألوانٍ، ولا تجعل الصواب أو الحقيقة حكراً على ذاتك العلية، قدس الله سرك، وأبعدك بُعده، مهما غاص في قفرٍ أو صدر. 15 نوفمبر 2017.

80. الفضل للجمال في هذه الأرض، بعض الابتسامات كالماء النازل من السماء، يحيي الله بها الأمل في النفوس، وبعض البشر بما فيهم من صفات، كلوحات من الورود في قطع من الأرض، تملأ كل حواسك بالجمال، فهي لعينك سيمفونية ألوان متناغمة، وهي لأنفك لوحة عطر هامسة، وهي للمسك حنان حرير مدهش، حتى صمتها يكون لأذنك أبلغ لغة ناطقة، حتى إذا ضجت كل هذه المنافذ بالجمال، عادت في النفس عموداً من الضوء النابض، يتجاوب هتفه مع نبض قلبك. 21 يونيو 2012

81. كلما ازداد القرب، ازدادت شدة الألم، وهل يؤلمك إلا جسمك، وجسم آخر يتصل بجسمك بشرايين من الروح والفكر التي نسخت (أبطلتْ) شرايين الأجساد، فإذا بقريبك غريبك، وغريبك قريبك. فواعجبا لأمر وجهاه حب وألم، إن اشتدَّ أحدهما زاد في الآخر، فاستوى أمر الحب على جبل من الألم، فإن آلمتكَ، فعذري أنه حب تبدى على غير حقيقته!. 16/ 5/ 2014

82. لا أدري عمق الخلل النفسي الذي يهوي به إنسان يفرض على أصدقائه أن يخاصموا إنساناً خاصمه هو لسبب ما أخطأ فيه أو أصاب، وإن لم يفعلوا فلن

يرضى عنهم وهو خصيمهم أيضاً! إنسان يريد كل الأنفس طوع رغبته مهما كانت، ولا يتدلى إلى حاله إلا حال من يستجيب له، إنها شيمة فرعون وأتباعه، التي تترفع عنها كل علاقة إنسانية رفيعة كالصداقة. 18 سبتمبر 2017.

83. فكرة التوازن مهمة جداً، وهي سنة الله في كل شيء، وهذا ما لمسته في علم الأمراض، فالصحة هي التوازن، والمرض هو اختلاله، وكل شيء معافىً ما دامت وسائل توازنه تعمل، وما السرطان إلا خلل في المورثات التي تصحح أخطاء انتساخ الحمض النووي، مثلها في الجسد كمثل حرية النقد البناء في المجتمع ومؤسساته، وسيلة حفظٍ، تراقب سير الأعمال وتكتشف أخطاءها، فتنبه إلى تصحيحها، فإن ضاعت تراكمت الأخطاء، وضاع الجسد والمجتمع. 16 سبتمبر 2017.

84. ما أعجل بعض الناس بالسوء إلى النيات، والجزم بالدوافع، إن العَجِلين إلى ذلك بلا دليل، إنما ينضحون بما في أنفسهم من ظنون وطبائع وتصورات، ملوّنين كلام الآخر بلونها. يحكم عليك بحكمٍ من أمّ رأسه، ثم يحاكمك إليه وكأنه الحقّ المبين!. إنه يحتقب أحماله ويرميها عليك بلا هدى، ليهصر الواقع كما يحلو له، ليريح كِبره. ماذا تسمى هذه المحورية حول الذات؟ إنها ذاتيةٌ متضخمة، تطمس على قلب الإنسان فلا يرى الأمور إلا بما يتوافق وذاته العليّة. 18 فبراير 2017.

85. أنعم بحرف كالرحم يجعل حجم شرايينك بحجم العالم، تتجاوب فيها قلوب الأحبة من كل مكان، كأنها مقطوعة موسيقية، تترقرق كالنسيم بين جفني الغروب البعيد، أطلَّ عليه من تلة صغيرة، اعتدت رقيَّها بجوار بيت أهلي القرويّ وكانت لخيالي وطناً.

86. أنعمْ بهِ وجهاً يُتلى، صادقَ الاستدارات بلا مطاط، وابتسامةً تملأ القلب برغبةٍ طفلةٍ إلى الحياة، ويدين صافيتين كضمير طفلٍ، تعيدان نعمةَ الحقيقة إلى حاسة اللمس، وعطراً يوشك أن ينعدم من لطافته وهدوئه، يزيل أمية الشم، وصوتاً ليّناً يكتم صخب الحياة والأحياء.

78. أحببتُه، حرفي، لأنه جعل لي أرحاماً على امتداد هذه المساحة الزرقاء، تزمّلني أدعيتهم الدافئة وأمنياتهم النقية، فيحار دمعي إن مسّتْهُ معانيها، وأشكر الله على نعمائه؛ إذ منَّ عليّ بالقلم. 1 مايو 2015.

88. ويبقى الحرف أحلى الأقدار، وتبقى الكتابة هي الصخرة التي يرتد عنها جبروت الزمن، وهي المعاد الذي تنتهي إليه عمراً آخر، يتّحد في الزمن فيمنحك الخلود، ولولا الكتابة لما رأيت إحدى أنفسي التي كانت قبل أشهر، رأيتها من نافذة ألمي الذي يلوكني هذه اللحظة، لكنها كانت تتربع على قمة الأمل والابتسام، فقالت لي: لقد كنتَ أنا، لا تنسَ ذلك، فتذكرتها وابتسمت. 7 أبريل 2014.

89. لا أجد حديثاً نبوياً يشيّب النفس ويضعها أمام نفسها كحديث الفسيلة! إنه يأمرك بالعمل والأمل والساعة تقومُ، والسموات والأرض يلفظن أنفاسهن الأخيرة. إن جوهرَ الإيمان حربٌ على اليأس ولا شيء أكثر من ذلك، ويا لها من حرب!. غرس الفسيلة هو الوسيلة، ولـمّا تقُم الساعة بعدُ، إذن فالمصاب هيّن!.

90. أيها المنفي في فلاة، لا تخف إلا الذئب على غنمك، حدودك سماء شاهقة، وأرض ساحقة؛ لا تأسَ على ما فاتك من حياة المدن الكبيرة الوفيرة، والشاشات الكثيرة، فقد نجوت من أثقال وأهوال، ومن الجري كالمسعور

وراء لا شيء، ما أكثر الأدوات التي تريح الجسد، لكن الروح معلولة والبال مكتظ بالهباب كمدخنة.

91. حظوظ النفوس أمكر من تخفي الثعابين وهدوئها تسعى في الظلام، وثمة نوع دونكيشوتي في النقاش، أينما حلَّ وارتحل حمل معه طواحين هوائه يخيل إليه أنها أعداؤه، يكفيه منك موقف واحد لا يرتضيه، ليضعك في طاحونة هواء، ويسلط سيف أهوائه عليك حتى وإن رآك في غير موقف.

92. الدمامة والجمال نسبيان، ولكلٍّ رزقه، ولاحكم على جمال إنسان ما لم تتلُه حقَّ تلاوته، وحقُّ التلاوة أن تراعي تتالي شخصيته في سياقها الجغرافي والزماني، فإن عرفتَ روحَ إنسان، أطلتْ عليك من وجهه فصيرته جميلاً، والجهل بالأنفس حجاب غليظ دونها، فلا تجعلْه براقك إليها.

93. نحن بؤساء لأننا في هذا العصر، عصر الصورة، الذي سهّل ارتكاب أي شي، وامتحن إراداتنا امتحاناً قاسياً، ووهب أخطاءنا أعماراً لا تفنى، فجعلنا في خوف وقلق دائم منها يلاحقنا بها حتى الممات، إنه قطع للقلب لا اليد!.

94. الجمل القصيرة التي تزوي معانيَ عميقة فسيحة، مفاتيحُ صغيرةٌ لأبواب كبيرة ينفلق خلفها عالم واسع، سموه: السياق، ولا يعيها إلا الحكيم، ويطيش بها العجول، الأول يصمت متفكراً أو يسأل ليتلو الكتاب (السياق) حقَّ تلاوته، والثاني يقتسمه معضّياً حقيقته، وهيهات أن يكون له دابرٌ منها يمتعه بجمالها، أو يبصره باحتمالها، وليس لمثله يخط القلم.

95. لا شيء يطوق القلب فيذوب من الامتنان والعرفان كدعاء إنسان لك لا يرجو منك منفعة، وقد لا يعرفك حقَّ المعرفة، إنه هبة إنسانية خالصة من عبق الجنان، وقد عرّفت الدعاء بأنه: استنهاض أسباب الغيب لتجبر

أسباب الشهادة، شكراً لكل من دعا وأكرمني بنفحات قلبه، وله مثل الذي دعا وزيادة إن الله كريم رحيم.

96. لولا الخيار الإنساني لما وُجد الشَّر، ولا كان هناك معنى للتوبة والتقوى والأخلاق عامة، فأيُّ خيارٍ هذا إن لم يكن هناك خير وشرّ ولك كل الحرية أن تفعلهما؟ فإن امتنعت عن الشَّر ظهر مفهوم التقوى، وإن اقترفته ثم رجعت عنه ظهر مفهوم التوبة، أي القدرة على الإصلاح، فإن زاد خيرك على غيرك، ظهر مفهوم الإحسان.

97. كيف يكون الحب الحقيقي؟ أن ترضى بعيوب حبيبك قبل حسناته، وتصبر على الأولى، من أجل الثانية، أن تحبه بحريتك ويحبك بحريته، ويرضى كلاكما بحمل مسؤولية الآخر، أن تزيد به ويزيد بك، أن تتضاءل كل مشكلة بينكما مهما عظمت، لأنكما أدركتما حقيقة النقص فيكما وفي الحياة، فاتقيتما ذلك بالصبر على بعضكما، متقوّيَين بفضيلة الإعذار والاعتذار، فلن يصمد حينها خلاف.

98. قد تكون الكتابة الأدبية افتعالاً خيالياً مزخرفاً منمّقاً، لا حظَّ له من صدق القلب وشعوره، يمهر به من يسمي نفسه أديباً، وحقيقته بهلوان أو دنجوان. أما الصادق – لا الصانع – فهو الذي تخرج حروفه ساخنةً من مطبعة قلبه، إنها كالعطر، لن يخطئ شمَّهُ، قلبٌ ذكيّ، فكيف إن كانت إليه، وهو قِبلتها؟ فهذا هو الفاروق بين التجارة والعبارة، وبين حروف المعنى والمعاناة ونفخة الغيب، وبين حروف الزخرف التي تكدس القلوبَ كالأرقام، وترصف القوائمَ بالأسماء.

99. الغبن الغبن أن تملك عقلاً جباراً، واهتمامات تافهة أو أهدافاً صغيرة، أن يرزقك الله قوة تقطع بك المحيط الكبير لكنك وقفتَها لعبور نهر صغير،

لذلك، ومن أجل ذلك، لا ظلم أشدّ حلكة من الجهل بالنفس، وهذا هو ظلم النفس الخفي الذي سنفاجأ به يوم القيامة.

100. لن نعمل إذا لم نأمل، الأمل هو الشريان الذي يربط الواقع بالفضاء الشاسع، ويحاول أن يعلو به. أمل لا يتجاوز الواقع هو أمل هزيل، وأمل يحلق في الفضاء الشاسع بلا جذور ينطلق منها في الواقع، هو أمل عائم.

101. الأشخاص الحديون إحدى الظواهر التي تناقض نسبية الكون، يختزلون الواقع والأشخاص والتجارب، يختزلون حتى أنفسهم، كيف سيتذوق متعة الفصول من لم يعش إلا في القطبين، حتى قوس قزح يشكو منهم.

102. إذا أردتُها أن تزورني، نصبت لها شَرَكاً من عطر المعنى، فوضعت لها وردةً منه على مائدة الحرف، وانتظرت أن تكتمل اللوحة من عناق وردتين، كصياد ليس له من صيده إلا مشاعر يعانيها عندما تؤلمه الطبيعة بآيةٍ من جمال وردتين، وردة من عالم الأنفس، وأخرى من عالم الآفاق، يشهد بهما الخالق على بديع خلقه.

103. لا يكفي أن ننظر إلى ما نقوله، ونفكر هل كان علينا أن نقوله أم لا، وإنما يجب أن ننظر إلى (من نقول له)؛ إذ لا ضير فيما قلنا حينها إن كانت وجهة قولنا صحيحةً؛ لأن القلوب الكبيرة (لا) تجعلنا نندم على قول شيء مهما كان....، هي وحدها التي تجعل الكلام فضيلة مطلقة، فتعيننا على اتقاء محرقة الصمت، فالصمت في حرم بعض الوجوه رذيلة.

104. التفاصيلُ الصغيرةُ النابضةُ بالحنان، هي أقسى ما يتركه لنا الراحلون، تكون موجعةً كعطائهم وتضحيتهم، في مساءِ مغتربٍ وحيدٍ يرمق الأفق البعيد بروحٍ باكية، كل ما يظهر منها عينان دامعتان، ما أقسى الحياة.

105. كلما انهمكت في عمل مفيد مهما كان صغيراً، شعرت بسعادة كبيرة، لأني في حركة قصدية تتناغم مع حركة هذا الكون المتحرك بإلكتروناته وذراته وكواكبه ونجومه ومجراته، ثم أعجب من نفسي كيف تستمرئ الكسل بعد ذلك! وهذا من خوارق الكسل في دنيا العمل.

106. من متاع الحياة الدنيا، الجلوسُ إلى كتابٍ أنيقٍ، ورائحةُ الورقِ الأصفرِ تثيرُ شهيّتَكَ كرغيفِ خبزٍ ساخنٍ، حتى إذا استكملتَ عدتكَ من جوٍّ هادئٍ، وذهنٍ صافٍ، وقلبٍ مطمئنٍ، وقلمِ رصاص، رفعتَ أشرعتكَ وأبحرتَ تشقُّ عبابَ الأفكارِ والعواطفِ. هنا واحةٌ، وهنا سهلٌ، وهناك جبلٌ، وبعدهُ بحرٌ، وقلمكَ يرصدُ تحركاتِ الأفكار، ويسجلُ ذبذباتِ المشاعرِ، هنا فقط تحسُّ أنك أكثر من مجردِ جسدٍ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

107. الحرف هو حلي الوحيد، عندما أريد أن أكتب عما يتكسر في صدري بلا قرار، وقد لا أعرف كيف أبدأ، أو كيف أصف إذن لماذا نكتب؟. فما هو الحلّ إن لم تستطع أن تقف أمام من يمتد شريان قلبك به، لتنهار أمامه طفلاً أو دمعاً، أو حضناً، أو صوتاً يقطعه النشيج. ما الحل إذا كانت الأسفار، والبحار، والأديان، والبلدان، والأعراف، والطغاة، والخجل، والفشل، وفقر الأمل يقفن دونه؟ ما الحل؟ لا بد إذن أن نكتب.

108. من لي بقارئ يدرك حجم اللغة التي خلف لغتي؟ من لي بقارئ يدرك أن حروفي ليست أنا، هي بعض شعوري، بعض فكري، بعض حزني، بعضٌ من شيء غزير أريد أن أنزفه بين أصابعك، هي مقطوعة لحن عراقي، من تلك الألحان العميقة، السحيقة، القادمة من وراء التاريخ والذكرى، تسمعها ولا تدري ماذا فعلت بك، وكيف فعلت.

109. وحدة الهموم هي الرابطة القوية التي تجمعك بمن يشبهك في أهم تفاصيلك، تشابه وجهة لا تشابه تطابق، هذه الهموم هي البوصلة التي تميز لك القلوب، فلا تتعب نفسك في صناعة هموم الآخر ليلتقي معك، فأنت تحتاج لمن صنع همه بنفسه، فجمعه بك، لأن طريقك الوعر لن يعينك عليه إلا من تولّاه قبل أن يلقاك، فلما التقى همك بهمه، تضاءلت وعورة الطريق وحمولة الهموم. إذن لا تتعب نفسك.

110. عندما تدور في فلك شخص ما سترى فصوله كلها، سترى إيجابياته وسلبياته، ستحيط به من جهاته الأربعة، وهذه عملية منصفة لا بد منها لتصدق أحكامنا، فالمرور العابر بالأشخاص والأشياء ليس من الحقيقة في شيء، ولولا دوران الأرض حول الشمس لما تبدلت مواقعها ورأت من الشمس جهاتها كلها، فتشكلت فيها الفصول، فإذا أسعدك ربيع شخص، فتذكرْ أن له خريفاً، وشتاءً قارصاً، أو دافئاً، ونحن لن نحبَّ أحداً حقَّ المحبة إلا إذا اختبرنا كل فصوله، ورضينا بكل أحوالها، فلا تكن كالقمر لا يريك إلا وجهاً واحداً!

111. الاحتياج معنىً صامتٌ، لا ينبغي له أن يصرخ أو يستجدي، إنه غامضٌ جداً كالليل، ويكمل معناه بضياءٍ من أمر حدسك البصير حين يفصح عن حنانه، فيهرع على أجنحة اللهفة والسؤال، وليس له الآن إلا أن ينقص منك، ما دمت آثرت الاكتهال بالخفاء والصمت، فانعَمْ أيها الهدوء البليد بترقُّبك الأبكم.

112. كنا نظن أن البوح يريح، فلما بحنا، فتحنا أبواب الألم من كل جهة، كان الحرف نعمة فأصبح نقمة. تهفو القلوب إلى حرفك، لكنّ مخالبها قد تتجاوزه إليك

فتنال منك، حتى الابتسامة قد تكون على شكل مخلب، في الجرمِ أصابعنا حين تمتهن اللعب على الأزرار والشاشات، إنها لعبة خطرة جداً، ستتوب عنها عندما تختنق نفسك بها، وتظل مسربلاً بحيرتك وصمتك.

113. ليت الذين يفخرون أنهم لا ينسون الإساءة يفخرون أيضاً أنهم لا ينسون الحسنة، ويا ليتهم إن طووا قلوبهم على انتقام آجل لإساءة، يبسطونها بإحسان عاجل لحسنة، ولكن هيهات، فقلما يفلح إنسي في ذلك، فالعدل شيمة عزيزة إن طاشت عقول أو حنقت قلوب.

114. أعتذر؛ لم يعد لدي طاقة، ولا لياقة، لأقف وقفة المنتصب الذي يدافع عن نفسه المحاصرة بتفكيرٍ اتهامي، فالحياة أقصر، والوقت عزيز، والصحة أعز، والأعصاب أقل احتمالاً لنستهلكها في تصحيح أفكار واتهامات مجانية مسبقة لم نفعل ما يستجلبها أو يستوجبها علينا. ها هي ذي الحياة تعلمني أن أستبقي من يطرد ظنونه السيئة عني ويمدّ في عتباي حتى يأتيه يقين بائن. وأن أفرَّ من كل من يصادقني على حرف، ويكلفني جهداً كبيراً لأصوب له اتهاماته اللئيمة إياي.

115. بلا وطن، نموت كل لحظة بحثاً عن لقاء، عن شاطئٍ، عن عناقٍ آمنٍ، عن انتماء، نتأمل الشاشات لعلها تسعفنا بفتاتٍ من شعورٍ بارد، نبحث في لوحة الأزرار عن وصفة تعلّب قلوبنا في بعض الجمل، لنمارس الصداقة والطفولة والحب، نستجدي الحضور من الذين لو حضروا، لكان صمتهم كالغياب أو الجفاء، وأي معنىً للقاءٍ لا تفقه لغته عيناك أو جلدك أو ذراعاك؟ هذا هو الوطن: شاشة ولوحة من الأزرار وحروف يكتبها لنا الأشباح، نحلّي مرارتها بالخيال والوهم، ونظل نرقب على انتظار.

116. لا تلتفتْ نحو الوراءِ، فكلُّ شيءٍ مُحزنٌ حتى الفرح، امضِ بِقِطْعٍ من ظلام، أو سياقٍ مُقترَح. لا تلتفت.. لكنّ أمي من ورائي، والذكرياتُ على خطاها ترتمي، فيها دمائي. لا تلتفت.. وحنينها يا سيّدي؟ هو ذا يناديني. لا تلتفت.. أسرِ بحزنكِ وابتعدْ عبر الغيوب، مثل الطيور مع الغروب، هلّا تراها كيف تحترفُ الرحيل، وترسم الحزنَ الجميل، كنْ مثلها، حتى بكاها لا يُرى، لا شيء يبقى بعدها، إلا مشاهدُ من حنين في الذرا، لا تلتفت.. أسرِ بحزنكِ وابتعد، يوماً ستنسى ما تجد.

117. أعظم النصوص هو الذي يتعبنا، ويثير في أذهاننا التساؤلات، ويخلق عواصف لا تنتهي في فكرنا وعواطفنا، هو الذي يجبرنا أن نتفاعل معه، فيضيف لنا ونضيف له، ويضيء لنا ونضيء له، إنها نصوص ليست حيادية أبداً، بل شرسة جداً كالألم، ولا ينجو منها إلا من أُنعم عليهم بالبلادة، أما التبلد فلن ينفع معها، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

118. في النفس هيئات لا تقع إلا على خط يشاكلها، ويعجبني منها نفوس كخط الرقعة، جمالها مقتصد، بسيط، لطيف، خفيف، يعلو على السطر فلا يمسه إلا لماماً، تسلسل حروفه كجدول صغير يتحدر على صمت بين السهول، تتكسر عنده أشعة الشمس في ضحى يومٍ من أمر نيسان، ترتعش على صفحاته زهيرات ملونة، تزاد ألواناً أُخَرَ بمرح العصافير.

119. أحياناً تلفُّكَ حالةٌ بلا شكل أو لون أو طعم، تتمنى من نفسك ألا تكون نفسك، تتمنى أن يجمد فيك كل شيء، يتقلب بصرك على هدوء النَّفَس في الزمان الذي مضى والذي سيمضي، وتصل إلى موتك، تقف عليه، ثم تنظر إلى آثارك، تتساءل: أحقّاً هذه هي حياتي التي كانت؟.

120. لما استدارت بي الشاشة تحت قبتي عينيك، خشع الوجود في فؤادي فما وعيت إلا الله في قلبي وقد شخص إلى عينين شاسعتين.. شاسعتين بالأمل، بالطفولة، بالنقاء. كأنهما طرفا كونٍ يضيع فيهما الضوء بلا انتهاء، ويعرج فيهما ابتسام شفيف مثل رذاذ المطر، يغشاه إرهاق ضئيل شاحبٌ كأنه نزع الغروب.

121. الكتابة هي الحبيبة والطبيبة، هي الرفيقة والشقيقة، هي التقية والنقية، من لنا إلاها في هذا المدى المغترب العميق، من لنا من حنون فيروزية العينين، أموميّة الصوت، حانية الكفّ، ضوئية الملامح، هي وحدها من سيبقى، رحلوا وسيرحلون، وسنرحل، وستبقى بعدنا، تردد النغم الحزين، تخبر القادمين عنا، عن حبنا، عن حزننا، عن فرحنا، عن حياتنا التي كانت، ستظل ترسم ملامحنا لهم، فنعيش معهم ونحن أموات، ويحبوننا على جور الغياب.

122. همُّ النفس وقلقها، محق لمعنى الوجود كله، وكيف كيف ننجو منه والوطن مقتول قاتل، والأعداء أقوياء أغنياء متآزرون، والأصدقاء ضعفاء متخاذلون أو متشاكسون أو أنانيون، تضخّمت قلوبنا، ويوم تجاهد من أجل ما يسدّ رمقك ويكفل أدنى بقائك، ماذا بقي منك؟

123. من هو أصيل الحرف أو فجره الذي يجعله يبوح كما تبوح الورود في طرفي النهار؟ إنه قلب يتذوق حرفك جيداً، ويتكور به كالسماء، عندما تشهق قبتها في العلو فلا يدركها بصرك إلا على تواضع، كلما تعثرت بقلب كهذا، وجدتُني أتدفق بالحروف بلا مشقة، فالحرف ينمو بأولي القلوب من قرّائه، فكأنهم يزيدونه عمراً إلى عمره.

124. أقسى الألم أن تفقد قدرتك على التألم، ينحسر الشعور عن آلامك قطعة قطعة وأنت لا تدري. أظنه شكلاً من نفاق الحياة يُظهر لنا ما لا يبطن، يتقنّع بجسدٍ يتحرك، والقلب فراغ يجري بدماء من البلادة.

125. الشعر الطويل كالمقدمة الموسيقية الطويلة، أو كنص نثري أثير، أو كنهر من ظلام، أو حصان جامح، يهدر إن مشت صاحبته كسنابل القمح إن داعبها النسيم، أو يتهدم من علٍ كشلال كأنه نهر الحضارة الخالد، محال ثم محال أن يكون لأنوثة اسم أو رسم دونه.

126. ليس كل أمل أملاً، إن أملك الذي يتنفس أكسجينه من وجود الآخر أو فعله أو عاطفته أو مبادرته، ليس أملاً بل منبع إيلام وإحباط مستمر، فابخل بفتح بابك أمام العابرين، إن الأمل الحقيقي هو الذي يتنفس بك أنت، بعملك أنت، بخططك أنت.

127. نحن الذين سفكت دماءنا الغربة، يوم فقدنا الأمان في السرب، وحوربنا في عافية البدن وقوت اليوم، فأي حياة وأي دنيا؟. وأنت تنزف بلا انتهاء، سفينتك القلق، وربانك الحيرة، وفي قلبك جثة وطن.

128. الخط يشبه الحالة النفسية لصاحبه، يخرج مرتباً منتظماً إن كان ذا مزاج هادئ صافٍ، ويخرج فوضوياً ضجِراً إن كان صاحبه ذا مزاج كدر، والنظر في الخطوط متعة جمالية صافية، وقد عزت في عصر الشاشة ويوشك أن تندثر في عصر شيمته مكننة كل شيء حتى أشكال البشر وأذواقهم، ليصبحوا متشابهين كعلب البيبسي لا يغريك التنقيب في محتوياتهم.

129. الدمامة والجمال نسبيان، ولكل رزقه، ولا حكم على جمال إنسان ما لم تتلُه حق تلاوته، وحق التلاوة أن تراعي تتالي شخصيته في سياقها الجغرافي

والزماني، فإن عرفت روح إنسان، أطلت عليك من وجهه فصيرته جميلاً، والجهل بالأنفس حجاب غليظ دونها، فلا تجعلْه براقك إليها.

130. لعل أحد تجليات الرحمة في هذا الكوكب البائس، أن تنام فترى كابوساً، تمتلئ منه رعباً، فتنتفض فارّاً منه، وحلقك يتشحط من العطش، وصدرك يتطوى كالموج، لتعِيَ حينها أنك في الحياة! وكم هي كهف آمن!. اللهم، هب لنا كلباً وفياً يبسط ذراعيه بالوصيد، حتى نتم نومتنا، لنصحُوَ يوماً على الرحيل.

131. سأسقيه بنبض الحرف حتى تصبح أشجاره باسقةً غابةً من ظلام، لينافس غابتي السيّاب.. وليستطيلَ نهراً تنداح أمواجه السوداء بلا قرار، أو كسربٍ من طيور السنونو المتلفع بالرحيل، يأتي إلى قريتي مع الربيع، فيعمر البيوت بأعشاشه وفراخه الغضة ثم يرحل آيةً من حنين، وكذلك شعرك، حين ينهار نصّاً من الموسيقى تنهزم أمامه اللغة.

132. سنلتقي ذات يوم، وقد ابتلع الزمان كثيراً من زهرات العمر، نلتقي على طاولة من الماضي، نقلب حطام الذكريات، بابتسام حزين، وانتشاء بكرٍ من روح تلك الأيام والأحلام، سأقول لك: [بعدك مثل ما كنت، روحك حلوة وقلبك طيب منيح الي بعدك أنت].

133. لا بد للمتضخمين بإنجازاتهم أو نجاحاتهم، من صعقةٍ لطيفةٍ تذكرهم بالتواضع، وبأنهم إن أحسنوا في مجال أو اثنين، فليست أفعالهم أو أقوالهم سديدة في كل شيء لنصفق لها بلا بصيرة. أوَلم يكفِهم كثرة مادحيهم في كل أحوالهم؟ فعلامَ يضيق صدرهم بنقد قلّةٍ عائمةٍ في محيط جمهورهم العريض؟.

134. بعض الناس وجودهم كالشمس أو القمر أو العطر أو الأمل أو الابتسامة، فإن غابوا تألمت لغيابهم، وحقيقة ألمك هي سعادتك بوجودهم، فكيف سيعتذرون عن وجودهم، هل يعتذر الورد عن عطره؟.

135. وفي الغروب خشوع تطمئن إليه الروح، كأي آية قرآنية ترسم لك مشهداً من الجنان، تذكرك بأصلك العلوي، فترتعش روحك بين جنبيك، مشهد بديع يغري بالصمت الطويل، لا يليق به إلا حديث العيون، وسفر عميق من عمل الفكر.

136. تخبو جذوة الصداقة عندما يفكر المرء بحقوقه فقط، وتكون هندسة دماغه مبنية على: كيف يتفوق الآخرون في الإحساس به، وفي التفنن بتلبية احتياجاته دون أن يتكلم.

137. لو كانت عيناكِ غابتي نخيل ساعة السَّحر، لشيدت لهما من الشعر قصراً مشيداً، تأمرينه، فينحني كالغروب لبوح سحرهما، فالحمد لله على عتمة عينيكِ، فقد استرحت.

138. يعرج الحرف على براق الخيال العميق، عندما تجتمع له ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة الكحل، وظلمة الشعر الطويل، كليلٍ شتائيٍّ ثقيلٍ من الحنين والحزن والمطر، أما حبري الأسود فهو الظلمة التي تنير بياض الصفحات بضوء من تلك الظلمات.

139. عندما تزفر مشاعرك على الورق بلغة أخرى بلا سبب معتبر، فأنت تثبت عمقَ سطحيتها، لأن المشاعر الصادقة العميقة، لا تجد نفسها إلا في لغتك الأم لأنها معجونة بكل ذرة فيك، ولا يليق بها غير ذلك، وإن كان لكل مقام مقال، فلكل عمقٍ لغة!

140. لا فضل للحرف يا أميرة الغيب، فأي ذي لبٍّ، لن ينسى أن نور القمر قبسٌ من ضوء الشمس، فإن توهج حرفي، فهو أثارةٌ قمرية من بريق عينين شمسيتين تبسطان أجنحتهما مثل وقار الغروب، أطل عليه من تلة في قريتي.

141. تمضغ التاريخ والذكريات والوجوه والأصوات والأشعار والأفكار، وتعجز حتى عن الحنين، وتدوخ في ليل الشوارع بلا صديق، ثم يهزمك الحنين، إلى تلك الشوارع وهاتيك النسائم، إليكَ يوم كنت أكثر أملاً ونقاءً، إلى تلك النجوم التي أثقلت أذيال قاسيون، وتتسلل من خَلَل غصصك، أغنية حزينة.

142. لولا المرض لما علمنا نعمة الصحة، ولولا القبح لما همنا في الجمال، ولولا تفوق الغرب لما أدركنا انتكاسة خلقنا وعار ضعفنا، فاحمدوا الله على أعدائكم أو الأمم التي لا تشبهكم، فوجودهم يذكركم أنكم لا تزالون بشراً، وربما تلتحقون قريباً بإنسانيتكم، ومن الطريف أن بعض المهزومين منا - وهم كثيرون - يحاولون أن يثبتوا تناقض الغرب وأمراضه في بعض السياقات، ليملؤوا فراغ عزتهم الجريحة لا لكي يعرفوا حجم دمارنا واندثارنا، ويحقّ لي أن أتساءل: هل يستطيع إنسان أن يفهم أمراض الآخر وهو عاجز عن فهم نفسه وأمراضها؟

143. وإنها لقسمة جائرة، أن تفتح قلبك لأحد ما، وتكون أمامه كالشمس في عرينها، ثم لا ترى منه إلا سطوحاً متعددة الأضلاع تحجبك عنه، ويزيدها سخريةً من محاولاتك البريئة لفهمه، شتان ما بين عمق قلب، واستواء سطح، لا يستويان.

144. وفي الكتابة حالتان، إما أن تحترق بالمعنى فتتوهج به حروفاً تخضرّ بها الصفحات، أو يشمخ المعنى فتتضاءل أمامه فلا تقوى على شيء، فأنت ما بين تحدٍّ محفز أو معجز، فليسعني ويسعها عجزي، نفس مررت بها على قدر.

145. بعض النفوس حضارات، ترفع كل من يسبح في فلكها، أو كالضوء يمسّ ظلمات حزنك أو ضعفك أو يأسك، فيجعلك خلقاً آخر، يبحث عن ضوئه المتبدد في ظلم الفناء. كأن لقاءك بها، لقاء أملٍ بعمله، أو قفر بغيثه، أو قلبٍ بنبضه، كأن لقاءك بها لقاءَ شاعرٍ بعينين كأنهما غابتا نخيل ساعة السَّحَر، أو لقاء شاعر بعينين تنبض في فضاءيهما النجوم.

146. البيئات الفقيرة بالتعليم والنماذج الصالحة التي يقتدى بها، هي المقابر التي يدفن فيها الإنسان حيّاً، والمستبد خير راعٍ لها، وكلنا نحمل أجزاءً ميتة من مواهبنا دون أن ندري، فلن تعلن حدادك إذا كنت تجهل كم مات منك!.

147. إن روعة الأدب عندما يعكس حقيقة ما نشعر به، وليس تكلفاً نقوم به حسب الطلب، تفقد الأشياء قيمتها عندما تصبح مهنة لا رسالة، خياراً حرّاً تتمدد فيه الروح بلا انتهاء.

148. والورد امتداد لروحك في جسد الكون، ترى فيه أصلك المحجوب بالطين، فتحنّ إليكَ فيه، إنه الجمال الذي لا يؤلم، يكفيك أن يبقى في مكانه، يحاور لونُهُ بصرَكَ، وتصغي إلى لحنه المعطر، فتتوب من حزنك أو تصرُّ عليه!.

149. الاختلاف سنة الحياة في أحيائها، وهم مبتلون بذلك، الحل ألا تصبح فكرتك أو عقيدتك يداً تضرب أو رصاصة تقتل، كَوني لا أشبهك لغةً أو ديناً، أو طائفةً، فهذا لا يعني أن ألغيك وتلغيني، لنحيَ على هذه الأرض معاً، إنها رحلة قصيرة، ثم إلى ربي وربك الرجعى.

150. الحرف أُفق واحد من آفاق كثيرة، إنه كالصورة الشمسية التي تختزل الحقيقة، ماذا عن نظرة تعبى، وزفرة حرّى، ورعشة حيرى، وصوت مخذول، هل تختزل الحروف كل هذه النزوف؟ هيهات يا حرفي العقيم.

151. الحرف يتيم في عالم البلادة، لأنه يريد من يلونه، ويمدّ أبعاده إلى آفاق عريضة من الشعور، يريد من يجيش له صدره، وتغرق عينه، وترتعش يداه، يريد من يقيم له حياة كاملة. وطوبى لكل بليد، لأن المعنى لن يتجاوز زجاج عينيه.

152. نحتاج كل قطرة من طموح، وكل ذرة من ثقة نفس، وطوبى لمن قدم نموذجاً في نفسه، فأغرى غيره بالانطلاق، وكم من عاجز يريد أن يخلع عليك عجزه، ويجعل مستحيلاته حقيقة في ذهنك.

153. إن المعنى الجميل العذب يسري في النفس الشاعرة سريان الماء في أغصان النبات، هناك من تهزه كلمة، وهناك من لا يؤثر به الصراخ، فهو في حجاب كثيف من بلادته الغليظة.

154. ما أكثر من تنحصر همومه في الجزء السفلي من جسده، فهي تسعى أشواط الليل والنهار بين بطنه وفرجه، ولا يستخدم من جزئه العلوي إلا الفم هرفاً أو علفاً، أو ليخضم ويهضم، ويا ليته ينظف أسنانه!.

155. ويبقى الحزن سوريّاً، يضمه الليل في قلب المغترب الوحيد، في صومعة من الصَّبْر، وانكسار الظَّهْر، وبطش القَهْر، ولا خليل إلا القلم، يشيّع كل لحظة فرحة مذبوحة، وبسمة مجروحة، هذه ليست أوراقاً، بل مقابر، أو مناديل تبللها الدموع.

156. في عصر المعاناة التي وسعتْ كل نفس في هذا الكوكب البائس، ما أحوجنا،

نحن - السوريين - خاصة، إلى العلاج بالمعنى لنستمتع بآلامنا، ونجد معنى الحياة فيها، ونبحث عن ثقب صغير نتنفس منه، فالألم النفسي يحصد حيويتنا حصداً، ولم نعد نصلح لنسعد أحداً، أو يسعدنا، ففينا من الجروح والعطب ما يمنعنا من الرفق حتى بأنفسنا!.

157. الجفاء كل الجفاء أن تمنع ما في داخلك من دخول ملكوت الكتابة، من يرضى أن يقتل جنيناً في رحمه، من يرضى أن يقطع فسائل الجمال في قلبه. ما أقسى الأصابع التي تأبى الانحناء واحتضان القلم، ما أصعب هذا الألم، لولا رحمة القلم.

158. إن شدة القرب كشدة البعد، كلاهما يعيق الرؤية الصحيحة، فامكثْ غير بعيد، مكثاً يعينك على رؤية التفاصيل التي تهمك، لأن القرار الصحيح ابن التفاصيل الصحيحة، وحبك الشيء أو الشخص لن يكون حقّاً إلا بعد أن تعرف تفاصيله، حسنَها وسيئها، ثم تقرر أنك قادر على أن تعيش بحسنها، وتستعين به على سيّئها.

159. إن التاريخ يصنعه الأقوياء ويكتبه الأقوياء، لكن العامل الأهم في صناعته هم الضعفاء والجهلاء والأغبياء، لأن الفراغ الحضاري الذي يتركه ضعفهم وجهلهم وغباؤهم كفيل بأن يجعل الكلاب والقطط قادرة على صناعة التاريخ.

160. اثنان فقط يدركان عظمة الكتابة، كاتب يكتب بقلبه، وقارئ يقرأ بقلبه، لأن الكتابة والقراءة بالقلب هي الطريقة الممكنة للمس حقيقة الواقع كما هو، فهل ستضمّ روحي في اللحظة التي تضمّ عيناك حروفي؟.

161. إن الألفاظ تسجن المعاني مثلما يسجن الجسد الروح، فما اللفظ إلا كيان

محدود، يهيمن على آخر لا محدود. وقد يكتب المرء الكلمة، لا تبلغ من معاني قلبه إلا ما يبلغه الواقع من حلم جميل.

فهل نظلم مشاعرنا عندما نكتب عنها؟ لا مناص من الكتابة، فوراء كل حرف كلمات وكلمات، يسبر أغوارها كل مغامر حسب طاقته ومواهبه، فهناك من يرتد نور المعنى عن صفيحة قلبه حسيراً كسيراً، وهناك من يتحلل ضوء المعنى في موشور قلبه إلى ألوان الطيف السبعة، وهناك من يتوهج المعنى في قلبه سراجاً منيراً.

162. هذي حروفي ليست مشاعري، هي صورة عنها، كصورة القمر في ظلام من الماء والليل. هل تلمس القمرَ إن صافحتْ يدُك ماءَ صورته، هي ظلٌّ، هل رأيت ظلّاً ينوب عن صاحبه؟ هي شيءٌ يشبهني في لحظة ما من عمر الحزن الطويل، حسبُها أن تذكّركَ بي، إن مررتَ بها، أو مرّتْ بكَ على غفلةٍ من لقاء عابرٍ، فإنِ استوقفتكَ، فقفْ لها، وامنحني قليلَ ذاكرةٍ أو حنين، وقل لها: رحمة الله عليهِ، كان يحبكِ كثيراً كثيراً.

163. والعابرون إلى القرارةِ مثل أغنيةٍ حزينة. قالها السيّاب يوماً، لم أكن أدري أنها تختصر حقيقة كل غريب بهذا العمق. لا طعمَ لكلِّ شيءٍ في نفس عابر، لا طعم للمكان، أو الوجوه، أو الأصوات. يمرُّ على الأسماء، والأمكنة، والأزمنة، بلا انتماء. يرحل عنها بلا وهمِ التفاتة، أو أثارةٍ من حنين، أو التماعةِ دمعة. لم تعد لديه تلك الدهشة الطفولية من الأشياء. لا يتردد في صدره إلا هواء السأم واللامبالاة، وقد يذكر على غفلة من موته، قد يذكر أشياءَه الجميلة، فترتسم ابتسامته اليتيمة على وجهه المتعب، كالدعايات الانتخابية على جدران المساجد، بلا أي انسجام!.

164. أحسد كل من ينظر أعلاه، فيرى سماء غائمة، مدلهماً غيمها، ترشقه بالمطر،

والريح فاترة، تمرُّ به، معطرة بالمطر، وقد يصرخ الرعد، ويلمع برقه من بعيد، والتراب، مبلل، تعبق رائحته بالمطر، والعصافير مسرعة، تستبق أعشاشَها، وربَّة البيت لا هم لها إلا أن تضم غسيلها، قبل أن يشربه المطر، ماذا وماذا يا ذاكرة؟ هربت كل التفاصيل الصغيرة، واضمحلت قسمات المعاني في جفاف النأي والصحارى. لا مطر ولا ثرى ولا عصفور هارب، لم يهطل المطر. بين المطر واللامطر، كالذي بين السياب وبيني، مسافة كبرى من حنين حزين.

165. إنك يوم تطوف روحك حول عرش المعنى السامي، وترتقي في أسباب العلو حتى تصل سدرة المنتهى من أصلك العلوي، فتكتب ما تكتب من إشراقات تنقلها من عالم الغيب إلى عالم شهادة الأوراق، إنك يوم تصنع كل ذلك وتمضي ثم تنسى وتشدك الأرض إلى طينها، فتخوض فيه متعثراً بجبروت غرائزك في هذا المدى المختنق، فإن أمسكت أوراقك بيديك الملوثتين بالطين، وقرأتَ ما كتبت، تلقّتكَ المعاني بصفعة يطيش لها فؤادك، فتتساءل مذهولاً: أهذا الذي كتبتُهُ؟ تكاد تنكر نفسك: ما أجملني أم ما أقبحني، قد أزرى بك حرفك من حيث تدري ولا تدري، لتصبح مصلوباً على نطع أمرين أحلاهما مرٌّ يقول لك: ومن الشقاء والألم أن تعجز يداك عن حمل ما في رأسك، فهلّا أفرغتَهُ أو قوّيت ساعديك؟. 27 يوليو 2016.

166. إن القسوة أحياناً هي الوجه الثاني للحبّ، إن قست كلماتنا عليهم، فهي لا تعبر عن حقيقتهم فينا، بقدر ما تحاول أن تستفزهم لتخرج أكبر قدر ممكن من حنانهم، قد تكون الصرخات أعتى همسات الاحتياج، فانظر إلى الجهة الأخرى من حرفي وقلبي، ستجده يعانقك، يبحث عنك، يتنفسك، وانظر مرة أخرى إلى الجهة الأخرى من العالم، لتجد أن روسيا على تماس بأمريكا،

فأبعد الأشياء عنك، قد يكون هو الأقرب إليك من الجهة الأخرى.

167. وكلما خلوت إلى ذلك اللحن وهذا الظلام، طوّقتني ضفتا عينيك بالجمال، أحار في ضوئهما، كأنهما مصباحان مغسولان بالضوء البعيد، الآتي من مجرة عظيمة، كأنَّ زجاجيهما يسجنان الضوء ويغرقان فيه، يتغرغران فيه، فينتفض فيهما كابتسامة الطفل تناغيه أمه بكل حنان الأمومة الأزلي. 10 مارس 2017.

168. ألا يكفي أن أتذكر لحناً مصرياً عتيقاً من أمر عبد الوهاب أو السنباطي أو بليغ أو فريد. كلما سرَّحت القلب في رافدي عينيك المتطاولين كالأفق البحري يعمُرُهُ ذلك الفيروزي الشفيف بين شاطئين من سواد الرمشين، لا يكفكف سوادهما إلا ظلام شعرك المتهدم منذ الأزل كمعلّقة جاهلية ينساب في عروقها أعظم ما قالته القلوب للقلوب. لا والله لا يكفي!. 10 مارس 2017.

169. نحن في هذا الفضاء الذي يشبه الوهم، فقدنا أبسط مقومات وجودنا، حتى متعنا تحوّرت!. صرنا أشباحاً يحفل بها المكان فقط، أما أرواحنا، فتتيه في عوالم العابرين كالسراب. هذه حضارة الآلات لا الإنسان. أظن أنه علينا أن نبحث عما تبقى منا، ولو كان جزءاً مهملاً في كوخ من الطين فيه وجه حقيقي وابتسامة تنبض فيها الشرايين لا الأسلاك والأزرار. متعب هذا النزيف المستدام، وأودّ لو أغفو على همسة السياب؛ سوف أمضي، ها هو ذا الفجر تبدى، ورفاقي بانتظاري، سوف أمضي، حوّلي عينيك، لا ترني إليّا.

170. أعتذر إلى الدمع في عينيك، وألوذ بالقلم لأكفّر عن حزنك، وأستعين باللحن والليل على حيرة أصابعي حين أوليها شطر وجهك، فأضيع في فضاءات المعاني، وأعجز عن تأويل شعوري يتخطّفه ذلك الضوء المهيب

القادم بلا انتهاء، من عينين عرضهما الأفق العميــــــق، فأين الطريق؟!
21 سبتمبر 2015

171. ليس في حروفي قلبُ حالمٍ يقتات من خياله، ويعيش في عوالمه السحرية، فتنهمر الحياة ألواناً وردية أو فيروزية بين ناظريه، يملأ الدنيا صراخاً من جور معاناته، وما معاناته إلا معاناة طفلٍ قد حُرم من قطعة حلواه الشهية! هل هذا هو ترف الكتابة وكاتبها الذي يظنه بعض الظّانين؟ ما الكتابة إلا وسيلة لمنادمة وجعي في هذا الوجود، أريد أن أنساه بكل ما استطعت من حرفٍ، فما أكثر ما أعبّر عن يأسي وقلة حيلتي وتشاؤمي، حتى عندما أكتب لك عما يسرك، وما أكثر ما أعالج ثقلاً يجثم على قلبي حتى عندما يبتسم من الجمال. كتابتي هي احتجاجي الضعيف الأبيض على هذه الوحدة الغريبة وهذا الليل، وعلى غياب الغائبين، وصمت كل من يعرف وجعنا ثم يكمل صمته، وعلى آخرين قد رحلوا من هنا وتركوا لنا هذا الظلام، وآخرين انتظرناهم في غيب ما، فلم يأتوا..

172. أخطر رجلٍ على المرأة المبدعة، هو الذي تُدخلُهُ قلبها، يوشك أن يكون لعنةً تمحق موهبتها وتوثبها من القواعد، فيخرُّ كل بنيانها من السقف. قد تقهر المرأة كل صعب، إلا طغيان رجل تحبه. إن للمآسي نماذجَ كثيرة في هذه الحياة، أحدها أن يستولي مسخُ رجل على قلب امرأة كريمة أو مبدعة، ما أسرع أن تنحسر روحها، ويخفت بريقها، وتصبح كوكباً يدور في فلكه الكالح، يأمر وينهى ويرتفع وينتفخ كمحقورٍ ملّكته الليالي حكمَ دولة مهيبةٍ على قدر. إنها مأساة الجمال، عندما يصبح وليَّ أمرِهِ، القبحُ، وهيهات - بعدها - أن يتنفّسَ الصبح. 6 يناير 2017.

173. امتنانٌ معطرٌ للذين يحسنون تجميل الصباحات، للذين يشرقون عليك

بالأمان كصوت أمك، للذين يكوّرون قلبك كنسمة خريفية باردة، تتلوى طرباً برائحة شاي الصباح، فتستنهض كل تاريخ الحنين إلى جمال الحياة، للذين يفيضون كالنهر السخي على عطش المكان، للذين معانيهم أكثر من كلماتهم. يكفيك، أن يقولوا لك: صباح الخير ليُحضِروا إليك النسخة الأجمل من نفسِكَ، ويقنعوك بجدوى الابتسامة والحياة. أقول لهم: صباح الخير.

174. إذا فعلتَ فعلاً صغيراً، هفوةً فما فوقها، ورأيت المرأة تقذفك برمية مدفع، فاستبدَّتْ بك سبل الحيرة وظنونها من فعلها، فابحثْ عن فعلٍ صغير آخر، ساءها ذات يوم من أيام تعاملكم الغابر، فإنه هو السبب اللامنطقي لكي تقيم عليك حدّ الرجم! احتفظتْ به على غيظ وجمر، وتحيّنتِ الظرف المناسب، لتنفذَ غيظها القديم بسبب جديد لا يلتقي به، ولا يفسره، ولا يبرره، وهذه إحدى عجائب هذا المخلوق الرهيب!.2 يناير 2017.

175. اجعل المنبّه قبل نصف ساعة من موعد يقظتك إلى العمل، فهذه مدة مهمة جداً للتساؤلات الوجودية بتأمل السقف، والتصالح مع ذاتك شخصياً، وتقبّل جناية والديك. (مدة السقف) ضرورية لتثبيت برّ الوالدين، وتخفيف العداء تجاه المجتمع، وتقوية العلاقات الزوجية؛ كوني له سقفاً، يكن لك أرضاً، لكن إياكِ أن تلبسي كعباً!.

176. أظن أن الذي ابتدع حجم كاسة الببسي في الوجبات السريعة كان مقهوراً من البشرية أو غاضباً، أو ربما كان متعاطفاً معها، وشعر أن هذا الإنسان (المعاصر) يحتاج إلى هذا الحجم الضخم ليردم معدته ردماً من نهمٍ أو قهر، لأن فراغه الروحي يصفر ولا يُسكته شيء. أنظرُ إليها كيف تتطاول وتتسع

وكأنها تريد أن تبتلع السماء! إن حجمها الأوسط يعيي معدةَ فيل فكيف بكبيرها؟ لا أظن إنساناً سوياً يستطيع أن ينهيها!. نصيحتي في العلاقات الاجتماعية والتعارف: إياك أن لا تطمئن لمن يشرب كاسة الببسي كاملة بحجم كبير، أظنه ينام نومةَ غشوم يقهر كل إمبراطوريات الأرق منذ آدم حتى اليوم، ويشخر شخيراً مثل صفارات قطار آخر الليل.

177. لا شيء يجبرك أن تعود إلى شمائل الرجولة - إن طغيت - كفعلٍ من أمر الأنوثة، تتخلى به عن نديتها، فتضطرك إلى ضعفها القوي، فتعود طفلاً يظلم قلبه إن وجدتْ عليه أمه في نفسها، فيكون كل همه أن يرضيها. هل لحظة الضعف الأنثوي القوي الذي يحتاج إلى الحنان هو ما جعل نزاراً يقول: بعض النساء وجوههن جميلة، وتصير أجمل عندما يبكينا؟! 1 يونيو 2015.

178. كتب الله لكل عاطفة نصيبها من الألم، ولو اجتنبناها لما كانت لنا حياة؛ إذ لا حياة حقيقية للحذرين، فجلُّ الحياة رحلة بين حبٍّ وكره، فإن أحببت كابدت متعلقات حبك وأعلاها خوف الفقد، وإن كرهت كابدت متعلقات كرهك، وأعلاها خوف القهر، وهل ستنجو منهما؟ لا نجاة إلا بـ:[موت يجيء كأنه سِنَةٌ، فيمسُّ آلامي فيُنهيها][1].

179. إحدى الصور التي تؤلم القلب غضباً، أن يقع نص أدبي جميل بين يدي قارئ لا يحسن أن يقرأ إلا بقلب متفيقه، لا قلب أديب أو شاعر، يعامله كأنه مستفتٍ يريد حكماً شرعياً، إنه إجهاض متعمد إن تترك نصك عارياً بين يدي هذا الجزار الغاشم.

180. إننا نحتاج أن نتعلم أن نغرس فسائل الأمل، الأمل الذي يغري بالعمل، وليس الأمل المضلل الذي يزيف وعيك بمرضك أو مشكلتك، فحذار من

(1) بيت شعر لبدر شاكر السياب.

لصوص اليقظة الذين يظهرون في حضن من الحرص على نومك المريح، فتعيش كالمخمور في وهم الارتياح.

181. اللهم إنّا نعوذ بك من كل نطّاحة مكساحة، لسانها من ذوات القرون، رأسها كصفوان عليه شعر، صلدٍ لا يمسك ماءً ولا ينبت زرعاً، هيئتها هيئة أنثى خُلِعتْ على جلمود صخر، تراءى لنا نفساً بشرية. من تنكب الأقدار بها في الدنيا، فلا أرى له إلا جنات النعيم العليا، تهدهده الحور العين، بعد أن نقّت ذنوبه شمطاء الطين.

182. ويبقى أسلوب الكاتب هو المثابة العليا التي لا يطيقها أي كاتب، هناك من يجعل الصعب عذباً فراتاً، وهناك من يجعل البسيط ملحاً أُجاجاً، وأسخف ذوي الحجج، من يتقعر في الكتابة ثم يزعم أن عقول الناس لا تستطيع بلوغ بيانه.

183. اللفظ والمعنى/ الفكرة، قدمان لا يحسن كل كاتب أن يمشي عليهما معاً، فكم من أعرج تسوءك خطاه على الصفحات، إنه إن أحسن الفكرة، قبّح جسدَها برداء خَلِقٍ من اللغة، وإنه إن أحسن الصياغة، خلعها على فكرة غثةٍ كفتاة دميمة، يبكي الكحل من عقم عينيها.

184. لا يؤخذ بكلام الكائنات التاريخية إلا على سبيل الترف العلمي، أو المغامرة الأدبية، أو المتعة المتحفيّة.

185. نقد القصور والأخطاء ليس لعناً للظلام كما يظن بعضهم، بل هو الشمعة التي يطلبون إشعالها، أو هو شمعة من شموع كثيرة، أوقدها أنا وأنت قولاً وفعلاً، وكلٌّ من أفق ظروفه وإمكاناته، فبدلاً من أن تنشغل بنقد صاحب النقد أو اللعن، استفد من نقده ولعنه، لعله يعينك على إشعال شمعتك، أو يدلك على المكان الأنجع لإشعالها.

186. يمشي على انطواءٍ إلى أملٍ بعيد هناك، على ضفة أخرى من حياةٍ، كقاربِ لجوء يحمل ما لا يطيق في لجة البحر العميق.

187. الذاكرة القوية نعمة عظيمة، ولكن إياك أن يهتدي إليها الحقد فيستثمرها.

188. أن تخطئ فهذا أمر طبيعي، فكل البشر خطّاء، وما أجمله إن زيّنك تواضع جنبه أو حياء منه، لكن أن تخطئ ثم تتبجح بالدفاع عنه، وتنال ممن يبيّن ازوراره فهذه مرتبة عليا، وتعلو عليها مرتبة أخرى إن جعلت من خطئك منهج حياة تدافع دونه، وتشيعه بين الناس.

189. ما يبنى على طريقة صالحة لا يسقط بعطسة أو هزة، وكل طريقة لا تقوم على حرية الإنسان ليست صالحة.

190. ثقلُ الأمانةِ في هذه الحياة، أن تأملَ فتعملَ مهما أظلمتْ، فما أحوجكَ أحياناً إلى: بلى ولكن ليطمئنّ قلبي!.

191. غرس الفسيلة، هو الوسيلة ولـمّا تقم الساعة بعد، إذن فالمصاب هيّن.

192. هل جرَّبت رهبة الابتسامة من خَلَلِ الدموع، إنها كإطلالة الشموع وقد زيّنها الظلام.

193. إن ساءك أن تنظر إلى تآلفٍ من قبحٍ وحيرةٍ، فانظر إلى أحدهم وهو يتربع على جبل من الكبر والنَّزَق متكلماً عن التواضع!.

194. ذلك الصنف الدقيق (التفاصيلي) من القراء، الذي يتسلل بين الكلمات مثل علامات الترقيم، هو الذي يجعل للكتابة معنىً، وللكاتب فرحة، أما القارئ الذي يحبطُ كل ذلك، فأنواعه كثيرة، لعل أغلظها، من لا يعرف كيف يقرأ الكلمات قراءة إعرابية صحيحة، وتتشظى الكلمات في قلبه كعيدان الحطب لا يجمعها نظام أو سلام.

195. أفشل الناس حباً، وأقلهم وفاءً هم ضعيفو الذاكرة، والذين يخرون صماً وعمياناً على التفاصيل الصغيرة.

196. أليس غريباً أن يخرج فرخٌ من ظلمة البيضة، ثم لا يستطيع أن يتصور ظلمتها على غيره!.

197. عندما يتعانق جمالان من قوة الفكرة وقوة اللغة، يولد جمال يسع كرسيُّهُ كل ذي لبٍّ، كعينين من أمر الأفق والحيرة، تدوران بك، وتدور بهما، ولا تعرف كيف أشرقَتْ عتمة الكحل في ليل حنينك الساجي. إنها علاقة غامضة كالضوء، تذيبك آثاره وتجهل كنهه. إنك إن قلت: موجات، ورصدتَه، تمثل لك ذراتٍ، وإنك إن قلت: ذرات، ورصدته، تمثل لك موجاتٍ، ولا يكون هو هو إلا إذا بقي غيباً، وهذا سرُّ سحره.

198. لا خسارة أكبر من أن يحجبك جهلك بنفسك، عن ذلك الممكن الجميل الذي يمكن أن تكونه.

199. لا رفيق إلا الأشواق، والأوراق في حضرة الغياب.

200. إحدى صور الألم أن يقربنا الوهم، وتبعدنا الحقيقة .

201. ما أسهل أن تصنّف محاورك، أو مخالفك، في مدارس جاهزة، لتكفي نفسك مؤونة الإنصاف والاكتشاف.

202. لم يمكث إلا اسمك في أرض القصيدة، أما مسماه فقد كان حدثاً عابراً.

302. أشرس أنواع الذكريات هي التي تتشبث بعطر يعرفك.

204. نور القمر أكثر إلهاماً من ضوء الشمس، رغم أنه انعكس عنها، ربّ مبلَّغٍ أوعى من سامع.

205. لم تعد ثمة قيمة للتأريخ في هذا العصر الكئيب، ولماذا نؤرخ لأحزاننا وقد فقدت هيبة الحدث المفاجئ!

206. إن من يجعل نفسه مركز الحقيقة، فلن ينجح في إعذار أحد، لأن الأمور لن تكتسب مصداقيتها لديه إلا بمقدار ما تداعب ذاته العلية.

207. لا تعجب ممن يرى الطاغوت صالحاً مصلحاً، فالعقول المدمرة، يصعب أن تتماسك فيها الحقائق، فالعلاقة بين السالب والمسلوب دافئة جداً.

208. أقسى الألحان، لحنٌ تلبسه الذكرى جسداً، فيطوف بك على الموانئ، لتشتعل رحيلاً.

209. لا تخفِ نفسك بالصمت، إنك تجعل الآخر فريسة الظنون السيئة.

210. ما أعجز الإيمان إذا كان بلا مخالب في غابات يعلو فيها زئير الوحوش.

211. الأمل هو ذلك المصباح الذي يضيء دربنا ونحن نعمل، يبشرنا بجدوى ما نعمل، لا ذلك المخدر الذي يغفو على أريكته الكسالى.

212. لعينيكِ رائحتان، واحدةٌ من ورق، وأخرى ببوح الأرض بعد عناق المطر.

213. تدركُ العالم بحجم لغتك، لأن الكون يستدير في ذهنك كوناً لغوياً، فإن كان قاموسك فقيراً، فتفكيرك أفقر.

214. دفترٌ صغيرٌ، يتمتم بكلماتك الصغيرة، ويحفظ ذكريات أصابعك، وبريقَ عينيكِ، هو كل ما أريده لأتمَّ بقية حزني.

215. كل شيء قد يُطلب إلا شعور الآخر بك أو شعورك به، ثمة أشياء لا تصنع، عليك أن تسلم بذلك.

216. هناك من يمرّ وجهك في قلبه مرَّ الطيف في خيال الوسنان، وهناك من

يعكـف عـلى التفكـير بـك، عكـوف العابـد في محرابـه.

217.بعـض الكلـمات تخفـي خلفهـا قلبـاً عملاقـاً أدق مـن ميـزان الذهـب يقتنـص أدنـى اهتـزازات الشـعور.

218.المرأة قد تصدق بكل شيء، إلا بوعيدها بالنسيان.

219.قد تكونين جميلة كخط عربيّ، لكن محتواك محزنٌ جداً.

220.أشدّ النساء خطراً على أمن قلبك، من تذكركَ بأمك.

221.مـا أسـهل الخطأ والخطايا هنا، ومـا أسـهل البطـولات، والادِّعـاءات، مـا دامـت النفـوس شاشـات، والأفعـال كلـمات. هـذا زمـن امتحـان الإرادات والصَّـبر عـن، والصَّـبر عـلى.

222.إن الطب اتصال بالجسد، والأدب اتصال بالروح، ومن يجمعهما فقد اتصل بحقيقة الإنسان الكاملة.

***

النهاية

في هذه النهاية ماذا يمكن أن يقال؟ أهم منجزات عام 2020، أنْ بقيتُ واقفاً على قدميّ وأكملت المشي بلا إهمال لكل ما يحفظ عليَّ عملي وأدائي لمسؤولياتي، بل لعلي حملت مسؤوليات أكثر من ذي قبل.

أما عن طعم الحياة ولونها ورائحتها فلا تسلني؛ إذ لم يعد مهماً أن أحفل برأي الحواس، ما دام في القلب من ألم الحياة ما يجعله يضخّ الدماء فقط؛ كتلة عضلةٍ تؤدي وظيفتها الضرورية لا أكثر.

لكورونا عرض مهم؛ أنه يسلب المريض حاسة الذوق ليصبح الطعام شيئاً من التعذيب، ككومة حجار ثقيلة ينوء بها لسانك بلا معنى. وكذلك هي الحياة، قد تصيبك بكورونا من نوع معنوي يسلبك معاني الأشياء وبهجتها، فتنطفئ روحك، كبيت طيني مهجور، إلا أن حاسة الذوق تعود إن ذهب كورونا، أما كورونا الحياة، فإنه إن أخذ منك شيئاً، فإنه لن يعود، ستبقى في قلبك تلك الندبة الخفية، التي لا يعي حدودها أحد غيرك، ندبة نشأت على رماد ما احترق منه، ندبة أخذت من رصيد عمرك وصحتك حتماً، من نضارة وجهك، من استقامة ظهرك، من شباب ضحكتك، من بريق عينيك الذي أصبح خجلاً خافتاً، تغيم وراءه أشياء كثيرة، كفنها الصمت واللاجدوى، من أملك وتفاؤلك، ولن يستفزك الحديث عن الأحلام، والشغف والمارد الذي نام في داخلك، ما دمت تصارع لتبقى واقفاً، أو لتحفظ ما بقي منك في عصر فرعون وعصر الشتات في التيه؛ الذي انتظم كل تفاصيل حياتك مهما ظننتَ أنك في شيء من شبح أمان في غربتك.

هـذه هـي رحلـة النقـص مـن كل شيء، إنهـا رحلـة الحيـاة ولا شيء غيرهـا، وكل جهدك أن تـداري مـا ينقصـك منك، أن ترشـد حزنـك عليـه، وتقتصـد مـا اسـتطعت، فالطريـق إلى النهايـة لـم ينتـهِ بعـد. 6/ ينايـر/ 2021

فهرس مفصل

فهرس مجمل 7

المقدمة 9

الفصل الأول: روحٌ من أمر الطين 15

هامش على هامش الزمان والمكان 17

أيلول في يوم رحيله 18

طفل ووحل 21

في كل خميس 23

في شهور الخريف 24

حياة من الألوان 26

مثل طيرٍ هدّهُ السفرُ 28

الشاشات التي تشبه الحياة 31

سلام على بيوت الطين حين يهطل المطر 34

في زاوية مهملة من قرية نائية 36

الشعلة الحمراء في الجنوب 37

الشاشة ذات القبة الحمراء في القلوب........ 39

مونامور المطبخ القروي: البريمز........ 41

بين الكاسات والطاسات........ 43

مُسيلمة صغير........ 45

صلاة الفجر بكنزة مقلوبة 47

اعتذار إلى الموز الأصفر ذي اللون الأخضر 49

عايش بكل عيد 51

بين الأقلام والأغنام 52

قصة العَشَرة المؤثرة، منذ الثالثة، حتى الثامنة عشرة........ 54

قد تحمرُّ العيون في البرد عندما يغيب أستاذ العلوم 56

رصيفنا 57

شؤون كبيرة 60

البكالوريا؛ دورة عام 2000........ 61

قمم وقيعان في الأدب والأسنان! 64

شهادة لشهيد........ 65

رحلة بين كوكبين 68
لم يعد يختار في الوحشة نوع الأصدقاءْ 69
رفقاً بالقوارير 72
أماه 75
شاخ الهمُّ 76
كلمات بين القلم والألم 77
أسطوانتان: مصرية وعراقية 79
سلام على مصر الجمال 82
شارع الكتب 83
ذاكرة الياسمين 86
رحلة الأرحام 87
عوز الحنان المكتسب 88
رفيق الدرب 89
دفاتري 90
بين عصرين 91
ستبقى في قلب قلبي ما دمت 92
أريد مزيداً من العمر كي نلتقي 94

مرج أخضر 96

كلمة موجزة على هامش العطاء 97

ميلاد أول 98

ميلادٌ ثانٍ 101

ميلاد ثالث 102

رياض المغتربين 103

هروبٌ شبه يومي إلى الغرب 105

وجع المنازل 106

أحن إلى نفسي 107

لم تنته الرحلة، فماذا لو عاد بك الزمان؟ 108

الفصل الثاني: رسائلُ إلى ماويّة عبر المضيق 111

مجمع اللقاءات 113

رسول أمين 116

نعمة الأمومة 117

أتوسل إلى القلم 118

مدن الأمل 119

كلاهما وطن 119

جدول لؤلؤي 120

فراشته الأثيرة 121
غابة نخلي ساعة القهر 122
ابقي هنا لأكون هنا 123
أبر رسول للحنان 124
أيتها المليكة الندية 126
معيار شعرك 127
الفصل الثالث: معانٍ في الأنوثة 129
أسماء في الأنثى 131
مجمع الجمالين.............................. 131
الأنثى الأدب، والجمال، والحنان 135
الأنثى الهدوء................................ 139
الأنثى الضحى............................... 140
الأنثى العطر 141
الأنثى السكين 143
الأنثى الكاتبة 144
الأنثى الرواية 144
الأنثى المفكرة 145
الأنثى الفاست فوود 146

الأنثى القارعة........................ 146

الأنثى الروبوت 147

الأنثى نؤومُ الضُّحى 149

الأنثى الشاشة/ بطلات الديجيتال 150

رسائل عابرة 152

ثلاث دورات في عالم النفس والمعنى 152

سيدة العطور والطيور........................ 153

نصٌّ لص 159

الكعب الحداثي والكعب التراثي 160

بريدٌ لا يأتي 163

التاثيث بالتانيث........................ 164

رسالة من ورق وحبر........................ 165

نصوص من حوار القيثارة........................ 166

سأنتقم حرفاً........................ 170

فتاة الشاطئ البعيد 171

لن أكتب........................ 173

ولا شيء غير الكتابة! 174

رأيتك في منامي 174

سنة في ليلة 176

حوارٌ بين خياليَن........................ 178

غلاف أسود 181

سلام عليك أيتها الأميرة 182

أحلام وأوهام........................ 183

وجهك 184

أيتها الخفيّة التقيّة 185

انقضى زمن الكروم المورقة 186

ملحمة بابلية 187

مسحة من سكون كي أكون........................ 187

اختر عيونك 188

فبعضُ الأمل جنينُ خيبةٍ مرّة 188

ورأيتها تبكي........................ 189

الذكرى 189

سوف أمضي........................ 190

لغة المطر 191

من أي ثقب تنظرين؟ 191

طينك غير طيني........................ 192

يا سيدتي الفاضلة 192

يتيم في مراجيح الغناء.......................... 193

الفصل الرابع: شواطئ في الأدب والكتابة والكتب 195

على شاطئ الأدب 197

بريد الجمال 197

لا تمرض!... 198

الحرف الفرِح مترف جداً 199

شراكة مشروعة 201

رحم مقطوعة 202

بؤس المعرفة الأدبي 204

الرجل الشرير لا يمكن أن يكون شاعراً عظيماً............ 205

العلماء أبناء عصرهم، لكن الشعراء هم أبناء كل العصور 207

أدب الجسد 209

بين حب وحب وأدب وأدب 211

لغة الغزل جنين بيئتها 212

العرش المادي للمعنى.............................. 215

الخوف من النساء الجميلات بين مجنون ليلى وأبقراط أثينا 216

دراويش ليسوا كدرويش 219

إن كان هذا كلّ ما يبقى فأين هو العزاء؟ 219

عينا حبيبة السياب........ 221

أتعلمين أيُّ حزنٍ يبعث المطر؟ 222

ألا يا بائع الزهر، أعندك زهرة حية؟ 223

طليق الحياتين 225

مالئ الدنيا وشاغل الناس، لا يزال يملؤها ويشغلهم! 228

علم اجتماع الشعر 229

كرسي المتنبي 231

الفيلسوف الشاعر........ 233

وَلَكِنَّ طَرفاً لا أَراكِ بِهِ أَعمى 235

الطَّرَب الحزين، والشنب الذليل 236

شرفة على غَيبَين 238

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحيّ غير رجالها! 240

متلازمة سامع المنبر، وقارئ الترجمات 242

وردتان: مطبوعة ومصنوعة 243

وقفة على أطلالي وأطلال ناجي 245

ساقك إلي قدر وسرقك مني آخر وبين القدرين فقدت قلبي 249

كلمات عن رسائل غسان لغادة: الأنقياء القلائل! 251

كلمات عن رسائل غسان لغادة: المرأة الاستثناء! 253

كلمات عن رسائل غسان لغادة: قوس قزح قرميدي! 255

ما لم يقله غسان لغادة، الرسالة الثالثة عشرة، الأخيرة 258

على شاطئ الكتابة 261

عزاء الكتابة 261

الكتابة داء أو دواء 263

رئة ثالثة 265

انشغلْ بنصي عني ودعك مني 266

قارئ أصم 268

عالمان متشاطئان 269

الكتابة الخالقة والساطرة 270

ضعف بشري لا نفاق 272

تصورات قارئ 272

فلتغفر لي أيها القلم 274

سأظل أكتب 274

على شاطئ الكتب 276

الكتب تجدد حياتك 276

قصة القلم 278

تحية إلى عبد الوهاب المسيري 279

رحمة الله وطن حيث تُفتقد الأوطان 280

دين القلب أم دين الحزب؟ 282

المقامة القرائية العسرة 282

حكمة القراءة 283

قراءات الضياع 285

الفصل الخامس: أدب الليل وثقافته 287

قلوب الضحى والليل إذا سجى 289

حبر ليالٍ كثيرة 290

الليلُ يا أمي 292

سَكَنَ الليلُ 293

اللحن والليل 294

نسمة ليل دمشقية 295

والليل إذا سجى 296

نهار الغريب 296

عيناك ليليّتان جداً 297

غياب الوطن وليالي الغرباء 298

ليل جريح بصمت الشتاء.. 298

هي في هذا الليل.. 299

الفصل السادس: حياةٌ في الأفلام والأغاني 301

على شاطئ الأفلام 303

حسرات الموتى وندمهم.. 303

سارقو الحلم 306

سأخبرك كيف عاش 307

خدعة حياةٍ من مخيال ميتة آملة 308

بين الحلم والفيلم، والوهم والحقيقة........................... 309

الحب أخطر من الكره 311

بين مقدمة السفينة ومقدمة الفيلم، قصة حياة Titanic 313

الضوء والظلام، العراب Godfather 315

عمرك المعرفي من عمرك اللغوي............................... 317

فيلم حليف Allied 318

تقاطعات الأقدار.. 318

مجنون سيمانثا 319

حب الوجود وحزنه........................ 322

ابنتي لا تعرف المستحيل 324

لم يلتقيا بعدها قطُّ 324

صورتان من ندم وألم 326

قد لا تحزنك النهاية بقدر ما يحزنك شكلها 328

ما بين سوق العصر وعصر السوق........................ 330

على شاطئ الغناء 332

مجد الإنسان 332

البر الموسيقي 333

فى الأغنية الكبيرة حقيبة للسفر........................ 335

يا حنة العيد وشهقة النعناع 336

العيون الزرزورية والنخيلية 338

حنانيك أيها اللحن........................ 339

لك الحمد مهما استطال البلاء 340

سكة طويلة 341

حنجرة أخرى........................ 342

عنوان بلا مضمون 343

الجمهور الأنيق 344

عرض خاص على سيارة بورش دون فرامل 345

عندما تغني الأنثى التي في نفس الرجل! 347

الفصل السابع: معانٍ في رحاب التجربة الإنسانية 349

مثلث الحب 351

فلا ظلم بين المتراحمين مهما أخطؤوا 355

الاختلاف في الرأي يفسد للخلق كل القضية! 356

مختلفون لنتعارف 358

النبلاء 359

وهذا كلّ ما في الأمر 362

اعتراف واغتراف 363

جدلية الجسد والروح 365

بوح النوافذ 366

بؤس المعرفة الاجتماعي 367

الإنسان الافتراضي الكهفيّ 368

في رحاب الصداقة 368

رحلة الفقد 371

إنسانيتك بقدر ما تملك من حريتك 372
دموع الظل........................ 373
لغة القميص 374
مدرسة النقص 375
عالة ونذالة........................ 376
القلب المتكوثر والقلب المتصحر 377
ليس في النفس سوءٌ أكبر من أن تجعل الطيبين أشراراً 378
أنصتْ في حضرة الجروح 379
بين علم الأمراض وأمراض القلوب........................ 379
الحقيقة الكاملة 381
حزن يشيّد أركان الحياة 382
ثمالة مشاعر 383
علوم الفرد والمؤسسة 384
رسالة الغفران الجديدة! 384
حلم برقصة التانغو........................ 386
أفياء القبلة 387
ناس استثناء من الناس 388
حاملو حلمٍ وجوّابو فصول........................ 389

يا أنتما، مصباح روحي أنتما 390

نهوض الحضارات وسقوطها 391

بين فناء وبقاء 392

مذكرات عابر 392

موتُ صديقٌ 394

مخاطر على طريق السفر 394

زمن الغربة الكبيرة والبلادة الكبيرة 396

متلازمة السائق التركي النحيف 398

ما أكثر الأقلام والأوهام! 400

مدرسة المرض الاجتماعية 400

نموذج للتعايش السليم، والتاثر الحضاري الإيجابي 402

يجب أن يكرهك بعض الناس! 403

سيئاتُ بعض الآلام حسناتُ أخرى 404

ما ملأ ابن آدم وعاء قط، شراً من قلبه! 404

ليس لك براءة في الزبر إن أصبحتْ شيمتك القهر 405

الرحيل 406

الزواج الوظيفي (التكنوقراطي) 406

مظلمة الفيس بوك 407

ما هو العالم الافتراضي حقاً؟ 408

هموم سنية 410

السباكة هي الكتابة 410

بريد حريتك وكنز حقيقتك 412

نسيت النوم وأحلامه 412

البعيد عن العين، بعيد عن القلب 413

مصباح الطريق 414

حديث البرتقال 415

الطعام وتجديد التحكم بملكة الخيار الإنساني 416

العاطفة الحقة حياة 418

مقابر القلوب 418

حزن الشتاء 419

جيل الثمانينيّات 420

الحب سكن الكرامات إلى بعضها 422

وليمة بين عالمين 423

من وعائهما تعرفهما 426

اللسان المعطر والرائحة الفصيحة 427

من هو الكريم؟ 429

وحوش أنيقة........................ 430

ألقاب وذئاب 430

الحزن في القلب........................ 431

أيقظ الحمار الذي في داخلك!........................ 432

حمار الفلانتاين........................ 433

كم كلبٍ باسط ذراعيه بالوصيد ولكنكم لا تعلمون............ 433

يغص قلبك 435

ثلاثة سلامات 436

يا صاحب اليم والرمل، والمعنى والسفينة........................ 436

احذر الفرعون الذي في داخلك........................ 437

اسير الاحزان واميرة السحاب 438

أكرمْ عتبك........................ 439

للمكان تاريخ، هو تاريخ قلبك........................ 440

القبطان ممنوع!........................ 441

قضاياي الكبيرة 443

كما ربياني صغيراً........................ 445

حديث في البر 446

وكأن وجوده جناية كاملة! 446

صباح الخير أيها الغرباء 447

فيصليات 448

النهاية........................ 491

فهرس مفصل........................ 493